

د. سعيد عبد العظيم

غفر الله له ولوالديه

قصص القرآن عظمتها ومعبر

دار الحقيقة

ضياء سيرة

رقم الإيداع : بدار هيئة الكتاب

٩٨/٧٤١٩

□ حقوق الطبع محفوظة □

○ الطبعة الأولى ○

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

النَّاشِرُ

دار العقيدة للنشر

الأسكندرية: ١٠١ شى الفتىح باكوس ت: ٥٧٤٧٣٢١

القاهرة: ٥ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر ت: ٠١٠٥٠٦٧٦٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستهديه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

ما أعظم أن يحيا الإنسان بإسلامه ولإسلامه ، ويؤثر دينه على الدنيا بمباهجها وزخارفها، سواء كان كبيراً أو صغيراً، رجلاً كان أم امرأة ، وجد في هذا العصر أو في غيره من العصور، بحيث تصبح حياته جهاداً في سبيل الله، وسعياً من أجل إعلاء كلمة الله، ولا يشترط في ذلك أن يُمسك سيفاً يُقاتل به، فصبره وثباته، وأقواله وأفعاله، بل حياته ومماته، كلها دالة على الإيمان ويقين وتصديق بوعد الله، وفي ذلك تثبيت للآخرين، ودعوة لهم لإقامة واجب العبودية، وإيثار ما عند الله كما في قصة أصحاب الكهف، أو هي بمعنى آخر دعوة لإحسان التأسى في إقامة الحق والسعى طلباً لمرضات الله جل وعلا .

والمجاهد المسلم - صغر سنه أو كبر - يعلم أنه ليس وحده، وأنه لا يواجه عدوه بكثرة عدد أو عتاد، وإنما يواجههم بالإيمان الصادق الذي يحمله، وبما يعلمه من تأييد الله للمجاهدين الصادقين، بما ينزله عليهم من السكينة ورباطة الجأش والطمأنينة وبما يمدهم به من الصبر وقوة التحمل وغير ذلك من الوسائل التي قد لاتخيلها عقول البشر فأحياناً ينزل الملائكة تقاتل إلى جانبهم كما حدث في معركة بدر وغيرها، وأحياناً ينصرهم بالريح كما حدث في يوم الأحزاب، قال

تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ٩] .

وقال ﷺ: «نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور» متفق عليه.

وأحياناً بما يجريه الله على أيدي بعض المؤمنين من الكرامات كما جرى لأصحاب الكهف وقد وردت قصتهم العجيبة الغريبة في سورة «سميت سورة الكهف» لما فيها من المعجزة الربانية .

وهذه السورة من السور المكية، وقد اشتملت سورة الكهف على عدة قصص وأمثال بقصد العظة، والاعتبار، وكانت قصة أصحاب الكهف والرقيم هي القصة الأولى في هذه السورة الكريمة، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ولجئوا إلى غار في الجبل ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة وهي تبدأ بالآي التاسعة من السورة: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩] ثم تنتهي عند الآية السادسة والعشرين: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ لِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٢٦] .

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

كتبه

سعيد عبد العظيم

مناسبة القصة

بدأ القرآن هذه القصة باستفهام وإجمال : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴾ {الكهف: ٩}.

أى أحسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، أى ليسوا بعجب من آياتنا، بل فى آياتنا ما هو أعجب من خبرهم، فإن سائر آيات الله أعظم من قصتهم، وهذا قول ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن إسحاق، فخلق السموات والأرض أعجب من خبرهم، وما أطلع الله عليه نبيه من الغيب أعجب من خبرهم، وشأنه فى الإسراء أعجب.

وقد ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس ما خلاصته أن كفار قريش بعثوا النصر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة ليسألوهم عن محمد صلى الله عليه وسلم ويصفوا له صفته، وما يدعوا إليه فإنهم أهل الكتاب وعندهم نبأ الأنبياء، فلما كلموا اليهود فى ذلك أشاروا على كفار قريش بأن يسألوا النبي صلى الله عليه وسلم عن أشياء، قالوا لهم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب، يعنون أهل الكهف، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان من نبؤه - يعنون ذا القرنين -، وسلوه عن الروح، فإن أخبركم بذلك فهو نبي مرسل، فاتبعوه وإلا فهو رجل يقول، فاصنعوا ما بدا لكم.

وسأل كفار قريش الرسول صلى الله عليه وسلم عن الأمور الثلاثة، فقال لهم صلى الله عليه وسلم: «أخبركم غداً» ولم يستثن - لم يقل إن شاء الله - فاستلبت الوحى وشق عليه، ثم جاء جبريل عليه السلام بسورة الكهف وفيها معاتبه فى قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ ﴾ {الكهف: ٢٤}.

وقد رجح ابن جرير والكثيرون أن الفتية كانوا على دين عيسى، ومال ابن كثير إلى غير ذلك فقال: «وقد ذكر أنهم كانوا على دين المسيح عيسى بن مريم فآله أعلم إلى أن قال: والظاهر أنهم كانوا قبل ملة النصرانية بالكلية، فإنهم إن كانوا على دين النصرانية ما اعتنى أحبار اليهود بخبرهم وأمرهم لمباينتهم لهم».

قصة أصحاب الكهف والرقيم

يقول ابن اسحاق : طغى أهل الإنجيل وكثرت فيهم الخطايا حتى عبدوا الأصنام وذبحوا لها وبقي فيهم من هو على دين المسيح متمسكاً بدينه وعبادة الله وحده وكان بالروم ملك يقال له دقيانوس، عبد الأصنام وذبح للطواغيت ، وكان يحمل الناس على ذلك، ويقتل من خالفه، فمر بمدينة أصحاب الكهف، وهي مدينة من الروم يقال لها أفسوس، ولما مر دقيانوس بالمدينة اختفى منه أهل الإيمان فكان يبعث أعوانه ليحضرهم، فيخبرهم بين الشرك والقتل إلى أن استدعى الفتية الذين آمنوا بربهم وزادهم هدي، وطلب منهم أن يشركوا، وأن يذبحوا للطواغيت، فامتنعوا، فهددهم بالقتل، فربط الله على قلوبهم، وثبتهم على التوحيد ثم بدا له فأمهلهم ليراجعوا أنفسهم في مصيرهم .

ثم إن الإمبراطور رحل إلى مدينة أخرى لبعض شأنه، ثم عاد ليطلبهم فلم يجدهم فقد فروا بدينهم من فتنة الشرك واعتزلوا المشركين ، وأووا إلى كهفهم، ومعهم بعض النقود وبعض الطعام، ومعهم رقيمهم (كتابهم المرقوم الذى فيه معتقدهم) وتذكر كتب التفاسير، أنهم دخلوا الكهف ومعهم كلب لهم .

فلما طلبهم الإمبراطور دعوا الله : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠] . وناموا فكانت النومة التاريخية التى صارت مضرب المثل : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١] . وكان باب كهفهم إلى جهة الشمال وذلك من رحمة الله تعالى بهم حتى لا يؤذيهم شروق الشمس ولا غروبها، وقلبهم الله على جنوبهم ذات اليمين وذات الشمال لئلا تبلى أجسامهم : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ ﴾ [الكهف: ١٨] .

وفى ذات الوقت تأكيداً لحياتهم، ثم بعث الله الفتية ليتساءلوا بينهم: كم لبثوا؟ وفى حيرة من أمرهم، قالوا: لبثنا يوماً أو بعض يوم .

وفى تسليم لله، قالوا : ربكم أعلم بما لبثتم : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ

أحداً ﴿الكهف: ١٩﴾. وحذروه: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأ﴾ ﴿الكهف: ٢٠﴾. وخرج المتلطف الحذر، فرأى كل شئ قد تغير في المدينة، ودفع مامعه من النقود إلى رجل يبيع الطعام فتعجب التاجر لأن هذه العملة كانت على عهد دقيانوس وقد هلك هذا الطاغية المشرك، وبقيت تحمل اسمه، وشاع الخبر في المدينة وماحولها، واجتمع الناس من هنا وهناك ليروا هذه الآية :

﴿وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ ﴿الكهف: ٢١﴾ .

وهكذا تظهر حكمة الله التي خفيت ، وينكشف سر الغيب الذي ادخره الله ليظهر في حينه، لقد بعث أهل الكهف، ليعلم الناس أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها، وكانوا من قبل بين منكر ومصدق، فجاء العثور على أهل الكهف حجة قاطعة وبرهاناً ساطعاً على البعث والحياة الآخرة .

علاقة القصة ببداية السورة ونهايتها

ابتدأت سورة الكهف بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والإعتراف له بالعظمة والكبرياء والجلال والكمال فهو سبحانه الذى أنزل على رسوله محمد ﷺ القرآن نعمة عليه وعلى سائر الخلق : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ ﴿الكهف: ١﴾.

ثم وردت الآيات بالندارة للكافرين والبشارة للمؤمنين ، وبين سبحانه أن الكافرين - ومنهم الذين نسبوا لله الولد - مالههم بذلك الإفتراء الشنيع شئ من العلم أصلاً: ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ ﴿الكهف: ٥﴾. أى ولا لأسلافهم الذين قلدوهم فتاهوا جميعاً فى بيداء الجهالة والضلالة واستعظمت الآيات تلك المقالة الشنيعة : ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ﴿الكهف: ٥﴾.

ثم توجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ الذى كاد يهلك غمًا وحزنًا على فراق المشركين وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان :

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ ﴿الكهف: ٦﴾.

وختمت المقدمة بتسليية النبي ﷺ : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿الكهف: ٧-٨﴾ .

أى لانتهم يامحمد للدنيا وأهلها فإنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ثم إن يوم القيامة بين أيديهم، فلا يعظمن عليك كفرهم فإنما سنجازيهم، وقد تقدمنا أقوام، منهم من آمن كأصحاب الكهف الذين وحدوا الله، وأثروا ماعنده سبحانه واستعلوا على حكام الدنيا الفانية فكانت عاقبة الإحسان جزاؤهم، وكانت قصتهم دليلاً على البعث والنشور، فارتبطت بذلك قصة أصحاب الكهف ارتباطاً وثيقاً ببداية السورة ولذلك لاجب أن كانت أول قصة بعد هذه الإفتاحية والمقدمة ففيها نوع من التسليية والتثبيت لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام .

وختمت السورة بقصة يأجوج ومأجوج والنفخ فى الصور، وافتراق الخلائق يوم القيامة، فمن كفر بآيات ربه ولقائه حبط عمله وجزاؤه جهنم، ومن آمن بالله وعمل بما يرضيه كانت لهم جنات الفردوس نزلاً وختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ {الكهف: ١١٠} .

أى قل لهم يامحمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمنى الله بالوحى - وقصة أصحاب الكهف التى سألتم عنها من جملة ما أوحاه الله إليّ وقد أمرت أن أخبركم أن الله واحد أحد لا شريك له، فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه فليخلص له بالعبادة، صغيراً كان أم كبيراً، رجلاً كان أم امرأة، فهذا هو سبيل النجاة .

وها أنت ترى الإرتباط الواضح بين قصة أصحاب الكهف ونهاية هذه السورة الكريمة .

أسئلة كثيرة طويت إجابتها

متى وجد هؤلاء الفتية الذين آمنوا بربهم ؟ وأين عاشوا؟ وما أَسْمَاؤُهُمْ؟ وما اسم كلبهم؟ ومالونه؟ وماهى هيئة الكهف وصفة الرقيم ؟ وكم كان سن أصحاب الكهف؟

أسئلة كثيرة طوى عنا القرآن الإجابة عليها عن عمد، لأن معرفة إجابتها لافائدة فيه والسؤال ينبغى أن يترتب عليه عمل للقلب أو الجوارح وإلا كان الإشتغال به اشتغال بما لم يدل عليه دليل شرعي، وقد أغنانا الله عنه، ولم يطلبه منا، لأنه لا هدف من ورائه، ولافائدة ترجى من البحث فيه، وأسماء الأشخاص وتحديد الزمان وتعيين المكان ليست هى الهدف من قصص القرآن، وإنما الهدف إظهار الصراع بين الإيمان والكفر والخير والشر، وعاقبة كل منهما، الأمر الذى يدعوا العباد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات، ويدعوهم إلى الإستقامة على منهج الله واتباع طريق الأنبياء والمرسلين وتلمح ذلك من قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَمِينٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴾ [الكهف: ١٤-١٥].

ثم كان الفرار بدينهم واللجوء إلى الكهف: ﴿ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴾ [الكهف: ٢٠].

والقرآن الكريم لم يسم الذى حاج إبراهيم فى ربه، والذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، ولم يسم ابنى آدم - القاتل والمقتول - ولم يسم ابن نوح ولاأبناء يعقوب، ولاملك مصر ولا امرأة نوح ولوط ولا امرأة فرعون .

وهكذا نجد هذه السمة مطردة فى قصص القرآن، إن أصحاب القصص القرآنى ناس من خلق الله كسبوا خيراً وطاعة وبراً أو اجترحوا إثماً وفسوقاً وعصياناً، وتفصيل ذلك وبيان عواقبه عبرة لأولى الألباب، ماذا كان جزاء الموحدين المؤمنين الصابرين وكيف كان عاقبة الظالمين والكافرين ؟ هذا أهم مايعنى به القصص القرآنى .

هل القصة بطولة يهودية

أم بطولة نصرانية؟

الحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته، وهؤلاء الفتية سواء كانوا هوداً أو نصاري، وُجدوا قبل ذلك أو بعد ذلك، هنا أو هناك، فكل هذا لا يقدم ولا يؤخر شيئاً طالما أن الدرس مستفاد .

والمسلمون من أتباع موسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وغيرهم من الأنبياء والمرسلين صورهم متكررة عبر العصور وكر الدهور:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] .

ونحن نؤمن بجميع الأنبياء والمرسلين وبالكتب المنزلة عليهم قبل التحريف والتغيير ونرد على اليهود والنصارى تغييرهم وتبديلهم وعدم إيمانهم :

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىرُ بْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهَهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهَيْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَأ إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١] .

فهل انتفع اليهود والنصارى بقصة أصحاب الكهف حين قالوا: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٤-١٥] .

وكان أصحاب الكهف كما وصفهم ربنا جل وعلا: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ {الكهف: ١٣}. فلا يصح لهم بعد ذلك أن يصنعوا من القصة بطولة يهودية أو نصرانية، والنبى ﷺ يقول: «والذى نفس محمد بيده لا يسمع بى أحد من هذه الأمة يهودى أو نصرانى ثم لا يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»^(١).

الفرار بالدين سنة ماضية

قال تعالى: ﴿إِذْ أَوْى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ {الكهف: ١٠} الآية، وهى صريحة فى الفرار بالدين وهجرة الأهل والبنين والقربات والأصدقاء والأوطان والأموال خوف الفتنة ومايلقاه الإنسان من المحنة، حتى وإن اضطر الإنسان إلى سكن الجبال ودخول الغيران والعزلة عن الخلق، إنفراداً بالخالق وفراراً من الظالم فهذه سنة الأنبياء صلوات الله عليهم والأولياء، وقد فضل رسول الله ﷺ العزلة، وفضلها جماعة العلماء لاسيما عند ظهور الفتن وفساد الناس، وقد نص الله تعالى عليها فى كتابه فقال: ﴿فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ﴾ {الكهف: ١٦}.

والإعتزال عن الناس قد يكون فى الجبال والشعاب أو فى السواحل والرباط أو فى البيوت، وقد جعلت طائفة من العلماء العزلة اعتزال الشر وأهله بقلبك وعملك إن كنت بين أظهرهم.

وقال ابن المبارك فى تفسير العزلة: أن تكون مع القوم فإذا خاضوا فى ذكر الله فنخض معهم، وإن خاضوا فى غير ذلك فاسكت.

وروى البغوى عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال: «المؤمن الذى يخالط الناس ويصبر على أذاهم أفضل من المؤمن الذى لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم».

وقال عقبة بن عامر لرسول الله ﷺ: «ما النجاة يا رسول الله؟» فقال: «يا عقبة أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك».

وقال ﷺ : «يأتى على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شغف الجبال ومواقع القطر (المطر) يفر بدينه من الفتن»^(١).

وذكر على بن سعد عن عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة عن الحسن يرفعه إلى رسول الله ﷺ قال : «يأتى على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فر بدينه من شاهق إلى شاهق أو حَجْرٍ إلى حَجْرٍ فإذا كان ذلك لم تنل المعيشة إلا بمعصية الله فإذا كان ذلك حلت الغربة» قالوا يارسول الله : كيف تحل الغربة وأنت تأمرنا بالتزوج ؟ قال : «إذا كان ذلك كان فساد الرجل على يدي أبويه فإن لم يكن له أبوان كان هلاكه على يدي زوجته، فإن لم تكن له زوجة كان هلاكه على يدي ولده، فإن لم يكن له ولد كان هلاكه على يدي القرابات والجيران، قالوا : وكيف ذلك يارسول الله ؟ قال يعيرونه بضيق المعيشة ويكلفونه ما لا يطيق فعند ذلك يورد نفسه الموارد التي يهلك فيها» .

هجرة وهجرة

لقد خرج أصحاب الكهف من الدنيا على رحابتها إلى كهف مظلم فراراً بدينهم واعتزالاً للشر وأهله وطلباً للسلامة فكانت هجرتهم محمودة ومشروعة وكذلك فعل الصحابة رضوان الله عليهم فقد هاجروا من مكة إلى الحبشة مرتين ثم هاجروا إلى المدينة تاركين أوطانهم وأرضهم وديارهم وأهاليهم وأولادهم وقراباتهم وإخوانهم رجاء السلامة بالدين والنجاة من فتنة الكافرين .

وأحوال الناس في هذا الباب تختلف، فرب رجل تكون له قوة على سكني الكهوف والغيران في الجبال، وهذا أرفع الأحوال لأنها الحالة التي اختارها الله لنبيه ﷺ في بداية أمره، ونص عليها في كتابه مخبراً عن الفتية فقال : ﴿وَإِذِ اعْتَرَضْتَهُمْ وَمَا يَحْدُوثُونَ إِلَّا اللَّهُ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ﴾ { الكهف : ١٦ } .

ورب رجل تكون العزلة له في بيته أخف عليه وأسهل ، وقد اعتزل رجال من أهل بدر فلزموا بيوتهم بعد قتل عثمان فلم يخرجوا إلا على قبورهم ، ورب رجل متوسط بينهما فيكون له من القوة ما يصبر بها على مخالطة الناس وأذاهم ، فهو معهم في الظاهر ومخالف لهم في الباطن ، كما بين القرطبي - رحمه الله - .

وروى عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يَعَجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَطِئَةِ الْجَبَلِ يُؤْذِنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّيُ فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : انظروا إلى عبدى يؤذن ويقيم الصلاة يخاف منى ، قد غفرت لعبدى وأدخلته الجنة»^(١)

والحاصل أن هجرة الموحدين المضطهدين بدينهم في كل زمان ومكان ليس هروبا ولا تكوص وهزيمة وإنما هو تربص بأمر الله حتى يأتي أمر الله . وقد خرج النبي ﷺ فاراً بدينه بعد أن تمالأ المشركون على قتله وجلس في غار ثور ﷺ هو وأبو بكر قال تعالى : ﴿إِلَّا تَتَصَرَّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ {التوبة: ٤٠} .

الخروج من الواقع السيئ

الأخذ بالأسباب للخروج من الواقع السيئ مطلوب مشروع ولايتنافى ذلك مع التوكل على الله ، فإن النبي ﷺ في هجرته من مكة إلى المدينة ، أعد الراحلتين وترك علياً - رضى الله عنه - مكانه وسلك الطريق الجنوبي للتغريب بالمشركين واستأجر ماهراً خبيراً يدلّه على الطريق ، وكانت أسماء - رضى الله عنها - تأتيهما بالطعام ودخل غار ثور . . . فعل ذلك وهو النبي ﷺ المؤيد من ربه فقد هاجر نبي الله إبراهيم عليه السلام وقال : ﴿إِنِّي مِهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾ {العنكبوت: ٢٦} .

وخرج نبي الله موسى من أرض مصر إلى مدين خائفاً يترقب وذلك بعد قتله للرجل الذى هو من شيعة فرعون وهاجر الصحابة - رضوان الله عليهم - كما بينا ودخل منهم البعض فى جوار المشركين ، وامتنع عمر - رضى الله عنه - من دخول الشام عام الطاعون ، فاعترضه أبو عبيدة - رضى الله عنه - وقال له : يا عمر أفرأراً

(١) أخرجه النسائي .

من قدر الله، فقال له : نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، وعموماً فعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع والإعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد ، ولذلك قالوا: ليكن عملك هنا ونظرك في السماء، وقد فسر البعض التوكل بأنه إغلاق الباب وإطفاء السراج .

وقد روى في كتب التفسير أن أصحاب الكهف خرجوا من يوم عيد يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لئلا يشعر الناس بهم، وركبوا في جملة الناس حتى خلصوا بذلك ودخلوا الكهف .

بين غار وغار

لم يكن كهف أصحاب الرقيم إلا غار في الجبل، وقد كان النبي ﷺ قبل بعثته يدخل غار حراء، يتحنث ويتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يعود إلى أم المؤمنين خديجة - رضی الله عنها - فتزوده لمثلها حتى فجأه الوحي - وهو في الغار - وأتاه جبريل فقال له اقرأ - كما ثبت في الصحيح - ولكن لم يثبت أن النبي ﷺ صعد إلى هذا الغار بعد بعثته للتعبد فيه، بل شرع الاعتكاف في المساجد.

وبالتالي فلا حجة للصوفية في تعبدهم بالخرائب وترك المساجد، بزعم أن النبي ﷺ كان يتعبد في غار حراء، فقد كان ذلك قبل البعثة، ولا يشرع الصعود إلى غار حراء للتبرك به وليس هو من مناسك الحج أو العمرة، إذ لو كان سنة لفعله صحابة النبي ﷺ فهم عن علم وقفوا وبيصر نافذ كفوا ولو كان خيراً لسبقونا إليه .

وقد ذكر أن النبي ﷺ دخل هو وأبو بكر - رضی الله عنه - غار ثور للاختفاء عن أعين المشركين أثناء هجرته الشريفة، ومنه واصل المسيرة إلى المدينة .

بين إفراط وتفریط

رأى بعض الملاحدة والماديين أن تعمير الدنيا لا يتم إلا بالكفر بخالق الأرض والسموات وأنه لا سبيل للتطور والتقدم والتحضر - بزعمهم - إلا بفصل الدين عن الدولة وأطلق مقولتهم : «دع مالقيصر لقيصر ومالله لله» وتعلقت قلوب الغرب والشرق بالأسباب في جلب النفع ودفع الضر مع الكفر بخالق الأسباب .

وعلى العكس والنقيض، فقد رأى بعض المنتسبين للإسلام، أن حياة الإيمان وإظهار الإسلام لا يتم إلا بدخول الخرائب وترك الأخذ بالأسباب، فكان الناس بذلك بين إفراط وتفريط وغلو وجفو وإسراف وتقصير، وإلا فما المانع من إقامة حضارة على منهاج النبوة، وتعمير الدنيا بطاعة الله، وقد اتفق العلماء على أن الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ {البقرة: ٣٠}.

والصناعة والزراعة والهندسة والطب... كلها من فروض الكفايات التي يُتقرب لله بإقامتها وفي الحديث: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليغرسها فإن له بذلك أجر...». فلا تعارض بين حياة الإيمان والتطور والتقدم والحضارة الحقيقية هي التي تقوم على أساس العبودية لله جل وعلا.

وفي قصة أصحاب الكهف دلالة واضحة على الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله، فهم فروا بدينهم ودخلوا الغار وأخذوا معهم بعض المال وأوفدوا أحدهم لشراء طعام وتضرعوا إلى الله عزوجل وأنابوا إليه.

أنتم مثل أصحاب الكهف !!!

قصة أصحاب الكهف أصبحت مثلاً سائراً يطلق أحياناً على محمل التنقص، حين يقولون أنتم مثل أصحاب الكهف !!! ويقصدون بذلك جمودنا وتأخرنا وطول نومنا في عصر التقدم والتحضر والتمدين، وهذا المثل إن دل على شيء فإنما يدل على عدم فهم صاحبه لمعاني الخيرية الحقة، وما انطوت عليه هذه القصة من بذل وتضحية في سبيل الإيمان والعقيدة، بل ومدى انبهار الناس بهذا الزيف والخداع الذي يطلق عليه اسم الحضارة، فلا بورك في دنيا تأتي على حساب الدين، ولا يليق بعاقل أن يبيع دينه بدنيا غيره أو بزخرف وزينة لابقاء لها ولا وفاء.

فلا ديننا يبقى ولا مانرقيه

نرفع دنيانا بتمزيق ديننا

وجاد بدنياه لما يوقع

فطوبى لعبد أثر الله ربه

إن الدنيا لاتصلح عوضاً عن معنى من معاني الآخرة وقد قال مؤمن آل فرعون لقومه : ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾ {غافر: ٣٩} .

ونحن لانقبل التطور الذي يأتي على حساب التفريط فى الأخلاق الإيمانية والسنن النبوية : ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنُ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ {الإسراء : ٩} .

أى للتى هى أسد وأعدل فى كل ناحية من نواحي الحياة، فإطلاق اللحية وتقصير ثوب الرجل وجلباب المرأة مشروع ومطلوب فى القرن الأول وفى القرن العشرين، والصلاة والصيام وإظهار شعائر الإيمان والحديث بلغة القرآن . . . أمر لايقبل التغيير ولا التبديل وإن ركبنا الطائفة والصاروخ :

﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقُّاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى ﴾ {يونس : ١٥} .

فالعبادات تؤخذ دون زيادة أو نقصان - أى من الأصل فيها التوقيف - أما المعاملات فالأصل فيها الإباحة إذا ماروعيت ضوابطها الكلية، فلا حرج فى بناء المستشفى والمدرسة والملجأ، ولا بأس بصنع السيارة والطائرة وغيرها من الوسائل العصرية ، وهى لما استخدمت له، فإن استخدمت فى أمر صالح فهى صالحة وإن استخدمت فى أمر فاسد فهى فاسدة، وكل ذلك مع استمسكانا بكتاب الله ويسنة رسوله ﷺ ، قال تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ {الأنفال : ٦٠} .

وفى الحديث : «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف» وهذا هو معنى قولنا عن سمات الدعوة أنها تقبل التطور لا الرجوع للوراء، أى التطور فيما يقبل التطور، فلا جمود على الوسائل الأولى، أما معانى العقيدة والشريعة فلا تقبل الإختراع ولا الإبتداع.

وخلاصة القول : أن الدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، فليكن عملك هنا وحساباتك حسابات أخروية، وتذكر قول ربك : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴾ {٤٤} فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين ﴿ {الأنعام: ٤٤-٤٥} .

فتية ولكن

عرفوا الباب الذي منه يدخلون

لما فر أصحاب الكهف ممن يطلبهم اشتغلوا بالدعاء ولجئوا إلى الله تعالى فقالوا : ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً﴾ أى مغفرة ورزقاً، ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ {الكهف: ١٠} . أى توفيقاً للرشاد .

وقال بن عباس - رضى الله عنه - : مخرجاً من الغار فى سلامة، وقيل : صواباً، ومن هذا المعنى أن النبى ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة، فالعبد لا ينال ما عند الله من خير وعز وتمكين إلا بطاعته لله، وقد كان عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - يقول لسعد بن وهيب - خال النبى وصاحبه - ياسعد ليس بينكم وبين الله نسب، أنتم عباده وهو ربكم تتلون ما عنده بطاعته، وقد علم الفتية - على حداثة سنهم - كيف يستمطرون الرحمة ويستدفعون النعمة، فدعوا الله عندما خرجوا وقالوا : ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ {الكهف: ١٠} .
والدعاء هو العبادة : ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ {غافر: ٦٠} .

وكان عمر - رضى الله عنه - يقول : «إنى لا أحمل هم الإجابة ولكن أحمل هم الدعاء، وذلك لأن العبد إذا ألهم الدعاء فإن الإجابة معه» .

فالله قريب ممن دعاه : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ {البقرة: ١٨٦}

وهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر .

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ {النمل}

فإذا كان سبحانه يجيب دعاء المضطرين، حتى ولو كانوا كافرين، فكيف يكون الأمر مع المسلمين .

وقد كان بعض العلماء يقول : لا يمتنع أحدكم من الدعاء لما يعلمه من نفسه، فإن الله أجاب دعاء شر الخلق - أي إبليس - حين قال : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُعْتَوْنَ ﴾ {ص: ٧٩} فقال سبحانه : ﴿ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴾ {ص: ٨٠} .

وقد استجاب سبحانه دعاء هؤلاء الفتية - الذين آمنوا به - فقال سبحانه : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝١١ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ {الكهف: ١١-١٢} .

فلا تبخلن على نفسك بدعوات صالحات، في عسرك وفي يسرك، مع استجماعك لأسباب الإجابة، فهذا من أعظم أسباب قضاء الحاجات وتفريج الكربات، ونيل الطلبات .

واعلم «أن الله حيُّ كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبين»^(١) .

«وأن من لم يسأل الله يفضب عليه»^(٢) .

وقد ورد في الحديث : «لا تعجزوا في الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»^(٣) .

فوائد طبية تتعلق بالقصة

الأولى : تتعلق بقوله تعالى : ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ {الكهف: ١١} .

وهي عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، قال ابن عباس : فضربنا على آذانهم بالنوم، أي سدنا آذانهم عن نفوذ الأصوات إليها، وقال الزجاج : أي منعناهم عن أن يسمعوا، لأن النائم إذا سمع انتبه . وأما تخصيص الأذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحکم نوم إلا من تعطل السمع ولما ذكر لرسول الله ﷺ رجل طويل النوم، لا يقوم الليل وينام حتى الصباح قال : «ذلك رجل بال الشيطان في أذنه» .

(١) رواه الترمذي وأبو داود وابن حبان والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) رواه أحمد والترمذي وابن حبان وصححه الألباني .

(٣) رواه ابن حبان والحاكم وصححه الذهبي .

الثانية : تتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرَاوِرُّ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ﴾ {الكهف} .

أى ترى أيها المخاطب الشمس عند طلوعها تميل عن كهفهم ، وإذا غربت تقرضهم أى يصيبهم يسير منها ، فكان فى مسها لهم بالعشى إصلاح لأجسادهم ، والمقصود بيان حفظهم عن تطرق البلاء وتغير الأبدان والألوان إليهم والتأذى بحر أو برد .

قال ابن عباس : كانوا لاتصيهم الشمس البتة كرامة لهم ، يعنى أن الشمس إذا طلعت مالت عن كهفهم ذات اليمين ، - أى يمين الكهف - ، وإذا غربت تمر بهم ذات الشمال - أى شمال الكهف - ، فلاتصيبهم فى ابتداء النهار ولافى آخر النهار ، فكانت الشمس تميل عنهم طالعة وغارية وجارية لاتبلغهم لتؤذيهم بحرّها وتغير ألوانهم وتبلى ثيابهم .

الثالثة : تتعلق بقوله تعالى : ﴿ وَنَقَلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ {الكهف} . قال ابن عباس : لثلاث تآكل الأرض لحومهم ، ولذلك من طال رقاده لمرضه ونحوه ، فلا بد من تقلبه من ناحية لأخرى حتى لايتآكل الجسد .

الفارق كبير بين فتية آمنوا وشباب فُنع

ما أشبه أصحاب الكهف بهؤلاء الفتية الذين صاحبوا رسول الله ﷺ كابن عمر وابن عباس وأسامة بن زيد ورافع بن خديج ومعاذ بن جبل وسمرة بن جندب وغيرهم كثير ، فهم على حداثة سنهم - رضوان الله عليهم - كانوا رجالاً : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ {الأحزاب : ٢٣} .

وكلهم حرص على الخير والبذل والفداء واجتناب المحارم واستعمال المكارم ، وهذه هى الفتوة الحقيقية ، ورأسها الإيمان بالله تعالى ، والناظر فى قصة أصحاب الكهف سيجد أنهم كانوا شباباً وأحدائاً ، ولم يمنعهم ذلك من الإيمان والثبات على الحق ، إذ هذه المعانى لاتقتصر على الكبار دون الصغار ولا على الرجال دون النساء ، ولذلك ذكر ربنا جل وعلا أصحاب الكهف فى معرض الثناء والمدح فقال : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ {الكهف : ١٣} .

فما قيمة سن كبير لم يكن زاداً لصاحبه بل كان وبالاً عليه، وما قيمة عمر طويل مع الانحراف عن منهج الله، إن السبق هو سبق الفضل، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، ويؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا فى القراءة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا فى السنة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا فى الهجرة سواء فأكبرهم سناً، وكان عمر بن سلمة يؤم القوم وعمره سبع سنوات لكونه كان قارئاً، ومن السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله شاب نشأ فى طاعة الله . فالكل يجب عليه أن يسلم وجهه لله ويجب علينا رعاية الأبناء وإعانتهم على طاعة الله والحذر كل الحذر من إضاعتهم فى ذلك خيانة للأمانة وإضاعة للأمة .

إن الفارق كبير بين أصحاب الكهف، الذين عناهم سبحانه بقوله: ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف: ١٣]، وبين كثير من شباب اليوم .

شباب قنع لاخير فيهم ويسورك فى الشباب الطامحين

عيب كبير أن يربى شباب الأمة على الرقص والغناء والموسيقى وتعلم فنون الضياع ومتابعة الأدب الرخيص، الذى يطلق عليه اسم الأدب المكشوف - أدب الجنس -! وحفظ النظريات والمذاهب الهدامة - عن ظهر قلب - دون رصيد من معرفة الحق، وتقليد من لاخير فيه ولا طريقته من الزعماء والساسة والفنانين والمغنيين .

القصاص الحق

لما اقتضى قوله تعالى : ﴿ لَنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴾ [الكهف: ١٢]، اختلافا وقع فى أمد الفتية ومدة لبثهم ومكثهم فى الكهف، عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم بالحق الذى وقع فقال سبحانه: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف: ١٣] .

وما ذكر فى هذه الآية الكريمة ورد معناه فى مواضع كثيرة من كتاب الله ، فالله تعالى هو الحق : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ ﴾ [الحج: ٦٢] وأرسل رسوله بالحق .

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] .

- ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ ﴾ {فاطر : ٣١} .
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ {النساء : ١٧٠} .
 ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ﴾ {المائدة : ٤٨} .
 ﴿ وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ ﴾ {الرعد : ١} .

وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق

- قال تعالى : ﴿ نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ ﴾ {القصص : ٣} .
 وقال تعالى بشأن أصحاب الكهف : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾

{الكهف : ١٣} .

فالمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزله عن الخيال والتصوير الفنى الذى لا يعنى فيه بالواقع التاريخي، فالقصص القرآني لاخرافات فيه ولا أساطير ولا خزعبلات، بل أنزله الحق بالحق على المبعوث رحمة للعالمين ، ولذلك لا يجد المسلم الحق إلا تصديقه والعمل بمقتضاه تسلياً لنفسه وتثبيتاً للآخرين على طريق الإيمان وترية لأبنائه حتى يحسنوا التأسى بمن تقدمهم فى الإستقامة على معانى الإسلام .

فتية على الدرب يسرون

الحق إذا خالطت بشاشته القلوب وتمكن من النفوس، أبى على صاحبه إلا أن يصدع بما يعتقد ويدين به، حتى وإن كلفه ذلك نفسه وكل ما يملك ، وقد ضرب الأنبياء والمرسلون أروع المثل فى إبلاغ الحق للخلق . وفى الحديث : «سيد الشهداء حمزة ورجل قام إلى إمام فأمره ونهاه فى ذات الله فقتله» .

وهؤلاء الفتية قاموا مقاماً بين يدي الملك الكافر، احتاجوا فيه إلى الربط على القلب حيث خالفوا دينه، ورفضوا فى ذات الله هيبته كما تذكر كتب التفسير، قال تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ﴾ {الكهف : ١٤} .

وقيل إنهم أولاد عظماء تلك المدينة، فخرجوا واجتمعوا وراء تلك المدينة من غير ميعاد فقال أسنهم : إني أجد في نفسي أن ربي ربُّ السموات والأرض، فقالوا ونحن كذلك نجد في أنفسنا، فقاموا جميعاً فقالوا : ﴿ رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ {الكهف: ١٤} .

أو أنهم قالوا ذلك أثناء عزمهم على الهروب إلى الله تعالى ومنايذة الناس .

قال ابن عطية : «تعلقت الصوفية في القيام والقول بقوله تعالى : ﴿ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ ، قلت :

وهذا تعلق غير صحيح! هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته وشكروا لما أولاهم من نعمه ونعمته، ثم هاموا على وجوههم منقطعين إلى ربهم خائفين من قومهم، وهذه سنة الله في الرسل والأنبياء والفضلاء والأولياء . أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام والرقص بالأكمام وخاصة في هذه الأزمان عند سماع الأصوات الحسان من المرد والنسوان، هيهات بينهما والله ما بين السماء والأرض ثم هذا حرام عند جماعة العلماء ونقل القرطبي قول الإمام أبي بكر الطرسوسي وسئل عن مذهب الصوفية فقال : وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامري لما اتخذ لهم عجلًا جسداً له خوار قاموا يرقصون حوالبه ويتواجدون، فهو دين الكفار وعباد العجل أه .

لاحجة لأحد في الكفر بالله تعالى

الحق أبلج وعليه نور، والباطل لجلج يتصادم مع العقل والفترة، ويخالف ماجاء به الأنبياء والمرسلون فمن رحمة الله بعباده أن أودع فيهم فطراً وركب فيهم عقولاً وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ليحيي من حيي عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة، قال تعالى : ﴿ رَسَلْنَا مَبشِرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ {النساء : ١٦٥} .

وقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ {فاطر : ٢٤} .

وتوحيد الله هو أعظم قضية في الوجود، وأهم مسألة دعا إليها الأنبياء والمرسلون : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

وما من نبي إلا وقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾

{الأعراف: ٦٥} .

فلا حجة لأحد بعد ذلك في الكفر بالله تعالى، ولا يقبل ممن قامت عليه الحجة الرسالية أن يتخذ آلهة مع الله، أو أن يصرف العبادة لغير الله وهذه حقيقة استقرت في نفوس أصحاب الكهف على حداثة سنهم، ولذلك قالوا : ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَنْ يَطْمَئِنُّوا وَكَانُوا مُتَّبِعِينَ ﴾ [الكهف: ١٥] .

أى قال بعضهم لبعض : هؤلاء قومنا، أى أهل عصرنا وبلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة، فهلا أقاموا بينة على الأصنام فى كونها آلهة، وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يلتفت إلى دعواهم، وأنى لهؤلاء القوم أولغيرهم ، أن يكون عندهم أثارة من علم تدعم شركهم أو تثبت كفرهم، قال تعالى : ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] .

أى لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التى لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لارب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذى يدعوكم الرسول إليه من توحيد هو الحق الذى لا شك فيه، وقال قتادة ومجاهد : أنداداً : أكفاء من الرجال تطيعونهم فى معصية الله .

وقال ابن زيد : الأنداد، هى الآلهة التى جعلوا لها مثل ما جعلوا له . وعن ابن عباس : أشباهاً .

وقال مجاهد : ﴿ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٢] أى تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والإنجيل، وفى الحديث : «إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل بهن، وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطئ

بها، فقال له عيسى عليه السلام : إن الله أمرك بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمّر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن ، وإما أن أبلغهن ، فقال: يا أختي إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بي، قال : فجمع يحيى بن زكريا بنى اسرائيل فى بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن، أولاهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً...»^(١).

إن التوحيد أهم قضية فى الوجود، وأعظم مسألة ينبغى على العباد أن يستفرغوا الوسع فى تحقيقها، فحق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً .

ماخاب من أوقع حاجته بالله

على العبد أن يستشعر ضعفه وفقرة وعجزه بين يدي ربه سبحانه ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥] فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا يخيب ولا يضيع من أوقع حاجته بالله وتوكل عليه وأتاب إليه، وأخلص العبودية له سبحانه ، وهذا المعنى تلمسه فى مواضع كثيرة من قصة أصحاب الكهف، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا ﴾ [الكهف: ١٤] .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقًا ﴾ [الكهف: ١٦] .

أى قال بعضهم لبعض : إذا فارقتنا الكفار وانفردنا بالله تعالى فلنجعل الكهف مأوى ونتكل على الله، فإنه سييسط لنا رحمته وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً . وهذا كله دعاء بحسب الدنيا وعلى ثقة كانوا من الله فى أمر آخرتهم .

(١) رواه أحمد والترمذي وابن حبان والحاكم وصححه الألباني.

ماخاب ولاشقى من أوقع حاجته بالله، وعلق قلبه به سبحانه، فإن نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه - لما أضرموا له النيران سبع ليال ليقدفوه فيها - أتاه جبريل فقال: ألك حاجة، قال: أملك فلا وأما إلى الله فحسبى الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً على إبراهيم، وكان هو أمة صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

وهذا هو فعل الله بأوليائه عندما تكون قلوبهم موصولة بالله، وإلا فجبريل بمقدوره أن يطفى النار بطرف جناحه، ولكن أنى لأمثال نبي الله إبراهيم أن يعلق قلبه بالمخلوقات فى جلب النفع ودفع الضر.

وكذلك نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه لما أدركه فرعون بجنوده بغياً وعدواً، قالت له بنو إسرائيل إنا لمدركون، فقال: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢].

وهذه لغة الواثق فى معية الله له، وإطمئنانه إلى وعد الله الذى لا يتخلف عن عباده المؤمنين، لقد كانت هلكة محققة بالحسابات المادية فالعدو ورائه والبحر أمامه، ولكن هذا لم يفت فى عضد نبي الله موسى، وماكاد يفرغ من قوله حتى أمر: ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣].

وأنجى ربنا موسى ومن آمن معه، وأغرق فرعون ومن تبعه، فكانت آية بينة دالة على عظيم قدرة الله، وأنه سبحانه بمنه وكرمه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

وكذلك نبي الله أيوب - صلوات الله وسلامه عليه - أصابه بلاء شديد وكراب عظيم، فرفع حاجته إلى الله وتضرع إليه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٢) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرِّهِ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَاهُ لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣-٨٤].

ما أحوجه الله تعالى لمخلوق، بل قيل له: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]. فالفرج سيأتى من تحت قدمه، وشيبه بهذا ما حدث مع نبي

الله إسماعيل - صلوات الله وسلامه عليه - فإن نبي الله إبراهيم عندما تركه هو وأمه هاجر، وقفل راجعاً إلى فلسطين سألته هاجر: أالله أمرك بهذا، قال لها: نعم، قالت له: فإن الله لن يضيعنا، ونفد الماء، فسعت سعى المجهود بين الصفا والمروة، وفي السابعة، رأت جبريل يضرب بطرف جناحه عند قدم نبي الله إسماعيل، فنبعت زمزم، لتكون آية بينة على أن الله لا يضيع أهله، الذين آمنوا به وتوكلوا عليه وأنابوا إليه: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢: ٣]. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْراً﴾ [الطلاق: ٤].

كلب أحب قوماً فصار له شأن وذكر

لما خرج الفتية فارين بدينهم، تبعهم الكلب قال ابن عباس: هربوا ليلاً، وكانوا سبعة فمروا براع معه كلب فاتبعهم على دينهم.

وقال كعب: مروا بكلب فنبح لهم فطردوه فعاد فطردوه مراراً، فقام الكلب على رجله ورفع يديه إلى السماء كهيئة الداعي، فنطق فقال: لاتخافوا مني! أنا أحب أحب الله تعالي، فناموا حتى أحرسكم.

وهذا الذى قاله كعب، من جملة الإسرائيليات، وإن كان لايبعد، فالله قادر على كل شئ وقد وردت الأخبار الصحيحة تدل على نطق الجماد والحيوان .

وقد ورد ذكر الكلب فى هذه القصة ، وهذا أمر له دلالته، قال ابن عطية : وحدثنى أبى رضى الله عنه قال: سمعت أبا الفضل الجوهري فى جامع مصر يقول على المنبر سنة تسع وستين وأربعمائة : إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كلب أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله فى محكم تنزيله .

قال القرطبي : قلت : إذا كان بعض الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء حتى أخبر الله تعالى بذلك فى كتابه جل وعلا فما ظنك بالمؤمنين الموحدين المخالطين المحبين للأولياء والصالحين ! بل فى هذا تسلية وأنس للمؤمنين المقصرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ وآله خيراً.

روى فى الصحيح عن أنس بن مالك قال : «بينا أنا ورسول الله ﷺ خارجان من المسجد فلقينا رجل عند سُدّة المسجد فقال: يا رسول الله، متى الساعة؟ قال رسول الله ﷺ: «ما أعددت لها»، قال: فكأن الرجل استكان، ثم قال: يا رسول الله، ما أعددت لها كثير صلاة ولا صيام ولا صدقة، ولكنى أحب الله ورسوله، قال: «فأنت مع من أحببت»، وفى رواية قال أنس بن مالك: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ: «فأنت مع من أحببت» قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

قال القرطبي: قلت: وهذا الذى تمسك به أنس يشمل من المسلمين كل ذى نفس، فكذلك تعلقت أطمانا بذلك وإن كنا مقصرين، ورجونا رحمة الرحمن وإن كنا غير مستأهلين، كلب أحب قوماً فذكره الله معهم! فكيف بنا وعندنا عقد الإيمان وكلمة الإسلام، وحب النبي ﷺ ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

قلت: إذا كان هذا قول أنس رضى الله عنه والقرطبي رحمه الله، فنحن نحب الصالحين ولسنا منهم، وقد وجدنا فى وقت رُفِع فيه العلم وبُسط فيه الجهل، واستحكمت فيه الغربة، وصار القابض على دينه كالقابض على الجمر، وقد علمنا أن المحبة الحقيقية تكمن فى المتابعة الصادقة لدين الله، فإن كان تقصيرنا وتفريطنا واضحاً، فارحم اللهم ضعفنا واجبر كسرنا وارزقنا حبك وحب من أحبك وحب كل عمل يقربنا إلى حبك واجعل حبك أحب إلينا من المال والأهل والماء البارد.

مسائل تتعلق باقتناء الكلاب

(١) لعاب الكلب نجس لورود الأحاديث بذلك فقد ثبت في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبعاً» وثبت أيضاً عندهما وغيرهما من حديث عبد الله بن مغفل ما يقتضى التسبب والتتريب في تطهير الإناء .

(٢) شعر الكلب طاهر لا دليل على نجاسته، بل هو متولد من طاهر كما وضع شيخ الإسلام ابن تيمية .

(٣) ورد في الصحيح عن ابن عمر عن النبي ﷺ قال : «من اقتنى كلباً إلا كلب صيد أو ماشية نقص من أجره كل يوم قيراطان» وروى في الصحيح أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «من اتخذ كلباً إلا كلب ماشية أو صيد أو زرع انتقص من أجره كل يوم قيراط» .

قال الزهري : وذكر لابن عمر قولُ أبي هريرة فقال: يرحم الله أبا هريرة كان صاحب زرع، فقد دلت السنة الثابتة على اقتناء الكلب للصيد أو الزرع والماشية وجعل النقص في أجر من اقتناها على غير ذلك من المنفعة، أما لترويع الكلب المسلمين وتشويشه عليهم بنباحه، أو لمنع دخول الملائكة البيت أو لنجاسته، على ما يراه الشافعي أو لإقحام النهي عن اتخاذ ما لا منفعة فيه والله أعلم .

(٤) قال النبي ﷺ في إحدى الروايات «قيراط» وفي الأخرى «قيراطان» وذلك يحتمل أن يكون في نوعين من الكلاب أحدهما أشد أذى من الآخر كالأسود الذي أمر عليه الصلاة والسلام بقتله، ولم يدخله في الإستثناء حين نهى عن قتلها كما هو منصوص في حديث جابر أخرجه في الصحيح . وقال : «عليكم بالأسود البهيم ذى النقطين فإنه شيطان» ويحتمل أن يكون ذلك لاختلاف المواضع فيكون ممسكه بالمدينة مثلاً أو بمكة ينقص قيراطان وبغيرها قيراط . وأما المباح اتخاذه فلا ينقص كالفرس والهرة والله أعلم .

(٥) كلب الماشية المباح اتخاذها عند مالك هو الذى يسرح معها، لا الذى يحفظها فى الدار من السراق . و كلب الزرع هو الذى يحفظها من الوحوش بالليل أو بالنهار لامن السراق وقد أجاز غير مالك اتخاذها لسراق الماشية والزرع .

(٦) وروى فى الحديث: « أن الكلب الأسود يقطع الصلاة »، وقال ﷺ: « الكلب الأسود شيطان » وذهب على وعثمان وابن المسيب والشعبي ومالك والشافعي وسفيان الثوري والأحناف إلى أن الصلاة لا يقطعها شئ لحديث أبي داود عن أبي الوداك قال : مر شاب من قریش بين يدي أبي سعيد وهو يصلى فدفعه ثم عاد فدفعه ثم عاد فدفعه ثلاث مرات فلما انصرف قال : إن الصلاة لا يقطعها شئ ولكن قال الرسول ﷺ : « ادروا ما استطعتم فإنه شيطان » .

(٧) ورد النهى عن ثمن الكلب، فإذا احتاج الإنسان كلب صيد أو ماشية ولم يجد إلا كلباً يباع فيبقى أن يقال : إن حل البيع يتبع حل الإنتفاع .

(٨) إذا صال الكلب على نفسه أو المال ولم يندفع عن ذلك إلا بالقتل جاز قتله وحكمه حيثند حكم دفع الصائل .

(٩) إذا أراد الإنسان أن يتخلص من كلاب البيوت فلا داعى لقتله، ومن الممكن إرساله إلى مكان بعيد بحيث يصعب عليه الرجوع إلى البيت، وبحيث تحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة .

(١٠) دخلت امرأة النار فى هرة حبستها لاهى أطعمتها إذ حبستها ولاهى تركتها تأكل من خشاش الأرض، وعلى العكس دخلت بغى من بغايا بنى إسرائيل الجنة فى كلب سقته، فشكر الله لها صنيعها، والراحمون يرحمهم الرحمن .

القصة برهان على البعث

ما أكثر البراهين الدالة في النفس والكون على عظيم قدرة الله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، فهو القادر سبحانه على إحياء الخلق وإماتتهم ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [لقمان: ٢٨]، ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ [الروم: ١٩] يحيى الأرض الميتة بوابل السماء، وجعل خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس.

وفى كل شئ له آية تدل على أنه الواحد

قال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف: ١٩] أى كما ضربنا على آذانهم وزدناهم هدى وقلبناهم بعثناهم أيضاً، أى أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيتهم فى ثيابهم وأحوالهم، فلما رأوا ذلك: ﴿قَالُوا لَبِئْسَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩] وذلك أنهم دخلوه غدوة وبعثهم الله فى آخر النهار، وكانوا قد مكثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

إن النوم هو الموتة الصغرى، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢].

والقصة فى هذا الصدد ليست وحدها فى القرآن، فهناك براهين عملية تشاركها مع الفارق بين الموتة الكبرى والموتة الصغرى، فعيسى عليه السلام أحيا الموتى بإذن الله ﴿وَأَحْيَى الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩].

وقتيل بنى إسرائيل ضرب ببعض البقرة فأحياه الله: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٧٣].

وصاحب القرية أمانه الله مائة عام ثم بعثه: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

[البقرة: ٢٥٩].

وإبراهيم عليه السلام، أراه الله كيفية إحياء الموتى فقطع الطير وفرقهن ودعاهن فأتينه سعياً : ﴿ قَالَ أَوْلَمْ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعِيًّا ﴾

{البقرة : ٢٦٠}

فالله على كل شيء قدير، وكل شيء عليه هين يسير فأتىسبوا إلى ربكم وأسلموا وجوهكم له واحرصوا على طاعته والإستقامة على أمره من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، يومئذ يصدعون، من كفر فعليه كفره، ومن آمن وعمل صالحاً فلا أنفسهم يهدون.

مسائل تتعلق بالوكالة

(١) الوكالة معناها التفويض، فتقول «وكلت أمري إلى الله» أى فوضته إليه، وتطلق على الحفظ ومنه قول الله سبحانه : ﴿ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾

{آل عمران : ١٧٣}.

(٢) شرع الإسلام الوكالة للحاجة إليها، فليس كل إنسان قادراً على مباشرة أموره بنفسه فيحتاج إلى توكيل غيره ليقوم بها بالنيابة عنه، قال تعالى عن أصحاب الكهف : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَا لَهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ {الكهف: ١٩} . وذكر سبحانه عن يوسف أنه قال للملك : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ {يوسف: ٥٥}.

وقال تعالى فى الزكاة: ﴿ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ {التوبة: ٦٠} وقوله: ﴿ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا ﴾ {يوسف: ٩٣}.

وقد جاءت أحاديث كثيرة تفيد جواز الوكالة، منها أنه صلى الله عليه وسلم وكل أباً رافعاً ورجلاً من الأنصار فزوجاه ميمونة رضى الله عنها. وثبت عنه صلى الله عليه وسلم التوكيل فى

قضاء الدين والتوكيل في إثبات الحدود واستيفائها، والتوكيل في القيام على بدنه وتقسيم جلالها وجلودها.

روى جابر بن عبد الله قال: أردت الخروج إلى خيبر فأتيت رسول الله ﷺ فقلت له: إني أردت الخروج إلى خيبر، فقال: «إذا أتيت وكيلي فخذ منه خمسة عشر وسقاً فإن ابتغى منك آية فضع يدك على ترقوته»^(١).

(٣) الوكالة معروفة في الجاهلية والإسلام، فقد وكل عبد الرحمن بن عوف أمية بن خلف بأهله وحاشيته بمكة، أي يحفظهم، وأمية مشرك والتزم عبد الرحمن لأمية من حفظ حاشيته بالمدينة، مثل ذلك مجازاة لصنعه، روى البخاري عن عبد الرحمن بن عوف قال: كاتبت أمية بن خلف كتاباً بأن يحفظني في صاغيتي^(٢) بمكة وأحفظه في صاغيته بالمدينة... الحديث.

(٤) أجمع المسلمون على جواز الوكالة، بل على استحبابها لأنها نوع من التعاون على البر والتقوي، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالتَّعَدُّانِ﴾ [المائدة: ٢].

وقال ﷺ: «والله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه» وقد حكى القرطبي وصاحب البحر وغيرهما الإجماع على كونها مشروعة، فلا خلاف فيها من الجملة.

(٥) الوكالة جائزة في كل حق تجوز النيابة فيه، فلو وكل الغاصب لم يجز، لأن كل محرم فعله لا تجوز النيابة فيه، ولا وكالة في الصلاة والطهارة وماشابه ذلك ولا أن تكون معونة لأهل الباطل.

(٦) الوكالة عقد من العقود فلا تصح إلا باستيفاء أركانها من الإيجاب والقبول، ولا يشترط فيهما لفظ معين، بل تصح بكل ما يدل عليهما من القول أو الفعل، ولكل واحد من المتعاقدين أن يرجع في الوكالة ويفسخ العقد في أي حال لأنها من العقود الجائزة أي غير اللازمة.

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) صياغة الرجل الذين يميلون إليه ويأتونه.

(٧) الوكيل أمين، فمتى تمت الوكالة، كان الوكيل أميناً فيما وكل فيه فلا يضمن إلا بالتعدى أو التفريط ويقبل قوله في التلف كغيره من الأمانة .

(٨) قوله تعالى : ﴿ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ ﴾ [الكهف : ١٩] فيه أن الوكالة إنما كانت مع التقية خوف أن يشعر بهم أحد لما كانوا عليه من الخوف على أنفسهم، وجواز توكيل ذوى العذر متفق عليه، فأما من لا عذر له فالجمهور على جوازها، فعن أبي هريرة قال: كان لرجل على النبي ﷺ سن من الإبل فجاء يتقاضاه فقال : «أعطوه» فطلبوا له سنّه فلم يجدوا إلا سنّاً فوقها، فقال : «أعطوه» فقال : أوفيتني أوفى الله لك، قال النبي ﷺ : « إن خيركم أحسنكم قضاء»^(١) فدل هذا الحديث على جواز توكيل الحاضر الصحيح البدن .

(٩) قال ابن خويز منداد : تضمنت هذه الآية جواز الشركة لأن الورق كان لجميعهم وتضمنت جواز الوكالة لأنهم بعثوا من وكلوه بالشراء، وتضمنت جواز أكل الرفقاء وخلطهم طعامهم معاً، وإن كان بعضهم أكثر أكلاً من الآخر أهـ .

ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَارْحَمُواهُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً ﴾ [النور : ٦١] . وثناء النبي ﷺ على رفقة الأشعرين، أنهم إذا أكلوا في الغزو جمعوا أزوادهم في ثوب واحد .

(١٠) على الوكيل أن يصدق وله أن يأخذ أجراً على وكالته، وليس له أن يشتري من نفسه لنفسه على قولي أبي حنيفة والشافعي وأحمد في أظهر روايته، وقال مالك : للوكيل أن يشتري من نفسه لنفسه بزيادة في الثمن .

(١١) تنتهي الوكالة بموت أحد المتعاقدين أو جنونه، وبانتهاء العمل المقصود من الوكالة وبعزل الموكل للوكيل ولو لم يعلم، وبعزل الوكيل نفسه وبخروج الموكل فيه عن ملك الموكل .

(١) رواه البخاري ومسلم واللفظ للبخاري .

هل الاستكراه لم يكن عذراً

من أصحاب الكهف

يقول الإمام الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان» [ج ٤ (ص ٧٢)]، في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]: «أخذ بعض العلماء من هذه الآية الكريمة، أن العذر بالإكراه من خصائص هذه الأمة لأن قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ [الكهف: ٢٠]. ظاهر في إكراههم على ذلك وعدم طواعيتهم يوضح هذا قوله عنهم: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف: ٢٠]، فدل ذلك على أن ذلك الإكراه ليس بعذر، ويشهد لهذا المعنى حديث طارق بن شهاب في الذي دخل النار في ذباب قربه مع الإكراه بالخوف من القتل لأن صاحبه الذي امتنع أن يقرب ولو ذباباً قتلوه، وشهد له أيضاً دليل الخطاب أى مفهوم المخالفة فى قوله: «إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه»، فإنه يفهم من قوله تجاوز لى عن أمتى، أى غير أمته لم يتجاوز لهم عن ذلك .

وهذا الحديث وإن أعله الإمام أحمد وابن أبى حاتم، فقد تلقاه العلماء قديماً وحديثاً بالقبول وله شواهد ثابتة فى القرآن العظيم والسنة الصحيحة، وقد أوضحنا هذه المسألة فى كتاب [دفع إيهام الإضطراب عن آيات الكتاب]، أما هذه الأمة فقد صرح الله تعالى بعذرهم بالإكراه فى قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] والعلم عند الله تعالى» أ.هـ .

والإكراه فى الشرع بمعنى حمل الغير على ما يكره بالوعيد بالقتل أو التهديد بالضرب أو السجن أو إتلاف المال أو الأذى الشديد أو الإيلام القوى ويشترط فيه أن يغلب على ظن المكره إنفاذ ما توعد به المكره، قال عمر: ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته، وقال ابن مسعود: ما من ذى سلطان يريد أن يكلفنى

كلاماً يدرأ عنى سوطاً أو سوطين إلا كنت متكلماً به .

وقال ابن حزم : ولا يعرف له من الصحابة مخالف .

والإكراه يلغى الاختيار ويرفع الإثم والذنب، وقد يكون إكراهاً على الكلام أو على الأفعال إلا أن العزيمة عند الإكراه على الكفر وفي مواطن إظهار الدين أفضل، من بقاء طوابير طويلة تعطى الطغاة ما يريدونه .

وقد أخرج ابن أبي شيبة عن الحسن، وعبد الرزاق في تفسيره عن معمر أن مسيلمة أخذ رجلين فقال لأحدهما: ماتقول في محمد؟ قال: رسول الله، قال: فما تقول في؟ فقال: أنت أيضاً، فخلاه. وقال للآخر: ماتقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول في؟ فقال: أنا أصم . فأعاد عليه ثلاثاً. فأعاد ذلك في جوابه فقتله. فبلغ رسول الله ﷺ خبرهما فقال: «أما الأول فقد أخذ برخصة الله تعالى وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له» .

وهناك مسائل لإستكراه فيها كالقتل قال القرطبي : «أجمع العلماء على أن من أكره على قتل غيره فلا يجوز له الإقدام على قتله ولا انتهاك حرمة بجلده أو غيره ويصبر على البلاء الذى نزل به ولا يحل له أن يفدى نفسه بغيره ويسأل الله العافية فى الدنيا والآخرة» أهـ .

أما لو أكره على شرب الخمر أو أكل الميتة أو الخنزير أو ما يشابه ذلك أو النطق بكلمة الكفر فلا إثم عليه، فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه .

حرم الله على الأرض أن تأكل أجساد بعض الخلق

ورد في الحديث : «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»^(١)

وروى ابن كثير في {البداية والنهاية} عن يونس بن بكير قال : لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عنده مصحف ، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر ، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما قرأ القرآن هذا . فقلت لأبي العالية : ما كان فيه؟ قال : سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد . قلت : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان بالليل دفناه ، وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس فلا ينبشونه ، قلت : فما يرجون منه؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون . قلت : من كنتم تظنون الرجل ؟ قال : رجل يقال له دانيال . قلت : منذ كم وجدتموه ؟ قال : قد مات منذ ثلاثمائة سنة قلت : ماتغير منه شيء ؟ قال : لا إلا شعرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا يبليها الأرض ولا تأكلها السباع .

قال : ابن كثير : وهذا إسناد صحيح إلى أبي العالية .

وقد صح عن النبي ﷺ أن : «الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون»^(٢) .

وروى مسلم عن أبي هريرة في قصة الإسراء : «وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فإذا موسى قائم يصلي . . . وإذا عيسى بن مريم قائم يصلي ، وإذا إبراهيم قائم يصلي» .

وهذه الحياة حياة برزخية لا تقاس على حياتنا الدنيوية ، وهي أتم من حياة الشهداء وقد وجد الغلام المذكور في قصة أصحاب الأخدود زمن عمر بن الخطاب

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه ابن خزيمة وغيره .

(٢) رواه الجماعة عن أنس .

رضى الله عنه ويده على صدغه على النحو الذى مات عليه كلما أزالوا اليد انبثق الدم من جرحه، ووجد بعض شهداء أحد - بعد أكثر من عشرين سنة من دفنهم - على الحال الذى ماتوا عليه، لم يتغير شئ من هيئتهم، وكذلك كان الأمر بالنسبة لأصحاب الكهف، فإن الأرض لم تأكل أجسادهم طيلة هذه المدة، وكان العثور عليهم آية . قال تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ﴾ {الكهف : ٢١}

وقد ذكرت كتب التفسير، أن دقيانوس مات ومضت قرون وملك أهل تلك الدار رجل صالح، فاختلف أهل بلده فى الحشر وبعث الأجساد من القبور فشك ذلك بعض الناس واستبعدوه وقالوا : إنماتحشر الأرواح والجسد تأكله الأرض، وقال بعضهم : تبعث الروح والجسد جميعاً، فكبر ذلك على الملك وبقي حيران لايدرى كيف يتبين أمره لهم، حتى لبس المسوح وقعد على الرماد وتضرع إلى الله تعالى فى حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف، فيقال : إنهم لما بعثوا أحدهم بورقهم إلى المدينة ليأتينهم برزق منها استنكر شخصه، واستنكرت دراهمه لبعث العهد فحمل إلى الملك وكان صالحاً قد آمن وآمن من معه، فلما نظر إليه قال : لعل هذا من الفتية الذين خرجوا على عهد دقيانوس الملك، فقد كنت أدعو الله أن يرينهم، وسأل الفتى فأخبره، فسرَّ الملك بذلك، وقال : لعل الله قد بعث لكم آية .

كرامة ظاهرة لأصحاب الكهف

من أصول أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء، ومايجرى الله على أيديهم من خوارق العادات إكراماً لهم لصلاحهم وقوة إيمانهم، ومن ذلك ماجرى لأصحاب الكهف حيث ضرب الله على آذانهم فى الكهف ثلاثمائة سنة وازدادوا تسعاً، وحفظ أجسادهم تلك بالدهور المتطاولة . والكرامة الرحمانية ضابطها الإستقامة ، والا فقد تكون خارقة شيطانية، قال تعالى : ﴿ هَلْ أَنْبَعُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يَلْقَوْنَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴾

وكان الليث بن سعد - فقيه مصر - يقول: إذا رأيت الرجل يمشى على الماء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة، فلما سمع ذلك الشافعى - رحمه الله - قال: قصر والله الليث، بل لو رأيت يطيّر في الهواء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة. والإستقامة هي أعظم كرامة، ولذلك لما قيل لعبد القادر الجيلاني: أرنا من نفسك كرامة، صعد على المنبر وقال: منذ كم وأنا فيكم، فقالوا: منذ عشرين سنة، فقال: هل رأيتم عليّ معصية، هل جربتم عليّ مخالفة، فإن الإستقامة هي أعظم كرامة، والإستقامة ثابتة لأصحاب الكهف على حداثة سنهم فلا يجوز لنبي أو ولي أن يخالف أمر ربه، وقد ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد منهم فعمر منهم»، وفي لفظ في الصحيح: «إن في هذه الأمة محدثين وإن منهم عمر».

وحدّث: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله» أخرجه الترمذى وحسنه، ثم عمر - رضى الله عنه - مع كونه من المحدّثين - بالنص - كان يشاور الصحابة ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعونه، ويحتج عليهم بالكتاب والسنة ويرجعون جميعاً إليهما، وكان إذا عُرِضت عليه المسألة ويقول: أقول فيها، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان، والله منه برئ وكان أبو سليمان الداراني يقول: إنها لتقع في قلبى النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين، الكتاب والسنة.

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر على نفسه الشريعة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ومن أمر على نفسه الهوى قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ {النور: ٥٤}

والكرامة تحدّث للكبير والصغير كما تحدّث للرجل والمرأة، ومن ذلك ما حدّثنا به القرآن الكريم من شأن مريم فقد كان يوجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف.

﴿كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهِمَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

ومما ورد أن أسيد بن حضير وعباد بن بشر تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما حتى ذهب من الليل ساعة، في ليلة شديدة مظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ ينقلبان ويبد كل واحد منهما عصية، فأضأت عصي أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افرقت بهما الطريق أضأت للآخر عصاه، فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله^(١).

وهذا سفينة مولى رسول الله ﷺ أخطأ جيش المسلمين بأرض الروم أو أسر، فانطلق هارباً يلتمس الجيش، فإذا هو بالأسد، فقال : ياأبا الحارث (كنية الأسد) أنا مولى رسول الله ﷺ ، كان من أمرى كيت وكيت، فأقبل الأسد له بصبصة (أى تحريك بالذنب) حتى قام إلى جنبه، كلما سمع صوتاً أهوى إليه ثم أقبل يمشى إلى جنبه حتى بلغ الجيش ثم رجع الأسد.

ومن ذلك أن عمر بن الخطاب بعث جيشاً وأمر عليهم رجلاً يدعى سارية، وبينما عمر يخطب فجعل يصيح : ياسارية الجبل الجبل، فقدم رسول من الجيش، فقال : ياأمير المؤمنين، لقد لقينا عدواً فهزمونا، فإذا بصائح يصيح : يا سارية الجبل، فأسندنا ظهورنا إلى الجبل فهزمهم الله تعالى .

ومن ذلك إجابة الدعاء كما في قصة أصحاب الكهف، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية قصة الذى عنده علم من الكتاب، وإخبار أبى بكر بأن يبطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً وقصة صاحب موسى فى علمه بحال الغلام ، وقصة خالد بن الوليد وأبى مسلم الخولانى

هل بنوا مسجداً على قبر

أصحاب الكهف^(١)

استدل بعض القبورين على بناء المساجد على القبور بقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١] . وذكروا أن الذين قالوا هذا القول كانوا نصارى على ما هو مذكور في كتب التفسير، فيكون اتخاذ المسجد على القبر من شريعتهم، وشريعة من قبلنا شريعة لنا إذا حكاها الله تعالى، ولم يعقبها بما يدل على ردها كما في هذه الآية الكريمة .

وما استدلوا به لا يسلم لهم من وجه فغاية ما في الآية أن جماعة من الناس قالوا : ﴿ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١] . فليس فيها تصريح بأنهم كانوا مؤمنين، وعلى التسليم فليس فيها أنهم كانوا مؤمنين صالحين، مستمسكين بشريعة نبي مرسل .

قال الحافظ ابن رجب في شرح حديث: «لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» وقد دل القرآن على مثل ما دل عليه هذا الحديث، وهو قول الله عز وجل في قصة أصحاب الكهف : ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١] .

فجعل اتخاذ القبور على المساجد من فعل أهل الغلبة على الأمور وذلك يشعر بأن مستنده القهر والغلبة واتباع الهوى وأنه ليس من فعل أهل العلم والفضل المنتصر لما أنزل الله تعالى على رسله من الهدى .

وفي [تحذير الساجد] ص ٥٠ مانصه : «قال الشيخ على بن عروة في [مختصر الكواكب] (١٠/٢٠٧/٢) تبعاً للحافظ ابن كثير في تفسيره (٧٨/٣) : «حكى ابن جرير في القائلين ذلك قولين: أحدهما: أنهم المسلمون منهم. والثاني: أهل الشرك منهم، فالله أعلم» .

(١) راجع كتاب [تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد] للالباني .

والظاهر أن الذين قالوا ذلك هم أصحاب الكلمة والنفوذ، ولكن هل هم محمودون أم لا؟ فيه نظر، لأن النبي ﷺ قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر مافعلوا، وقد روينا عن عمر بن الخطاب أنه لما وجد قبر دانيال في زمانه بالعراق، أمر أن يخفى على الناس، وأن تدفن تلك الرقعة التي وجدها عنده، فيها شيء من الملاحم وغيرها. إذا عرفت هذا فلا يصح الإحتجاج بالآية على وجه من الوجوه.

وقال العلامة المحقق الألوسي في [روح المعاني (٣١٥)]: «واستدل بالآية على جواز البناء على قبور العلماء واتخاذ مسجد عليها، وجواز الصلاة في ذلك! ومن ذكر ذلك الشهاب الخفاجي في حواشيه على البيضاوي، وهو قول باطل عاطل، فاسد كاسد، فقد روى...».

ثم ذكر بعض الأحاديث المتقدمة، وأتبعها بكلام الهيثمي في «الزواجر» مقراً له عليه ثم نقل عنه في كتابه «شرح المنهاج» مانصه: «وقد أفتى جمع بهدم كل مايقرافة معد من الأبنية، حتى قبة الإمام الشافعي عليه الرحمة التي بناها بعض الملوك، وينبغي لكل أحد هدم ذلك ما لم يخش منه مفسدة، فيتعين الرفع للإمام أخذاً من كلام ابن الرفعة في الصلح» أهـ.

وقد يقال: إنما أرادوا اتخاذ مسجد عندهم وقريباً من كهفهم كما في رواية السدي ووهب وقد ورد عن مجاهد أن الملك تركهم في كهفهم وبنى على كهفهم مسجداً فوق الجبل الذي هو فيه، وعن الحسن أنه اتخذ (يعنى المسجد) ليصلى فيه أصحاب الكهف إذا استيقظوا.

قال الألوسي: «وهذا مبنى على أنهم لم يموتوا بل ناموا أولاً وإليه ذهب بعضهم، بل قيل: إنهم لا يموتون حتى يظهر المهدي ويكونوا من أنصاره، ولا معول على ذلك، وهو عندي أشبه شيء بالخرافات».

وكما ترى فإن الآية لاتصلح دليلاً على بناء المساجد على القبور لكثرة المآخذ والإحتمالات ولأن حكاية القول عن الكفار والفجار يكفى في رده عزوه إليهم، فلا يعتبر السكوت عليه إقراراً كما لا يخفى، وقد وردت النصوص الكثيرة بالنهي عن بناء المساجد على القبور.

وشريعة الله حاكمة ومهيمنة على سائر الشرائع، على فرض ورود ذلك في شرع من قبلنا فكيف وهو لم يثبت!!

شبهات مماثلة والرد عليها

(١) أن قبر النبي ﷺ في مسجده

الجواب: نتيجة التوسعات التي تمت في عهد الوليد بن عبد الملك، أدخلت الحجرة التي مات ودفن فيها رسول الله ﷺ (حجرة أم المؤمنين عائشة) داخل المسجد ولم يكن في المدينة يومئذ أحد من الصحابة، وقد ذكر الشيخ الألباني أن التبعة تعود على الوليد حيث تخطى المحذور الذي أشار إليه عمر عندما قام بتوسيع المسجد من الجهات الأخرى ولم يتعرض للحجرة، بل قال: إنه لاسبيل إليها.

ثم محاولة إرجاع الحجرة إلى ماكانت عليه، قد يترتب عليه شر وفسادعظيم وفتن لايعلم مداها إلا الله، ولايجوز منع أحد من الصلاة في مسجد رسول الله ﷺ، حتى لو وجد القبر بداخله، إذ الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ومأموع سداً للذريعة أيبح للمصلحة الراجحة كما يقرر العلماء، وترى لجنة الفتوى بالسعودية أنهم احتاطوا فبنوا جدار من وراء جدار بحيث لايستطيع أحد الصلاة إلى القبر، وطالما أن للمسجد جداره وللمقبرة جدارها، وهناك جدار يفصل بينهما فلاخرج في الصلاة في المسجد كما قال الإمام أحمد - رحمه الله -

(٢) أن النبي ﷺ صلى في مسجد الخيف وقد ورد في الحديث أن فيه قبر

سبعين نبياً!!

الجواب: الحديث المذكور ضعيف والصحيح: «صلى في مسجد الخيف سبعون نبياً». وحتى لو صح فأين هذه المقابر الآن؟ ومن المعلوم أن الشريعة إنما تبنى أحكامها على الظاهر، وبالتالي فلا محذور في الصلاة في مسجد الخيف.

(٣) أن قبر إسماعيل عليه السلام وغيره في الحجر من المسجد الحرام.

الجواب: لم يثبت في حديث مرفوع أن إسماعيل عليه السلام أو غيره من الأنبياء الكرام دفنوا في المسجد الحرام، ولو صح ذلك فأين هي؟

فإن قيل في باطن الأرض، فلا ضرر فالأرض باطنها للسموات وظاهرها للأحياء ﴿وَأَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا (٢٥) أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا﴾ {المرسلات ٢٥ : ٢٦}. ولذلك لا نقصد من دون الله تعالى لكونها غير ظاهرة ولا بارزة، ولا يصح الاستدلال بذلك على جواز اتخاذ المساجد على قبور مرتفعة على وجه الأرض .

(٤) أن أبا جندل بنى مسجداً على قبر أبي بصير رضى الله عنهما.

الجواب : هذه شبهة لاتساوى حكايتها، إذ هذا البناء المذكور لم يثبت من أصله ولو صح لم يجز أن تُرد به الأحاديث الصريحة في تحريم بناء المساجد على القبور، إذ ليس في القصة أن النبي ﷺ اطلع على ذلك وأقره، وعلى فرض أن النبي ﷺ علم بذلك وأقره، فيجب أن يحمل ذلك على أنه قبل التحريم، لأن الأحاديث صريحة في أن النبي ﷺ حرم ذلك في آخر حياته، فلا يجوز أن نترك النص لمتأخر من أجل النص المتقدم - على فرض صحته - عند التعارض، فكيف وهذا البناء لم يثبت.

تحريم بناء المساجد على القبور

والصلاة إليها وعليها

أولاً : بعض النصوص الدالة على ذلك :

(١) قوله تعالى : ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ {الجن : ١٨}. فلا يجتمع في دين الإسلام مسجد وقبر، وقد صار وجود القبر داخل المسجد ذريعة لصرف العبادة للمقبور

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ في مرضه الذي لم يقم منه : «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، قالت : فلولا ذاك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً»^(١).

(٣) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «قاتل الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

(٤) عن عائشة وابن عباس رضی الله عنهم أن رسول الله ﷺ لما حضرته الوفاة جعل يلتقى على وجهه طرف خميصة له ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه وهو يقول : «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ، تقول عائشة : يحذر مثل الذى صنعوا»^(١) .

(٥) عن عائشة رضی الله عنها قالت : لما كان مرض النبي ﷺ تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها : مارية - وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة - فذكرت من حسنها وتصاويرها - قالت :

(فرفع النبي رأسه) وقال : أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح بنو على قبره مسجداً ، ثم صوروا تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله { يوم القيامة }^(٢) .

(٦) عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ :

«اللهم لا تجعل قبري وثناً ، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٣) .

(٧) عن عبد الله بن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إن من شرار الناس من تدركه الساعة وهم أحياء ، ومن يتخذ القبور مساجد»^(٤) .

(٨) عن أمهات المؤمنين أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا : كيف نبني قبر رسول الله ﷺ ؟ أنجعله مسجداً؟ فقال أبو بكر الصديق : سمعت رسول الله ﷺ يقول : لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٥) .

(٩) عن أبي سعيد الخدري : «أن رسول الله ﷺ نهى أن يبنى على القبور ، أو يعقد عليها أو يصلى عليها»^(٦) .

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

(٣) رواه أحمد وغيره بسند صحيح .

(٤) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان وأبو يعلى ، قال ابن تيمية : «وإسناده جيد» .

(٥) رواه ابن زنجويه .

(٦) رواه أبو يعلى وقال الألباني «إسناده صحيح» .

ثانياً : طائفة من أقوال أهل العلم تدل على ماذكرنا

(١) قال الحافظ العراقي: «فلو بنى مسجداً يقصد أن يدفن في بعضه دخل في اللعنة، بل يحرم الدفن في المسجد، وإن شرط أن يدفن فيه لم يصح الشرط لمخالفة وقفه مسجداً» .

(٢) ترجم البخاري «باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور» .

(٣) قال الحافظ ابن حجر في [فتح الباري]: «هذا الحديث رقم (٥) يدل على تحريم بناء المساجد على قبور الصالحين وتصوير صورهم فيها، كما يفعله النصارى، ولا ريب أن كل واحد منهما محرم على انفراده، فتصوير صور الأدميين يحرم، وبناء القبور على المساجد بإنفراده يحرم، كما دلت عليه نصوص أخرى» أهـ

(٤) قال القرطبي في [تفسيره ٣٨/١٠]: «قال علماؤنا: وهذا يحرم على المسلمين أن يتخذوا قبور الأنبياء والعلماء مساجد» .

(٥) قال ابن تيمية في [الإختيارات العلمية] ص ٥٢: «ويحرم الإسراج على القبور، واتخاذ المساجد عليها وبيتها ويتعين إزالتها، ولا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين» .

وسئل رحمه الله: «هل تصح الصلاة في المساجد إذا كان فيه قبر، والناس تجتمع فيه لصلاتي الجماعة والجمعة أم لا؟ وهل يمهد للقبور، أو يعمل عليه حاجز أو حائط؟ فأجاب: الحمد لله، اتفق الأئمة أنه لا يبنى مسجد على قبر لأن النبي ﷺ قال: «إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك». وأنه لا يجوز دفن ميت في مسجد فإن كان المسجد قبل الدفن غير، إما بتسوية القبر وإما بنبشه إن كان جديداً، وإن كان المسجد بُنى بعد القبر، فإما أن يزال المسجد، وإما أن تزال صورة القبر، فالمسجد الذي على القبر لا يصلح فيه فرض ولانقل، فإنه منهي عنه» (١).

(٦) تحت عنوان «إتخاذ المساجد على القبور من الكبائر» قال الشيخ الألباني: «إن كل من يتأمل في تلك الأحاديث الكريمة يظهر له بصورة لاشك فيها أن الإتخاذ المذكور حرام، بل إنه كبيرة من الكبائر، لأن اللعن الوارد فيها، ووصف المخالفين

بأنهم شرار الخلق عند الله تبارك وتعالى لا يمكن أن يكون في حق من يرتكب ما ليس كبيرة كما لا يخفى . . . وقد اتفقت المذاهب الأربعة على تحريم ذلك ومنهم من صرح بأنه كبيرة» (١) .

ما الحكم لو انتفى الافتتان بالمقبور؟

زعم البعض أن المنع من اتخاذ القبور مساجد، كان خشية الإفتتان بالمقبور وقد زال برسوخ الإيمان في النفوس !! .

وهذا الكلام غريب غربة الأوضاع التي نعيشها، ومنحرف كانحرافها عن كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فما زال الناس يحلفون بالأولياء ويستغيثون بقبورهم ويلتمسون المدد منهم . . . فصُرِّفت العبادات لغير الله ووُجد من يُشرع مع الله، وقد حذر النبي ﷺ أمته من اتخاذ المساجد على القبور في آخر حياته، بل في مرض موته فمتى زالت العلة التي ذكرها؟! وفي بعض الأحاديث استمرار الحكم إلى قيام الساعة.

ومن المعلوم أن الصحابة رضی الله عنهم إنما دفنوه في حجرته ﷺ خشية أن يتخذ قبره مسجداً كما تقدم عن عائشة رضی الله عنها، وقد استمر العمل من السلف على هذا الحكم، فعن عبد الله بن شريحيل ابن حسنة قال: رأيت عثمان بن عفان يأمر بتسوية القبور، فقيل له: هذا قبر أم عمرو بنت عثمان! فأمر به فسوى (٢)

وعن أبي الهياج الأسدي قال : قال لى على بن أبى طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لاتدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبر مشرفاً إلا سويته» (٣) .

وعن أبى بردة قال : أوصى أبو موسى حين حضره الموت فقال : إذا انطلقتم بجنائزتي فأسرعوا المشى ولا يتبعني بمجمر، ولا تجعلوا في لحدى شيئاً يحول بيني وبين التراب، ولا تجعلوا على قبري بناء وأشهدكم أنى برئ من كل حالقة، أو

(١) تحذير الساجد ص (٣٣).

(٢) رواه ابن أبي شيبة بسند صحيح .

(٣) رواه مسلم .

سألقة، أو خارقة^(١)، قالوا : أوسمعت فيه شيئاً ؟ قال : نعم، من رسول الله ﷺ» (٢).

وعن أنس : كان يكره أن يبنى مسجد بين القبور، وعن إبراهيم النخعي : أنه كان يكره أن يجعل على القبر مسجداً . ورأى ابن عمر فسطاطاً على قبر عبد الرحمن فقال : «انزعه يا غلام فإنما يظله عمله» .

وعن عمرو بن شرحبيل قال : «لا ترفعوا جدتي - يعني القبر - فإني رأيت المهاجرين يكرهون ذلك» (٣).

إن السلامة لا يعدلها شيء والحيلة لعدم خدش جناب التوحيد متأكدة، وسد الذرائع التي تؤول بالعبادة لمواقعة ما حرم الله مشروعة، وكما هو واضح فإن علة النهي عن اتخاذ القبور مساجد لا تقتصر على الإفتان بالمقبور، بل يضاف إليها أمور أخرى كالتشبه بالنصارى وكالإسراف في صرف المال فيما لافائدة فيه شرعاً وحتى علة الإفتان فهي مازالت باقية لا ينكرها عاقل، والشركيات والكفریات لم تنته، فلن تقوم الساعة وأحد يقول الله الله، ولن تقوم الساعة حتى تضطرب إلیات نساء دوس حول ذی الخلصة، ولن تقوم الساعة حتى تُعبد اللات والعزي .

الدفن في التابوت

صح عن سعد بن أبي وقاص أنه قال في مرضه الذي مات فيه : اتخذوا لي لحد أو انصبوا عليّ اللبن نصباً، كما صنع برسول الله ﷺ .

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال : «اللحد لنا والشق لأهل الكتاب» واللحد هو الشق في الأرض الرخوة .

وروى أن دانيال صلوات الله عليه كان في تابوت من حجر، وقال أبو بكر محمد بن الفضل الحنفي : ينبغي أن يفرش فيه التراب وتطين الطبقة العليا مما يلي الميت، ويجعل اللبن الخفيف على يمين الميت ويساره ليصير بمنزلة اللحد .

(١) الخالقة: هي التي تخلق شعرها عند المصيبة والسألقة: التي ترفع صوتها، والخارقة: التي تخرق ثيابها عند المصيبة.

(٢) أخرجه أحمد وإسناده قوي.

(٣) رواه ابن سعد بسند صحيح.

قال القرطبي : ومن هذا المعنى جعل القطيفة في قبر النبي ﷺ ، فإن المدينة سبخة ، قال شقران : «أنا والله طرحت القطيفة تحت رسول الله ﷺ في القبر» قال الترمذى : حديث شقران حديث حسن غريب .

التركيز في العرض على الأهداف والغايات

إن الغاية من خلق الخلق، هي عبادة الله وحده، وإقامة منهج العبودية لله في أرضه، فلا بد من وضع هذه الغاية نصب الأعين أثناء دراسة حادثة أو حقبة ، ولا يليق بالباحث أن ينفق كل جهده في الوسيلة ويترك الغاية، ولا ينبغي أن نشغل بدقائق التفاصيل في حوادث التاريخ عن العبرة من الحادث، ولا يصح إنفاق الوقت والجهد في البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على البحث بفائدة، فليس هذا من هدف المسلم ولا غايته في الحياة إلا أن يكون البحث في التفاصيل مقصد شرعي ، وهذا مستفاد من قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف : ٢٢] .

فالخلاف حول عدد أصحاب الكهف يستخلص منه أن الناس دائماً يتعلقون بالأمور الجانبية، التي لا فائدة ترجى من وراء معرفتها، ويختلفون في ذلك ثم يخوضون بالجدل فيه بغير علم ، ويتركون المقاصد والأمور المهمة ، وهو أخذ العبرة من وراء سياق القصة ، وإنه ليستوى في أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو أقل أو أكثر، فالعبرة في أمرهم حاصله بالعدد القليل والكثير، لكن إذا وجد علم صحيح، فإنه لا مانع من الأخذ به وإثباته كحادثة تاريخية، وقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يقول : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم لقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [الكهف : ٢٢] . وذلك بعد قوله سبحانه : ﴿ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ﴾ تعقيباً على من قال بغير ذلك .

وكان ابن عباس يقول : أنا من هذا القليل وقوله تعالى : ﴿ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا ﴾ أى لا تجادل في أصحاب الكهف إلا بما أوحينا إليك، وهو رد علم عدتهم إلى الله تعالى ، وقد نهينا عن الجدل بلا علم، كما لا يجوز الجدل

المشكك في الدين، أو الذي يُفضى إلى مفسدة ومضرة أعظم وأببح الجدال بالتي هي أحسن بغية إظهار الحق ودفع الشبهات .

وقد خُتمت الآية بقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ روى أنه ﷺ أراد أن يسأل نصارى نجران عنهم فنهى عن السؤال ، وفى هذا دليل على منع المسلمين من مراجعة أهل الكتاب فى شئ من العلم .

الوقوف مع المعاني الغيبية بحسن الأدب

عاب الله تعالى نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سألوه عن الروح والغيب وذى القرنين: غداً أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثنى فى ذلك، فاحتبس الوحي عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه سورة الكهف مفرجة . وأمر فى قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ﴾ [الكهف] . ، ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عزوجل حتى لا يكون محققاً لحكم الخبر، فإنه إذا قال: لأفعلن ذلك ولم يفعل كان كاذباً ، وإذا قال لأفعلن ذلك إن شاء الله خرج عن أن يكون محققاً للخبر عنه . ومن المعلوم أن معرفة الغيب من صفات الربوبية التى استأثر الله تعالى بها دون سواه، فلا سمي له ولا مضاهى ولا مشارك .

﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴾ [النمل: ٦٥]

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنْ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧] .

﴿ أَعْنَدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴾ [النجم: ٣٥] .

فكل من ادعى معرفة المغيبات كالعراف (اسم للكهان والمنجم والرّمال ونحوهم كالحاذر الذى يدعى علم الغيب، أو يدعى الكشف) ونحوه ممن يتكلم فى معرفة الأمور الغائبة كالدلالة على المسروق ومكان الضالة ونحوها أو المستقبل كمجئ المطر أو رجوع الغائب أو هبوب الرياح ونحو ذلك مما استأثر الله عزوجل بعلمه فلا يعلمه ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا من طريق الوحي .

قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ {الأنعام: ٥٠}، وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ {الأعراف: ١٨٨}.

ولم يعلم الرسول ﷺ مكان راحلته حتى أعلمه الله بذلك وقال في سؤال الخبر إياه فأجابه ﷺ وصدقه الخبر، ثم انصرف فذهب فقال رسول الله ﷺ: «لقد سألتني هذا عن الذي سألتني عنه ومالي علم بشئ منه حتى أتاني الله عزوجل به».

وهي في مسلم وفيه قول عائشة رضي الله عنها لمسروق ومن زعم أن رسول الله ﷺ يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ {النمل: ٦٥}. فليس لنا سؤال العرافين أو تصديقهم ففي الحديث: «من أتى عرافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

وروى مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شئ لم تقبل له صلاة أربعين ليلة» فهذا حكم من سأله مطلقاً، والأولى حكم من سأله وصدقه بما قال. ولما سئل رسول الله ﷺ عن الكهان، قال: «ليسوا بشئ».

واذكر ربك إذا نسيت

أرشد الله تعالى رسوله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شئ ليفعله في المستقبل، أن يرد ذلك إلى مشيئة الله عز وجل علام الغيوب، الذي يعلم ماكان وما يكون ومالم يكن لو كان كيف يكون.

كما ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «قال سليمان بن داود عليهما السلام، لأطوفن الليلة على سبعين امرأة - وفي رواية تسعين امرأة وفي رواية مائة امرأة - تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله فقيل له: وفي رواية قال له الملك - قل إن شاء الله - فلم يقل، فطاف بهن، فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة نصف إنسان، فقال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيده لو قال: إن شاء الله لم يحنث وكان دركاً لحاجته» وفي رواية: «ولقاتلوا في سبيل الله فرساناً أجمعون».

فماذا يقول من نسي الإستثناء - إن شاء الله - ؟ وماذا يفعل من نسي مصالحه؟ .

يقول تعالى: ﴿وَأذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. قيل: معناه إذا نسيت الإستثناء فاستثن عند ذكرك له، قاله أبو العالية والحسن، وحكى عن ابن عباس: أنه إن نسي الإستثناء ثم ذكر ولو بعد سنة لم يحنث إن كان حالفاً، وهو قول مجاهد.

قال القرطبي: فيحمل على تدارك التبرك بالإستثناء للتخلص عن الإثم فأما الإستثناء المفيد حكماً فلا يصح إلا متصلاً .

قال ابن كثير في تفسيره: «ومعنى قول ابن عباس أنه يستثنى ولو بعد سنة أى إذا نسي أن يقول فى حلفه أو فى كلامه - إن شاء الله - وذكر ولو بعد سنة، فالسنة له أن يقول ذلك ليكون آتياً بسنة الإستثناء، وحتى ولو كان بعد الحنث قاله ابن جرير - رحمه الله -: ونص على ذلك لا أن يكون رافعاً لحنث اليمين ومسقطاً للكفارة، وهذا الذى قاله ابن جرير - رحمه الله - هو الصحيح وهو الأليق بحمل كلام ابن عباس عليه والله أعلم» ١. هـ.

ورود عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٣-٢٤]. أن تقول: إن شاء الله .

وروى الطبرانى عنه أيضاً فى قوله: ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف] الاستثناء فاستثن إذا ذكرت، وقال: هى خاصة برسول الله ﷺ وليس لأحد منا أن يستثنى إلا فى صلة من يمينه (بمعنى يقول لأفعلن كذا إن شاء الله فيتصل اليمين بالإستثناء).

قال الحسن: مادام فى مجلس الذكر . وقال السدي: أى كان صلاة نسيها إذا ذكرها (أى فليصلها وقت ذكرها) .

وقيل: استثنى باسمه - سبحانه - لثلاث نسي، وقيل: اذكره تعالى متى نسيت . وقيل: إذا نسيت شيئاً فاذكره يذكركه، وقيل: اذكره إذا نسيت غيره أونسيت نفسك، فذلك حقيقة الذكر .

وقال ابن كثير: ويحتمل فى الآية وجه آخر وهو أن يكون الله تعالى قد أرشد من نسي الشيء فى كلامه إلى ذكر الله تعالى لأن النسيان منشؤه من الشيطان كما قال فتى موسى: ﴿وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ [الكهف: ٦٣].

وذكر الله تعالى يطرد الشيطان فإذا ذهب الشيطان، ذهب النسيان، فذكر الله تعالى سبب الذكر ولهذا قال: ﴿وَأَذْكُر رَبِّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف: ٢٤]. وقوله: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]. أى إذا سئلت عن شئ لا تعلمه فاسأل الله تعالى فيه وتوجه إليه فى أن يوفقك للصواب والرشد فى ذلك، وقيل فى تفسيره غير ذلك والله أعلم أهـ .

وقال القرطبى فى الآية: وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ وهى استفتاح كلام على الأصح، وليست من الإستثناء فى اليمين بشئ، وهى بعد تعم جميع أمته لأنه حكم يتردد فى الناس لكثرة وقوعه، والله الموفق أهـ .

هناك نسيان رُفِعَ فيه الإثم لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: قد فعلت، ولقول النبي ﷺ: «رُفِعَ عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه» كنسيان ركعة فى الصلاة، والأكل والشرب ناسياً أثناء الصلاة، وكمن نسى التسمية فى أول الأكل، ثم ذكره فليقل: بسم الله فى أوله وآخره. وهناك نسيان مذموم، هو نوع من الإعراض عن دين الله، والغفلة عن الله، قال تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٤٤].

فاللهم ذكرنا مانسينا وعلمنا ماينفعنا وانفعنا بما علمتنا .

لماذا قيل:

﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾؟

أخبر الله تعالى عن مدة مكث الفتية فى كهفهم، فقال سبحانه: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةِ سَنِينَ وَأَزْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]. وحكى النقاش مامعناه: أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأيام، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربى ذكرت التسع، إذ المفهوم عنه من السنين القمرية، وهذه الزيادة هى ما بين الحسابين ونحوه ذكر الغرفوي، أى باختلاف سنى الشمس والقمر لأنه يتفاوت فى كل ثلاث وثلاثين وثلث سنة، فيكون فى ثلاثمائة تسع سنين .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن بعض المفسرين زعموا أن هذا القول لبعض أهل الكتاب، لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ [الكهف: ٢٦]. وليس كذلك فإن الله لم يذكر هذا عن أهل الكتاب بل ذكره كلاماً منه تعالى أهـ .

لا عبرة لما ورد في التوراة والإنجيل إذا خالف ما جاء في شرع الله، لأن الله تعهد بحفظ كتابه وسنة نبيه فقال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. والتوراة والإنجيل كلاهما قد بَدُلَ وحُرِفَ وغيرَ، وبالتالي فلا التفات لمن قال: إنهم مكثوا مدة لاتزيد على مائتي سنة، ولأنه لا عصمة له، والواجب رد ماتنازعنا فيه لكتاب الله ولسنة رسول الله ﷺ .

قل الله أعلم

بعد أن أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بمدة مكثهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً أمره الله سبحانه أن يرد العلم إليه: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٦] .

وهذا أدب جميل تأدب به علماء الأمة، فهم يحرصون على تذييل إجابتهم بقولهم: «الله أعلم» .

ويتأكد ذلك إذا سئل الإنسان عما لا يعلم، أن يقول لا أدري أو لا أعلم، إذ القول على الله بغير علم كبيرة من الكبائر، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ﴾ [النحل: ١١٦] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] .

قال بعض السلف: ليتقى أحدكم أن يقول: أحل الله كذا وحرم الله كذا فيقال له: كذبت لم أحل كذا ولم أحرم كذا .

وكان النبي ﷺ ينهى أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على حكم الله وقال: «إنك لاتدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا ولكن أنزلهم على حكمك

وحكم أصحابك ، ففرق عليه السلام بين حكم الله وحكم الأمير المجتهد الذي قد يصيب وقد يخطئ .

وكان الإمام مالك - رحمه الله - يأتيه الرجل من المغرب يسأله فلربما قال له : لأدري ، وسئل عن بضع وأربعين مسألة فأجاب في بضع وثلاثين منها بلا أدري . فنصف العلم لأدري ، ومن تركها أصيبت مقاتله .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وكان السلف الصالح من الصحابة والتابعين يكره التسرع في الفتوى ويود كل واحد منهم أن يكفيه غيره ، فإذا رأى أنها تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة ثم أفتى .

عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال : أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مامنهم من رجل يسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ولا يتحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه . وقال ابن عباس وابن مسعود : إن كان من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون . وقال يحيى بن سعيد : أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً ، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يظن أنه الحق كله .

وعن ابن سيرين قال : قال حذيفة : إنما يفتى الناس أحد ثلاثة من يعلم مانسوخ من القرآن أو أميراً لا يجد بدأ أو أحمق كاذب . قال ابن سيرين : فلست بواحد من هذين ولا أحب أن أكون الثالث .

وعن عطاء قال : أدركت أقواماً إن كان أحدهم يسأل عن الشيء فيتكلم وإنه ليرع حتى كأنه ليس بالذي كان ، وقال بعضهم : والله إن مالكا كان إذا سئل عن مسألة فكأنه بين الجنة والنار ، وذلك لعظم المسؤولية .

فاتق الله ولا تتكلم بغير علم واخشى يوماً لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، وإذا سئلت عما لا تعلم فقل : الله أعلم ، إذ رد العلم إليه أسلم .

الخاتمة

الطاعة سبب كل خير وسعادة، فى الدنيا قبل الآخرة ، فعلى العبد أن يحرص عليهما ، ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطاه لم يكن ليصيبه ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ {التوبة : ٥١} . فالمعصية والكفر لا تطيل عمراً ، ولا تزيد رزقاً ، بل هى وبال على صاحبها فى الدنيا والآخرة ، والمفاجآت الغيبية ، التى تظهر بين حين وآخر، تبرز فى حينها، وفى الوقت الذى يقدره الله عزوجل لحكمة عليا، إن وعد الله حق، وماعلينا إلا أن نؤمن بهذه المواعيد الصادقة بنصر الله المؤمنين وبيعت الأموات ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن نعلم أنه ما آمن أحداً إيماناً أفضل من إيمان بغيب ، وهذا الإيمان لا ينفى الأخذ بالأسباب المعنوية، فقد عاش أصحاب الكهف أحياء، بدون السبب العادى الكونى للحياة وهو الطعام والشراب، ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً، فالأسباب والمسببات بيد الله ، وخالق السبب قادر على تعطيله ، وهو سبحانه الذى قال للنار : كونى برداً وسلاماً على إبراهيم .

فعلى القلوب أن تتعلق بربها وتنب إليه، وتستند إلى الأسباب المعنوية التى رضى الله عنها، تفعل ذلك وهى تأخذ بالأسباب المادية، فلا تعارض بين الإيمان والسعى طلباً للسلامة والنجاة ، وهذه تجارة رابحة، الأخذ بها ثقة فى الله واستعانة بالله، ولا أحد أقوى ولا أغنى ولا أكرم من الله تعالى، لقد نشر الله رحمته على أهل الإيمان فى كهف ضيق ، وهياً لهم من أمره أمناً على دينهم وحياتهم ونجاة مما خافوا والله يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب

العالمين .

وكتبه

سعيد عبد العظيم

١٨ ربيع الأول ١٤١٧هـ

الموافق ٢٤ يوليو ١٩٩٦م

أخي الكريم:

احرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر،
ففيها القدوة في الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر في
الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت
بها فؤاده في طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن في هذه
الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

قصة موسى والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأندود

قصة

صاحب الجنتين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

{آل عمران: ١٠٢}.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

{النساء: ١}.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ {الأحزاب: ٧٠-٧١}.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قصة صاحب الجنتين هي القصة الثانية في سورة الكهف بعد قصة أصحاب الكهف وهم الفتية الذين آمنوا بربهم، ويعقبها قصة آدم وإبليس ثم قصة موسى والخضر، وتأتي قصة ذى القرنين في نهاية السورة.

وقصة صاحب الجنتين تدور حول تصحيح العقيدة، ففيها يقول المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: ﴿ أَكْفَرْتِ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ {الكهف: ٣٧-٣٨}.

ويأتى فى التعقيب عليها قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقَابًا﴾ [الكهف: ٤٣-٤٤] وهى قصة حدثت وتكرر بين حين وآخر، هنا وهناك، على مستوى الفرد والدولة والجماعة، تصور حالة من حالات الغرور والطغيان تحدث عند البعض نتيجة تملك عرض من أعراض الدنيا الفانية، مال أو جاه أو سلطان، مما يجعله ينسى نفسه، وأن المرجع والمآب إلى الله، وقد تدفعه هذه الحالة إلى التناول على المؤمنين وتنقصهم واتهامهم بأنهم لم يحسنوا التعامل مع الدنيا، ولم يفهموها على حقيقتها !!! .

وفى مواجهة هذا الصلف، يعتز المؤمن بإيمانه، فلا ينخدع بظل زائل وزخارف ونقوش سرعان ما تنتهي، لقد وقف المؤمن على أرض صلبة، وعلم من خلقه ولماذا خلقه وإلى أين المصير؟ ولذلك فهو يواجه صاحبه الميطل الذى أعمته الدنيا عن الدين ويقول له: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتِ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحُ مَاؤها غورا فلن تستطيع له طلبًا﴾ [الكهف: ٣٧-٤١] .

إن النعمة تستوجب الشكر لا الجحود والكفر، ومن جهل ذلك اليوم فغداً لا محالة سينجلى وينكشف له الأمر، والخوف كله من أن يضرب الإنسان كف نادم بعد فوات الأوان. فحياتنا قصيرة قصيرة، والكون الذى نعيش فيه محكم ومنظم، يسير وفق أمر الله وقدرته سبحانه .

وعقب القصة يضرب مثلاً للحياة الدنيا وسرعة زوالها: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] .

وتأتى هذه المقابلة بين القيم الزائلة والقيم الباقية: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ [الكهف: ٤٦] .

إن القصة تعرض سنة من سنن الله الماضية في خلقه، وهى سنة التدافع، بين الإيمان والكفر والحق والباطل، وفى ثنايا ذلك تأتى المشاهد المتقابلة، مشهد النماء والإزدهار المتمثل فى الجنتين، إلى مشهد الدمار والبوار، ومشهد البطر والاستكبار المتمثل فى صاحب الجنتين المشرك إلى مشهد الندم بعد فوات الأوان ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

إن سورة الكهف هى إحدى السور المكية، أى أنها نزلت قبل الهجرة، وهى تحمل خصائص وطابع القرآن المكى من حيث التركيز على العقيدة . . وتشببت قلب رسول الله ﷺ وصحابته الكرام رضي الله عنهم فى مواجهتهم لصلف وغرور المشركين، ولذلك فقصة صاحب الجنتين تؤدى هذا الغرض على أكمل وجه، فإن كان الكفار قد افتخروا بأموالهم وأشياءهم على فقراء المسلمين، فهذا من الجهل بمكان وهو لا يوجب الافتخار لاحتمال أن يصير الفقير غنياً والغنى فقيراً، وما الفخر الحقيقى إلا لأهل الإيمان الذين يعلمون الحق ويرحمون الخلق، وبهم قام الإسلام وبه قاموا، أبصروا فى ضوء الكتاب والسنة الغاية التى من أجلها خلُقوا، فنفضوا أيديهم من الوهم والسراب، وتعلقوا بخالق الأرض والسموات، وارتحلوا إلى ربهم متزودين بالصالحات وتشابهوا فى ذلك بمن تقدمهم بإحسان، وذكره سبحانه عظة وعبرة لأولى الألباب .

فاللهم ارزقنا توبة صادقة قبل الممات، وأقلنا من العثرات والزلات، وأسبغ علينا من الرحمات والبركات ما يكون لنا هادياً وسبيلاً إلى الجنات، فأنت ملاذنا وأنت ولينا يا خالق الأرض والسموات .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

قصة صاحب الجنتين في القرآن

وردت هذه القصة في سورة الكهف كحكاية عما جرى بينهما في الدنيا، ثم ذكرت عاقبة كل منهما في الآخرة وذلك في سورة الصافات .

قال تعالى: ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدَهُمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦) قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ إِنْ تَرَى أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلْ عَلَيْهَا حِسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فُتُصِحَّ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطْ بِشِمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِيَّهُ عَلَىٰ مَا أُنْفِقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقَابًا (٤٤) (١) .

وهذه قصة رجلين كانا شريكين في بني إسرائيل، وقد ذكروا أنها تدخل ضمن عموم هذه الآية: ﴿ فَأَقْبِلْ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَأُنْثَكُ لِمَنِ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَأَنْدَأُ مِنْتَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَا لِمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلَعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لِتُردِّينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ (٥٨) إِلاَّ مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينِ (٥٩) إِنْ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿

{الصافات: ٥٠-٦١}

(١) حسبانا: جمع حسبانه وهي الصاعقة. القرين: تطلق علي شيطان الإنس والجن يتعاونان وكل منهما يوسوس سواء الجحيم: وسط الجحيم. لتردين: لتهلكني، المحضرين: أي في العذاب.

القصة كما وردت في كتب التفسير

خلاصة ما ورد أن صاحبين أو أخوين من بنى إسرائيل أو من هذه الأمة كان أحدهما مؤمناً والآخر كافراً، فأنفق المؤمن ماله في طاعة الله، بينما حرص الكافر على تسمير وتنمية ماله، وقد جرت بينهما هذه المحاوراة التي قصها الله علينا في كتابه .

قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] هذا مثل لمن يتعزز بالدنيا ويستنكف عن مجالسة المؤمنين، وهو متصل بقوله: ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ﴾ [الكهف: ٢٨] واختلف في اسم هذين الرجلين وتعيينهما، فقال الكلبي: نزلت في أخوين من أهل مكة مخزوميين، أحدهما مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، زوج أم سلمة قبل النبي ﷺ، والآخر كافر وهو الأسود بن عبد الأسد، وهما الأخوان المذكوران في سورة «الصفات» في قوله: ﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ [الصفات: ٥١] ورث كل واحد منهما أربعة آلاف دينار، فأنفق أحدهما ماله في سبيل الله وطلب من أخيه شيئاً فقال ما قا، ذكره الثعلبي والقشيري. وقيل: نزلت في النبي ﷺ وأهل مكة. وقيل: هو مثل لجميع من آمن بالله وجميع من كفر، وقيل: هو مثل لعينه بن حصن وأصحابه مع سلمان وصهيب وأصحابه، شبههم الله بالرجلين من بنى إسرائيل أخوين أحدهما مؤمن واسمه يهوذا، في قول ابن عباس. وقال مقاتل: اسمه تملیخاً. والآخر كافر واسمه قرطوش. وهما اللذان وصفهما الله تعالى في سورة الصفات. وكذا ذكر محمد بن الحسن المقرئ قال: اسم الخير منهما تملیخاً، والآخر قرطوش، وأنهما كانا شريكين ثم اقتسما المال فصار لكل واحد منهما ثلاثة آلاف دينار، فاشترى المؤمن منهما عبيداً بألف وأعتقهم، وبالألف الثانية ثياباً فكسا العرأة، وبالألف الثالثة طعاماً فأطعم الجوع، وبنى أيضاً مساجد، وفعل خيراً، وأما الآخر فنكح بماله نساء ذوات يسار، واشترى دواب وبقراً فاستتجها فمنت له ثماء مفرطاً، وأتجر بباقيها فربح حتى فاق أهل زمانه غني، وأدركت الأول الحاجة، فأراد أن يستخدم نفسه في جنة يخدمها فقال: لو ذهبت لشريكي وصاحبي فسألته

أن يستخدمنى فى بعض جناته رجوت أن يكون ذلك أصلح بى، فجاءه فلم يكذب
 يصل إليه من غلظ الحجاب، فلما دخل عليه وعرفه وسأله حاجته قال له: ألم
 أكن قاسمتك المال نصفين! فما صنعت بمالك؟ قال: اشتريت به من الله تعالى ما
 هو خير منه وأبقى فقال: أئتك لمن المصدقين، ما أظن الساعة قائمة! وما أراك إلا
 سفيهاً، وما جزاؤك عندى على سفاهتك إلا الحرمان، أو ما ترى ما صنعت أنا
 بمالى حتى آل إلى ما تراه من الثروة وحسن الحال، وذلك أنى كسبت وسفهمت
 أنت، اخرج عني. ثم كان من قصة هذا الغنى ما ذكره الله تعالى فى القرآن من
 الإحاطة بثمره وذهابها أصلاً بما أرسل عليها من السماء من الحسبان. وقد ذكر
 الثعلبى هذه القصة بلفظ آخر، والمعنى متقارب. قال عطاء: كانا شريكين لهما
 ثمانية آلاف دينار. وقيل: ورثاه من أبيهما وكانا أخوين فاقتسماها، فاشتري
 أحدهما أرضاً بألف دينار، فقال صاحبه: اللهم إن فلاناً قد اشترى أرضاً بألف
 دينار وإنى اشتريت منك أرضاً فى الجنة بألف دينار فتصدق بها، ثم إن صاحبه
 بنى داراً بألف دينار فقال: اللهم إن فلاناً بنى داراً بألف دينار وإنى اشترى منك
 داراً فى الجنة بألف دينار، فتصدق بها، ثم تزوج امرأة فأنفق عليها ألف دينار،
 فقال: اللهم إن فلاناً تزوج امرأة بألف دينار وإنى أخطب إليك من نساء الجنة
 بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم اشترى خدماً ومتاعاً بألف دينار، وإنى
 اشترى منك خدماً ومتاعاً من الجنة بألف دينار، فتصدق بألف دينار. ثم أصابته
 حاجة شديدة فقال: لعل صاحبى ينالنى معروفه فاتاه فقال: ما فعل مالك؟ فأخبره
 قصته فقال: وإنتك لمن المصدقين بهذا الحديث! والله لا أعطيك شيئاً! ثم قال له:
 أنت تعبد إله السماء، وأنا لا أعبد إلا صنماً، فقال صاحبه: والله لأعظنه، فوعظه
 وذكره وخوفه. فقال: سر بنا نصطد السمك، فمن صاد أكثر فهو على حق، فقال
 له: يا أخي! إن الدنيا أحقر عند الله من أن يجعلها ثواباً لمحسن أو عقاباً لكافر.
 قال: فأكرهه على الخروج معه، فابتلاههما الله، فجعل الكافر يرمى شبكته
 ويسمى باسم صنمه، فتطلع متدفقة سمكاً. وجعل المؤمن يرمى شبكته ويسمى
 باسم الله فلا يطلع له فيها شئ، فقال له: كيف ترى! أنا أكثر منك فى الدنيا
 نصيباً ومنزلةً ونفراً، كذلك أكون أفضل منك فى الآخرة إن كان ما تقول بزعمك

حقاً قال: فضج الملك الموكل بهما، فأمر الله تعالى جبريل أن يأخذه فيذهب به إلى الجنان فيريه منازل المؤمن فيها، فلما رأى ما أعد الله له قال: وعزتك لا يضره ما ناله من الدنيا بعد ما يكون مصيره إلى هذا، وأراه منازل الكافر في جهنم فقال: وعزتك لا ينفعه ما أصابه من الدنيا بعد أن يكون مصيره إلى هذا، ثم إن الله تعالى توفي المؤمن وأهلك الكافر بعذاب من عنده، فلما استقر المؤمن في الجنة ورأى ما أعد الله له أقبل هو وأصحابه يتساءلون، فقال: ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَنتَ لَمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ الآية، فنادى مناد: يا أهل الجنة هل أنتم مطلعون فاطلع إلى جهنم فرآه في سواء الجحيم، فنزلت: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا﴾

﴿الكهف: ٣٢﴾.

بين الله تعالى حال الأخوين في الدنيا في هذه السورة، وبين حالهما في الآخرة في سورة «الصفات» في قوله: ﴿يَقُولُ أَنتَ لَمَنِ الْمُصَدِّقِينَ﴾ إلى قوله: ﴿لَمِثْلٍ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ ﴿الصفات: ٥٢-٦٢﴾.

قال ابن عطية: وذكر إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه في عجائب البلاد أن بحيرة تنيس كانت هاتين الجنتين، وكانتا لأخوين فباع أحدهما نصيبه من الآخر فأنفق في طاعة الله حتى عيره الآخر، وجرت بينهما المحاوراة فغرقها الله تعالى في ليلة، وإياها عنى بهذه الآية. وقد قيل: إن هذا مثل ضربه الله تعالى لهذه الأمة، وليس بخبر عن حال متقدمة، لتزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وجعله زجراً وإنذاراً، ذكره الماوردي. وسياق الآية يدل على خلاف هذا، والله أعلم.

قصة صاحب الجنتين مثل مضروب

لحال الكافرين والمؤمنين

قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢] أى مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين كانا أخوين فى بنى إسرائيل فهذا مثل من أمثال القرآن، وقد ذكر الله فى كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وعن على رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أنزل القرآن أمراً وزاجراً، وسنة خالية ومثلاً مضروباً». (١)

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدِ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ﴾ [محمد: ١٥] أى قصتها التى يتعجب منها . والمثل فى القرآن عبارة عن إبراز المعنى فى صورة رائعة موجزة لها وقعها فى النفس سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلأ .

قال ابن القيم فى أمثال القرآن: «تشبيه شئ بشئ فى حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر...» أ. هـ.

والأمثال فى القرآن ثلاثة أنواع :

(١) الأمثال المصرحة .

(٢) الأمثال الكامنة .

(٣) الأمثال المرسله .

(١) الأمثال المصرحة :

هى ما صرح فيها بلفظ المثل أو ما يدل على التشبيه كقوله تعالى في حق المنافقين: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَّهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ (١٧) صُمُّ بَكُمْ عَمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَيَبْرُقُ يُجْعِلُونَ أَبْصَارَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذِرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٧-٢٠].

(٢) الأمثال الكامنة :

وهى التى لم يصرح فيها بلفظ التمثيل ولكنها تدل على معان رائعة فى إيجاز مثل: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].
وقوله: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠].

(٣) الأمثال المرسلة :

وهى جُمْل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه فهى آيات جارية مجرى الأمثال مثل ﴿الآن حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١].
﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ [النجم: ٥٨] ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٦٧] ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٥٨] ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣] والخرج الكبير هنا فى أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى فى مقام الهزل والمزاح .

وكما عنى العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية، وعقد لها الترمذى باباً فى جامعه أورد فيه أربعين حديثاً .

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف كماوردى ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه كالسيوطى في الإتقان وابن القيم فى أعلام الموقعين، وقد بلغ بها بضعة وأربعين مثلاً .

والأمثال تبرز المعقول فى صورة المحسوس الذى يلمسه الناس كمثل المنفق رياء حيث لا يتفجع بصدقته ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَفَرَكَهُ صُلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب فى معرض الحاضر كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ويضرب المثل للترغيب فى المثل كما فى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ويضرب المثل للتفكير حيث يكون المثل به مما تكرهه النفوس كقوله تعالى فى النهى عن الغيبة: ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى فى الصحابة: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْفِهِ يُعْجَبُ الزُّرَّاعُ لِيَغِيزَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

والأمثال أوقع فى النفس وأبلغ فى الوعظ وأقوى فى الزجر وأقوم فى الإقناع، ولذلك أكثر الله تعالى الأمثال فى القرآن للتذكرة والعبرة. وضرىها النبي ﷺ فى حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله فى كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة. فاستخدم أمثال القرآن والسنة، ومن جميلتها المثل المضروب فى قصة صاحب الجنتين لتبسيط المعاني، وإزالة الشبهات، وتشويق النفوس للعمل بطاعة الله وتنفيرها من كل ما يغضب الله تعالى .

القصة صورة للتواصل العجيب بين الدنيا والآخرة

الدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، فالיום عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل، وقد ارتحلت الدنيا مديرة وارتحلت الآخرة مقبلة، وما من يوم يمر علينا إلا ويقربنا من لقاء الله، فما أنت إلا أيام مجموعة، وإذا مضى يوم مضى بعضك، ولذا قالوا: كيف يفرح بالدنيا من يومه يهدم شهره، وشهره يهدم سنته، وسنته تهدم عمره، وعمره يقوده إلى أجله وحياته تقوده إلى موته ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وأنت من التراب وإلى التراب تعود، أنت اليوم حي وغداً ميت، فاستقم كما أمرت فما هي لحظات معدودات، وتنتهي فترة الإختبار والإمتحان، ويلقى كل منا ربه، حيث يجازى المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته، والأمر إما جنة وإما نار.

قال تعالى: ﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلِيمُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾

{المؤمنون: ١١٢-١١٥}

وقصة صاحب الجنتين تحكى لنا صورة من صور التواصل السريع والعجيب بين الدنيا والآخرة، فقد انتقلت بنا من حكاية ما حدث بين الرجلين هنا لتصور لنا نهاية كلي منهما هناك وكان قد، فالأحداث متلاحقة، والدنيا سريعة الزوال والانتهاء، والسعيد من وعظ بغيره، وشبيه بهذا التواصل السريع ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ {المؤمنون: ١٢-١٤} ثم يأتي بعد ذكر مراحل نمو الجنين في بطن أمه، قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾

{المؤمنون: ١٥}

وكذلك ما ورد في قصة صاحب يس، فقد أتى من أقصى المدينة يسعى قال :
 ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا
 أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ
 عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنقِذُونَ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ
 فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢٠-٢٥] فلما أخذوه وقتلوه نصحهم ميتاً كما نصحهم حياً قال:
 ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧]

وهكذا تواصلت الحياتين سريعاً، وهذا هو الشأن في قصة فرعون، فقد أغرقه
 سبحانه في اليم وقال: ﴿ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِيَدِنَا لِنَكُونَ لِمَنْ خَلَقَ آيَةً﴾ [يونس: ٩٢]
 ولم تكن هذه نهاية أمره فقد أوضحت الآيات ما يعانيه الآن، قال تعالى: ﴿ النَّارُ
 يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾
 . [غافر: ٤٦].

وكثير ما يأتي خبر الساعة بصيغة الماضي لتحقق وقوعه وقرب ذلك قال تعالى:
 ﴿ أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقال: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ
 الْقَمَرُ﴾ [القمر: ١] وقال: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾
 . [الأنبياء: ١].

وفي قصة صاحب الجنتين، وكان الرجلين سرعان ما قبضا وماتا وانتقلا إلى
 الله تعالى وكما اختلف حالهما في الدنيا، فكذلك لم يتساويا في الآخرة ﴿ فَرِيقٌ
 فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

فعلى المسلم أن لا ينافس في عز الدنيا ولا يجزع من ذلها فله شأن وللناس
 شأن وعليه أن يتحقق سرعة الرحيل، فلا داعي لطول الأمل ولا لليأس والقنوط
 من رحمة الله، وإلا فما هي إلا لحظات معدودات، ولو غُمس في الجنة غمسة
 واحدة لنسى معها بؤس الدنيا وشقائها .

زيارة أهل الجنة بعضهم بعضاً وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا

قوله تعالى: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ [الصفافات: ٢٧] أى عن أحوالهم وكيف كانوا فى الدنيا وماذا كانوا يعانون فى مجالسهم وهو جلوس على السرر والخدم بين أيديهم يجيئون بكل خير عظيم من مآكل وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

قال ابن القيم: إن أهل الجنة أقبل بعضهم على بعض يتحدثون ويسأل بعضهم بعضاً عن أحوال كانت فى الدنيا فأفضت بهم المحادثة والمذاكرة إلى أن قال قائل منهم: إني كان لى قرين فى الدنيا ينكر البعث والدار الآخرة ويقول ما حكاه الله عنه يقول: أئنك لمن المصدقين بأنا نبعث ونجازى بأعمالنا ونحاسب بها بعد أن مزقنا البلى وكنا تراباً وعظاماً ثم يقول المؤمن لإخوانه فى الجنة: هل أنتم مطلعون فى النار لتنظر منزلة قرينى هذا وما صار إليه .

هذا أظهر الأقوال وفيها قولان آخران (أحدهما) أن الملائكة تقول لهؤلاء المتذاكرين الذين يحدث بعضهم بعضاً: هل أنتم مطلعون رواه عطاء عن ابن عباس (والثانى) أنه من قول الله عز وجل لأهل الجنة يقول لهم: هل أنتم مطلعون والصحيح القول الأول وأن هذا قول المؤمن لأصحابه ومحادثيه والسياق كله والإخبار عنه وعن حال قرينه قال كعب: «بين الجنة والنار كوى فإذا أراد المؤمن أن ينظر إلى عدو كان له فى الدنيا اطلع من بعض تلك الكوي» (وقوله) فاطلع أى أشرف قال مقاتل: لما قال لأهل الجنة: هل أنتم مطلعون قالوا له: أنت أعرف به منا فاطلع أنت فأشرف فرأى قرينه فى سواء الجحيم ولولا أن الله عرفه إياه لما عرفه لقد تغير وجهه ولونه وغيره العذاب أشد تغيير فعنها قال: تالله إن كدت لتردين ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين أى إن كدت لتهلكنى ولولا أن أنعم الله على بنعمته لكنت من المحضرين معك فى العذاب وقال تعالى: ﴿وَأَقْبَلِ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾ [الروم: ٢٥-٢٨] وقال الطبرانى حدثنا الحسن بن إسحاق حدثنا سهل بن عثمان حدثنا المسيب بن شريك عن بشر بن نمير عن القاسم عن أبى أمامة قال سئل رسول الله ﷺ:

«أيتزاور أهل الجنة؟ قال: يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى إلا اللذين يتحابون في الله يأتون منها حيث شاؤا على النوق محتقبين الحشايا»^(١).

وقال الدورقي حدثنا أبو سلمة التبوذكي حدثنا سلمان بن المغيرة عن حميد بن هلال قال: «بلغنا أن أهل الجنة يزور الأعلى الأسفل ولا يزور الأسفل الأعلى» وقد تقدم حديث علقمة بن مرثد عن يحيى بن إسحاق عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة . وقال الطبراني حدثنا محمد بن عبدوس حدثنا الحسن بن حماد حدثنا جابر بن نوح عن واصل بن السائب عن أبي سورة عن أبي أيوب يرفعه «إن أهل الجنة يتزاورون على النجائب»^(٢) وقد تقدم، فأهل الجنة يتزاورون فيها ويستزير بعضهم بعضاً وبذلك تتم لذتهم وسرورهم ولهذا قال حارثة للنبي ﷺ وقد سأله: «كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً، قال إن لكل حق حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت»^(٣) نفسي عن الدنيا فاسهرت ليلي وأظمأت نهاري وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً، وإلى أهل الجنة يتزاورون فيها وإلى أهل النار يعذبون فيها، فقال: عبد نور الله قلبه»^(٤).

وقال ابن أبي الدنيا حدثنا عبد الله حدثنا سلمة بن شيب حدثنا سعيد بن دينار عن الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس قال قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة فيشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض قال فيسير سرير هذا إلى سرير هذا وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعاً جميعاً فيقول أحدهما لصاحبه تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»^(٥). قال وحدثني حمزة بن العباس أنبأنا عبد الله بن عثمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا إسماعيل بن عياش قال حدثني ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير العجلي

(١) أي جعلوا وراءهم القرش، والحشايا القرش واحداً حشية . إسناده ضعيف فيه بشر بن غير متروك منهم .

(٢) إسناده ضعيف لضعف واصل بن السائب وجابر بن نوح وأبي سورة .

(٣) عزفت نفسي عن الدنيا أي كرهتها وعافتها .

(٤) حديث ضعيف : قال الهيثمي في مجمع الزوائد : فيه يوسف لن عطيه لا بحتج به ، وقال بن حجر في الإصابة : قال البيهقي هذا منكر .

(٥) وإذا تذاكروا وما كان بينهم فتذاكروا فيما كان يشكل عليهم في الدنيا من مسائل العلم وفهم القرآن والسنة الذ من الطعام والشراب والجماع فتذاكر ذلك في الجنة أعظم لذة وهذه لذة يختص بها أهل العلم ويتميزون بها علي من عداهم .

عن شفى بن مانع أن رسول الله ﷺ قال: «إن من نعيم أهل الجنة أنهم يتزاورون على المطايا والنجب وأنهم يؤتون في الجنة بخيل مسرجة ملجمة لا تروث ولا تبول فيركبونها حتى ينتهوا حيث شاء الله عز وجل فيأتيهم مثل السحابة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت فيقولون: أمطرى علينا فما يزال المطر عليهم حتى ينتهي ذلك فوق أمانهم ثم يبعث الله ريحاً غير مؤذية فتتسف كئائب من مسك عن أيمانهم وعن شمائلهم فيأخذ ذلك المسك في نواصي خيولهم وفي مفارقهم وفي رؤوسهم ولكل رجل منهم جمعة على ما اشتهدت نفسه فيتعلق ذلك المسك في تلك الجمام وفي الخيل وفيما سوى ذلك من الثياب ثم يقبلون حتى ينتهوا إلى ما شاء الله تعالى فإذا المرأة تنادى بعض أولئك: يا عبد الله أما لك فينا حاجة؟ فيقول: ما أنت ومن أنت؟ فتقول: أنا زوجتك وحبك فيقول ما كنت علمت بمكانك، فتقول المرأة: أو ما علمت أن الله قال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧] فيقول: بلى وربى فاعله يشتغل عنها بعد ذلك الموقف أربعين خريفاً لا يلتفت ولا يعود ما يشغله عنها إلا ما هو فيه من النعيم والكرامة» حدثني حمزة أنبأني عبد الله بن عثمان أنبأنا ابن المبارك أنبأنا رشدين بن سعد قال حدثني ابن أنعم أنا أبا هريرة قال: «إن أهل الجنة ليتزاورون على العيس الجون^(١) عليها رحال الميس^(٢) تثير مناسمها^(٣) غبار المسك، خطام أو زمام أحدها خير من الدنيا وما فيها» وذكر ابن أبي الدنيا من حديث أبي اليمان حدثنا إسماعيل بن عياش عن عمرو بن محمد عن زيد بن أسلم عن أبيه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية ﴿وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٧] قال: هم الشهداء يبعثهم الله متقلدين أسياهم حول عرشه فاتاهم ملائكة من المحشر بنجائب من ياقوت أزمتها الدر الأبيض برحال الذهب أعنتها السندس والاستبرق وغمارقها ألين من الحرير مد خطاها مد أبصار الرجال يسرون في الجنة على خيول يقولون عند طول النزهة: انطلقوا بنا ننظر كيف يقضى الله بين خلقه يضحك الله إليهم وإذا ضحك الله إلى عبد في موطن فلا حساب عليه.

(١) هي الإبل البيض مع سواد يسير واحدها عيس وعيساء .

(٢) الميس شجر صلب تعمل منه أكوار الإبل ورحالها .

(٣) أي أخفاها .

قال ابن أبي الدنيا وحدثنا الفضل ابن جعفر ابن حسن حدثنا أبي عن الحسن بن علي عن علي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن في الجنة لشجرة يخرج من أعلاها حلال ومن أسفلها خيل من ذهب مسرجة ملجمة من در وياقوت لا تروث ولا تبول لها أجنحة خطوها مد بصرها فيركبها أهل الجنة فتطير بهم حيث شاؤوا فيقول الذين أسفل منهم درجة: يا رب بما بلغ عبادك هذه الكرامة؟ قال: فيقال لهم: كانوا يصلون في الليل وكنتم تنامون، وكانوا يصومون وكنتم تأكلون، وكانوا يتفقون وكنتم تبخلون وكانوا يقاتلون وكنتم تجبنون» .

قال : ولهم زيارة أخرى أعلى من هذه وأجل وذلك حين يزورون ربهم تبارك وتعالى فيريهم وجهه ويسمعهم كلامه ويحل عليهم رضوانه (١) .

المؤمن في الجنة يطلع على الكافر فيزداد شكراً

الجنة عالية والنار هاوية، والجنة فيها ما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون، وأهلها ينادى عليهم إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وأن تنعموا فلا تياسوا أبداً.

قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤].

وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يأكل أهل الجنة فيها ويشربون ولا يتمخطون ولا يتغوطون ولا يبولون ويكون طعامهم ذلك جشأً ورشحاً كرشح المسك، يلهمون التسبيح والحمد كما يلهمون النفس» (٢) فلا حزن ولا تكدير بل نعيم مقيم .

وقوله تعالى: ﴿فَاطَّلِعْ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٥٥] لا تعارض بينه وبين ما ورد في نصوص الكتاب والسنة إذ أنها خرجت من مشكاة واحدة، وقد

(١) حادي الأرواح ص ٢٤٤-٢٤٧ طبعة دار الحديث .

(٢) رواه مسلم .

ذكر العلماء: أن المؤمن اطلع في الكوى الموجودة بين الجنة والنار فرأى صاحبه الكافر وسط الجحيم كأنه شهاب يتقد فعرفه ورأى جماجم القوم تغلى فازداد شكراً لله تعالى وهذا من تمام وكمال نعيم أهل الجنة .

المؤمن لا يتذكر في الجنة أشد عليه من الموت في الدنيا

يتذكر المؤمن ما مر عليه في الدنيا من الشدة فلا يذكر أشد عليه من الموت وهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَمَّا نَحْنُ بِمَبِيتٍ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمَعْدِينِ﴾

{الصافات: ٥٩}

وقد وردت النصوص تفيد ذبح الموت بين الجنة والنار .

قال ابن القيم : قال الله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ {مريم: ٣٩} .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «يجاء بالموت كأنه كبش أملح فيوقف بين الجنة والنار فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، ثم يقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ فيشربون وينظرون ويقولون: هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت ثم قرأ رسول الله صلوات الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ {مريم: ٣٩}

وفي الصحيحين أيضا من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت كل خالد فيما هو فيه» وعنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار أتى بالموت حتى يجعل بين النار والجنة ثم ينادى يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحاً ويزداد أهل النار حزناً إلى جهنم» .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة

وأهل النار النار أتى بالموت مليباً فيوقف على السور الذى بين أهل الجنة وأهل النار ثم يقال يا أهل الجنة فيطلعون خائفين ثم يقال يا أهل النار فيطلعون مستبشرين يرجون الشفاعة فيقال لأهل الجنة وأهل النار هل تعرفون هذا؟ فيقول هؤلاء وهؤلاء: قد عرفناه هو الموت الذى وكل بنا فيضجع فيذبح ذبحاً على السور ثم يقال: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت» (١).

وهذا الكبش والإضجاع والذبح ومعاناة الفريقين ذلك حقيقة لا خيال ولا تمثيل كما أخطأ فيه بعض الناس خطأ قبيحاً وقال: الموت عرض والعرض لا يتجسم فضلاً عن أن يذبح وهذا لا يصح فإن الله سبحانه وتعالى ينشئ من الموت صورة كبش يذبح كما ينشئ من الأعمال صوراً معانية يثاب بها ويعاقب والله تعالى ينشئ من الأعراض أجساماً تكون الأعراض مادة لها وينشئ من الأجسام أعراضاً كما ينشئ سبحانه وتعالى من الأعراض أعراضاً ومن الأجسام أجساماً فالأقسام الأربعة ممكنة مقدورة للرب تعالى ولا يستلزم جمعاً بين النقيضين ولا شيئاً من المحال ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله والتأويل الباطل الذى لا يوجهه عقل ولا نقل وسببه قلة الفهم لمراد الرسول ﷺ من كلامه فظن هذا القائل أن لفظ الحديث يدل على أن نفس العرض يذبح وظن غالط آخر أن العرض يعدم ويزول ويصير مكانه جسم يذبح ولم يهتدى الفريقان إلى هذا القول الذى ذكرناه وأن ﷺ سبحانه ينشئ من الأعراض أجساماً ويجعلها مادة لها كما فى الصحيح عنه ﷺ: «تجئ البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان»، الحديث فهذه هى القراءة التى ينشئها الله سبحانه وتعالى غمامتين وكذلك قوله فى الحديث الآخر: «إن ما تذكرون من جلال الله من تسبيحه وتحميده وتهليله يتعاطفن حول العرش لهن دوى كدوى النحل يذكرن صاحبهن» ذكره أحمد وكذلك قوله فى حديث عذاب القبر ونعيمه للصورة التى يراها «فيقول: من أنت فيقول: أنا عمك الصالح وأنا عمك السىء»، وهذا حقيقة لا خيال ولكن الله سبحانه وتعالى أنشأ له من عمله صورة حسنة وصورة قبيحة وهل النور الذى يقسم بين المؤمنين يوم

(١) رواه النسائي والترمذي وقال حديث حسن صحيح.

القيامة إلا نفس إيمانهم أنشأ الله سبحانه وتعالى لهم منه نوراً يسعى بين أيديهم فهذا أمر معقول لو لم يرد به النص فورود النص به من باب تطابق السمع والعقل، وقال سعيد عن قتادة بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: « إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة وبشارة حسنة فيقول له: من أنت فوالله إني لأراك أمراً الصديق فيقول له: أنا عمك فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة، أما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول ما أنت فوالله إني لأراك أمراً السوء فيقول له: أنا عمك فينطلق به حتى يدخله النار» وقال مجاهد مثل ذلك، وقال ابن جريج: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة يعارض صاحبه ويبشره بكل خير فيقول له: من أنت فيقول: أنا عمك فيجعل له نوراً بين يديه حتى يدخله الجنة فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ {يونس: ٩} والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح نتنة فيلازم صاحبه وينطلق به حتى يقذفه في النار، وقال ابن المبارك ثنا المبارك بن فضالة عن الحسن أنه ذكر هذه الآية: ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ (٥٨) إِلَّا مَوْتَنَا الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمَعذِبِينَ﴾ {الصافات: ٥٨-٥٩} قال: اعلموا أن كل نعيم بعده الموت أنه يقطعه فقالوا: أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى وما نحن بمعذبين قيل لا، قالوا إن هذا لهو الفوز العظيم وكان يزيد الرشاقى يقول في كلامه: أمن أهل الجنة من الموت فطاب لهم العيش وأمنوا من الأسقام، فهناهم في جوار الله طول المقام ثم يبكى حتى تجرى دموعه على لحيته .

كل قرين يقتدى إلا من رحم الله

الحمام مع الحمام، والحيات مع الحيات، والثعالب مع الثعالب، والطيور على أشكالها تقع، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقد نزلت بشأن عقبة بن أبي معيط -أشقى القوم- وكان رغم كفره يحسن التعامل مع رسول الله ﷺ، فلما أتى صاحبه من الشام، ودفعه لإيذاء النبي ﷺ، فقام عقبة ووضع سلا الجزور على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد أمام الكعبة تارة، وخنقه بطرف رداءه تارة أخرى ففيه نزلت هذه الآيات، توضح أنه يعرض على يديه، وليس فقط على أطراف أصابعه وهذا ندم لا يتفجع إذ أنه بعد فوات الأوان .

وقد ورد في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك، ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك، وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير، إما أن يُحرق ثيابك، وإما أن تجد ريحاً منتنة» (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الرجل علي دين خليله فلينظر أحدكم من يخال» (٢) أي من يصادق .

فاحرص على أن لا تصاحب إلا مؤمناً، وأن لا يأكل طعامك إلا تقي .

وقد كان صاحب الجنتين قريناً للمؤمن، قيل كان أخوه أو صاحبه، قد بلغ من خطورة صاحب الجنتين الكافر أن حاول إضلال أخيه وتشكيكه، قال المؤمن: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ أَتِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ (٥٢) أَتَذَّا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَتِنَّا لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ (٥٤) فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ .

(١) متفق عليه .

(٢) رواه أبو داود والترمذي، وقال: حديث حسن .

ومعنى أنك لمن المصدقين أى بالبعث والنشور والحساب والجزاء، وقال ذلك على وجه التعجب والتكذيب والإستبعاد والكفر والعناد، يدل عليه ما ورد فى سورة الكهف ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ {الكهف: ٣٥} .

لقد كان منكرًا للبعث، ولذلك قال: ﴿أَتَذَرَنَا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَ أَلَمَدِينُونَ﴾ {الصفات: ٣٥} أى كيف نُجازى ونُحاسب وقد صرنا ترابًا وعظاماً بعد موتنا وهو شبيهه بمن قال الله فيه: ﴿قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ {يس: ٧٩} إن صحبة أمثال هؤلاء شر عظيم، ولذلك ينبغى التباعد عنهم، فإن لم تجد بدأً ولا سعة فليكن اقترابك منهم اقتراب الناصح الأمين، وإلا فملازمة الحيات والعقارب أهون من الاختلاط بأمثال هؤلاء الذين يمتنون القلوب ويخربون العقول، ولذلك استشعر المؤمن رحمة ربه ونعمته عليه فقال لقرينه الكافر إن كدت لتردين أى تهلكنى ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ {الصفات: ٥٧} أى معك فى العذاب، فهو سبحانه الذى أرشدنى إلى توحيده وهدانى للإيمان، فلم ينسب الفضل لنفسه، ولم يصنع كما صنع قارون عندما قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ {القصص: ٧٨} وإنما سلك مسالك المؤمنين الذين يقولون: ﴿لَوْلَا أَن مِّنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا﴾ {القصص: ٨٣} ويقولون: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ﴾ {الأعراف: ٤٣} .

فالخير كله بيديه سبحانه وما بكم من نعمة فمن الله وأعظم هذه النعم التوفيق للإيمان، وأن يختم للعبد بإحسان .

انحراف صاحب الجنتين وغيره يساوي لذة ساعة وألم دهر

شقى صاحب الجنتين بجمع المال وحفظه واستثماره، وضرب كف نادم بعد فوات الأوان عندما تخربت البساتين ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٢] وهذا فى الدنيا، ثم ولعذاب الآخرة أشد، فقد مات صاحب الجنتين، وارتحل عن ماله وأهله وولده، وترك الدنيا بأسرها، ليواجه عذاباً مقيماً، خالداً فيه أبداً، قال تعالى: ﴿ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدْتُ لَتُرَدِّينِ (٥٦) وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴾ [الصافات: ٥٧].

واهمُّ من يظن أن السعادة تكمن فى تكديس المال وجمع الثروات والبساتين وكثرة الأولاد وبناء العقارات والقصور، وإن حدث فى لذة ساعة وألم دهر قال تعالى: ﴿ فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٥٥].

قال بعض السلف: يعذبون بجمعها، وتزهق أنفسهم بحبها، وهم كافرون بمنع حق الله فيها.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: ما أصبح أحد فى الدنيا إلا وهو ضيف وماله عارية فالضيف مرتحل والعارية مؤداة.

وقد قص علينا ربنا جل وعلا قصة قارون فقال سبحانه: ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ﴾ [القصص: ٧٩] وانبهر به الناس فقالوا: ﴿ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [القصص: ٧٩] ولم يكن الأمر كذلك، فقد كان كافراً بالله تعالى قال: ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص: ٨١].

إن الدنيا يعطيها ربنا لمن يحب ومن لا يحب، أما الآخرة فلا يعطيها إلا لمن أحب ولذلك قال الذين أوتوا العلم والإيمان، لمن انبهر بالزينات والنقوش: ﴿ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَاقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴾ [القصص: ٨٠]

وختمت القصة بقوله تعالى: ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

فالسعادة الحقيقية ليست في المال أو الجاه أو كثرة الأولاد، وإنما هي في طاعة الله تعالى: ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى ﴿ [طه: ١٢٣-١٢٦] فلا بد من إسلام الوجه لله، من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله، يومئذ يصدعون من كفر فعليه كفره، ومن آمن وعمل صالحاً فلا نفسهم يمهدون، يوم عناه سبحانه بقوله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴾ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: ٨٩-٨٨].

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴾ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (٣٦) لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿ ﴿ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ ويقال لمن أعمته الدنيا عن الدين، وتكثر بماله وجاهه وولده على سبيل التعيير: ﴿ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الاحقاف: ٢٠].

إن الأمان غداً لمن باع قليلاً بكثير ونافذاً بباقي كما قال عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- فأحسنوا المسير إلى ربكم

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴾ [فاطر: ٥] واطلبوا السعادة من مظانها، واعلموا أن الإستقامة هي أعظم كرامة، وأن هذا هو الطريق الموصل لسعادة الدنيا والآخرة .

وجه الشبه كبير بين المادية الغربية المعاصرة

وصاحب الجنتين فكيف نتابعهم؟!

المال هو مال الله، والكون كله ملك لله جل وعلا، والواجب علينا أن نحسن وننفق مما جعلنا مستخلفين فيه، وأن نؤدى شكر هذه النعم، ولكن البعض بدلاً من ذلك، يصيبه البطر والكبر والغرور، وهذا شأن صاحب الجنتين، الذي كفر بربه وقال لأخيه المؤمن: «أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)» ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿الكهف: ٣٤-٣٦﴾ وشيبه به هذه المادية الغربية المعاصرة، التي رأت أن التقدم والتحضر والتطور يستلزم التفلت من قيود الدين، فركبت موجة الإباحية والإنسلاخ من معانى الإيمان، وقالت: دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله، صيرت الإنسان عبداً للدرهم والدينار، أو عبداً لشهوة البطن والفرج، وأصابت بلوثها هذه الأمة، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه أنه قال: «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتي بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع، فقيل: يا رسول الله كفارس والروم؟ فقال: ومن الناس إلا أولئك» (١).

وفى رواية عن أبي سعيد: «قلنا يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» (٢).

قال ابن بطال: «أعلم صلوات الله عليه أن أمته ستتبع المحدثات من الأمور والبدع والأهواء كما وقع للأمم قبلهم، وقد أُنذر في أحاديث كثيرة بأن الآخرة شر والساعة لا تقوم إلا على شرار الناس، وأن الدين إنما يبقى قائماً عند خاصة من الناس» أ. هـ .

وقد وقع معظم ما أُنذر به صلوات الله عليه وسيقع بقية ذلك كما قال الحافظ ابن حجر .

وفى هذا الزمن كثر فى المسلمين من يتشبه بالكفار من شرقيين وغربيين، فتشبه رجالنا برجالهم ونساؤنا بنسائهم وافتتوا بهم حتى أدى الأمر ببعض الناس إلى

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

الخروج عن الإسلام، واعتقدوا أنه لا يتم لهم تقدم وحضارة إلا بنيد كتاب الله وسنة نبيه ﷺ. ومن عرف الإسلام الصحيح عرف ما وصل إليه المسلمون في القرون الأخيرة من بُعد عن تعاليم الإسلام. وانحرف عن عقيدته، فلم يبق عند بعضهم من الإسلام إلا إسمه، فقد حكموا قوانين الكفار، وابتعدوا عن شريعة الله، وليس هناك أبلغ مما وصف به النبي ﷺ في اتباعهم ومحاكاتهم للكفار فقال: « شبراً بشبر، وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا حجر ضب تبعوهم ».

قال النووي: «المراد بالشبر والذراع، وحجر الضب: التمثيل بشدة الموافقة لهم. والمراد: الموافقة في المعاصي والمخالفات لا في الكفر، وفي هذا معجزة ظاهرة لرسول الله فقد وقع ما أخبر به ﷺ»

هذا والفتن ليس لها حصر ففتنة النساء، وفتنة المال وحب الشهوات، وحب السلطان والسيادة والزعامة كلها فتن، ربما تهلك الإنسان وتعصف به إلى مهاوى الردي، نسأل الله العافية والسلامة.

إن صاحب الجنتين ومن تشابه معه هنا وهناك يصدق عليهم قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] وكما نظر صاحب الجنتين لأخيه المؤمن على أنه لم يحسن التعامل مع الدنيا وتآدى به ذلك لاحتقاره، فكذلك الغرب في نظره للمسلمين باستعلاء وكبرياء وغطرسة، وهي نفس نظرة فرعون وقارون ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الْأَرَائِكِ يُنظَرُونَ (٣٥) هَلْ تُؤِيبُ الْكُفَّارَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

{المطففين: ٢٩-٣٦}.

فالعبرة بمن يضحك آخرأ، لا بمن يستهزئ ويستخف أولاً دون وجه حق وكما كان صاحب الجنتين عبرة للمعتبرين، فلا نستبعد أن يحدث مع الكفرة الفجرة هنا وهناك مثل ما حدث معه، فالشرع لا يفرق بين المتساوين، وبأسه سبحانه لا يُرد من القوم المجرمين.

ليس في القصة تبرير للصراع الطبقي أو تأييد للمذهب الاشتراكي

لقد كان دمار الجنتين من جزاء الكفر بالله تعالى لا لغنى صاحب الجنتين، إذ لا يحل لأحد أن يتطلع لمال الغنى طالما أخذه من حله ووضع في حقه، وقد ورد أن كل المسلم على المسلم حرام ماله ودمه وعرضه، وحرمة هذه الأمور كحرمة يوم عرفة في شهر ذي الحجة في بلد الله الحرام، فلا يحل مال امرئ مسلم بغير طيب نفس منه وطالما أنه أخذه من حله ووضع في حقه فلا يجوز التطلع لهذا المال قل أو كثر وقد تكلم العلماء في مسألة وهي: هل في المال حق سوى الزكاة؟ ومن أجاز اشتراط أن يخلو بيت المال من المال، وتنزل بالمسلمين جائحة كمجاعة أو الدخول في حرب ثم الحاكم لا يستوفى أكثر من مال الزكاة إلا بعد أن يتنازل هو وحاشيته عن كل ما يملك من الحوائص المذهبة وغيرها ويستبقى مركوبه وسلاحه وما لا يد له منه، وهذا قول النووي والعز بن عبد السلام وعبد الله بن الفراء وغيرهم، وهذه حالة استثناء قد تحدث، ولكن ترك البعض دينه ورائه ظهرياً، وذهب يستورد من الشيوعيين نظمهم وفلسفاتهم الاشتراكية، فكان أن تم الاستيلاء على الأموال بزعم القضاء على الرأسمالية واستلاب الأراضي بزعم القضاء على الإقطاع، مصادماً بذلك الكتاب والسنة والعقل والفطرة، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ {النحل: ٧١} وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ {الفرقان: ٢٠} فالناس منهم الغنى والفقير وكل صنف مبتلى بالصنف الآخر، والواجب على الجميع أن يتقوا الله ويستقيموا على شرع الله في غناهم وفقيرهم، وبزعم الإنحياز إلى طبقة العمال والفلاحين في صراعهم مع الرأسمالية والإقطاع واستئناساً بوقوع بعض المظالم تم اغتصاب الأموال والأراضي ووزع بعضها على البعض، وصار من لا يملك يُعطى من لا يستحق، وتأججت نيران الفتنة بين طبقات الشعب .

إن نصرة المظلومين والمسحوقين تكون بإقامة شرع الله، ورد الحقوق لأصحابها دون جور أو شطط لا بمصادمة غريزة حب التملك وإفقار الأغنياء وتعميم الإتهام وتخريب البلاد والعباد بظلم أشنع وأشد ولذلك لا تستغرب فشل النظم الاشتراكية وليس فقط المزارع الجماعية التي أقامتها الشيوعية .

إن الواجب علينا أن نبدأ ونسارع برد الأموال والأراضي لأصحابها ولا نكتفى بدفع التعويضات الهزيلة لبعض من سميناهم إقطاعيين ورأسمالين، إذ الظلم ظلّمات وما هو حرام بالنسبة للأفراد حرام بالنسبة للدول والجماعات .

الإنكار على صاحب الجنتين لم يكن لغناه ولكن لكفره

لقد كان غنى صاحب الجنتين سبباً في بطره وطمغانه ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ ﴾ (٦) أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى ﴿ العلق: ٦ ﴾ ولذلك قال لأخيه: ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا ﴾ [الكهف: ٣٤] قال سبحانه: ﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴾ ولذلك لما راجعه أخوه المؤمن قال له: ﴿ أَكْفَرْتُ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴾ [الكهف: ٣٧]

الفلوس من شأنها أن تغرى النفوس وخصوصاً إذا ضعف فينا وازع الإيمان، وقد بين سبحانه أنها فتنة ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن: ١٥] وصح عن رسول الله ﷺ أنه قال: « ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه » .

والإنسان يوم القيامة يُسأل عن ماله من أين أخذه، وفيما أنفقه؟ وهل أخذه من حله ووضعه في حقه؟ أم أن الحلال عنده ما وصلت إليه يده!!

ومن رحمة الله بعباده، أن أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] والإسلام هو دين الوسطية والعدل والاعتدال في كل أمر ومعنى، ومن جملة ذلك، وسطية بين الإشتراكية والرأسمالية، فلم يأمر بإلغاء الملكية وتأميم الممتلكات ومصادرة الحقوق ومصادمة الفطرة بإلغاء الإرث والهبة بدعوى المساواة وفرض الضرائب والتصاعدية والتركات . . . إلى غير ذلك مما هو موجود في النظام الإشتراكي، ولا هو أيضاً بالذي أطلق الجبل على الغارب، ونادى بعلمانية الدولة وفصل الدين عن الحياة . . . كما هو الحال في النظام الرأسمالي المبني على الاستغلال والاستعباد، والذي

قالوا فيه: «إن التنظيم متروك للإنسان» فالإسلام دين ودولة، وعقيدة وشريعة، ودنيا وآخرة ولابد من الرجوع في ذلك كله لكتاب الله ولسنة نبيه ﷺ، ونحن لا نقبل الثنائيات التي ينادى بها البعض، فمن لم يكن اشتراكياً قالوا له: «إذن أنت رأسمالي، ومن لم يكن ديمقراطياً، قالوا له إذن أنت ديكتاتوري»، وكان هؤلاء أسقطوا الإسلام من حساباتهم!! فالإسلام نظام مستقل يرفض هذا العفن، ويرفض أيضاً هذا التدليس وهذا التزييف الذي يصنعه البعض حين ينادى بالاشتراكية الإسلامية أو الديمقراطية الإسلامية، ففي ذلك تحييب للنفوس في هذه الأنظمة الوضعية الوافدة والمستوردة، وإضفاء صفة الشرعية عليها، ويجب أن نعلم أن كل نظام له عقيدة وأن النظام لا يؤخذ إلا مع عقيدته لضمان حسن التطبيق وتحقيق معنى الإخلاص والولاء، والمسلم من شأنه أن يرتبط بالمبادئ وبما جاء في الكتاب والسنة ويطيع الأشخاص ما أطاعوا الله ورسوله ﴿ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥] ويقال لهذا الفريق الذي ينادى بأخذ النظام الاقتصادي الماركسي مثلاً من أبناء جلدتنا ومن يتكلم بلساننا ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فالإسلام أقدم من الاشتراكية والرأسمالية، والفرق بينه وبين هذه النظم في المنشأ والطريق والغاية، ولا ندرى كيف سولت لهم أنفسهم أن يقادوا إلى مبادئ لا يعرفون حقيقتها لأنها ليست حقيقة؟! وكيف جهلوا دين ربهم - إن كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر؟! ومن المعلوم أن النبي ﷺ ما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن بين لنا وأعطانا من كل شيء علماً وتركنا على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وقد عملت الأمة جيلاً بعد جيل بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، في سياستها واقتصادها واجتماعها وأخلاقها فسعدت وملأت الدنيا عدلاً ونوراً، وما أصابتها المذلة والمهانة إلا بعد أن تنكبت الصراط وخالفت الطريق وارتمت في أحضان الشرق تارة وفي أحضان الغرب تارة أخرى، تاركة دينها وراءها ظهيراً، وصدق عمر في قوله لأبي عبيدة رضي الله عنه: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بهذا الدين فمهما نطلب العز في غيره أذلنا الله»، لا ندرى ما الذي انبهروا به في حضارة القلق الفلسة عند الغرب، فالحق الذي عندهم يلزمنا والباطل الذي معهم نحن في غنى

عنه والحق مقبول من كل من جاء به، والعلوم النافعة تؤخذ فمن أفلح فيها، والحضارة التي نحرص عليها هي التي تقوم على منهج العبودية والاستقامة على الكتاب والسنة ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمٌ﴾ [الإسراء: ٩] ثم ألم يروا هزيمة الشيوعية واندحارها وفشلها وسوء عاقبتها، وانظروا إلى حطام المزارع الجماعية في روسيا وما الذي وصل إليه حال اليمن السعيد وليبيا الشقيقة وكل البلدان التي طبقت النظام الاشتراكي من خراب ودمار، إن الاشتراكية تعنى اصطلاحاً معيناً، فقد أطلقها أصحابها على نظام اقتصادي يقوم على إدعاء المساواة، والماركسية تعتبر مصدراً رئيسياً من مصادر الفكر الاشتراكي والعرب لم تعرف الاشتراكية لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وباختصار شديد فهذا النظام تحكم في الحكم وفي وسائل الإنتاج، مساواة في الفقر، وقيد وإكراه وفقدان عنصر الاختيار وحد من النشاط الاقتصادي، انقلاب وثورات واستبداد مطلق يؤدي بدوره إلى قتل الحريات

غصب الأرض لتوزيعها أو لبناء مسجد عليها وحكم ذلك

أخرج الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلوات الله عليه وآله وسلم قال: «من ظلم قيد شبر من أرض طوقه من سبع أرضين» ذكر البغوي أنه يخسف به الأرض فتصير البقعة في عنقه كالطوق، وروى البخاري: «من أخذ من الأرض شبراً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين» .

وروى مسلم: «لا يأخذ أحد شبراً من الأرض بغير حقه إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة» .

وروى أحمد والطبراني: «من أخذ أرضاً بغير حقه كلفه أن يحمل ترابها إلى المحشر» .

وروى أحمد والطبراني في الكبير عن ابن مسعود: «قلت: يا رسول الله أي ظلم أظلم؟ فقال: ذراع من الأرض ينقصها المرء المسلم من حق أخيه فليس حصاة من الأرض يأخذها إلا طوقها يوم القيامة إلى قعر الأرض ولا يعلم قعرها إلا الله الذي خلقها» .

وروى الطبراني: «من غصب رجلاً أرضاً ظلماً لقي الله وهو عليه غضبان» .
وروى الطبراني في الكبير والصغير: «من أخذ من طريق المسلمين شبراً جاء يوم
القيامة يحمله من سبع أرضين»

وقد اعتبر البغوى وغيره فى كون الغصب كبيرة أن يكون المال المغصوب ربع
دينار، وقال الحلبي: إن كان شيئاً تافهاً فصغيرة إلا أن يكون صاحبه لا غنى به
عنه فكبيرة، وذكر العز بن عبد السلام أنهم أجمعوا على أن غصب الحبة وسرقتها
كبيرة، يوافقه قول القرطبي أجمع أهل السنة على أن من أكل مالاً حراماً، ولو ما
يصدق عليه اسم أكل فسق. أ.هـ .

ولا فرق فى كون الغصب كبيرة بين الأرض وغيرها من الأموال، ويدخل فى
ذلك تغيير علامات الأراضى وحدودها فيوسع أرضه على حساب جاره وهو المشار
إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: «لعن الله من غير منار الأرض»^(١).

ومن هذا تعلم حرمة غصب أراضى الآخرين بزعم وضع اليد وحرمة الإستيلاء
على أموال الناس كما لا يجوز أيضاً اقتطاع جزء من طريق المسلمين لخاصة نفسه
دون وجه حق أو بناء مسجد يسد به الطريق عليهم، فلا بد من نية وصحة أو
إخلاص ومتابعة ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ
أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] ولا تصح الصلاة فى الأرض المغصوبة كما قال الإمام أحمد
وغيره .

ما شاء الله لا قوة إلا بالله كنز فاحرص عليه

لما سمع المؤمن الكافر يقول: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ [الكهف: ٣٥] رد عليه
على جهة التوبيخ وقال: ﴿وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا
بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩] فما اجتمع لك من المال فهو بقدرة الله وقوته لا بقدرتك
وقوتك، ولو شاء لنزع البركة منه فلم يجتمع إذ ما شاء الله كان وما لم يشأ لم
يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله فلا تغير من حال إلى حال إلا بفضل الله .

قال مالك: ينبغي لكل من دخل منزله أن يقول هذا: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» .

وقال ابن وهب قال لي حفص بن ميسرة: رأيت على باب وهب بن منبه مكتوباً: «ما شاء الله لا قوة إلا بالله» .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال لأبي هريرة: «ألا أدلك علي كلمة من كنوز الجنة - أو قال كنز من كنوز الجنة قلت: بلى يا رسول الله، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله، إذا قالها العبد قال الله عز وجل أسلم عبدي واستسلم» (١)

وروى أنه من دخل منزله أو خرج منه فقال: باسم الله ما شاء الله لا قوة إلا بالله تنافرت عنه الشياطين من بين يديه، وأنزل الله تعالى عليه البركات، وقالت عائشة: «إذا خرج الرجل من منزله وقال: باسم الله، قال الملك: هُديت، وإذا قال: ما شاء الله، قال الملك: كفيت، وإذا قال: لا قوة إلا بالله، قال الملك وقُيت» (٢) .

وقال البعض: ما من أحد قال ما شاء الله كان فأصابه شيء إلا رضى به .

وروى أن من قال أربعاً أمن من أربع: من قال هذه أمن من العين «ما شاء الله لا قوة إلا بالله»، ومن قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل» أمن من كيد الشيطان، ومن قال: «وأفوض أمري إلى الله» أمن مكر الناس، ومن قال: «لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين» أمن من الغم» فاحرص على الإكثار من ذكر الله ولا تغفل، فقد حذرنا من مثل هذا النسيان المريب، وعاب البعض من خلقه فقال سبحانه: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ ﴾ [الحشر: ١٩] .

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي موسى وفيه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(٢) أخرجه أبو داود والترمذي من حديث أنس، وابن ماجه من حديث أبي هريرة .

فضل الزهد في الدنيا

والحث على التقلل منها، وفضل الفقر

أنفق المؤمن ماله في سبيل الله، فغراً وليس عنده شيء، وخرج يعمل بقوته، وما دفعه لذلك إلا زهده في الدنيا وحرصه على التجارة الرابحة مع الله، وقد وردت النصوص تدل على فضل الزهد في الدنيا وتحث على التقلل منها .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْن بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤] .

وقال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مِّثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا﴾ [الكهف: ٤٦] .

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمِثْلِ غَيْثٍ أُعْجِبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حِطًّا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠] .

وقال تعالى: ﴿زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنُ الْمَآبِ﴾ [آل عمران: ١٤] .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥] .

وقال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ١-٥] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

والآيات في الباب كثيرة مشهورة .

وأما الأحاديث فأكثر من أن تحصر .

فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»^(١).

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة»^(٢).

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغة، ثم يقال: يا ابن آدم، هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله، يا رب! ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم، هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدة قط؟ فيقول: لا والله، ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط»^(٣).

وعن المستورد بن شداد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر به يرجع»^(٤).

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر بالسوق والناس كفيه، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه، ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ ثم قال: «أتحبون أنه لكم؟» قالوا: والله، لو كان حياً كان عيباً. إنه أسك فكيف وهو ميت! فقال: «فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم». رواه مسلم. قوله: «كفيه»: أي عن جانبيه. و«الأسك»: الصغير الأذن^(٥).

(١) رواه مسلم في كتاب الرقاق (باب أكثر أهل الجنة الفقراء).

(٢) رواه البخاري في الرقاق والجهاد (باب التحريض على القتال) ومناقب الانصار والمغازي، ومسلم في الجهاد (باب غزوة الأحزاب وهي الخندق).

(٣) رواه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار (باب صبغ أنعم أهل الدنيا في النار).

(٤) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها (باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة).

(٥) رواه مسلم في أول كتاب الزهد والرقائق.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: كنت أمشي مع النبي صلى الله عليه وسلم في حرة بالمدينة، فاستقبلنا أحد، فقال: «يا أبا ذر»، قلت: لبيك يا رسول الله. فقال: «ما يسرنى أن عندى مثل أحد هذا ذهباً، تمضى على ثلاثة أيام وعندى منه دينار إلا شيء أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه وعن شماله ومن خلفه، ثم سار فقال: «إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال بالمال هكذا وهكذا وهكذا» عن يمينه وعن شماله ومن خلفه «وقليل ما هم»! ثم قال لى: «مكانك! لا تبرح حتى آتيك». ثم انطلق فى سواد الليل حتى توارى، فسمعت صوتاً قد ارتفع، فتخوفت أن يكون أحد عرض للنبي صلى الله عليه وسلم، فأردت أن آتية، فذكرت قوله: «لا تبرح حتى آتيك»، فلم أبرح حتى أتاني فقلت: لقد سمعت صوتاً تخوفت منه، فذكرت له، فقال: «وهل سمعته؟» قلت: نعم، قال: «ذاك جبريل أتاني فقال: من مات من أمتك لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: «وإن زنى وإن سرق»^(١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم»^(٢).

وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تعس عبد الدينار والدرهم والقטיפه والخميصة، إن أعطى رضى، وإن لم يعط لم يرض»^(٣).

وعنه رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة، ما منهم رجل عليه رداء: إما إزار وإما كساء، قد ربطوا فى أعناقهم، فمنها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبيين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته»^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»^(٥).

(١) رواه البخاري في الرقاق (باب المكثرون هم المقلون) و (باب ما أحب أن لي مثل أحد ذهباً) والاستقراض والاستئذان، ومسلم في الزكاة (باب الترغيب في الصدقة).

(٢) متفق عليه وهذا لفظ مسلم.

(٣) رواه البخاري في الجهاد (باب الحراسة) وفي الرقاق.

(٤) رواه البخاري في المساجد (باب نوم الرجال في المسجد).

(٥) رواه البخاري في الرقاق (باب قول النبي صلى الله عليه وسلم كن فى الدنيا إنخ).

قالوا في شرح هذا الحديث: معناه: لا تركز إلى الدنيا ولا تتخذها وطناً، ولا تحدث نفسك بطول البقاء فيها، ولا بالإعتناء بها، ولا تتعلق منها إلا بما يتعلق به الغريب في غير وطنه، ولا تشتغل فيها بما يشتغل به الغريب الذي يريد الذهاب إلى أهله . وبالله التوفيق .

عن أبي العباس سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته أحبني الله وأحبنى الناس . فقال: «أزهد في الدنيا يحبك الله، وأزهد فيما عند الناس يحبك الناس» رواه ابن ماجه وغيره بأسانيد حسنه (١) .

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: ذكر عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ما أصاب الناس من الدنيا، فقال: لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يظل اليوم يلتوي، ما يجد من الدقل ما يملأ به بطنه (٢) . رواه مسلم .

«الدقل» بفتح الدال المهملة والقاف: ردئ التمر .

وعن عائشة رضي الله عنها قال: توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وما في بيتي من شئ يأكله ذو كبد إلا شطر شعير في رف لي، فأكلت منه حتى طال علي، فكلته ففني (٣) . متفق عليه . قولها «شطر شعير»: أى شئ من شعير، كذا فسره الترمذي .

وعن عمرو بن الحارث أخى جويرية بنت الحارث أم المؤمنين رضي الله عنها قال: ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً، إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها، وسلاحه، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة (٤) .

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء» (٥) .

(١) رواه ابن ماجه في الزهد، وأخرجه الطبراني في معجمه الكبير، والحاكم في الرقائق من مستدركه .

(٢) رواه مسلم في كتاب الزهد والرفائق .

(٣) رواه البخاري في الجهاد (باب نفقة نساء النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته) والرفائق (باب فضل الفقر) ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرفائق .

(٤) رواه البخاري في الوصايا (باب الوصايا) والجهاد (باب بغلة النبي صلى الله عليه وسلم البيضاء، وغيره) والمغازي (باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم ووفاته) .

(٥) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في هوان الدنيا علي الله عز وجل) رقم / ٢٣٢١ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلوات الله عليه وسلم يقول: «ألا إن الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما وآياه، وعالمًا ومتعلمًا»^(١).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا»^(٢).

وعن عبد الله بن الشخير «بكسر الشين والخاء المشددة المعجمتين» رضي الله عنه أنه قال: أتيت النبي صلوات الله عليه وسلم وهو يقرأ: ﴿ألهاكم التكاثر﴾ قال: «يقول ابن آدم: مالي مالي! وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟!»^(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله صلوات الله عليه وسلم على حصير فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء. فقال: «مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»^(٤).

وعن ابن عباس وعمران بن الحصين رضي الله عنهما عن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «اطلعت في الجنة، فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»^(٥).

وعن أسامه بن زيد رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «قمت على باب الجنة، فكان عامة من دخلها المساكين! وأصحاب الجلد محبوسون! غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار»^(٦).

«والجلد»: الحظ والغني.

(١) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في هوان الدنيا علي الله عز وجل) رقم / ٢٣٢٣ .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب لا تتخذوا الضيعة فترغبوا في الدنيا) رقم / ٢٣٢٩ .

(٣) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق .

(٤) رواه الترمذي في الزهد (باب ما أنا في الدنيا إلا كراكب) رقم / ٢٣٧٨ .

(٥) زواه البخاري في بدء الخلق (باب ما جاء في صفة الجنة) وفي النكاح والرقاق، ومسلم في كتاب الرقاق

(باب أكثر أهل الجنة الفقراء) .

(٦) رواه البخاري في النكاح (باب لا تأذن المرأة في بيت زوجها إلا بإذنه) والرقاق، ومسلم في أول كتاب

الرقاق (باب أكثر أهل الجنة الفقراء) .

فضل الجوع وخشونة العيش

والاقتصار على القليل من المأكل والمشروب والملبوس

وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

وجد المؤمن شدة وعانى من خشونة العيش فصبر واحتسب، وهذا الحال لا يخلو من فضل وأجر دلت عليه نصوص الشريعة .

قال الله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٥٩-٦٠].

وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [القصص: ٧٩-٨٠].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨]. والآيات كثيرة معلومة .

عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول: والله يا ابن أختي، إن كنا ننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثم الهلال: ثلاثة أهلة في شهرين وما أوقد في أبيات رسول الله صلوات الله عليه ناراً! قلت: يا خالة، فما كان يعيشكم؟ قالت: الأسودان: التمر والماء، إلا أنه قد كان لرسول الله صلوات الله عليه جيران من الأنصار وكانت لهم منايح وكانوا يرسلون إلى رسول الله صلوات الله عليه من ألبانها فيسقينها. (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلوات الله عليه ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما فقال: «ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة؟» قالوا: الجوع يا رسول الله. قال: «وأنا والذي نفسي بيده، لأخرجني الذي أخرجكما! قوماً»

(٣) رواه البخاري في فاتحة كتاب الهبة وفي الرقاق (باب كيف كان عيش النبي صلوات الله عليه وأصحابه) ومسلم في أوائل كتاب الزهد والرقائق .

فقاما معه فأتى رجلاً من الأنصار، فإذا هو ليس في بيته، فلما رأته المرأة قالت: مرحباً وأهلاً فقال رسول الله ﷺ: «أين فلان؟» قالت: ذهب يستعذب لنا الماء. إذ جاء الأنصاري، فنظر إلى رسول الله ﷺ وصاحبيه، ثم قال: الحمد لله، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً مني، فانطلق فجاءهم بعذق فيه بسر وتمر ورطب فقال: كلوا. وأخذ المدينة، فقال له رسول الله ﷺ «إياك والحلوب» فذبح لهم. فاكلوا من الشاة، ومن ذلك العذق، وشربوا فلما أن شبعوا ورووا قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: «والذي نفسي بيده، لتسألن عن هذا النعيم يوم القيامة! أخرجكم من بيوتكم الجوع. ثم لم ترجعوا حتي أصابكم هذا النعيم»^(١)

قولها: «يستعذب»: أى يطلب الماء العذب وهو الطيب. و«العذق» بكسر العين وإسكان الذال المعجمة، وهو الكباسة وهى الغصن. و«المدينة» بضم الميم وكسرهما: هى السكين. و«الحلوب»: ذات اللبن. والسؤال عن هذا النعيم سؤال تعديد النعم لا سؤال توبيخ وتعذيب. والله أعلم. وهذا الأنصاري الذى أتوه هو أبو الهيثم بن التيهان.

وعن خالد بن عمر العدوى قال: خطبنا عتبة بن غزوان وكان أميراً على البصرة- فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإن الدنيا قد آذنت برم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صباية كصباية الإناء يتصابها صاحبها! وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يلقى من شفير جهنم، فيهوى فيها سبعين عاماً لا يدرك لها قعرأ! والله لتملأن! أفعجبتن؟ ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين عاماً، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتنى سابع سبعة مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قرحت أشداقنا فالتقطت بردة، فشققها بينى وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميراً على مصر من الأمصار. وإنى أعوذ بالله أن أكون فى نفسى عظيماً، وعند الله صغيراً^(٢).

(١) رواه مسلم في كتاب الأشربة (باب جواز استباعه غيره إلى دار من يتق برضاه بذلك).

(٢) رواه مسلم في أوائل كتاب الزهد والرفائق.

قوله: «أذنت»: أى أعلمت. وقوله: «بصرم»: أى بانقطاعها وفنائها. «وولت حذاء»: أى سريعة. و«الصبابة» - البقية السيرة. وقوله: «يتصابها»: أى يجمعها. و«الكظيظ»: الكثير الممتلئ. وقوله: «قرحت»: أى صارت فيها قروح. وعن أبى موسى الأشعري رضي الله عنه قال: أخرجت لنا عائشة رضي الله عنها كساء وإزاراً غليظاً. قالت: قبض رسول الله صلوات الله عليه وسلم فى هذين. (١).

وعن أبى هريرة رضي الله عنه قال: والله الذى لا إله إلا هو إن كنت لأعتمد بكبدى على الأرض من الجوع، وإن كنت لأشد الحجر على بطنى من الجوع. ولقد قعدت يوماً على طريقهم الذى يخرجون منه، فمر بى النبي صلوات الله عليه وسلم فتبسم حين رأيتى، وعرف ما فى وجهى وما فى نفسى، ثم قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق»، ومضى فاتبعته، فدخل فاستأذن فأذن لى فدخلت، فوجد لبناً فى قدح فقال: «من أين هذا اللبن؟» قالوا: أهدها لك فلان - أو فلانة - قال: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: «الحق إلى أهل الصفة فادعهم لى» (قال): وأهل الصفة أضياف الإسلام، لا يأوون على أهل ولا مال ولا على أحد، وكان إذا أتته صدقة بعث بها إليهم، ولم يتناول منها شيئاً، وإذا أتته هدية أرسل إليهم وأصاب منها وأشركهم فيها. فسأنى ذلك، فقلت: وما هذا اللبن فى أهل الصفة! كنت أحق أن أصيب من هذا اللبن شربة أتقوى بها، فإذا جاءوا أمرنى فكنت أنا أعطيهم، وما عسى أن يبلغنى من هذا اللبن! ولم يكن من طاعة الله وطاعة رسول الله صلوات الله عليه وسلم بد. فأتيتهم فدعوتهم، فأقبلوا واستأذنوا، فأذن لهم وأخذوا مجالسهم من البيت. قال: «أبا هر» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «خذ فأعطهم» (قال): فأخذت القدح فجعلت أعطيه الرجل فيشرب حتى يروى ثم يرد على القدح فأعطيه الآخر فيشرب حتى يروى، ثم يرد على القدح حتى انتهت إلى النبي صلوات الله عليه وسلم وقد روى القوم كلهم، فأخذ القدح فوضعه على يده، فنظر إلى فتبسم فقال: «أبا هر»، قلت: لبيك يا رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «بقيت أنا وأنت» قلت: صدقت يا رسول الله، قال: «اقعد فأشرب» فقعدت فشربت.

(١) رواه البخاري فى الجهاد (باب ما ذكر من روع النبي صلوات الله عليه وسلم وعصاه وسيفه) واللباس (باب الأكسية والخصائص) ومسلم فى اللباس (باب التواضع فى اللباس).

فقال: «اشرب» فشربت، فما زال يقول: «اشرب» حتى قلت: لا والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلماً، قال: «فأرني» فأعطيته القدح، فحمد الله تعالى وسمى وشرب الفضلة^(١).

وعن محمد بن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيتني وإني لأخر فيما بين منبر رسول الله صلوات الله عليه إلى حجرة عائشة رضي الله عنها مغشياً علي، فيجئ الجاني فيضع رجله على عنقي، ويرى أني مجنون وما بي من جنون، ما بي إلا الجوع^(٢).

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: توفي رسول الله صلوات الله عليه ودرعه مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير^(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لقد رأيت سبعين من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء، إما إزار وإما كساء، قد ربطوا في أعناقهم: منها ما يبلغ نصف الساقين، ومنها ما يبلغ الكعبين، فيجمعه بيده كراهية أن ترى عورته^(٤).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا جلوساً مع رسول الله صلوات الله عليه إذ جاء رجل من الأنصار فسلم عليه، ثم أدبر الأنصاري، فقال رسول الله صلوات الله عليه: «يا أخا الأنصار، كيف أخى سعد بن عبادة؟» فقال: صالح، فقال رسول الله صلوات الله عليه: «من يعوده منكم؟» فقام وقمنا معه ونحن بضعة عشر ما علينا نعال ولا خفاف ولا قلانس ولا قمص، نمشى في تلك السباخ حتى جئناه، فاستأخر قومه من حوله حتى دنا رسول الله صلوات الله عليه وأصحابه الذين معه^(٥).

وعن عبيد الله بن محصن الأنصاري الخطمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(٦).

(١) رواه البخاري في الرقاق (باب كيف كان عيش النبي صلوات الله عليه وأصحابه).

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام (باب ما ذكر النبي صلوات الله عليه وحض علي اتفاق أهل العلم وما أجمع عليه الحرمان).

(٣) رواه البخاري في كتاب الجهاد (باب ما قيل في درع النبي صلوات الله عليه والمغازي، ومسلم في البيوع (باب الرهن وجوازه في الحضرة السفر) بلفظ آخر.

(٤) رواه البخاري في أبواب المساجد (باب نوم الرجال في المساجد).

(٥) رواه مسلم في الجنائز (باب عيادة المرضي).

(٦) رواه الترمذي في كتاب الزهد (باب من بات آمناً في سربه) رقم / ٢٣٤٧.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد أفلح من أسلم، وكان رزقه كفافاً، وقنعه الله بما آتاه» (١).

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا صلى بالناس يخر رجال من قامتهم في الصلاة من الخصاصة - وهم أصحاب الصفة - حتى يقول الأعراب: هؤلاء مجانين! فإذا صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف إليهم فقال: «لو تعلمون ما لكم عند الله تعالى لأحببتم أن تزدادوا فاقة وحاجة» (٢).
«الخصاصة»: الفاقة والجوع الشديد.

وعن أبي كريمة المقداد بن معديكرب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما ملأ آدمى وعاء شراً من بطنه. بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه» (٣).
«أكلات»: أي لقم.

وعن أبي أمامة إياس بن ثعلبة الأنصاري الحارثي رضي الله عنه قال: ذكر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً عنده الدنيا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ألا تسمعون؟ ألا تسمعون؟ إن البذاذة من الإيمان، إن البذاذة من الإيمان» يعني: المتقحل (٤). رواه أبو داود.

«البذاذة»: بالباء الموحدة والذالين المعجمتين، وهي رثاثة الهيئة وترك فاخر اللباس. وأما «التقحل» فبالقاف والحاء، قال أهل اللغة: المتقحل هو الرجل اليابس الجلد من خشونة العيش وترك الترفه.

وعن أبي عبد الله جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر علينا أبا عبيدة رضي الله عنه نتلقى عيراً لقريش، وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره. فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة. فقيل: كيف كنتم تصنعون بها؟ قال: نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفيننا يومنا إلى الليل. وكنا نضرب بعصينا

(١) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب في الكفاف والقناعة).

(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في معيشة أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم).

(٣) رواه الترمذي في أبواب الزهد (باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل) (٢٣٨١).

(٤) رواه أبو داود في أول كتاب الترجل.

الخبط ثم نبه بالماء فأكله. قال: وانطلقنا على ساحل البحر فرفع لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا هي دابة تدعى العنبر، فقال أبو عبيدة: مية: ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلاثمائة حتى سمنا. ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقطع منه الفدر كالشور أو كالقدر الثور، ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها، ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحتها وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: «هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟» فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله^(١).

«الجراب»: وعاء من جلد معروف، وهو بكسر الجيم وفتحها، والكسر أفصح قوله. «نمحصها» بفتح الميم. «والخبط» ورق شجر معروف تأكله الإبل. «والكثيب»: التل من الرمل. «والوقب» بفتح الواو وإسكان القاف، ويعدها باء موحدة، وهو نفرة العين. «والقلال»: الجرار. «والفدر» بكسر الفاء وفتح الدال: القطع. «رحل البعير» بتخفيف الحاء: أى جعل عليه الرحل. «الوشائق» بالشين المعجمة والقاف: اللحم الذى اقتطع ليقدد منه، والله أعلم.

وعن جابر رضي الله عنه قال: إنا كنا يوم الخندق نحفر، فعرضت كدية شديدة، فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عرضت في الخندق. فقال: «أنا نازل»، ثم قام وبطنه معصوب بحجر. ولبثنا ثلاثة أيام لا نذوق ذواقاً، فأخذ النبي ﷺ المعول فضرب فعاد كثيباً أهيل أو أهيم، فقلت: يا رسول الله، ائذن لى إلى البيت. فقلت لامراتي: رأيت بالنبي ﷺ شيئاً، ما فى ذلك صبر، فعندك شيء؟ فقالت: عندى شعير وعناق، فذبحت العناق وطحنت الشعير، حتى جعلنا اللحم فى البرمة، ثم جئت النبي ﷺ والعجين قد انكسر، والبرمة بين الأثافي قد كادت تنضج، فقلت: طعيم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان. قال: «كم هو؟» فذكرت له، فقال: «كثير طيب، قل لها لا تنزع البرمة ولا الخبز من التنور حتى آتى» فقال: «قوموا» فقام المهاجرون والأنصار. فدخلت عليها فقلت:

(١) رواه مسلم فى كتاب الصيد والذبايح وما يؤكل من الحيوان (باب إباحة مية البحر).

ويحك، قد جاء النبي ﷺ والمهاجرون والأنصار ومن معهم. قالت: هل سألك؟ قلت: نعم. قال: «ادخلوا ولا تضاغطوا». فجعل يكسر الخبز ويجعل عليه اللحم، ويخمر البرمة، والتنور إذا أخذ منه، ويقرب إلى أصحابه ثم يتزع، فلم يزل يكسر ويغرف حتى شبعوا وبقي منه، فقال: «كُلْ هذا وأهدي، فإن الناس أصابتهم مجاعة» متفق عليه.

وفى رواية قال جابر: لما حفر الخندق رأيت بالنبي ﷺ خمصاً، فانكفأت إلى امرأتى فقلت: هل عندك شيء؟ فإني رأيت برسول الله ﷺ خمصاً شديداً، فأخرجت إلى جراباً فيه صاع من شعير، ولنا بهيمة داجن فذبحتها، وطحنت الشعير ففرغت إلى فراغي، وقطعتها في برمتها، ثم وليت إلى رسول الله ﷺ فقالت: لا تفضحنى برسول الله ﷺ ومن معه، فجئت فساررتة فقلت: يا رسول الله، ذبحنا بهيمة لنا، وطحنت صاعاً من شعير، فتعال أنت ونفر معك. فصاح رسول الله ﷺ فقال: «يا أهل الخندق، إن جابراً قد صنع سوراً فحيهلاً بكم» فقال النبي ﷺ: «لا تنزلن برمتكم، ولا تخبزن عجينكم حتى أجيء» فجئت وجاء النبي ﷺ يقدم الناس حتى جئت امرأتى فقالت: بك وبك! فقلت: قد فعلت الذي قلت، فأخرجت عجينة فبصق فيه وبارك، ثم عمد إلى برمتنا فبصق وبارك، ثم قال: «ادعى خابزة فلتخبز معك، واقدحى من برمتكم ولا تنزلوها» وهم ألف، فأقسم بالله لا أكلوا حتى تركوه وانحرفوا وإن برمتنا لتغظ كما هي، وإن عجينا ليخبز كما هو (١).

قوله: «عرضت كُدية» بضم الكاف وإسكان الدال وبالياء المشاء تحت: وهي قطعة غليظة صلبة من الأرض لا يعمل فيها الفأس. «والكثيب»: أصله تل الرمل، والمراد هنا صارت تراباً ناعماً، وهو معنى «أهيل» و«الأثافي»: الأحجار التي تكون عليها القدر. و«تضاغطوا» تراحموا. و«المجاعة»: الجوع، وهو بفتح الميم. و«الخمص» بفتح الخاء المعجمة والميم: الجوع. و«انكفأت»: انقلبت ورجعت. و«البهيمة» بضم الباء تصغير بهمة، وهي العناق بفتح العين. و«الداجن» هي التي

(١) رواه البخاري في المغازي (باب غزوة الخندق) ومسلم في كتاب الأشربة (باب جواز استباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك).

ألفت البيت. و«السور»: الطعام الذى يدعى الناس إليه، وهو بالفارسية و«جيهلاً»: أى تعالوا. وقولها «بك وبك»: أى خاصمته وسبته، لأنها اعتقدت أن الذى عندها لا يكفيهم، فاستحيت وخفى عليها ما أكرم الله سبحانه وتعالى به نبيه ﷺ من هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة. «بسق»: أى بصق، ويقال أيضاً: بزق - ثلاث لغات - و«عمد» بفتح الميم: أى قصد و«اقدحي»: أى اغرفي، والمقدحة: المغرفة. و«تغط» أى لغليانها صوت، والله أعلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال أبو طلحة لأم سليم قد سمعت صوت رسول الله ﷺ ضعيفاً أعرف فيه الجوع، فهل عندك من شئ؟ فقالت: نعم، فأخرجت أقراصاً من شعير، ثم أخذت خميراً لها، فلفت الخبز ببعضه، ثم دسته تحت ثوبي وردتني ببعضه، ثم أرسلتني إلى رسول الله ﷺ، فذهبت به فوجدت رسول الله ﷺ جالساً فى المسجد ومعه الناس فقمتم عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أرسلك أبو طلحة؟» فقلت: نعم، فقال: «أطعام؟» فقلت: نعم، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا» فانطلقوا وانطلقت بين أيديهم حتى جئت أبا طلحة، فأخبرته، فقال أبو طلحة: يا أم سليم: قد جاء رسول الله ﷺ بالناس، وليس عندنا ما نطعمهم؟ فقالت: الله ورسوله أعلم. فانطلق أبو طلحة حتى لقي رسول الله ﷺ فأقبل رسول الله ﷺ معه حتى دخلا، فقال رسول الله ﷺ: «هلمي، ما عندك يا أم سليم». فأتت بذلك الخبز فأمر به رسول الله ﷺ، ففت وعصرت عليه أم سليم عكة فآدمته، ثم قال فيه رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقول، ثم قال: «ائذن لعشرة»، فأذن لهم فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: «ائذن لعشرة» فأذن لهم فأكلوا ثم خرجوا ثم قال: «ائذن لعشرة» حتى أكل القوم كلهم وشبعوا، والقوم سبعون رجلاً أو ثمانون متفق عليه. وفى رواية: فما زال يدخل عشرة ويخرج عشرة حتى لم يبق منهم أحد إلا دخل فأكل حتى شبع، ثم هياها فإذا هى مثلها حين أكلوا منها. وفى رواية: فأكلوا عشرة عشرة، حتى فعل ذلك بثمانين رجلاً، ثم أكل النبي ﷺ بعد ذلك وأهل البيت وتركوا سؤراً. وفى رواية: ثم أفضلوا ما بلغوا جيرانهم.

وفي رواية عن أنس قال: جئت رسول الله ﷺ يوماً فوجدته جالساً مع أصحابه وقد عصب بطنه بعصا، فقلت لبعض أصحابه: لم عصب رسول الله ﷺ بطنه؟ فقالوا: من الجوع، فذهبت إلى أبي طلحة - وهو زوج أم سليم (بنت ملحان) فقلت: يا أبتاه، قد رأيت رسول الله ﷺ عصب بطنه بعصا، فسألت بعض أصحابه، فقالوا: من الجوع. فدخل أبو طلحة على أمي فقال: هل من شيء؟ قالت: نعم عندي كسر من خبز وتمرات، فإن جاءنا رسول الله ﷺ وحده أشبعناه، وإن جاء آخر معه قل عنهم. (١)

القناعة والعفاف والاقتصاد

عرض المؤمن نفسه على شريكه ليعمل عنده، فقال له شريكه الكافر: أخذت مثل ما أخذت وهذه حالك وهذه حالي، أخبرني عما فعلت، فقال له: أقرضته ربي فسحب يده من يده ثم قال: أئنك لمن المصدقين، فما تززع المؤمن وما اهتزت ثقته عند الله وقد وردت النصوص تدل على فضل القناعة والعفاف وإليك بعضها .

قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ {هود: ٦} .

وقال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾

{البقرة: ٢٧٣}.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ {الفرقان: ٦٧}.

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ {الذاريات: ٥٦-٥٧}.

(١) رواه البخاري في الأنبياء (باب علامات النبوة في الإسلام) وفي المساجد والأطعمة والإيمان والندور، ومسلم في الأشربة (باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك).

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس» متفق عليه. «العرض»: بفتح العين والراء: هو المال^(١)

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلوات الله عليه وسلم فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال «يا حكيم، إن هذا المال خضر حلو: فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى». قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر رضي الله عنه يدعو حكيماً ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئاً، ثم إن عمر رضي الله عنه دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله، فقال: يا معشر المسلمين، أشهدكم على حكيم أني أعرض عليه حقه الذي قسمه الله له في هذا الفئ، فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحداً من الناس بعد النبي صلوات الله عليه وسلم حتى توفي^(٢).

«يرزأ»: أي لم يأخذ من أحد شيئاً، وأصل الرزء: النقصان: أي لم ينقص أحداً بالأخذ منه. و«إشراف النفس» تطلعها وطمعها بالشيء. و«سخاوة النفس» هي عدم الإشراف إلى الشيء، والطمع فيه. والمبالاة به، والشرة.

وعن حكيم بن حزام رضي الله عنه أن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وأبدأ بمن تعمل، وخير الصدقة ما كان عن ظهر غني، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله» متفق عليه. وهذا لفظ البخاري، ولفظ مسلم أخصر^(٣).

وعن أبي عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان صخر بن حرب رضى الله عنهما قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «لا تلحفوا في المسألة، فوالله لا يسألني أحد منكم شيئاً فتخرج له مسألته مني شيئاً وأنا له كاره، فيبارك له فيما أعطيته»^(٤).

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب الغنى غنى النفس) ومسلم في الزكاة (باب ليس الغنى عن كثرة العرض).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا والزكاة (باب الاستعفاف عن المسألة) والرقاق والخمس، ومسلم في الزكاة (باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى).

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (باب لا صدقة إلا عن ظهر غني) ومسلم في الزكاة (باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى).

(٤) رواه مسلم في كتاب الزكاة (باب النهي عن المسألة).

وعن أبي عبد الرحمن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «ألا تبايعون رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» وكنا حديثي عهد ببيعة، قلنا: قد بايعناك يا رسول الله. ثم قال: «ألا تبايعون رسول الله؟» فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله، ولا تشركوا به شيئاً، والصلوات الخمس وتطيعوا الله» وأسر كلمة خفيفة: «ولا تسألوا الناس شيئاً». فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحداً يناوله إياه^(١).

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم»^(٢).

«المزعة» بضم الميم، وإسكان الزاي، وبالعين المهملة: القطعة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سأل الناس تكثراً فإنما يسأل جمرأ فليستقل أو ليستكثر»^(٣).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً وتكفل له بالجنة؟» فقلت: أنا، فكان لا يسأل أحداً شيئاً^(٤).

وعن أبي بشر قبيصة بن المخارق رضي الله عنه قال: تحملت حمالة، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأل فيها فقال: «أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها» ثم قال: «يا قبيصة، إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فحلت له المسألة حتى يصيبها، ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش، أو قال: سداداً من عيش - ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه لقد أصابت فلاناً فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش أو قال: سداداً من عيش فما سواهن من المسألة، يا قبيصة، سحت يأكلها صاحبها سحتاً»^(٥).

(١) رواه مسلم في الزكاة (باب كراهة المسألة للناس).

(٢) رواه البخاري في كتاب الزكاة (باب من سأل الناس تكثراً) ومسلم في كتاب الزكاة (باب كراهة المسألة للناس).

(٣) أخوجه الترمذي في كتاب الزهد (باب ما جاء في الهم في الدنيا) رقم / ٢٣٢٧. وأبو داود في كتاب الزكاة (باب الاستغفار).

(٤) رواه أبو داود في كتاب الزكاة (باب كراهية المسألة).

(٥) رواه مسلم في الزكاة (باب من حل له المسألة).

«الحمالة»: أن يقع قتال ونحوه بين فريقين فيصلح إنسان بينهم على مال، يتحملة ويلتزمه على نفسه. و«الجائحة»: الآفة تصيب مال الإنسان و«القوام»: هو ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه و«السداد»: ما يسد حاجة المعوز ويكفيه. و«الفاقة» الفقر و«الحجي» العقل.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس، ترده اللقمة واللقمتان، والتمررة والتمررتان، ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»^(١).

الحث على الأكل من عمل يده

والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

لقد طلب المؤمن عملاً يتكسب منه، وهذا مما لا حرج فيه لورود النصوص بذلك .

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾

{الجمعة: ١٠}.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «لأن يحتطب أحدكم حزمة على ظهره خير له من أن يسأل أحداً فيعطيه أو يمنعه»^(٢).

وعنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «كان زكريا عليه السلام نجاراً»^(٣).

وعن المقداد بن معديكرب رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: «ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يديه، وإن نسي الله داود صلوات الله عليه وسلم كان يأكل من عمل يده»^(٤).

(١) رواه البخاري في الزكاة (باب لا يسألون الناس إلفاً) وفي التفسير، ومسلم في الزكاة (باب المسكين الذي لا يجد غني . .).

(٢) رواه البخاري في الزكاة (باب الاستعفاف عن المسألة) و (باب لا يسألون الناس إلفاً) ومسلم في الزكاة (باب كراهة المسألة للناس) وفي البيوع والشرب.

(٣) رواه مسلم في أحاديث الأنبياء من كتاب الفضائل (باب من فضائل زكريا عليه السلام).

(٤) رواه البخاري في أوائل البيوع (باب كسب الرجل وعمله بيده).

الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير

ثقة بالله تعالى

الكرم والجود من الأخلاق الفاضلة التي يحبها الله، وهى صفات وجدت بوضوح عند المؤمن فقد أنفق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى وإليك بعض النصوص التي تدل على فضيلة هذه الخصال .

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ وَمَا تَنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٧٣] .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه وسلم قال: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا ففلسطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» متفق عليه. ومعناه: ينبغى ألا يغبط أحد إلا على إحدى هاتين الخصلتين (١) .

وعنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟» قالوا: يا رسول الله، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: «فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر» (٢) .

وعن عدى بن حاتم رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم قال: «اتقوا النار ولو بشق تمر» (٣) .

وعن جابر رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله صلوات الله عليه وسلم شيئاً قط فقال: لا. (٤)

(١) رواه البخاري في العلم (باب الاغتياط في العلم والحكمة) والزكاة وغيرهما، ومسلم في المسافرين من كتاب الصلاة (باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه) .

(٢) رواه البخاري في الرقاق (باب ما قدم من مال وارثه فهو له) .

(٣) رواه البخاري في الأدب (باب طيب الكلام) والزكاة وغيرهما، ومسلم في الزكاة (باب الحث على الصدقة ولو بشق تمر) .

(٤) رواه البخاري في الأدب (باب حسن الخلق والسخاء وما يكره من البخل) ومسلم في فضائل النبي صلوات الله عليه وسلم (باب ما سئل الرسول صلوات الله عليه وسلم شيئاً قط فقال لا) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط مُسكاً تلفاً»^(١).

وعنه أن رسول الله ﷺ قال: قال الله تعالى: «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»^(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ أى الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف»^(٣).

وعن أنس رضي الله عنه قال: ما سئل رسول الله ﷺ على الإسلام شيئاً إلا أعطاه، ولقد جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه فقال: يا قوم، أسلموا، فإن محمداً يعطى عطاء من لا يخشى الفقر، وإن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا، فما يلبث إلا يسيراً حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها»^(٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله عز وجل»^(٥).

وعن أبي كبشة عمرو بن سعد الأعمري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ثلاثة أقسم عليهن، وأحدثكم حديثاً فاحفظوه: ما نقص مال عبد من صدقة، ولا ظلم عبد مظلماً صبر عليها إلا زاده الله عزاً، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر - أو كلمة نحوها - وأحدثكم حديثاً فاحفظوه. (قال): إنما الدنيا لأربعة نفر: عبد رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقاً؛ فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه

(١) رواه البخاري في الزكاة (باب قوله تعالى: فاما من أعطى واتقى) ومسلم في الزكاة (باب في المنفق والممسك):

(٢) رواه البخاري في التفسير (باب قوله تعالى: وكان عرشه على الماء) وفي النفقات، ومسلم في الزكاة (باب الحث على النفقة وتشير المنفق بالخلف).

(٣) رواه البخاري في الإيمان (باب إطعام الطعام) ومسلم في الإيمان (باب بيان تفاضل الإسلام وأي أمور أفضل).

(٤) رواه مسلم في فضائل النبي ﷺ (باب ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً قط فقال لا).

(٥) رواه مسلم في البر والصلة (باب استحباب العفو والتواضع).

مالاً، فهو صادق النية، يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان، فهو نيته، فأجرهما سواء، وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً، فهو يخبط في ماله بغير علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً: فهذا بأخبث المنازل، وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً، فهو يقول: لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان، فهو نيته، فوزرهما سواء» (١).

وعن عائشة رضي الله عنها أنهم ذبحوا شاة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما بقي منها؟» قال: ما بقي منها إلا كتفها. قال: بقي كلها غير كتفها» (٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ومعناه: تصدقوا بها إلا كتفها، فقال: بقيت لنا فى الآخرة إلا كتفها.

وعن أبى هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «مثل البخيل والمنفق كمثلي رجلين عليهما جنتان من حديد من ثديهما إلى تراقيهما فأما المنفق فلا ينفق إلا سبغت - أو وفرت - على جلده حتى تخفى بنانه وتعفو أثره. وأما البخيل فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسعها فلا تتسع» (٣).

والجنتة: الدرع. ومعناه أن المنفق كلما أنفق سبغت وطالت حتى تجر وراءه وتخفى رجليه وأثر مشيه وخطواته.

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربي أحدكم فلوه، حتى تكون مثل الجبل!» (٤) متفق عليه. «الفلو» بفتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، ويقال أيضاً بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو: وهو المهر.

وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشى بفلاة من الأرض فسمع صوتاً فى سحابة: أسق حديقة فلان، فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه فى حرة، فإذا

(١) رواه الترمذى فى الزهد (باب ما جاء مثل الدنيا مثل أربعة نفر) رقم / ٢٣٢٦ .

(٢) رواه الترمذى صفة القيامة (باب فضل التصدق) رقم / ٢٤٧٢ .

(٣) رواه البخارى فى الزكاة (باب مثل البخيل والتصدق) واللفظ له، ومسلم فى الزكاة من طرق (باب مثل المنفق عليه والبخيل).

(٤) رواه البخارى فى الزكاة (باب الصدقة من كسب طيب) ومسلم فى الزكاة (باب قبول الصدقة من الكسب وتربيتها) واللفظ للبخارى.

شجرة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله، فتسبغ الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته، فقال له: يا عبد الله، ما اسمك؟ قال: فلان للاسم الذي سمع في السحابة فقال له: يا عبد الله لم تسألني عن اسمي؟ فقال: إني سمعت صوتاً في السحاب الذي هذا ماؤه يقول: اسق حديقة فلان لإسمك، فما تصنع فيها؟ فقال: أما إذ قلت هذا فإني أنظر ما يخرج منها، فأصدق بثلكه، وأكل أنا وعيالي ثلثاً. وأرد فيها ثلثه» (١).

«الحرّة»: الأرض الملبسة حجارة سوداً. و«الشجرة» بفتح الشين المعجمة وإسكان الراء وبالجميم: هي مسيل الماء.

النهي عن البخل والشح

انتفع المؤمن بصدقته أحوج ما يكون إليها، بينما عاد مال المشرك وبالاً عليه، فقد بخل بماله وكان سبباً في طغيانه وقد وردت النصوص تنهى عن البخل والشح. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ (٩) فَسَنِيسِرُهُ لِّلْعُسْرَىٰ (١٠) وَمَا يَغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّىٰ﴾ [الليل: ٨-١١].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: «اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم، واستحلوا محارمهم» (٢).

(١) رواه مسلم في الزهد والرفائق (باب الصدقة في المساكين).

(٢) رواه مسلم في البر والصلة والآداب (باب تحريم الظلم).

الإيثار والمواساة

كان أرفق بالمشرك لو ارتفع إلى مقامات الإيثار والمواساة بدلاً من اغتراره بما له وأولاده، واحتقاره لأخيه المؤمن بسبب احتياجه وقد وردت النصوص تدل على فضل الإيثار والمواساة. قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَيَّ أَنفُسَهُمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. وقال تعالى: ﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَيَّ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسا: ٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني مجهود. فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «من يضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله. فانطلق به إلى رحله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم. وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ قالت: لا، إلا قوت صبياني. قال: فعلليهم بشيء، وإذا أرادوا العشاء فنوميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفيئ السراج وأريه أنا نأكل. فقعدوا، وأكل الضيف، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا على النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «لقد عجب الله من صنعكما بضيفكما الليلة»^(١).

وعنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «طعام الاثنيين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة» متفق عليه.^(٢)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بينما نحن في سفر مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل على راحلة له، فجعل يصرف بصره يمينا وشمالا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل من زاد فليعد به على من لا زاد له» فذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل!^(٣)

(١) رواه البخاري في المناقب باب ويؤترون علي أنفسهم... الآية) وفي فضائل الأنصار وفي التفسير، ومسلم في الأشربة (باب إكرام الضيف وفضل إيثاره).

(٢) رواه البخاري في الأظمة (باب طعام الواحد يكفي الاثنيين) ومسلم في الأشربة (باب فضيلة المواساة في الطعام القليل).

(٣) رواه مسلم في اللقطة (باب استحباب المواساة بفضول المال).

التنافس في أمور الآخرة

قال العلماء: إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافس في الآخرة، وإن استطعت أن لا يسبقك إلى الله أحد فافعل، فالمنافسة المحمودة لا تكون في بناء القصور واقتناء الأموال وإنما فيما يشغل الميزان ويرضى الرحمن وقد وردت في التنافس المحمود نصوص نذكر لك بعضها .

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلوات الله عليه وسلم أتى بشراب فشرب منه، وعن يمينه غلام وعن يساره الأشياخ. فقال للغلام: «أتأذن لي أن أعطى هؤلاء؟» فقال الغلام: لا والله يا رسول الله، لا أوثر بنصيبى منك أحداً فقله رسول الله صلوات الله عليه وسلم في يده (١).

«تله» ب: أى وضعه، وهذا الغلام هو ابن عباس رضي الله عنه.

فضل الغنى الشاكر

وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوه المأمور بها .

لم يختلف العلماء في أن الفقير المؤمن أفضل من الغنى الكافر، وإنما تنازعوا في المفاضلة بين الفقير المؤمن والغنى الشاكر والراجح أن أتقاهما لله أفضلهما عنده سبحانه، وقد وردت النصوص تبين فضل الغنى الشاكر .

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿٦﴾ فَسَنِيسِرُهُ لِلْيُسْرَى﴾ [الليل: ٥-٧]. وقال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْآتِقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: ١٧-٢١].

وقال تعالى: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعْمًا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١].

(٣) أخرجه البخاري في المظالم (باب إذا أذن له أو حلله) وفي أول الشرب وأبواب أخرى منه، ومسلم في الأشربة

وقال تعالى: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

والآيات في فضل الإنفاق في الطاعات كثيرة معلومة .

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله صلوات الله عليه وسلم فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم، فقال: «وما ذاك؟» فقالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا تصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلي، يا رسول الله، قال: «تسبحون، وتكبرون، وتحمدون دبر كل صلاة، ثلاثاً وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلوات الله عليه وسلم فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله. فقال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»^(١) متفق عليه. وهذا لفظ رواية مسلم.

ذكر الموت وقصر الأمل

ما أكثر العبد من ذكر الموت إلا ورأيت خيراً ذلك في أقواله وأفعاله، وقد كان هذا شأن المؤمن فإذا رأى صاحبه المشرك قد اشترى قصوراً أو عبداً . . . يقول في نفسه يموت غداً فيتركهم ويموتون فيتركونه ثم يقوم فيصلى ويتصدق بماله كما ورد في كتب التفسير وقد دلت النصوص على فضل ذكر الموت وقصر الأمل .

قال الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾

[آل عمران: ١٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (باب الدعاء بعد الصلاة) ومسلم في كتاب الصلاة (باب استحباب الذكر

بعد الصلاة وبيان صفته) .

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٩) وَأَنْفَقُوا مِنْ مَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَّ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠) وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٩-١١] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلوات الله عليه وسلم بمنكبى فقال: «كن فى الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك رواه البخارى .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط النبي صلوات الله عليه وسلم خطاً مربعاً، وخط خطاً فى الوسط خارجاً منه، وخط خطاً صغيراً إلى هذا الذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيطاً به - أو قد أحاط به - وهذا الذى هو خارج أمله، وهذه الخطط الصغار الأعراض: فإن أخطأه هذا نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا^(١)

وعنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه وسلم: «أكثرُوا من ذكر هاذم اللذات» يعنى الموت^(٢) .
وعن أبى بن كعب رضي الله عنه: كان رسول الله صلوات الله عليه وسلم إذا ذهب ثلث الليل قام فقال: «يا أيها الناس، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه!» قلت: يا رسول الله، إنى أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ فقال: «ما شئت» قلت: الربع؟

قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالنصف؟

قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: فالثلثين؟

قال: «ما شئت، فإن زدت فهو خير لك» قلت: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: «إذن تكفي همك ويغفر له ذنبك»^(٣)

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق (باب في الأمل وطوله) .

(٢) رواه الترمذي في الزهد (باب ما جاء في ذكر الموت) رقم / ٢٣٠٨ .

(٣) رواه الترمذي في أبواب صفة القيامة (باب رقم ٢٤) رقم / ٢٤٥٩ .

وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون (١)

الدنيا دار بلاء وامتحان، فأراد سبحانه أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الصابر فتنة للغني قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

ومعنى هذا أن كل واحد مختبر بصاحبه، فالغني ممتحن بالفقير، عليه أن يواسيه ولا يسخر منه، والفقير ممتحن بالغني، عليه ألا يحسده ولا يأخذ منه إلا ما أعطاه، وأن يصبر كل واحد منهما على الحق، كما قال الضحاك في معنى «أتصبرون» أى على الحق، وأصحاب البلايا يقولون: لِمَ لم نُعاف؟ والأعمى يقول: لِمَ لم أجعل بصيراً؟ وهكذا صاحب كل آفة .

والرسول ﷺ المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشرف الناس من الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام العدل. ألا ترى إلى قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٌ مِّنَ الْقُرَيْتِينَ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

فالفتنة أن يحسد المبتلى المعافى، ويحقر المعافى المبتلى، والصبر أن يحبس كلاهما نفسه هذا عن البطر، وذاك عن الضجر «أتصبرون» محذوف الجواب، يعنى أم لا تصبرون فيقتضى جواباً كما قاله المزني، وقد أخرجته الفاقة والفقر يوماً فرأى خصياً فى مراكب ومناكب، فخطر بباله شئ فسمع من يقرأ الآية: «أتصبرون» فقال: بلى ربنا نصبر ونحتسب، وقد تلا ابن القاسم صاحب مالك هذه الآية حين رأى أشهب بن عبد العزيز فى مملكته عابراً عليه، ثم أجاب فى نفسه بقوله: سنصبر .

وفى تفسير القرطبي: عن أبى الدرداء رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ قال: «ويل للعالم من الجاهل، وويل للجاهل من العالم، وويل للمالك من المملوك، وويل للمملوك من المالك، وويل للشديد من الضعيف، وويل للضعيف من الشديد، وويل للسلطان من الرعية، وويل للرعية من السلطان، وبعضهم لبعض فتنة وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

قال ابن كثير فى تفسير الآية: أى اختبرنا بعضكم ببعض وبلونا بعضكم ببعض لنعلم من يطيع من يعص، ولهذا قال تعالى: ﴿أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ أى بمن يستحق أن يوحى إليه كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾

{الأنعام: ١٢٤}.

ومن يستحق أن يهديه الله عز وجل لما أرسلهم به ومن لا يستحق ذلك، وقال محمد بن إسحاق فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾

{الفرقان: ٢٠}.

قال: يقول الله عز وجل: لو شئت أن أجعل الدنيا مع رسلى فلا يُخالفون لفعلت، ولكن قد أردت أن أتلى العباد بهم وأتليكم بهم .

وفى صحيح مسلم: عن عياض بن حمار عن رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: إني مبتليك ومبتلى بك» (١) .

وفى المسند: عن رسول الله ﷺ: «لو شئت لأجرى الله معى جبال الذهب والفضة» (٢) .

وفى الصحيح: أنه عليه أفضل الصلاة والسلام خير بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً فاختار أن يكون عبداً رسولاً» أ.هـ .

والخطاب فى الآية عام فى جميع الناس، وهذا هو الصحيح، وقيل: إن هذا فى رؤساء المشركين وفقراء الصحابة، فإذا رأى الشريف الوضع قد أسلم قبله أنف أن يُسلم فأقام على كفره لئلا يكون للوضع السابقة والفضل عليه، ودليله قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ {الأحقاف: ١١} وهذا قول الكلبي والفراء والزجاج .

وقيل: إن هذا فى أصحاب البلاء والعافية، هذا يقول: لم لم أجعل مثله فى الخلق والخلق وفى العقل وفى العلم وفى الرزق وفى الأجل؟ وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما والحسن رحمه الله .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أحمد .

وقيل: هذا احتجاج عليهم في تخصيص محمد ﷺ بالرسالة مع مساواته إياهم في البشرية وصفاتها، فابتلى المرسلين بالمرسل إليهم وأنواع أذاهم على ما قال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾ [آل عمران: ١٨٦].

والمرسل إليهم يتأذون أيضاً من المرسل بسبب الحسد وصورته مكلفاً بالخدمة وبذل النفس والمال بعد أن كان رئيساً مخدوماً. والأولى حمل الآية على الكل لأن بين الجميع قدراً مشتركاً.

وقد كانت قصة صاحب الجنتين، صورة واضحة للفتنة والابتلاء بين الغنى الكافر والفقير المؤمن الصابر، وستظل هذه الآية من سورة الفرقان ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠] تنتزل كالبلسم الشافي على الإنسانية المعذبة في ضميرها المضطربة في أنظمتها، المتداعية في أخلاقها، فلا بد من التدبر والتأمل في معانيها فهي كافية في عصمة البشر من الهاوية، التي تردوا فيها نتيجة إغراضهم عن منهج ربهم عز وجل: ﴿فَمَن آتَبَعْهُدَايَ فَلَا يَضِلْ وَلَا يَشْقَى﴾ (١٢٣) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى ﴿

{طه: ١٢٤}.

القواعد الذهبية حتى لا تكون فتنة (١)

أولاً: العقيدة

قوة العقيدة صمام أمان، وعصمة للنفس في مواجهة الفتن، فلا أمن ولا أمان إلا بالإيمان قال سبحانه وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

والعقيدة: هي مسائل الإيمان وقضايا التوحيد.

وسنستعرض بعض جوانبها وأثر هذه الجوانب في الوقاية من الفتنة والاكتمال.

(١) القضاء والقدر

إيمان العبد بالقضاء والقدر يجعله مطمئن القلب، هادئ البال، فالقدر هو نظام التوحيد، ومن كذب بالقدر فقد نقض تكذيبه توحيداً، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] تسكن النفس عندما تطالع هذه الآيات وتمتلئ القلوب رضى عن الله عز وجل، فهو سبحانه وتعالى بقسطه وعلمه، جعل الروح والفرح فى اليقين والرضي، وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط .

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ (٢٢) لكيلاً تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم واللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٢-٢٣] فعندما يعلم المؤمن أن المصيبة مقدرة من عند الله سبحانه وتعالى، فإنه لا يحزن على فائت، ولا يفرح فرحاً يطغيه بما آتاه، بل يسير إلى ربه سيراً جميلاً معتدلاً بلا إفراط أو تفريط وبلا غلو أو جفوة، وبلا إسراف أو تقصير، فالنعمة لا تطغيه والبلوى لا تقنطه من رحمة الله عز وجل .

(٢) الإيمان باليوم الآخر

من علم أن المرجع والمآب إلى الله عز وجل، وتيقن الصراط والميزان وتطائر الصحف، وأن الأمر إما جنة وإما نار، وأن الآخرة من ذهب ييقي، وأن الدنيا من خزف يفني، وأن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، وأن الآخرة قد ارتحلت مقبلة، وقد اقترب للناس حسابهم، وأن الموت نهاية كل حي، وأن القبر أول منزل من منازل الآخرة، من علم ذلك هانت عليه المصيبات وخفت عنده الأحزان، وأصبحت الهموم همماً واحداً، وهو هم الآخرة، فالإيمان باليوم الآخر تسلية المؤمنين فى مواجهة شدائد الدنيا وفتنتها .

(٣) الإيمان بالأسماء والصفات

إن الإيمان بالأسماء والصفات من شأنه أن يثبت النفوس ويقوى العزائم ويعين على مواجهة النوائب والفتن، فالمسلم الذى يعلم أن الله حكيم يتقبل الأحداث ويدرك أن فيها خيراً له، حتى وإن خفيت الحكمة منها.

(٤) مفهوم المسلم للمصائب والأحزان

المسلم يؤمن بأن المصائب قد تكون علامة على محبة الله للعبد ففى الحديث: «إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم»^(١) والابتلاء للمسلمين يكون على قدر إيمانهم «أشد الناس بلاءً الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل»^(٢) فإذا صبر واحتسب نال الأجر العظيم «إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ» [الزمر: ١٠].

ولكى تستبين قيمة العقيدة، انظر فى قصة الخنساء، هذه المرأة التى بكت أخواها صخراً وأنشدت فيه المعلقات وانتابها الجزع بسبب فراقه، هى هى عندما يموت أولادها الأربعة فى معركة القادسية، ما زادت على قولها: «الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم، وأرجو أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته».

هى امرأة هنا وهناك، وهذا أخوها وهؤلاء هم أولادها الأربعة، ومن المعلوم أن حزن المرأة على ولدها أشد من حزنها على أخيها، ولكنه الإيمان الذى يصنع الأعاجيب.

إن الحال لا يمكن أن يستقيم إلا بالإيمان بالله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره حلوه ومره .

فاللهم ارزقنا إيماناً صادقاً ودينياً قيماً تخالط بشاشته القلوب، وتوفنا اللهم مسلمين غير خزايا ولا مفتونين .

(١) رواه أحمد وصححه الألباني

(٢) رواه الطبراني وصححه الألباني .

ثانياً : التقوى والعمل الصالح

قال سبحانه وتعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧] وهذه الحياة حياة الرضا والقناعة، ومدارها على تقوى الله والعمل الصالح، فلا يمكن أن تطيب الحياة ولا أن تسعد النفوس إذا أعرضت عن أمر خالقها ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿طه: ١٢٣-١٢٤﴾ والمال والجاه والسلطان والشهرة والجمال . . . لا يمكن أن يحقق هذه السعادة فهذا هو حكم الخالق جل وعلا ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] ولذلك كان إبراهيم بن أدهم رحمه الله يقول: «والله إننا لفي نعمة لو يعلم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف» .

ثالثاً : الدعاء والتسبيح والصلاة

صح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أصاب عبداً هم ولا حزن، فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ في حكمك عدل في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً» (١) .

فإذا خفت الفتنة فاهرع إلى الصلاة والدعاء والتسبيح فهو سبحانه وتعالى الذي يجيب المضطر ويكشف الضر .

رابعاً : تقدير أسوأ الاحتمالات

والنظر إلى من هو أسوأ حالاً

جاء خباب بن الارت رضي الله عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان متوسداً بردة في ظل الكعبة وقال له : ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال صلى الله عليه وسلم : «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها ثم يؤتى بالمنشار فيوضع علي رأسه فيجعل نصفين ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصدده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلي حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون» (١).

فإن أصبت في مال أو نفس أو ولد، أو رأيت نفسك مبخوس الحظ كما تقول فانظر إلى ما هو أسوأ حالاً، حتى تؤدي شكر ما أنت فيه من نعمة.

ففي الحديث : «انظروا إلى من هو أسفل منكم في متاع الدنيا ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم» (٢).

خامساً : الواقعية والبعد عن الخيالية

إن الخيالية في التعامل والتقييم، عواقبها وخيمة، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا يفرق مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقاً رضى منها آخر» (٣) فلو ركز الرجل نظره على نقائص زوجته سيتكدر هو ويكدرها، بل لا يبعد أن يطلقها، فمن الخيالية أن ينشدها دائماً دون العشرين، لونها كذا وشعرها كذا... والبعض يتعامل مع من أمامه وكأنه ملك، فإذا بدرت منه الهفوة، صار شيطاناً في نظره!! وهذه خيالية، فلا هو ملاك ولا هو شيطان، وإنما هو بشر يصيب ويخطئ، نقبل منه إصابته ونرد عليه خطاه، فالواقعية المنضبطة بالشرع، والبعد عن الخيالية وقاية لك من الفتن .

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه مسلم .

سادساً : تقديم حسن الظن

من الفتنة أن تحسد الآخرين وتحقد عليهم، وتنظر إليهم على أنهم لا يستحقون هذا المال أو الجاه أو الصحة . . . وأنت أحق بذلك منهم، فلديك من الذكاء والفهم والفتنة ما يفوقهم!! إن فتنة البعض في أن يحسن الظن بنفسه ويسئ الظن بالآخرين، ويحمل الأقوال والأفعال على أسوأ محاملها، فيتوهم أن فلاناً يكرهه ويعاديه لكونه لم يُسلم عليه أو لم يبتسم في وجهه وقد يكون السبب أنه لم يره أو كان منشغلاً مهموماً، ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

سابعاً : كن كالشجر يقذف بالحجر فيلقى الثمر

شأنك كشأن النخلة، فلا تواجه الإساءة بالإساءة، واتفق الله فيمن لا يتقى الله فيك، واشغل نفسك بطاعة الله وبذكره سبحانه وتعالى، فنفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل فلا داعي للقليل والقال، فذكر الناس داء وذكر الله شفاء، وطن نفسك على العفو والصفح وكظم الغيظ، فأنت تتعامل مع من لا تخفى عليه خافية .

ثامناً : الأمل

لن يغلب عسر يسرين ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾

٨ [الشرح: ٥-٦]

وقال سبحانه وتعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٧].

وفى الحديث: «واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً».

فالكرب والشدة لن تدوم، بل سرعان ما تنقشع ويعقبها فرجاً وسعة، وما أكثر السنن الشرعية والكونية الدالة على ذلك، فاستصحب الأمل، ولا ينقطع رجاؤك في الله عز وجل ثق في وعده سبحانه وتعالى، فهو لا يضيع أهله وأوليائه ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

الحكمة في فتنه وابتلاء البعض بالبعض الآخر

من تتبع نصوص الشريعة ونظر في الواقع سيجد أن فتنه البعض بالبعض الآخر لا تخلو من عدة فوائد، منها :

- (١) رفع درجات المؤمنين، ومضاعفة حسناتهم وتكفير خطاياهم
- (٢) الفتنه تميز المؤمن من المنافق والصادق من الكاذب :
- (٣) البلاء والفتنة كاللدواء للداء .

انتصار المؤمن على صاحب الجنتين

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١].

وقال: ﴿ إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ﴾ وقال: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

{الرووم: ٤٧}.

وهذا وعد من الله بنصرة عباده المؤمنين، ووعد الله لا يتخلف أبداً، فمن أصدق من الله قياً وحديثاً، والنصر كما يكون بالغلبة والقهر للأعداء كما حصل لداود وسليمان وموسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فكذلك يتحقق النصر بيهلاك المكذبين كما حدث مع قوم نوح وعاد وثمود .

قال تعالى: ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وقد يكون الانتصار بانتقام الله من الكفرة بعد وفاة الأنبياء والصالحين كما حدث مع قتل يحيى ومن حاول قتل عيسى عليهما السلام .

ثم ثبات الداعية على مبدئه وقوة حجته، وصحة برهانه هي من أعظم صور النصر، قال تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿ [الصافات: ٩٧-٩٨].

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

بل ما يتصوره كثير من الناس هزيمة، قد يكون هو النصر الحقيقي كالقتل والسجن والطرده والأذى .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وقال عن صاحب يس لما قتله: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] ولو نظرت في سجن نبي الله يوسف -عليه السلام- لوجدته تمخض عن نصر عظيم، وكذلك المذلة التي لحقت بلال رضي الله عنه أثناء تعذيبه، انتهت إلى عز كبير، فما قام عبد لله مقام ذل إلا وأقامه الله مقام عز .

ولو تتبعنا قصة المؤمن مع صاحبه الجنتين، لوجدناها انطوت على صور كثيرة من صور النصر في الدنيا والآخرة. فنبات المؤمن وحرصه على طاعة الله في عسره ويسره، وغناه وفقره وقوة حجته وسطوع برهانه عندما قال له أخوه الكافر ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] رد عليه قائلاً: ﴿أَكْفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنَّا أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُّؤْتِنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحُ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَاهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧-٤١] ثم انظر كيف حل الدمار والهلاك بمال الكافر، فما كاد المؤمن يفرغ من قوله إلا ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ [الكهف: ٤٢] وكلها من صور النصر الذي تحقق لمؤمن في الدنيا مصداق قوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] ثم في الآخرة تكتمل حلقة ومعالمة الانتصار بدخول المؤمن الجنة، واستقر صاحب الجنتين المشرك في نيران الجحيم .

فليس لأحد أن يستريب في وعد الله، ولا أن يتحجر واسعاً ويقصر معاني النصر على قهر الأعداء في ساحة الحرب، كما لا يليق لأحد أن يسيئ الظن بربه، فمن ظن أن الله يخذل أوليائه فقد ظن ظن السوء برب العزة جل وعلا ﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقد يتأخر أو يتخلف النصر لسبب أو لآخر فلا تتنازل عن عقيدتك ولا تساوم على إيمانك فالسلامة لا يعدها شيء، وما بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، واتهم نفسك إن اتهمت فما نزل بلاء إلا بذنب وما رفع إلا بتوبة كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وثق في وعد الله، وأقرأ السنن الشرعية والكونية وقراءة واعية قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤].

وقال: ﴿الْمَ (١) أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١-٣]

وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرُ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر] تأمل هذه السورة وتدبرها فلو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم كما قال الإمام الشافعي رحمه الله ففيها بيان منهج النصر بسعته وشموله وتوضيح لأسبابه وطريقه .

لمثل هذا النعيم وهذا الفوز لا لغيره فليعمل العاملون

إن الفوز الحقيقي، يوم ينجح العبد في الابتلاء والاختبار والامتحان، ويطمئن على خاتمته ويؤتى كتابه بيمنه فيقول: ﴿هَاؤُمِ اقْرَءُوا كِتَابِيهِ (١٩) إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ (٢٠) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ (٢١) فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (٢٢) قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ (٢٣) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٤]

قال ابن عباس هنيئاً: أى لا يموتون فيها. لقد بلغ من فضل الله على المؤمن أن أدخله الجنة وأنجاه من النار فقال: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٦٠) لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦٠-٦١].

أى لمثل هذا النعيم وهذا الفوز فليعمل العاملون ليصيروا إليه فى الآخرة، وهذا نظير ما قال له الكافر: ﴿أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا﴾ {الكهف: ٣٤}.

وقيل: يحتمل أن يكون من قول الملائكة أو هو من قول الله عز وجل لأهل الدنيا، أى قد سمعتم ما فى الجنة من الخيرات والجزاء ﴿لِمِثْلِ هَذَا﴾ والجزاء والعطاء والفضل ﴿فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ {الصفات: ٦١} فىلكن عملك هنا ونظرك فى السماء، وعملك هنا وحساباتك حسابات أخروية، فليس دون الله منتهى وهذا هو الذى ترجوه، من وراء القول والفعل ﴿إِنَّمَا نُنْعِمُكُمْ لُوْجَهُ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ (٩) إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا {الإنسان: ٩-١٠} فالعمل الذى يتحقق به الفوز العظيم هو ما كان ابتغاء وجه الله، وعلى سنة رسول الله ﷺ، وهو أيضاً ما تم حياً لله وطمعاً فى جنته وخوفاً من ناره ﴿كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ (٩٠) وَالَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ {الأنبياء: ٩٠-٩١} وهذا هو الذى يفرق بين المؤمن وغيره، فالكل عامل ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ {الإسراء: ٨٤} وشتان بين عمل رضى الله عنه، وبين عمل شقى صاحبه به .

والكل أيضاً ساع ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ {الليل: ٤} وسعى العباد يفترق، فمن السعى ما يوصل إلى جنات النعيم، ومنه ما يقود إلى نيران الجحيم .

والكل متحرك ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ﴾ {المدثر: ٣٧} فمن تقدم إنما تقدم بطاعة الله، ومن تأخر إنما تأخر بمعصية الله، فليس منا من هو ساكن فى مكانه، ولا أضر على العبد من ذنوبه ومعاصيه فهذه هى التى تفعل به الأفاعيل فى الدنيا والآخرة، وتؤخره إلى وراء وراء .

والكل أيضاً مريد ﴿مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ {آل عمران: ١٥٢} فكن أنت من أبناء الآخرة ولا تكن من أبناء الدنيا، فإن الدنيا قد ارتحلت مدبرة، والآخرة قد ارتحلت مقبلة، وكما قال شداد بن أوس: اعلموا أنكم لن تروا من الخير إلا أسبابه، ولن تروا من الشر إلا أسبابه الخير بحذافيره فى الجنة، والشر بحذافيره فى النار، والدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر والآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قادر، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

وقالوا: اعمل عمل رجل لا ينجيه إلا عمله وتوكل توكل رجل لا يصيبه إلا ما كُتِبَ له .

وقال مؤمن آل فرعون: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ ﴿الْقَمَان: ٣٣﴾ فضع الآخرة نصب عينيك، وارتحل طلباً لها، واحذر أن تنخدع بزخرف فان وعارية مسترجعة، واسلك سبيل قوم ركبوا سفن الآخرة ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ (١٧) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿الذَّارِيَات: ١٧-١٨﴾ طلبوا السلامة لأنفسهم وعلموا أن الراحة عند أول قدم يضعونها في الجنة، فهذا هو الفوز العظيم ومثل هذا فليعمل العاملون .



الخاتمة

بدأت القصة بمشهد الجنتين ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كَلِمَاتُ الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظَلْمِ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا﴾ [الكهف: ٣٢].

فالبساتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً، بينما كان صاحبها جاحداً وكافراً ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [الكهف: ٣٥] فلم يؤد شكر ما أنعم الله به عليه، ولذلك كان كفره مؤذناً بزوال النعمة ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] ولذلك لا عجب أن أسدل ستار القصة على مشهد الجنة الخاوية على عروشها، وموقف صاحبها يقرب كفيه أسفاً وندماً ويقول: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢] ولم يكن ذلك منه إيماناً برب الأرض والسموات، ولكن حزناً على ضياع المال، وبديل أن مات وجاء مشهد صاحبه المؤمن مع إخوانه في الجنة وذلك في سورة الصافات وهو القائل: ﴿إِنِّي كَانُ لِي قَرِينٌ يَقُولُ أَنتَ كَلِمَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥٢] ﴿فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ أي أن صاحب الجنتين على شركه ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وتأتى هذه التعقيبات القرآنية في نهاية هذه القصة ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٣-٤٤] فلا منقذ له، وهناك كل أحد مؤمن أو كافر يرجع إلى الله وإلى موالاته والخضوع له إذا وقع العذاب كقوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ﴾ [غافر: ٨٤] وكقوله إخباراً عن فرعون ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتُ قَبْلُ وَكُنْتُ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩٠-٩١] حيثُ تنكشف الحقائق ويعلم الجميع أنه سبحانه المتفرد بالولاية والقدرة فلا قوة إلا قوته، ولا نصراً إلا نصره، وثوابه هو خير الثواب، وعاقبة الأعمال التي تكون لله عز وجل حميدة رشيدة كلها خير ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٤٤].

وأمام هذا المشهد يضرب مثلاً للحياة الدنيا كلها فإذا هي كتلك الجنة المضروبة مثلاً قصيرة قصيرة، لا بقاء لها ولا قرار .

﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥] فالماء اختلط به نبات الأرض، والنبات صار هشيمًا، فما أقصرها وما أهونها حياة، فكيف استخفت عقول البشر، وكيف صرفت الناس عن طاعة ربهم؟! وهذه هي حقيقتها سريعة الزوال والانتهاء، وقد آذنت برحيل، لا تستقر على حال، وكذلك أهلها لا يثبتون على وضع فالغنى قد يصير فقيرًا، والصحيح قد يعانى السقم ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

ثم يأتي هذا التعقيب ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٤٦] أى الإقبال عليه والتفرغ لعبادته خير لكم من اشتغالكم بهم والجمع لهم والشفقة المفرطة عليهم فالآخرة خير وأبقى، والدنيا متاع زائل، ولذلك فالعاقل هو الذى يقدم لنفسه الباقيات الصالحات التى تبقى لأهلها فى الجنة ما دامت السماوات والأرض، وهى شاملة لجميع الطاعات سواء كانت فرضاً أو نفلًا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هى الصلوات الخمس .

وقال عثمان رضي الله عنه: هى لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وقد ورد ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها، ولهما أحب إليّ من الدنيا جميعاً وركعتا الفجر ليست واجبة، وليس معنى ذلك أن يترك الإنسان العمل والتكسب أو أن يسب الدهر، ويحرم الطيبات، فنحن بحاجة لأن نقيم حضارة على منهاج النبوة، وأن نعمر الدنيا بطاعة الله، وأن نقيم واجب العبودية، وأن نعلم أن الذم الوارد فى النصوص، لا لزمان الدنيا ولا لمكانها، فقد جعل سبحانه ذلك ﴿خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢].

وإنما يقع الذم على تصرفات العباد المخالفة لشرع الله، كشأن صاحب الجنتين فقد كان ظالماً لنفسه بينما الجنة (البستان) ﴿آتَتْ أَكْلَهَا وَلَمْ تَظْلَمْ مِنْهُ شَيْئاً﴾ {الكهف: ٣٣} ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ {الأعراف: ٣٢} ولا يليق في الوقت ذاته أن ننشغل بالدنيا عن الدين، أو أن يبيع الإنسان دينه بدنيا غيره، فلا بد من مواجهة النعمة بالشكر، واعمال الضوابط والموازن الشرعية في كل آن وحين ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾ {الكهف: ٤٦} وتتوالى الآيات بعد ذلك ويأتى الأمر لرسول الله ﷺ في أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وهكذا تتناسب قصة الجنتين مع المثل المضروب للحياة الدنيا مع هذا الأمر الإلهي، لتصبح هذه القصة الحقيقة الواقعية -التي لا خيال فيها- بمثابة عظة وعبرة وتقريراً خيراً للقيم في الحياة وما بعد الحياة والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعملون .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

أخي الكريم:

أحرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر،
ففيها القدوة في الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر في
الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت
بها فؤاده في طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن في هذه
الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنين

قصة موسى والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأندود

قصة

موسى والخضر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .
 ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٦٩-٧١] .

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .
 قصة موسى بن عمران مع العبد الصالح عند مجمع البحرين، هي إحدى قصص سورة الكهف وسورة الكهف من السور المكية . وهي إحدى سور خمس بدئت ب «الحمد لله» وهذه السور: الفاتحة، الأنعام، الكهف، سبأ، فاطر .

والحمد لله هو الثناء على الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وفي ذلك إرشاد للعباد إلى وجوب حمده سبحانه، وقد ختمت سورة الكهف بالتوحيد كما بدأت به، ففي خاتمتها يقول ربنا جل وعلا: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

والقصص من سمات القرآن المكي، وهذا واضح في سورة الأعراف ويونس وهود ويوسف وإبراهيم والحجر والإسراء والكهف وطه والأنبياء والمؤمنون والفرقان والنمل والقصص وغيرها من سور القرآن، وقد كانت الدعوة في مكة بحاجة إلى تنزل القصص بغرض إظهار صدق النبي ﷺ في دعوته الأمم بما أخبر به عن الأحوال الماضية عبر القرون والأجيال وقيام التحدى بذلك، ومن هذه الأهداف زجر الكفار وإنذارهم وتخويفهم، وبيان أسس الدعوة وأن

الدين عند الله الإسلام، وأن الذي تعدد هو الشرائع، وشريعة الإسلام حاکمة ومهيمنة على سائر الشرائع، كما أن في القصص حث على مكارم الأخلاق وهو بمثابة إعجاز في إيجاز .

وقد اشتملت سورة الكهف على عدة قصص وأمثال بقصد العظة والإعتبار . وقد عدد البعض قصص السورة بخمس، وأدخل فيها قصة السجود لآدم على الرغم من أنها كررت كثيراً في القرآن الكريم . وقصص السورة ورد بهذا الترتيب .

الأولى: قصة أصحاب الكهف، وهي تبدأ بالآية السادسة والعشرين .

الثانية: قصة صاحب الجنتين مع صاحبه وتبدأ بالآية الثانية والثلاثين .

الثالثة: قصة سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس وعصيانه وتبدأ بالآية الخمسين من السورة .

الرابعة: قصة الخضر مع موسى عليه السلام وتبدأ بالآية الستين من السورة :

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ [الكهف: ٦٠] .

الخامسة: قصة ذى القرنين وتبدأ بالآية الثالثة والثمانين من السورة .

وقد حث النبي ﷺ على قراءة سورة الكهف خصوصاً يوم الجمعة، فقد روى الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من قرأ سورة الكهف يوم الجمعة أضاء له من النور ما بين الجمعتين» .

فينبغي الحرص على تلاوتها وخصوصاً في خير يوم طلعت عليه الشمس، وينبغي كذلك حفظ آيات من سورة الكهف لأمر النبي ﷺ بقراءة فواتح الكهف على الدجال أو آخرها، فقد أخرج مسلم من حديث النواس بن سمعان، أن النبي ﷺ قال: «من أدركه فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف» .

وروى مسلم أيضاً عن أبي الدرداء أن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال - أي من فتنته -»^(١) .

قال شعبة: من آخر الكهف، وقال همام: من أول الكهف، ومعلوم أنه ما بين خلق آدم حتى قيام الساعة فتنة أعظم أو أشد من الدجال، وما من نبي إلا وأنذر أمته الدجال .

قال النووي: سبب ذلك (الحث على تلاوة سورة الكهف) ما في أولها من العجائب والآيات فمن تدبرها لم يفتن بالدجال وكذا آخرها

وقصة الخضر مع نبي الله موسى من القصص الذي لم يتكرر في كتاب الله تعالى، وقد اشتملت على فوائد كثيرة ومسائل عديدة حرية بالتوضيح والبيان .

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مناسبة القصة

سبب هذه القصة ما خرجة الصحيحان عن أبي بن كعب رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه فأوحى الله إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب فكيف لي به، قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكث فحيثما فقدت الحوت فهو ثم» وذكر الحديث، واللفظ للبخارى .

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن يذكرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوهم، واستخلفهم في الأرض، ثم قال: وكلم الله نبيكم تكليماً، واصطفاه لنفسه، وألقى عليه محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، وورثكم العز بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالاً، فقال له رجل من بني إسرائيل: عرفنا الذي تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يا نبي الله؟ قال: لا، فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل أن يا موسى وما يدريك أين أضع علمي؟ بلى، إن لي عبداً بمجمع البحرين أعلم منك، وذكر الحديث .

قال القرطبي: قال علماؤنا: قوله في الحديث: «هو أعلم منك أي بأحكام وقائع مفصلة، وحكم نوازل معينة، لامطلقاً، بدليل قول الخضر لموسى: إنك على علم علمك الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علمني لا تعلمه أنت وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه: إنه أعلم منك، فعزم فسأل سؤال الدليل بكيف السبيل، فأمر بالإرتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتاً مالحاً في مكث وهو الزنبيل فحيث يحيا وتفقدته فثم السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهداً طلباً قائلاً: ﴿ لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴾ { الكهف: ٦٠ } .

يا عليم علمنى

العلم شريف فمن أراد به الدنيا وجدها، ومن أراد به الآخرة وجدها، وما أجمل أن تضرع إلى ربك وتقول: اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمنى، ويا مفهم سليمان فهمنى، فالله تعالى هو العليم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، وأحاط بكل شئ علماً، ولا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء .

قال الشيخ حافظ حكمى فى المعارج^(١): وما أثبتته الله لنفسه أنه عليم بعلم وأن علمه محيط بجميع الأشياء من الكليات و الجزئيات وهو من صفاته الذاتية، وعلمه أزلى بأزليته، فقد علم تعالى فى الأزل جميع ما هو خالق وعلم جميع أحوال خلقه وأرزاقهم وآجالهم وأعمالهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن هو منهم من أهل الجنة، ومن هو منهم من أهل النار، وعلم عدد أنفاسهم ولحظاتهم وجميع حركاتهم وسكناتهم أين تقع ومتى تقع وكيف تقع، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا فى الدنيا ولا فى الآخرة قال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾

{ الأنعام: ٥٩ }

وفى الصحيحين حديث موسى والخضر عليهما السلام: «يا موسى إنك على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه، وأنا على علم من الله علمنيه لاتعلمه» إلى أن قال: «فركبنا فى السفينة قال: ووقع عصفور على حرف السفينة فغمس منقاره فى البحر فقال الخضر لموسى: ما علمك وعلمى وعلم الخلائق فى علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره» .

قال الخطابى: العليم هو العالم بالسرائر والخفيات التى لا يدركها علم الخلق وجاء على بناء فعيل للمبالغة فى وصفه بكمال العلم .

(١) راجع كتاب شرح أسماء الله الحسنى للأستاذ محمد حسين .

ورد في القرآن العظيم اسم العليم «١٦٢» مائة واثنان وستون مرة .

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: إن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قال حين يصبح بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شئ في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات لم تفجأه فاجئة بلاء حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي ثلاث مرات لم تفجأه فاجئة بلاء حتى يصبح»^(١) .

قال الإمام الغزالي: شرف العبد سببه العلم من حيث أنه من صفات الله تعالى ولكن العلم الأشرف ما معلومه أشرف، وأشرف المعلومات هو الله تعالى فلذلك كانت معرفة الله تعالى أفضل المعارف، بل معرفة سائر الأشياء أيضاً لها معرفة لأفعال الله تعالى، أو معرفة للطريق الذي يقرب العبد من الله أو الأمر الذي يسهل به الوصول إلى معرفة الله والقرب منه، وكل معرفة خارجة عن ذلك فليس فيها كثير شرف .

أولاً: دلائل ذلك من كتاب الله

(١) مدح سبحانه أهل العلم وأثنى عليهم وشرفهم فقال: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ {العنكبوت: ٤٩} .

(٢) نعم الله على أنبيائه كثيرة وأخصها نعمة العلم، قال تعالى لنبية صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمْنَا مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ {النساء: ١١٣} وقال عن نبية موسى عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ {القصص: ١٤} .

وقال عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ {يوسف: ٢٢} .

وقال عن داود عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَّلَ الْخِطَابِ﴾ {ص: ٢٠} .

وقال عن سليمان عليه الصلاة والسلام: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا آتِينَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ {الأنبياء: ٧٩}.

وقال في حق الخضر عليه السلام: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِينَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ {الكهف: ٦٥}.

(٣) ذكر سبحانه عباده بنعمة العلم وأمرهم بشكرها فقال: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ (١٥١) فَادْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴿

{البقرة: ١٥١-١٥٢}.

(٤) فضل الله آدم على الملائكة، فلما رأوا علمه بالأسماء كلها قالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ {البقرة: ٣٢}.

(٥) العلم حياة ونور والجهل موت وظلمة لقوله تعالى: ﴿أَوْ مِنْ كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ {الأنعام} قالوا: كان قلبه ميتاً من الجهل فأحياه الله بنور العلم، وجعل له من الإيمان نوراً يمشى به في الناس.

(٦) للعلم سلطان على القلوب أقوى من سلطان القوة الجسدية، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل سلطان في القرآن فهو حجة، قال تعالى: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ {يونس: ٦٨} أى بعلم.

(٧) جعل سبحانه صيد الكلب الجاهل ميتة لا يحل أكله وأباح صيد الكلب المعلم فقال تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلَّبِينَ تَعْلَمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ﴾ {المائدة: ٤}.

(٨) لا ينفر الكل للغزو، فلا بد من بقاء طائفة للتفقه والتعلم، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ {التوبة: ١٢٢}.

(٩) العلماء هم المستفيدون بحق من آيات الله قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

(١٠) العلماء هم من أهل الخشية قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ولذلك لما قيل للإمام الشعبي:

يا عالم، قال: إنما العالم من يخش الله.

(١١) أمر سبحانه خلقه بالرجوع للعلماء فقال:

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣].

(١٢) أمر سبحانه نبيه ﷺ أن يدعو ويقول: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي

عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

(١٣) العلم نعمة جليلة تستحق الفرح بها، قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ

وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]، وفضل الله هو الإيمان

والرحمة هي القرآن .

(١٤) من آتاه الله العلم فقد آتاه خيراً كثيراً، قال تعالى: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ

يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١٥) ذكر الله رفع الدرجات في القرآن الكريم أربع مرات، ثلاث منهن لأهل

العلم وواحدة لأهل الجهاد، وكفى بهذا الفضل شرفاً لأهل العلم، قال تعالى:

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

(١٦) يستشهد الله بأهل العلم يوم القيامة دون غيرهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ

الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ

كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٦].

(١٧) وصف الله أهل النار بالجهل فقال سبحانه: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ

مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠] وأدوات العلم هي القلب والسمع والبصر .

(١٨) سلى الله نبيه ﷺ بإيمان أهل العلم به فقال سبحانه: ﴿قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨].

(١٩) لا يستوى العالم والجاهل، قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

(٢٠) وكيفيهم فخراً هذه الشهادة:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

بعض الأحاديث

الدالة على فضل العلم وأهله

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيه علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه» (١).

(٢) عن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً، وكانت منها بقعة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكانت منها بقعة أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة لا تمسك ماءً ولا تبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثنى الله به فعلم وعمل، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به» (٢).

قسم النبي ﷺ الناس في هذا الحديث إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: هم أهل الحفظ والفهم الذين حفظوا العلم وعقلوه وفهموا معانيه واستنبطوا وجوه الأحكام والفوائد منه فهؤلاء بمنزلة الأرض التي قبلت الماء.

(١) أخرجه مسلم ورواه الأربعة والحاكم وقال: على شرط الشيخين.

(٢) متفق عليه.

القسم الثانى: أهل الحفظ الذين رزقوا حفظ العلم ونقله وضبطه ولم يرزقوا تفهما فى معانيه ولا استنباطا ولا استخراجا لوجوه الأحكام فهؤلاء بمنزلة الأرض التى أمسكت الماء ولم تنبت الكلاً والعشب الكثير .

القسم الثالث: الذين لا نصيب لهم من العلم، لا حفظا ولا فهما ولا رواية ولا دراية وهؤلاء هم الأشقياء، فهم بمنزلة الأرض التى هى قيعان لا تنبت ولا تمسك ماءً .

(٣) عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «مامن قوم يجتمعون فى بيت من بيوت الله يتعلمون القرآن ويتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة، وغشيتهم الرحمة، وتنزلت عليهم السكينة، وذكرهم الله فى من عنده، وما من رجل يسلك طريقاً يلتمس فيها علماً إلا سهل الله له طريقاً إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه» .

(٤) عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»^(١)، وكانت قراءة القرآن أحب إلى سفيان الثورى من غزو التطوع .

(٥) عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة أشياء، من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»^(٢) .

(٦) صح وثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين» ومعنى ذلك أن من لم يرد الله به خيراً لم يفقهه فى الدين .

(٧) صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لعلى رضي الله عنه: «لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» وحمر النعم هى النوق، وهى أنفس أموال العرب .

(٨) روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه لا ينقص من آثامهم شيئاً» .

(١) رواه البخاري .

(٢) متفق عليه .

(٩) عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملة في جحرها وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلمى الناس الخير ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» (١).

(١٠) عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من سلك طريقاً يبتغى فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضاً لطالب العلم وإن العالم ليستغفر له من فى السموات ومن فى الأرض حتى الحيتان فى الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر» (٢).

(١١) عن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه، وعالم ومتعلم» قال الترمذي: حديث حسن.

(١٢) عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خرج فى طلب العلم فهو فى سبيل الله حتى يرجع» (٣).

(١٣) عن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» (٤).

(١٤) وعن أبي مسعود الأنصارى رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الدال على الخير له مثل أجر فاعله» (٥).

(١٥) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضى بها ويعلمها» (٦)، والحكمة هى الفقه فى دين الله، وهى السنة، وهى أيضاً طاعة الله والإتباع لها.

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب.

(٢) رواه أبو داود والترمذي.

(٣) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

(٤) رواه الترمذي.

(٥) رواه مسلم وأبو داود.

(٦) متفق عليه.

(١٦) عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»^(١).

(١٧) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ففي تبليغ العلم إرضاء لرسول الله ﷺ وكفى بذلك شرفاً للعلم والعلماء.

(١٨) قدم النبي ﷺ حاملي العلم على غيرهم فقال: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم إسلاماً»^(٢).

(١٩) أوصى النبي ﷺ بطلبة العلم خيراً، فيروى أنهم كانوا يأتون أبا سعيد الخدري رضي الله عنه فيقول: مرحباً بوصية رسول الله، إن النبي ﷺ قال: «إن الناس لكم تبع وإن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون في الدين فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً».

(٢٠) وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين»^(٣).

وعن ابن عباس رضي الله عنه ما قال: «كان القراء (الفقهاء) أصحاب مجلس عمر رضي الله عنه ومشاورته كهولاً وشباباً»^(٤).

قال أبو عمر بن عبد البر: أحاديث الفضائل تسامح العلماء قديماً في روايتها عن كل، ولم ينتقدوا فيها كانتقادهم في أحاديث الأحكام، وباللغة التوفيق.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه البخاري.

آثار هامة

(١) عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه : الناس ثلاثة، فعالم رباني، ومتعلم على سبيل النجاة وهمج رعا ع أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ربح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى ركن وثيق . العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، العلم يزكوا على الإنفاق والمال تنقصه النفقة، العلم حاكم والمال محكوم عليه، ومحبة العلم دين يدان به .

(٢) قال معاذ بن جبل رضي الله عنه : «تعلموا العلم فإن في تعلمه لله خشية وطلبه عبادة، ومدارسته تسييح، والبحث عنه جهاد وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والصبر على البأساء والضراء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم خير قادة، سادة هداة يقتدى بهم، أدلة على الخير تقتص آثارهم، يبلغ العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكر فيه يعدل الصيام، ومدارسته تعدل القيام، به يطاع الله عز وجل وبه يعبد وبه يوحد ويمجد وبه توصل الأرحام وبه يعرف الحلال والحرام وهو إمام والعمل تابع له، يلهمه السعداء ويحرمه الأشقياء .

(٣) عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في عقله ورأيه .

(٤) قال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ورفعه هلاك العلماء، فوالذي نفسى بيده ليرغبن رجال قتلوا في سبيل الله شهداء أن يبعثهم الله علماء لما يرون من كرامتهم، وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم .

(٥) قال لقمان لابنه: «يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن الله سبحانه يحيى القلوب بنور الحكمة كما يحيى الأرض بوابل السماء» .

(٦) قال الحسن: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم .

(٧) قال بعض السلف: إذا أتى عليّ يوم لا أزداد فيه علماً يقربني إلى الله فلا بورك لى فى شمس ذلك اليوم. وقالوا أيضاً: أى شئ أدرك من فاته العلم، وأى شئ فاته من أدرك العلم.

(٨) سئل ابن المبارك عن أحسن الناس، قال: العلماء، قيل من الملوك، قال فالزهاد قيل فمن السفلة، قال: الذي يأكل بدينه.

(٩) عن الحسن: إن الرجل ليتعلم الباب من العلم فيعمل به خير من الدنيا وما فيها.

(١٠) عن أبي عمير الطورى أبان بن سليم قال: كلمة حكمة لك من أخيك خير لك من مال يعطيك لأن المال يطغيك والكلمة تهديك .

(١١) وعن الحسن البصرى قال: الدنيا كلها ظلمة إلا مجالس العلماء .

(١٢) عن ميمون قال: إن مثل العالم فى البلد كمثل عين عذبة فى البلد .

(١٣) عن عبد الله بن المبارك قال: خيرٌ سليمان بن داود بين الملك والعلم فاختر العلم، فاتاه الله الملك والعلم معه باختياره العلم .

(١٤) عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: ٢٠١]، قال: الحسنة فى الدنيا العلم والعبادة، والحسنة فى الآخرة الجنة.

(١٥) كان ابن مسعود رضى الله عنه إذا رأى الشباب يطلبون العلم يقول: مرحباً بينابيع الحكمة ومصابيح الظلم خلقان الثياب، جدد القلوب، حبس البيوت ريحان كل قبيلة .

(١٦) فى حكمة داود عليه السلام: العلم فى الصدر كالمصباح فى البيت، وقيل لبعض حكماء الأوائل: أى الأشياء ينبغى للعالم أن يقتبسها؟ قال: الأشياء التى إذا غرقت سفينته سبحت معه يعنى العلم . وقال غيره: من اتخذ العلم لجاماً اتخذته الناس إماماً، ومن عرف بالحكمة لاحظته العيون بالوقار.

وقال عبد الملك بن مروان لبنيه: يا بنى تعلموا العلم فإن استغنيتم كان لكم كمالاً، وإن افتقرتم كان لكم مالاً.

(١٧) قال معتمر بن سليمان: كتب إلى أبى وأنا بالكوفة يا بنى اشتر الورق واكتب الحديث فإن العلم يبقى والدنانير تذهب، وقال إسماعيل بن جعفر بن سليم الهاشمى: عجبت لمن يكتب العلم كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة . وقال بعض العلماء: من شرف العلم وفضله أن كل من نسب إليه فرح بذلك وإن لم

يكن من أهله، وكل من دفع عنه ونسب إلى الجهل عز عليه ونال ذلك من نفسه وإن كان جاهلاً .

(١٨) قال جعفر بن محمد: الكمال كل الكمال التفقه في الدين، والصبر على النائبة، وتدبير المعيشة، قال: وما موت أحد أحب إلى إبليس من موت فقيه، وقال بعض الحكماء: من الدليل على فضيلة العلماء أن الناس تحب طاعتهم، وكان يقال: العلم أشرف الأحساب والأدب والمروءة أرفع الأنساب، ويقال: مثل العلماء مثل الماء حيث ما سقطوا نفعوا .

(١٩) قال أبو الأسود الدؤلي: الملوك حكام على الناس، والعلماء حكام على الملوك، وقيل لبزرجمهر: أيما أفضل الأغنياء أو العلماء ؟ فقال: العلماء، قيل له: فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ؟ قال لمعرفة العلماء بفضل الغنى وجهل الأغنياء بفضل العلم، وقال بعض الحكماء: أفضل العلم وأولى مانافست عليه منه علم ما عرفت به الزيادة في دينك ومرءتكَ .

(٢٠) قال المبرد: كان يقال: تعلموا العلم فإنه سبب إلى الدين، ومنبهة للرجل، ومؤنس في الوحشة، وصاحب في الغربية، ووصلة في المجالس، وجالب للمال، وذريعة في طلب الحاجة .

وقال ابن المقفع: اطلبوا العلم فإن كتمتم ملوكاً برزتم وإن كتمتم سوقة عثتم .
ويقال: ثلاثة لا بد لصاحبها أن يسود: الفقه، والأمانة، والأدب .

وقيل للقمان الحكيم: أي الناس أفضل ؟ قال: مؤمن عالم إن ابتغى عنده الخير وجد . وقال الحجاج لخالد بن صفوان: من سيد أهل البصرة ؟ فقال له: الحسن، فقال وكيف ذلك وهو مولى ؟ فقال: احتاج الناس إليه في دينهم واستغنى عنهم في دنياهم، وما رأيت أحداً من أشرف أهل البصرة إلا وهو يروم الوصول في حلقتة إليه ليستمع قوله ويكتب علمه، فقال الحجاج: هذا والله السؤدد .

(٢١) عن كعب قال: أوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: تعلم الخير وعلمه الناس فإنني منور لمعلم العلم ومتعلمه قبورهم حتى لا يستوحشوا لمكانهم، وكتب رجل إلى أخ له: إنك قد أوتيت علماً فلا تطفئ نور علمك بظلمات الذنوب فتبقى في ظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم إلى الجنة - وروى: «ما

أدى المرء لأخيه هدية أفضل من كلمة يزيدة الله بها هدى أو يرده بها عن ردى . وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: يرزق الله العلم السعداء ويحرمه الأشقياء .

الرحلة في طلب العلم

لقد ارتحل نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه لسماع الخضر وتكلف السفر للإستزاده من العلم، وهذا دأب الصالحين .

قال القرطبي: «في هذا من الفقه رحلة العالم في طلب الإزدياد من العلم، والإستعانة على ذلك بالخدام والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان من دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم في العلوم أقدام، وضح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام .

قال البخارى: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس في حديث أه .

وقال سعيد بن المسيب: إن كنت لأسير الليالى والأيام في طلب الحديث الواحد .
وقال الشعبي: ما علمت أن أحداً من الناس كان أطلب لعلم في أفق من الأفاق من مسروق .

وعن مالك بن دينار قال: أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: أن اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد ثم اطلب العلم واتعب حتى تخلق نعليك أو تخلق نعلك وتنكسر عصاك .

وقال الشعبي: لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن لسمع كلمة حكمة ما رأيت أن سفره ضاع .

وعن بسر بن عبيد الله الحضرمي قال: إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه ورحل مسروق في حرف، ورحل أبو سعيد في حرف .

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان يبلغنا الحديث عن رجل من أصحاب النبي صلوات الله عليه، فلو أشأ أن أرسل إليه حتى يجيئني فيحدثني فعلت، ولكني كنت أذهب إليه فأقبل (نومة القيلولة) على بابه حتى يخرج إلى فيحدثني .

حدث الشعبي قال: حدثنا أبو بردة عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «أيما رجل كانت عنده وليدة، فعلمها وأحسن تعليمها، وأدبها فأحسن تأديبها، وأعتقها فتزوجها فله أجران، وأيما رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى فله أجران، وأيما مملوك أدى حق مواليه وأدى حق ربه فله أجران»^(١)
خذاً بغير شئ قد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة، كان الشعبي يقوله.

الحال التي تنال بها العلم

عن أبي الأحوص قال: قال عبد الله: إن الرجل لا يولد عالماً، وإنما العلم بالتعلم.

وعن ابن شبيب قال: لا يكون طبع بلا أدب، ولا علم بلا طلب.

وقال علي بن فضال: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين ولا يأنف أحدكم أن يأخذ الحكمة ممن سمعها منه.

وقال أيضاً: تزاوروا وتذاكروا الحديث فإنكم إن لم تفعلوا يدرس (يحكى) علمكم.

وعن ابن جريح قال: لم استخرج الذى استخرجت من عطاء إلا برفقى به.
وقال علقمة: تذاكروا الحديث فإن إحياء ذكره.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: تذاكروا الحديث فإنه يهيج بعضه بعضاً.

وعن إسماعيل بن رجاء أنه كان يأتي صبيان الكتاب فيعرض عليهم حديثه كي لا ينسى.

وحدث عيسى بن المسيب قال: سمعت إبراهيم يقول: إذا سمعت حديثاً فحدث به حين تسمعه ولو أن تحدث به من لا يشتهي، فإنه يكون كالكتاب فى صدرك.

وعن يزيد بن عبد الحمين بن أبى ليلى قال: إحياء الحديث مذاكرته، فقال له عبد الله بن شداد: يرحمك الله كم من حديث أحببته فى صدرى.

وسئل بعض الحكماء ماالسبب الذى ينال به العلم، قال: بالحرص عليه يتبع، وبالحب له يستمع وبالفراغ له يجتمع .

وقال سعيد بن جبير: لقد كان ابن عباس يحدثنى بالحديث لو يأذن لى أن أقوم فأقبل رأسه لفعلت . وقال الخليل بن أحمد: كن على مدارسة ما فى صدرك أحرص منك على مدارسة ما فى كتبك .

وعن عون بن عبد الله بن عتبة قال: لقد أتينا أم الدرداء فتحدثنا عندها فقلنا: أمللناك يا أم الدرداء فقالت: ماأمللتمونى لقد طلبت العبادة فى كل شئ فما وجدت شيئاً أشفى لنفسى من مذاكرة العلم، أو قالت: من مذاكرة الفقه .

وقال الرياشى: سمعت الأصمعى وقيل له كيف حفظت ونسى أصحابك؟ قال: درست وتركوا .

وقال الفراء: لا أرحم أحداً كرحمتى لرجلين، رجل يطلب العلم ولا فهم له، ورجل يفهم ولا يطلبه، وإنى لأعجب ممن فى وسعه أن يطلب العلم ولا يتعلم .

وقيل لبزرجمهر: بم أدركت من العلم؟ قال: ببيكور كبكور الغراب وصبر كصبر الحمار، وحرص كحرص الخنزير .

وقال رجل لأبى هريرة: إنى أريد أن أتعلم العلم وأخاف أن أضيعه، فقال أبو هريرة: كفى بتركك له تضييعاً .

وقد أنشد بعضهم:

أدم للعلم مذاكرة فحياة العلم مذاكرته

وقصة موسى مع الخضر خير شاهدعلى أن العلم لا ينال براحة الجسم .

الصبر على النصب واستدامة الطلب

ركب نبي الله موسى البحر، ولم يكتف بما عنده من العلم، تاركاً موطنه صابراً محتسباً، فلما لقي الخضر قال له:

﴿ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴾ (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿ {الكهف: ٦٦-٦٩}

وقد كان مالك بن أنس يقول: لا ينبغي لأحد يكون عنده العلم أن يترك العلم.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: منهومان لا تنقضي نهمتهما طالب علم وطالب دنيا.

وروى أن المسيح عليه السلام قيل له: إلى متى يحسن التعلم؟ قال: ما حسنت الحياة.

وقيل لابن المبارك: إلى متى تطلب العلم؟ قال: حتى الممات إن شاء الله.

وقيل له مرة أخرى مثل ذلك فقال: لعل الكلمة التي تنفعني لم أكتبها بعد ذلك.

وسئل سفيان بن عيينة: من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم لأن

الخطأ منه أقبح.

وقال المنصور بن المهدي للمأمون: أيحسن بالشيخ أن يتعلم؟ فقال: إن كان

الجهل يعيبه فالتعلم يحسن به.

وقال ابن أبي غسان: لا تزال عالماً ما كنت متعلماً فإذا استعنت كنت جاهلاً.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن الناس يقولون أكثر أبو هريرة ولولا آيتان في

كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم تلا: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ ﴾

{البقرة: ١٧٤}

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى ﴾ {البقرة: ١٥٩}.

وإخواننا المهاجرين كان يشغلهم العمل في أموالهم وإن أبا هريرة كان يلزم

رسول الله صلوات الله عليه وسلم لشبع بطنه ويحضر مالا يحضرون.

قال أبو عمر: في هذا الحديث من الفقه معان، منها: أن الحديث عن رسول الله ﷺ حكمه حكم كتاب الله المنزل، ومنها: إظهار العلم ونشره وتعلمه، ومنها: ملازمة العلماء والرضى باليسير للرغبة، ومنها الإيثار للعلم على الإشتغال بالدنيا وبكسبها.

وروى ابن أبي الزناد عن أبيه قال: رأيت عمر بن عبد العزيز يأتي عبيد الله بن عبد الله يسأل عن علم ابن عباس فرمما أذن له وربما حجه .

كان مالك يقول: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بريعة من الفقر في طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته في طلب العلم، وحتى كان يأكل ما يلقي على مزابل المدينة من الزبيب وعصارة التمر .

وقال سحنون: لا يصلح العلم لمن يأكل حتى يشيع ولا لمن يهتم بغسل ثوبه .

قالوا: من لم يحتمل ذل القلم ساعة بقى في ذل الجهل أبداً.

وقال علي بن الحسين في خطبة خطبها: واعلموا أن الناس أبناء من يحسنون، وقدر كل امرئ ما يحسن، فتكلموا في العلم تتبين أقداركم .

قالوا: ولا كلمة أضر بالعلم وبالعلماء والمتعلمين من قول القائل: ماترك الأول للأخر شيئاً .

وقال قتادة: لو كان أحد يكتفى من العلم بشئٍ لاكتفى موسى عليه السلام ولكنه قال: ﴿ هَلْ أَتَبِعَكَ عَلَيَّ أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا ﴾ {الكهف: ٦٦} .

التواضع في طلب العلم

ارتحال نبي الله موسى عليه السلام لسماع الخضر يدل على تواضع جم، فنبى الله موسى أحد أولى العزم من الرسل، وهو أعلى رتبة من الخضر بإتفاق، وكلاهما كان على علم من علم الله لا يعلمه الآخر، لقد أدرك نبي الله موسى قيمة التواضع الجميل، فلم يعجب بعلمه، ونبذ حب الرئاسة عنه، ومن تواضع لله رفعه، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله»^(١).

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: إن العبد إذا تواضع لله رفعه الله بحكمته وقيل له انتعش نعشك الله، فهو في نفسه حقير وفي أعين الناس كبير.

وعن أيوب السخيتاني قال: ينبغي للعالم أن يضع التراب على رأسه تواضعاً لله.

وقالوا: المتواضع من طلاب العلم أكثر علماً كما أن المكان المنخفض أكثر البقاع ماءً.

وقال ابن عبدوس: كلما توقر العالم وارتفع كان العجب إليه أسرع إلا من عصمه الله بتوفيقه وطرح حب الرياسة عن نفسه.

وسئل الفضيل عن التواضع فقال: أن تخضع للحق وتنقاد له ممن سمعته ولو كان أجهل الناس لزمك أن تقبله منه.

وقال عمر: أخوف ما أخاف عليكم أن تهلكوا فيه ثلاث خلال: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه. وعن مسروق قال: كفى بالمرء علماً أن يخشى الله، وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه.

وقال أبو نعيم: والله ما هلك من هلك إلا بحب الرياسة.

وقالوا من أعجب برأيه ضل، ومن استغنى بعقله زل، ومن تكبر على الناس ذل، ومن خالط الأندال حقر ومن جالس العلماء قر.

وعن علي رضي الله عنه قال: الإعجاب آفة الألباب، وقال غيره: إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله.

لا تهمل لا أدري

عوتب نبي الله موسى عليه السلام، عندما سئل عن أعلم أهل الأرض فقال: أنا، لم لم يرد العلم لله تعالى إذ رد العلم إليه أسلم، وقد أخبر الله نبيه عليه السلام بمدة لبث أصحاب الكهف، ثم أمره سبحانه برد العلم إليه فقال: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الكهف: ٢٥-٢٦] ولذلك أيضاً يجب العلماء في فتاواهم ثم يختتمونها بقولهم (والله أعلم) .

وقد حرم سبحانه القول عليه بغير علم فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ
أَلْسِنَتَكُمُ الْكُذْبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ
الْكُذْبَ لَا يَفْلِحُونَ﴾ [النحل: ١١٦] .

وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ
بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وهذا مما اتفقت عليه الشرائع .

قال بعض السلف: ليتقى أحدكم أن يقول أحل الله كذا أو حرم الله كذا،
فيقال له: كذبت، لم أحل كذا ولم أحرم كذا .

وكان رسول الله ﷺ ينهى أميره بريدة أن ينزل عدوه إذا حاصرهم على
حكم الله، وقال: «إنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا، ولكن أنزلهم
على حكمك وحكم أصحابك»، فهناك فرق بين حكم الله وحكم الأمير
المجتهد، والمجتهد قد يصيب وقد يخطئ، وحكم الله لا يكون إلا صواباً .

وعلى المفتي أن يترث قبل أن يجيب، وأن يعلم أنه إنما يوقع عن الله، فلا
يهمل لا أدري فيما لا يعلمه، فمن أهمل لا أدري أصيبت مقاتله .

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] .

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلي قال: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب
رسول الله ﷺ، ما منهم من رجل يُسأل عن شيء إلا ود أن أخاه كفاه ولا
يتحدث حديثاً إلا ود أن أخاه كفاه» .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن كل من أفتى الناس في كل ما يسألونه عنه لمجنون»
وروى مثل هذا عن ابن مسعود رضي الله عنه .

ويقول يحيى بن سعيد: أجرأ الناس على الفتيا أقلهم علماً، يكون عند الرجل
الباب الواحد من العلم يظن أنه الحق كله .

وعن ابن سيرين قال: قال حذيفة: «إنما الناس أحد ثلاثة: من يعلم ما نسخ
من القرآن أو أمير لا يجد بدأ أو أحمق متكلف» .

قال ابن سيرين: «فلست بواحد من هذين ولا هذين ولا أحب أن أكون الثالث». وقال سحنون: «إنا لله ما أشقى المفتى والحاكم ثم قال: «هأنذا يتعلم مني ما تضرب به الركاب وتوطأ به الفروج وتؤخذ به الحقوق أما كنت عن هذا غنياً».

العلم الواجب على كل مسلم ومسلمة

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(١).

وفي الحديث الآخر الضعيف سنداً الصحيح معنى، «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة».

أما «اطلبوا العلم ولو في الصين» فلا يصح نسبه لرسول الله ﷺ، وقد ذكر شيخ الإسلام بن تيمية، أنه لا يجب على الأمر الناهي أن يصل إلى كل مكان أو إلى كل فرد بعينه، إذ هذا ليس في استطاعته، بل ولا في مقدور الأنبياء ذلك، فإذا سمع الناس بالأمر الناهي عليهم أن يرتحلوا إليه لسماعه ورفع الجهالة عن أنفسهم، وإذا كان تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله تعالى، فالواجب على المسلم أن يبدأ بتعلم التوحيد وما ينافيه من الشرك، والفرائض، ما تصح به وما تبطل به، كالصلاة والصيام والحج ويتعلم الحلال والحرام، والأمور التي تستصلح بها القلوب كالصبر والشكر والإخلاص ويتعلم الشبهات ودفعها، من باب:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر من الخير يقع فيه

ولحديث حذيفة رضي الله عنه: «كانت الناس تسأل رسول الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني»^(٢).

(١) حديث حسن رواه أبو داود.

(٢) رواه البخاري.

ثم لابد من معرفة أحكام المعاشرة والمعاملة التي تحصل بينه وبين الناس خصوصاً وعموماً وهذا يختلف من حاكم إلى محكوم إلى زارع إلى صانع إلى بائع وهكذا كل بحسب مهنته .

العلم يطلب للعمل

العلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل، والعلم هو الخشية، ولا شك أن الأنبياء والمرسلين هم أكثر الخلق علماً وخشيةً وتقى، وما تكلفوا طلب العلم إلا ليدلهم على الله وليعملوا بمقتضاه، وقد سار على دربهم السعداء والموفقون من عباد الله فمن ازداد علماً ولم يزد عملاً كان كالحمار يحمل أسفاراً .

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف: ٢-٣]

وقال سبحانه: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٤٤] .

وقال عز وجل: ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَمْلِكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَأَكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود: ٨٨] .

ويروى أن الله تبارك وتعالى قال في بعض الكتب أو أوحى إلى بعض الأنبياء: «قل للذين يتفقهون بغير الدين ويتعلمون لغير العمل ويطلبون الدنيا بعمل الآخرة ويلبسون للناس مسوك الكباش وقلوبهم كقلوب الذئاب وألسنتهم أحلى من السكر وقلوبهم أمر من الصبر أياى يخذعون وبى يستهزؤون فلا تيحن لهم فتنة تدع الحليم فيهم حيران» .

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ويل لمن لا يعلم ولا يعمل مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات» .

وقال بعض السلف: كانوا يقولون إن الذى يعظ الناس وينسى نفسه كالمصباح يحرق نفسه ويضيئ لغيره .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كونوا للعلم وعاء ولا تكونوا له رواة .

وقال معاذ رضي الله عنه: اعلّموا ما شئتم أن تعلموا فلن يأجركم الله حتى تعملوا .
وقال بعض السلف: قالت الحكمة أنى التمتتى وجدتنى فى حرفين تعمل بخير ما
تعلم وتدع شر ما تعلم .

وقال سفيان الثورى: العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا
فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا فإذا طلبوا هربوا .

وقال مالك بن دينار: إن العالم إذا لم يعمل ذلت موعظته عن القلوب كما يزل
القطر عن الصفا . وكان البعض يقول: إذا خرج الكلام من القلب وقع فى القلب
وإذا خرج من اللسان لم يجاوز الأذان .

والقرآن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع، وكان حذيفة رضي الله عنه يقول: لو شئتم
لأخبرتكم بأول علم يرفع من الناس: قال الخشية . وذلك لأنها ثمرة العلم المحمود .

وقال على رضي الله عنه: يا حاملة العلم اعملوا به، فإنما العالم من علم ثم عمل ووافق
علمه عمله وسيكون أقوام يحملون العلم ولا يجاوز تراقيهم، يخالف سريرتهم
علانيتهم، ويخالف عملهم علمهم، يقعدون حلقاً يباهى بعضهم بعضاً، حتى أن
الرجل ليغضب على جلسه أن يجلس إلى غيره، أولئك لا ترفع أعمالهم فى
مجالسهم تلك إلى الله عز وجل .

آداب العالم والمتعلم

فى هذه القصة إشارة إلى بعض الآداب التى ينبغى على العالم والمتعلم أن
يتحلى بها كالرفق بالمتعلم والصبر على المعلم وتوقيره . . .

وقد أخرج البخارى فى الأدب المفرد عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال:
«علموا ويسروا ولا تعسروا ثلاثاً» . وروى: تعلموا له السكينة والوقار، وتواضعوا
لمن تتعلمون منه، ولا تكونوا جبايرة العلماء .

وقال عطاء بن يسار: ما أرى شئاً أزين من حلم إلى علم .

وقال إبراهيم بن أدهم: ما من شئ أشد على الشيطان من عالم حلیم، إن
تكلم تكلم بعلم وإن سكت سكت بحلم، يقول الشيطان انظروا إليه، كلامه أشد
على من سكوته .

وعن رجاء بن حيوة قال: يقال ما أحسن الإسلام ويزينه الإيمان، وما أحسن الإيمان ويزينه التقوى، وما أحسن التقوى ويزينها العلم، وما أحسن العلم ويزينه الحلم، وما أحسن الحلم ويزينه الرفق .

وعن أبي جحيفة قال: كان يقال: جالس الكبراء وخال العلماء وخال الحكماء .

وقال أبو الدرداء: من فقه الرجل ممشاه ومدخله ومخرجه مع أهل العلم .
وقال الشافعي: من حفظ القرآن عظمت حرمة، ومن طلب الفقه نبه قدره، ومن عرف الحديث قويت حجته، ومن نظر في النحور رق طبعه، ومن لم يصن نفسه لم يصنه العلم .

وقال عمر مولى غفرة: لا يزال العالم مالم يجسر في الأمور برأيه ولم يستحي أن يمشى إلى من هو أعلم منه وعن الحسن قال: كان طالب العلم يرى ذلك في سمعه وبصره وتخشعه .

وعن وهب بن منبه قال: إن للعلم طغياناً كطغيان المال . أخذ ابن عباس رضي الله عنه بركاب زيد بن ثابت، فقال له زيد: خلّ عنه يا ابن عم رسول الله، فقال ابن عباس: هكذا يفعل بالعلماء والكبراء .

وعن طاوس قال: من السنة أن يوقر العالم .

وعن الزهري قال: كان سلمة يمارى (يجادل) ابن عباس فحرم بذلك علماً كثيراً .

وعن علي رضي الله عنه قال: إن من حق العالم ألا تكثر عليه بالسؤال، ولا تعتته في الجواب وأن لا تلح عليه إذا كسل، ولا تأخذ بثوبه إذا نهض ولا تفشين له سرّاً، ولا تغتابن عنده أحداً، ولا تطلبن عشرته، وإن زل قبليت معذرتة، وعليك أن توقره وتعظمه لله مادام يحفظ أمر الله، وأن تجلس أمامه، وإن كانت له حاجة سبقت القوم إلى خدمته .

وقال الحسن بن علي لابنه: يا بني إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتعلم حسن الإستماع كما تتعلم حسن الصمت ولا تقطع على أحد حديثاً وإن طال حتى يمسك .

وقال الشعبي: جالسوا العلماء فإنكم إن أحستهم حمدوكم، وإن أسأتم تأولوا لكم وعذروكم وإن أخطأتم لم يعنفوكم، وإن جهلتم علموكم، وإن شهدوا لكم نفعوكم.

وقد ذكر النووي في كتابه { التبيين في آداب حملة القرآن } : أنه على العالم والمتعلم أن يقصد بذلك رضا الله تعالى، فلا يجوز التوصل بالعلم إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء الناس أو صرف وجوه الناس إليه أونحو ذلك.

وليحذر كل الحذر من قصده التكثر بكثرة المشتغلين عليه والمختلفين إليه، وأن يتخلق بالمحاسن التي ورد الشرع بها والخصال الحميدة والشيم المرضية من الزهادة في الدنيا والسخاء ومكارم الأخلاق وطلاقة الوجه والسكينة والوقار واجتتاب الضحك وإزالة الروائح الكريهة.

وليحذر كل الحذر من الحسد والرياء والعجب واحتقار غيره، ويرفق بمن يتعلم منه ويبدل له النصيحة، ويؤدب المتعلم على التدرج، وأن لا يذل العلم، وينبغي أن يطهر قلبه من الأدناس ليصلح لقبول القرآن وحفظه واستثماره، وأن ينقاد لمعلمه، ولا يتعلم إلا ممن تكملت أهليته وظهرت ديانتته وتحققت معرفته واشتهرت صيانتته فقد قال محمد بن سيرين ومالك بن أنس وغيرهما من السلف: هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم. وعليه أن ينظر معلمه بعين الإحترام ويعتقد كمال أهليته ورجحانه على طبقتة فإنه أقرب إلى انتفاعه به وكان بعض المتقدمين إذا ذهب إلى معلمه تصدق بشئ وقال: اللهم استر عيب معلمى عنى ولا تذهب بركة علمه منى

هيبة المتعلم للعالم

قال نبي الله موسى للخضر: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ [الكهف: ٦٩] وقال: ﴿إِنْ سَأَلْتِكِ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦] فتوقير العالم وهيئته دين يدان به .

قال الربيع صاحب الشافعي رحمه الله: ما اجترأت أن أشرب الماء والشافعي ينظر إلى هيبة له، وكان للإمام مالك هيبة شديدة رغم ضعف جسده، قيل لأمر كان بينه وبين الله، فإنهم لما حفظوا أمر الله قذف الله لهم المهابة في قلوب الخلق .

قال ابن عباس رضي الله عنهما: مكثت سنة وأنا أشك في ثنتين وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن المتظاهرتين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أجد له موضعاً أسأله فيه، حتى خرج حاجاً وصحبته حتى إذا كنا بمر الظهران ذهب لحاجته وقال أدركني بإداوة من ماء، فلما قضى حاجته ورجع أتيت به بالإداوة أصبها عليه فرأيت موضعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فما قضيت كلامي حتى قال عائشة وحفصة .

قال أبو عمر: لم يمنع ابن عباس من سؤال عمر عن ذلك إلهيته، وذلك موجود في حديث ابن شهاب .

وقال سعيد بن المسيب: قلت لسعد بن مالك إنني أريد أن أسألك عن شيء وإنني أهابك، فقال: لاتهابني يا ابن أخي، إذا علمت أن عندي علماً فسألني عنه . قال: قلت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا على أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى .

وقد ورد في الصحيح: «رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عجل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة^(١) ولو صبر لرأى العجب» . وفي البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يرحم الله موسى لوددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما» .

(١) كأنه استحيًا من تكرار مخالفته وما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

هل يكون المتعلم مع المعلم كالميت بين يدي المغسل؟

ينبغي أن ينقاد المتعلم لمعلمه ويشاوره في أموره ويقبل قوله كالمريض العاقل يقبل قول الطبيب الناصح الحاذق، وهذا أولى .

وقد قال الخضر لموسى: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ {الكهف: ٦٧} أى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمي، لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب، وهو معنى قوله: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا﴾ {الكهف: ٦٨} والأتبياء لا يقرون على منكر ولا يجوز لهم التقرير أى لا يسعك السكوت جرياً على عادتك وحكمك.

فما كان من نبي الله موسى إلا أن قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ {الكهف: ٦٩} فاعترض وسأل .

قال القرطبي: قال علماؤنا: إنما كان ذلك منه لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدري كيف يكون حاله فيه، ونفى المعصية معزوم عليه حاصل في الحال، فالإستثناء فيه يناقئ العزم عليه، ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسب لنا بخلاف فعل المعصية وتركه، فإن ذلك كله مكتسب لنا والله أعلم أهـ.

وقد ذكر البعض أن المرید مع مربيه ومؤدبه ينبغي أن يكون كالميت بين يدي المغسل . فإن قصدوا بذلك أن يكون هيناً ليناً سهلاً متقاداً فلا بأس، أما أن تكون الطاعة في معصية الله فلا يجوز ذلك لأن الطاعة إنما تكون في المعروف، وعلى المرء السمع والطاعة فيما أحب وكره مالم يؤمر بمعصية فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وقد قال العلماء: إذا صح الحديث فهو مذهبي، وكل إنسان يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله ﷺ . ومن المعلوم أن كل الطرق مسدودة إلا طريق رسول الله ﷺ .

تعلم الفاضل من المفضول

فى هذه القصة دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه، لأنه نبي، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة .

وعموماً فالحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها، وما من إنسان إلا وقد تغيب عنه سنة من سنن رسول الله ﷺ، فلا يستنكف الإنسان أن يتعلم ممن هو دونه، وإلا فاته خير كثير، ولذلك قالوا: تفقهوا قبل أن ترأسوا، وقالوا أيضاً: تفقهوا قبل أن تسودوا، فاقبل النصيحة حتى ولو جاءت من كافر، واعمل بمعانى الخير حتى ولو ذلك عليها صغير .

وقد أذن عمر لابن عباس أن يتكلم بحضرة الكبار، وكان جبراً بحراً ترجماناً للقرآن وفقياً فى دين الله رغم صغر سنه .

وعن حجاج بن عمرو بن غزيرة أنه كان جالساً عند زيد بن ثابت فجاءه ابن فهد - رجل من اليمن - فقال: يا أبا سعيد إن عندى جوارى ليس نسائى اللاتى أكنُّ بأعجب إليّ منهن، وليس كلهن يعجبننى أن تحمل منى فأعزل؟ فقال زيد: أفت يا حجاج، قال: قلت غفر الله لك إنما نجلس إليك لتتعلم منك، فقال أفته، قال: قلت هو حرثك إن شئت سقيته، وإن شئت عطشته. وكنت أسمع ذلك من زيد بن ثابت، فقال زيد: صدق.

فكلام المفضول بحضرة الفاضل فى الدين، وفتياه لمن سألته، شواهد كثيرة، ومن ذلك أن أم الإمام أبى حنيفة - رحمه الله - كانت تقول له اذهب بنا لمجلس عمر بن ذر - وهو تلميذ الإمام - فيذهب بها، فتسأل عمر بن ذر، فيخجل ويستحى أن يتكلم بحضرة الإمام، فيقول له الإمام: هى طلبت منى ذلك، فيسأل الإمام عن الإجابة، ثم يقول والقول ما قاله أبو حنيفة - رحمة الله عليهم أجمعين.

العالم والفقير والمفتي بحق

عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: ألا أنبئكم بالفقير كل الفقير؟ قالوا: بلى، قال: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يؤيسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله، ولا يدع القرآن رغبة عنه إلى ما سواه، ألا لاخير في عبادة ليس فيها تفقه ولا علم ليس فيه تفهم، ولا قراءة ليس فيها تدبر.

وعن كعب أن موسى قال: يارب أي عبادك أعلم؟ قال عالم غرثان العلم. قال ابن وهب يريد الذي لا يشبع من العلم.

وعن عمر مولى غفرة أن موسى قال: يارب أي عبادك أعلم؟ قال الذي يلتبس علم الناس إلى علمه.

وقيل للقمان: أي الناس أغنى؟ قال: من رضى بما أوتى، قالوا: فأيهم أعلم قال: من ازداد من علم الناس إلى علمه.

وعن مجاهد في قوله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] قال إلا: ليعرفون.

وقال ابن جريج: إلا ليعلموا ماجلبتهم عليه من الشهوة والسعادة.

وعن أبي الدرداء قال: لن تفقه كل الفقه حتى ترى للقرآن وجوهاً كثيرة، ولن تفقه كل الفقه حتى تمتت الناس في ذات الله ثم تقبل على نفسك فتكون لها أشد مقتاً منك من الناس.

وعن قتادة قال: من لم يعرف الاختلاف لم يشم الفقه بأنفه، فمن لم يكن عالماً باختلاف الناس رد من العلم ما هو أوثق من الذي في يديه.

وقال أبو أيوب السخستاني: أجسر الناس على الفتيا أقلهم علماً باختلاف العلماء، وأمسك الناس عن الفتيا أعلمهم باختلاف العلماء، قال: وقال ابن عيينة: العالم الذي يعطى كل حديث حقه.

وقال ابن الماجشون: كانوا يقولون لا يكون فقيهاً في الحادث من لم يكن عالماً بالماضي.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: لا يكون إماماً من تتبع شواذ الحديث، أو حدث بكل ما يسمع، أو حدث عن كل أحد .

قال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة، رجل يدرى أنه لا يدرى فذلك جاهل فعلموه، ورجل يدرى ولا يدرى أنه يدرى فذلك غافل فنبهوه، ورجل لا يدرى ولا يدرى أنه لا يدرى فذلك مائق (أحمق) فاحذروه، ورجل يدرى ويدرى أنه يدرى فذلك عالم فاسألوه .

وقال سعيد بن المسيب: ليس من عالم ولا شريف ولا ذى فضل إلا وفيه عيب، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه ذهب لنقصه، كما أنه من غلب نقصانه ذهب فضله .

وقال مالك بن أنس: لا يؤخذ العلم عن أربعة :

سفيه معلى السفه، وصاحب هوى يدعوا إليه، ورجل معروف بالكذب فى أحاديث الناس، وإن كان لا يكذب على الرسول ﷺ، ورجل له فضل وصلاح لا يعرف ما يحدث به .

ثم اعلم أن فتوى المفتى وحكم الحاكم وقضاء القاضى لا تجعل الحرام حلالاً ولا الحلال حراماً .

زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم

استدل الإمام النووي - رحمه الله - على استحباب زيارة أهل الخير ومجالستهم بعدة إستدلالات منها:

قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾ [الكهف: ٦٠] إلى قوله تعالى: ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تَعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦] ومنها قوله تعالى: ﴿ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الكهف: ٢٨] .

ومنها حديث أبى هريرة عن النبى ﷺ: «أن رجلاً زار أخاً له فى قرية أخرى فأصغر الله تعالى على مدرجته ملكاً فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لى فى هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى، قال: فإنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه» (١).

وعنه قال رسول الله ﷺ : «من عاد مريضاً أو زار أخاً له في الله ناداه منادياً: طبت وطاب ممشاك وتبوأت من الجنة منزلاً»^(١).

وعن أبي موسى الأشعري أن النبي ﷺ قال: «إنما مثل الجليس الصالح وجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يجذيك، وإما أن يتباع منه، وإما أن تجد منه ريحاً طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً متنتة».

وعن ابن عباس رضيهما قال: قال النبي ﷺ لجبريل: «ما يمنحك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت: ﴿وَمَا نَنْتَزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم: ٦٤]»^(٢).

وأهل الخير هم حزب الله المنقطعون إليه اللائذون به الحائزون لشرف العلم والعمل به مع الإخلاص، ومن شبه بقوم فهو منهم، وهم القوم لا يشقى بهم جليسهم، أماتنا الله على محبتهم وحشرنا كذلك في زمرةهم.

وقد عقد نبى الله موسى العزم على لقاء الخضر بجمع البحرين حتى ولو كلفه ذلك مضى الحقب، وهو عبارة عن ثمانين أو سبعين سنة، وقد قيل لم ينصب (يتعب) نبى الله موسى حتى جاوز الموعد فلما جاوزه وسار الليلة والغد إلى الظهر ألقى عليه الجوع والنصب.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: ٦٦] قال ابن علان: ففى هذا دليل لزيارة أهل الخير فى أماكنهم ومصاحبهم ومجالستهم والتواضع معهم.

لا تقل عبدي وأمتي وقل فتاتي وفتاتي

الفتى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ [الكهف: ٦٠] الآية، هو يوشع بن نون وهو نبى بنى إسرائيل بعد نبى الله موسى وهو أيضاً الذى حبست له الشمس وقد قيل أنه كان مع نبى الله موسى يخدمه، والفتى فى كلام العرب: الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتياناً، قيل للخادم فتى على

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

(٢) رواه البخاري.

جهة حسن الأدب و نذبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ : « لا يقل أحدكم عبدي ولا أمتي وليقل فتاى وفتاتى » فهذا ندب الى التواضع . وقيل : الفتى هو ابن أخت موسى عليه السلام وقد سمي فتى موسى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ لَفَتِيَانِهِ اجْعَلُوا بِيضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ [يوسف : ٦٢]

قال تعالى : ﴿ تَرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ [يوسف : ٣٠] . قال ابن العربي : فظاهر القرآن يقتضى أنه عبد ، وفى الحديث أنه كان يوشع بن نون . وفى التفسير أنه ابن أخته ، وهذا كله مما لا يقطع به والوقف فيه أسلم أ.هـ .

ويبقى أن يقال : إذا صح الحديث بأنه يوشع بن نون فلا يترك النص الصريح لأمر احتمالى أو لكلام بعض أهل العلم رحمهم الله .

قال السيوطى فى {الإكليل فى أحكام التنزيل} : فى الآية أنه لا بأس بالإستخدام واتخاذ الرفيق والخادم فى السفر واستحباب الرحلة فى طلب العلم واستزادة العالم من العلم وتواضع المتعلم لمن يتعلم منه ولو كان دونه فى المرتبة أهـ ملخصاً .

الشیطان ينسى العبد مصالحه

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴾

{ الكهف : ٦١ } .

جمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغاً ، وأن موسى مشى عليه متبعاً للحوت حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة فى البحر وفيها وجد الخضر ، وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر .

وقوله : ﴿ نَسِيَا حُوتَهُمَا ﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى نسى أن يعلم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحة . وفى {البخارى} : «فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرني بحيث يفارقك الحوت ، قال : ماكلفت كثيراً» ، فذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ ﴾ { الكهف : ٦٠ } يوشع بن نون .

قال: فيينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان (في التراب بلل) إذ تَضْرَب (اضطرب وتحرك) الحوت وموسى نائم فقال فتاه لأوقظه حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره وتَضْرَب الحوت حتى دخل البحر فأمسك الله عنه جرية البحر حتى كان أثره في حجر، قال ابن جريج: قال لى عمرو: هكذا كان أثره في حجر وحلق بين إبهاميه واللتين تليانهما .

وفي رواية: «وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار مثل الطاق، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: ﴿آتْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ {الكهف: ٦٢} فقال له فتاه: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ {الكهف: ٦٣} .

وقيل: إن النسيان كان منهما لأنه الذي أمر به، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ {الكهف: ٦٢} يعني الحوت هناك منسياً - أى متروكاً - فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة، وإنما ذكر الله نسيانها عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة، فقد كان موسى شريكاً في النسيان، فلما مضيا من الصخرة لم يحمله واحد منهما، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركوا الحوت .

فإذا كان الشيطان من شأنه أن ينسى العبد مصالحه، وهو جاثم على قلب العبد فإذا سها وغفل وسوس له الشيطان كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، فما عليك إلا أن تكثر من ذكر الله ﴿وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ {الكهف: ٢٤} وقل اللهم رب الضالة، رد على كل غائبة بخير .

أخذ الزاد في السفر لا ينافي التوكل

أخذ نبي الله موسى في رحلته حوتاً في مكنل كما جاء في الحديث: «أحمل معك حوتاً في مكنل فحيث فقدت الحوت فهو ثمٌّ، فلما جاع قال: ﴿آتَانَا غَدَاءَنَا﴾ وفي هذا دليل على اتخاذ الزاد في الأسفار، فهذا فعل نبي الله وكليمه، فقد اتخذ الزاد مع معرفته بربه، وتوكله عليه سبحانه .

وفي صحيح البخارى: «إن ناساً من أهل اليمن كانوا يحجون ولا يتزودون ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا سألوا الناس، فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوي﴾ [البقرة]

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢] أى تعباً وقيل: عنى به الجوع، وفي هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدر في الرضا، ولا في التسليم للقضاء، لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط .

إن حقيقة التوكل، اعتماد القلب على الله في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه ودفع ما يضره في دينه ودنياه، ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للأمر والحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عاجزه توكلاً ولا توكله عاجزاً، إذ عدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد، ونحن نستدفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب، فكلاهما من قدر الله .

ومباشرة الأسباب في الجملة أمر فطرى ضرورى لإنتفكك لأحد عنه حتى الحيوان البهيم، بل نفس التوكل مباشرة لأعظم الأسباب، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] أى كافيهِ .

والتوكل يترك الأمور المكروهة مع حاجته إليها توكلاً على الله. وقد فسر بعض العلماء التوكل بسبب من الأسباب كإطفاء السراج وإغلاق الباب، فليكن عمك هنا ونظرك في السماء واعلم أن خالق السبب قادر على تعطيله، ولكى يتحقق به المطلوب نحتاج لفضل من الله أكبر .

هل كان الخضر نبياً أو ولياً؟

العبد المذكور في قوله تعالى:

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ {الكهف: ٦٥} هو الخضر في قول جمهور العلماء وهذا مقتضى الأحاديث الثابتة .

وروى الترمذى عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما سمي الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز تحته خضراء» ^(١) والفروة هنا وجه الأرض، قاله الخطابي وغيره .

والخضر نبى عند الجمهور، وهذا هو الصحيح من أقوال أهل العلم، ويشهد بذلك عدة أمور:

منها قوله تعالى عن الخضر ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّنْ لَّدُنَّا عِلْمًا﴾

{الكهف: ٦٥} .

وقد كان هو ونبي الله موسى على علم من علم الله لا يعلمه الآخر، كما ورد في الحديث، و لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى، وإلا فمن الذى يعلم أن غلاماً سيشب كافراً وسيرهق والديه طغياناً وكفراً إلا بوحى من الله، ثم هو فى نهاية القصة قال ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ {الكهف: ٨٢} إذا هو أمر أوحى إليه به، والوحى لا يكون إلا للأنبياء والمرسلين ،

أما بالنسبة للوحى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ {النحل: ٦٨} وقوله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ {القصص: ٧} فهو من الإلهام الفطرى الغريزى، والوحى المذكور فى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ {الأنعام: ١٢١} بمعنى الوسوسة، أما الأولياء دون الأنبياء فلا يوحى إليهم .

وقد عرف العلماء وحى الله إلى أنبيائه بأنه كلام الله تعالى المنزل على نبي من أنبيائه، أما الإلهام فإنه وجدان تستيقنه النفس فتساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى؟ وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور.

والرحمة المذكورة فى قوله تعالى: ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا﴾ {الكهف: ٦٥} هى رحمة النبوة، وقد تكرر إطلاقها على النبوة فى القرآن .

كما فى قوله تعالى: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ {الزخرف: ٣٢} وغيرها .

والعلم الوارد فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ {الكهف: ٦٥} هو علم الوحي . وقد تكرر ذلك كما فى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ {النساء: ١١٢} .

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ﴾ {يوسف: ٦٨} . إلى غير ذلك من الآيات .

العلم اللدني

قول الله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ {الكهف: ٦٥} يكثر الإستدلال به فى غير موضعه، حتى آل الأمر بالبعض إلى الإستغناء عن الشريعة عملاً بوسواس النفوس وخواطر القلوب .

يقول الشنقيطى^(١): «ومن أظهر الأدلة فى أن الرحمة والعلم اللدني الذين امتن الله بهما على عبده الخضر عن طريق النبوة والوحي .

قوله تعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ {الكهف: ٨٢} أى: وإنما فعلته عن أمر الله جل وعلا .

وأمر الله إنما يتحقق عن طريق الوحي، إذ لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه إلا الوحي من الله جل وعلا ولاسيما قتل النفس البريئة فى ظاهر الأمر، وتعييب السفينة بخرقها لأن العدوان على أنفس الناس وأموالهم لا يصح إلا عن طريق الوحي من الله تعالى .

وقد حصر تعالى طرق الإنذار فى الوحى فى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ﴾ {الأنبياء: ٤٥}، (وإنما) صيغة حصر.

فإن قيل قد يكون ذلك عن طريق الإلهام؟

فالجواب: أن المقرر فى الأصول أن الإلهام من الأولياء لايجوز الإستدلال به على شئ لعدم العصمة وعدم الدليل على الإستدلال به، بل ولوجود الدليل على عدم جواز الإستدلال به، وما يزعمه بعض المتصوفة من جواز العمل بالإلهام فى حق الملهم دون غيره، وما يزعمه بعض الجبرية أيضاً من الإحتجاج بالإلهام فى حق الملهم وغيره جاعلين الإلهام كالوحى المسموع مستدلين بظاهر قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ {الأنعام: ١٢٥} وبخبر: «اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظرنور الله» كله باطل لا يعول عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغير المعصوم لاثقة بخواطره، لأنه لا يأمَن دسيسة الشيطان.

وقد ضمننت الهداية فى اتباع الشرع، ولم تضمن فى اتباع الخواطر والإلهامات.

والإلهام فى الإصطلاح: إيقاع شئ فى القلب يثلج له الصدر من غير استدلال بوحي ولا نظر فى حجة عقلية، يختص الله به من يشاء من خلقه، أما مايلهمه الأنبياء مما يلقيه الله فى قلوبهم فليس كإلهام غيرهم، لأنهم معصومون بخلاف غيرهم.

وبالجملة فلا يخفى على من له إلمام بمعرفة دين الإسلام أنه لا طريق تعرف بها أوامر الله ونواهيه، وما يتقرب إليه به من فعل وترك، إلا عن طريق الوحى. فمن ادعى أنه غنى فى الوصول إلى ما يرضى ربه عن الرسل وما جاءوا به ولو فى مسألة واحدة، فلا شك فى زندقته، والآيات الدالة على هذا لا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ {الإسراء: ١٦٥} ولم يقل حتى نلقى فى القلوب إلهاماً.

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ {النساء: ١٦٥}.

وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثير من الجهلة المدعين للتصوف من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع،

كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى زندقة وذريعة إلى الإنحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهره .

كلام القرطبي فيمن زعم الاستغناء عن الشريعة بما يجده في قلبه

قال القرطبي رحمه الله في تفسيره مانصه: «قال شيخنا أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق لا تلزم منه هذه الأحكام الشرعية . فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم .

وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر فإنه استغنى بما تجلى له من العلوم عما كان عند موسى من تلك الفهوم . وقد جاء فيما ينقلون «استفت قلبك وإن أفتاك المفتون»^(١)

قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقة وكفر، يقتل قائله ولا يستتاب لأنه إنكار ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه وبين خلقه، وهم المبلغون عنه رسالته وكلامه المبينون شرائعه وأحكامه، اختارهم لذلك وخصهم بما هنالك، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ {الحج: ٧٥} وقال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ {الأنعام: ١٢٤} وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ {البقرة: ٢١٣} إلى غير ذلك من الآيات .

(١) بين أنه لا دليل في هذا النص وما أشبهه من أحاديث علي اعتبار الإلهام، وما فيها من الشبه لان الحلال بين والحرام بين.

وعلى الجملة، فقد حصل العلم القطعي واليقين الضروري، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة الله تعالى التي هي راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شئ منها إلا من جهة الرسل . فمن قال إن هناك طريقاً أخرى يعرف بها أمره ونهيه غير الرسل حيث يستغنى عن الرسل فهو كافر يقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب . ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا ﷺ ، الذي جعله الله خاتم أنبيائه ورسله، فلا نبي بعده ولا رسول .

وبيان ذلك - أن من قال: يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي» الحديث [أهـ من تفسير القرطبي] .

الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن

الحقيقة حقيقة الدين، دين رب العالمين هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج، فالشرعة هي الشريعة .

قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شَرِيعَةً وَمِنْهَا جَا﴾ [المائدة: ٤٨] .

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (١٨) إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الحجّية: ١٨-١٩] .

والمنهاج هو الطريق، والغاية المقصودة هي حقيقة الدين، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وهي حقيقة دين الإسلام، وهو أن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره، فمن استسلم لغيره كان مشركاً، والله لا يغفر أن يشرك به، ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] .

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين .

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] عام في كل زمان ومكان، فنوح وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له .

وقد جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد» .

ومن المعلوم أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين وتركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك وقد أمرنا أن ندخل في السلم كافة .
فكيف ساغ للبعض أن يقسم الدين إلى ظاهر وباطن، ويقسم العبادة إلى حقيقة وشرعية؟! .

لقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل، وتجب طاعتهم فيما يأمرون به، بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به، ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله، وما خالف الكتاب والسنة كان مردوداً، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهداً معذوراً فيما قاله، لكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئاً وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع، فإن الله تعالى يقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] فلا يسوغ لولى أن يدعى العلم اللدنى، أو أن يعتقد إنسان أن لأهل الحقيقة - بزعمه - أن يخلفوا الشريعة، أو يتدع في دين الله فيصف الفقهاء بأنهم علماء الظاهر وأن الصوفية هم علماء الباطن!!! كفانا تبييضاً وتجزئاً لدين الله . قال تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥] .

لو كان موسى حياً

لما حل له إلا أن يتابع رسول الله ﷺ

صح الخبر أن النبي ﷺ لما وجد في يد عمر بن الخطاب صحيفة من التوراة غضب وقال: «أهذا وأنا حياً بين أظهركم، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، والله لو كان موسى حياً لما حل له إلا أن يتبعني»، فكيف بالخضر وبمن هو آتونه من الأولياء .

فإن من ادعى - كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - (أو ادعى له أصحابه) أنه ولي لله وأنه مخاطب يجب على أتباعه أن يقبلوا كل ما يقوله ولا يعارضوه، ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة، فهو وهم مخطئون ومثل هذا من أضل الناس، فعمد ابن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه وهو أمير المؤمنين وكان الناس ينازعونه فيما يقوله وهو وهم على الكتاب والسنة .

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد إلا رسول الله ﷺ فأولياء الله يجب عليهم الإعتصام بالكتاب والسنة، وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة، وهو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، من خالف في هذا فهو ليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم بل إما أن يكون كافراً وإما إن يكون مفرطاً في الجهل، وهذا كثير في كلام المشايخ .

كقول الشيخ أبي سليمان الداراني: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدين الكتاب والسنة .

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله عليه: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا، أو قال: لا يقتد به .

وقال أبو عثمان النيسابوري: من أمر السنة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة، لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤] .

وقال أبو عمر بن نجيذ: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .
 لقد كان بعض الصوفية يعتبر على أهل السنة أنهم يقولون حدثنا فلان عن فلان، قال: قلنا وأين فلان، قالوا مات، عن فلان، قلنا: وأين فلان، قالوا مات، أما الواحد منا (أى من الصوفية) فيقول حدثنى قلبى عن ربي .
 ولاندرى كيف جزم بأن قلبه قد حدثه عن ربه، والوحى قد انقطع، ولا نبى بعد رسول الله ﷺ، فما الذى يمنع من أن تكون الشياطين هى التى حدثته، ولماذا لم يكتب بتصديق الوحى المنزل .

يقول ابن تيمية: فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث، لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله، والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبى المعصوم ﷺ، ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم، ويرجع إليهم فى بعض الأمور وينازعونه فى أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويقرهم على منازعته، ولا يقول لهم أنا محدث ملهم مخاطب ينبغي لكم أن تقبلوا منى ولا تعارضونى .

الصوفية في الميزان

التصوف بلاء لاحد له، امتد من حقل التربية إلى وضع الحديث، وإفساد العقيدة وتحطيم الشرع، وفتح الباب للخرافات ثم الشركيات ثم الفلسفات الهالكة كالقول بوحدة الوجود ثم اسقاط التكليف .

ولم يقتصر أمر المتصوفة على الإنفراد فى الخرائب والقبور وترك الكلام والجلوس فى الشمس وتعذيب النفس والأذكار المبتدعة والرقص والغناء والسماع الشيطانى وترك النظافة والعزلة والعيش على طعام واحد بل تعداه لما هو أعظم من ذلك، ولذلك لا غرابة فى أن يصادر الأزهر تفسير ابن عربى لما فيه من كفر وإلحاد . وإن كان ابن تيمية قد أثنى على البعض مثل الجنيد وعبد القادر الجيلانى إلا أنه وصف ابن عربى بأنه من ملاحدة التصوف، وأطلق على بعض المتصوفة اسم موسوية المحمدية وعيسوية المحمدية للتشابه مع اليهود والنصارى، وقد أدى القول بوحدة الوجود عند ابن عربى إلى اندحار الشريعة وظهور التار .

وقام دين الصوفية على تعظيم المشاهد والقبور وصرف العبادة للمقبورين من ذبح ونذر ودعاء بزعم محبة الأولياء، واستدلوا على ذلك زوراً وبهتاناً بمثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾.

ولم يتفطنوا إلى أن كل مؤمن ولى من أولياء الله بحسب إيمانه وتقواه - سواء كان حياً أو مقبوراً - وعلى كل حال لا يجوز صرف العبادة لغير الله سواء كان نبياً أو ولياً، قال تعالى: ﴿لَئِن أَسْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الزمر: ٦٥).

إن منهج التلقى عند الصوفية يقوم على الفتوحات والكشوفات والنامات، إلا البعض منهم قال إن طريقته مقيدة بالكتاب والسنة، وقد أنكر ابن تيمية الإنتاج الفلسفى لكافة الفلاسفة كالكندى والفارابى وابن سينا وبين فشل التوفيق بين القرآن والفلسفة، كما رد التفسيرات الخاطئة للغزالي عندما أقحم على الإسلام أفكار بعض فلاسفة اليونان وأعجبته بعض فصول كتاب (إحياء علوم الدين) مثل المهلكات والمنجيات وبين أن الغزالي - رحمه الله - كان مخلصاً فى طلب الحقيقة ولكن لم ينشأ بين محدثين ولم يتلق الحديث عن أصحابه، ولذلك قال عن نفسه: بضاعتى فى الحديث مزجاة ومات رحمه الله والبخارى على صدره.

ولو تتبعنا نشأة التصوف لوجدناه دخيلاً على الإسلام وعلى بيثة العرب، فقد ظهر فى النصف الثانى من القرن الثانى الهجرى وكان معروفاً من قبل فى بيئات غير عربية إنتشرت فيها الديانات الوثنية كالبودية والبراهمية والفكر الاغريقى .

وليس فى لغة العرب اشارة إلى كلمة صوفية أو صوفى بنفس المعنى الذى يهدف إليه أعلام التصوف كما أن الكتاب والسنة لا إشارة فيهما للتصوف لا بلفظه ولا بمعناه . وقد كان سبب الصوفية ظهور سلطان الموالى من غير المسلمين لاسيما الفرس وترجمة كتب الفرس والروم والهند، وإلا فالإتجاه الصوفى على هذا النحو لم تعرفه البيئة العربية قبل الإسلام، ولا يصح الإحتجاج بفترات التحنث فى غار حراء قبل البعثة .

كما أن ظن البعض أن الصوفية استأثرت بالجانب العاطفي أو السلوكي عار عن الصحة، فلم يأت الإسلام ناقصاً فجاؤوا هم فآتموه، ولا يجوز أخذ جانب من الإسلام وإهمال جانب آخر . والإسلام لم يكن دعوة للفرار من الحياة ودخول الخرائب والإنعزال عن الدنيا، ولذلك فالفكر الصوفي لا يستطيع أن يدخل حلبة النزاع مع الفكر الفلسفي الغربي أو أن يواجه النظريات الإجتماعية والإقتصادية التي يروج لها.

وقد أصبحت الصوفية وسيلة لمجابهة الدعوة السلفية ولفت النظر في ذلك أمور منها:

(١) إهتمام دوائر الإستشراق في المجال العلمي الأكاديمي بالتصوف في الإسلام بعامه والإتجاهات المنحرفة بخاصة .

(٢) التعايش السلمى بين مشايخ الطرق الصوفية والأنظمة الإستعمارية المعادية للإسلام وتحذيرهم من التيار السلفى .

(٣) انصب غضب علماء الغرب على شيوخ السلفية بينما كان المدح منهم لأمثال الحلاج وابن عربى وابن الفارض وابن سينا فى مجال الفلسفة وعلم الكلام والتصوف .

إننا نحب الخير للصوفية ولكل مسلم بل وللناس كافة، ونرى سبيل النجاة فى الرجوع لمثل ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام علماء وعملاً واعتقاداً .

وكل خير فى اتباع من سلف

وكل شر فى ابتداء من خلف

ومالم يكن يومئذ ديناً، فليس اليوم ديناً ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

شطحات صوفية

صنف العلماء قديماً وحديثاً الكتب للرد على انحرافات الصوفية، ومن ذلك كتاب {تلبيس إبليس للحافظ بن الجوزي} وابن تيمية وبرهان الدين البقاعي الذي ألف كتابين في الرد على المتصوفة وهما:

١- تنبيه الغبي على تكفير ابن عربي (النكرة أما ابن العربي فهو من علماء المالكية ومن أئمة السنة).

٢- تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الإتحاد .

وهما مطبوعان ضمن كتاب واحد بتحقيق الشيخ عبد الرحمن الوكيل وسماه {مصراع التصوف} كما ألف الشيخ عبد الرحمن الوكيل كتاباً في بيان هذه الطريقة سماه { هذه هي الصوفية } وللشيخ عبد الرحمن عبد الخالق مؤلف في الرد عليهم، كما أن فتاوى دار الإفتاء المصرية وفتاوى اللجنة الدائمة بالسعودية كافية في توضيح هوية هذه الطائفة وتفنيد شبهاتها ومزاعمها فارجع إليها .

وما هدفنا من وراء هذه النصيحة الموجزة إلا رد الحق لنصابه والتحذير من ضلالات لم تُمّت بعد، فقد ذكر الشيخ سعيد حوى - رحمه الله - في كتابه {تربيتنا الروحية} مانصه: «إنكار الكرامة لطبقات الصوفية إنكار غير علمي وليس في محله، وأهم ما ينصب عليه الإنكار ما يحدث لأهل الطريقة الرفاعية من كون النار لا تؤثر فيهم ومن كونهم يضربون أنفسهم بالرصاص أو بالسيوف ولا يوترو ذلك فيهم وهذه قضية متشعبة ومشتهرة محسة وقد تتبعها الكثير من المنكرين فرجعوا عن الإنكار إن الحجّة الرئيسية لمنكرى هذا الموضوع هي أن هذه الخوارق تظهر على يد الفساق من هؤلاء كما تظهر على يد صالحين وهذا صحيح، والتعليل لذلك هو أن الكرامة ليست لهؤلاء بل للشيخ الأول الذي أكرمه الله عز وجل بهذه الكرامة وجعلها مستمرة في أتباعه أ.هـ.»

ونحن بدورنا نسأل الشيخ سعيد حوى - رحمه الله - وأمثاله: إذا رأيت الدجال وقد ظهرت على يديه خوارق العادات - كما ورد في النصوص - أفتؤمن به؟! وكيف يختلط على مثلك التفريق بين الكرامة الرحمانية والحارقة الشيطانية!؟

قال الليث بن سعد: لو رأيت الرجل يمشى على الماء فلا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة . إن الكرامة ضابطها الإستقامة على الكتاب والسنة .

وما الذى يمنع من أن تكون المخاريق التى تحدث لأبناء الطريقة الرفاعية بسبب تعاطى السحر أوبعض الحيل ، كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حين تحدى الطرق الصوفية وأبطل دعاويهم الكاذبة وطلب من طائفة منهم أن يغسلوا أجسامهم بالخل والماء الحار قبل أن يمسوا النار فامتنعوا وخافوا لأنه كشف حيلتهم حيث عرف أنهم يطلون أجسامهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع وباطن قشر النارج وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم .

هيا بنا نتفق على كلمة سواء، فالتوحيد أولاً، وكلمة التوحيد قبل توحيد الكلمة، وتقديم الأهم على المهم أمر واجب فى العلم والعمل والدعوة إلى الله . ولا بد فى ذلك كله من الرجوع للكتاب والسنة بفهم العلماء الذين اتبعوا هذا المنهج توحيداً واتباعاً وتزكية، ولم يقعوا فى الشرك الظاهر ولا التأويل الباطل أو ضلال السلوك وترهات التصوف فهؤلاء هم القدوة بعد الصحابة والتابعين .

المشاهد التي حدثت بين الخضر وموسى

وتفسير ابن تيمية لها

قال شيخ الإسلام فى رسالة الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان: «فلفظ الشرع والشريعة إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه، ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقاً إلى الله غير متابعة محمد ﷺ باطناً وظاهراً فلم يتابعه باطناً وظاهراً فهو كافر، ومن احتج فى ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطاً من وجهين:

أحدهما: أن موسى لم يكن مبعوثاً إلى الخضر ولا كان على الخضر اتباعه، فإن موسى كان مبعوثاً إلى بنى اسرائيل، وأما محمد ﷺ فرسالته عامة إلى جميع الثقلين الجن والإنس، ولو أدركه من هو أفضل من الخضر كابراهيم وموسى وعيسى وجب عليهم اتباعه فكيف بالخضر، سواء كان نبياً أو ولياً،

ولهذا قال الخضر لموسى: «أنا على علم من علم الله علمنيه الله لاتعلمه، وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه». وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد ﷺ أن يقول مثل هذا .

الثانى: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفاً لشريعة موسى عليه السلام، وموسى لم يكن علم الأسباب التى تبيح ذلك، فلما بينها له وافقه على ذلك، فإن خرق السفينة ثم ترقيعها لمصلحة أهلها خوفاً من الظالم أن يأخذها إحساناً إليهم وذلك جائز، وقتل الصائل جائز وإن كان صغيراً، ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله .

قال ابن عباس رضي الله عنهما ما لنجدة الحرورى لما سأله عن قتل الغلمان قال له: «إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلاتقتلهم» رواه البخارى .

وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال فلم يكن فى ذلك شئ مخالفاً شرع الله .

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالماً وقد يكون عالماً، وقد يكون عادلاً، وقد يكون صواباً وقد يكون خطأ، وقد يراد بالشرع أئمة الفقه كأبى حنيفة والثورى ومالك بن أنس والأوزاعى والليث بن سعد والشافعى وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة، وإذا قلد غيره حيث يجوز ذلك كان جائزاً، أى ليس اتباع أحدهم واجباً على جميع الأمة كاتباع الرسول ﷺ، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم .

وأما إضافة أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أو تأويل النصوص بخلاف مراد الله ونحو ذلك فهذا من نوع التبديل، فيجب التفريق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والشرع المبدل، كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية، وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده أه .

مصانعة السلطان

ببعض مال اليتيم عن بعض

في صحيح مسلم والبخارى: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نول (أى بغير أجرة)، فلما ركبا في السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع منها لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأ، ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) قَالَ لَا تَأْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَسْرًا ﴿[الكهف: ٧٢-٧٣]، قال: وقال رسول الله ﷺ: «وكانت الأولى من موسى نسياناً» قال: وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر نقرة في البحر، فقال له الخضر: ما علمى وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر» .

وعن أبى العالية: لم ير الخضر حين خرق السفينة غير موسى وكان عبداً لاتراه الأعين من أراد الله له أن يريه، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة .

وقيل: خرج أهل السفينة إلى الجزيرة وتخلف الخضر فخرق السفينة . وفي خرق السفينة دليل على أن للولى أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحاً، مثل أن يخاف على ريعه ظالماً فيخرب بعضه .

وقال أبو يوسف: يجوز للولى أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض .

المسلمون عند شروطهم

في الصحيحين وصحيح الترمذى: «ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله، قال له موسى: ﴿أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نَكْرًا﴾ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿[الكهف: ٧٤-٧٥] قال وهذه أشد من الأولى ﴿قَالَ إِنْ سَأَلْتِكُمْ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾

[الكهف: ٧٦] .

لقد نسى نبي الله موسى في المرة الأولى فاعتذر وذلك لأن النسيان لا يقتضى المؤاخذه ولا يدخل تحت التكليف، أما فى المرة الثانية فلم يكن الأمر كذلك، وكان الخضر قد قال: ﴿فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٠] أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك وهذا من الخضر تأديب وإرشاد ولما يقتضى دوام الصحبة، فلو صبر ودأب لرأى العجب لكنه أكثر من الاعتراض فتعين الفراق والإعراض.

وقد قطع نبي الله موسى شرطاً على نفسه فقال: ﴿إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]

والمسلون عند شروطهم، وأحق الشروط أن يوفى به ما التزمه الأنبياء . وقد ذكر ابن العربي أن الآيات دليل على قيام الاعتذار بالمرة الواحدة مطلقاً، وقيام الحجة من المرة الثانية بالقطع .

وقال ابن عطية: ويشبه أن تكون هذه القصة أيضاً أصلاً للأجال فى الأحكام التى هى ثلاثة، وأيام المتلوم ثلاثة .

وقد ورد: «كل شرط ليس فى كتاب الله ليس بشرط وإن كان مائة شرط» . كما ورد أيضاً: «إن أحق الشروط أن يوفى به ما استحللتم به الفروج» .

فوائد هامة تتعلق بجدار اليتيمين

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ [الكهف: ٧٧] .

فى صحيح مسلم عن أبى بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿حتى إذا أتيا أهل قرية﴾ لثاماً، فطافا فى المجالس ف ﴿استطعما أهلها فأبرأ أن يضيفوهما فوجدأ فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه﴾ [الكهف: ٧٧] أن ينقض: أى مائل فأقامه الخضر بيده، قال له موسى: قوم أتيانهم فلم يضيفونا ولم يطعمونا ﴿لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ (٧٧) قال هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ [الكهف: ٧٧-٧٨] قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يرحم الله نبي الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص علينا من أخبارهما».

وفي هذه القصة فوائد :

الأولى: سقى نبي الله موسى لبنتي شعيب ابتداءً ولم يسأل قوتاً، بينما سأل القوت في القرية عندما كان مع الخضر، وقد قيل في ذلك أنه كان في حديث مدين منفرداً وفي قصة الخضر تبعاً لغيره.

وقيل كان ذلك سفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت، وكان هذا سفر تأديب فوكل إلى تكلف المشقة.

وقيل هذا شبيه بإصابته بالجوع مع فتاه مراعاة لصاحبه يوشع.

الثانية: في هذه الآية دليل على سؤال القوت وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يرد جوعه، ويظهر أن الضيافة كانت عليهم واجبة وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة .

قال قتادة: شر القرى التي لا تضيف ولا تعرف لابن السبيل حقه.

الثالثة: واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع في المشى إذا كان ماراً عليه .

الرابعة: على القول المرجوح بأن الخضر كان ولياً - والصحيح أنه نبي - يكون ما حدث دليل على كرامته وكرامات الأولياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار الثابتة والآيات المتواترة ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد وضابط الكرامة الإستقامة على الوحي المنزل.

الخامسة: قوله تعالى: ﴿لَاتَّخَذَتْ عَلَيْهِ جُورًا﴾ [الكهف: ٧٧]. فيه دليل على صحة جواز الإجارة وهي سنة الأنبياء والأولياء .

منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز

لما قدم نبي الله موسى والخضر القرية وجدا فيها ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ﴾ {الكهف: ٧٧}

قال البعض: إرادة الإنقضا من الجدار هو نوع من المجاز، والصحيح أنه لامجاز في القرآن، بل هذا أسلوب من أساليب اللغة العربية المتنوعة .
وقد قسم البعض المجاز إلى نوعين:

الأول: مجاز بالكلمة . حيث تنقل الكلمة من معناها الأصلي إلى المعنى المجازي، فتقول: رأيت أسداً (أى رجلاً) يرمى .

الثاني: مجاز بالإسناد وهو المجاز العقلي حيث يسند الفعل أو مافى معناه إلى غير ماهو فى الحقيقة .

فتقول مثلاً: «بنى الأمير قصرأ» وما بناه إلا العمال ولكن بنى القصر للأمير .
والمجاز بالكلمة أربعة أنواع:

(١) مجاز بالزيادة: يمثلون له بقوله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ {الشورى: ١١} وأن الكاف الزائدة لتوكيد نفي المثل .

(٢) مجاز بالنقصان: أى بالحذف مثل ﴿وَأَسْأَلُ الْقَرْيَةَ﴾ {يوسف: ٨٢} أى أهل القرية .

(٣) مجاز بالنقل ومثاله كلمة الغائط فقد نقلت من المكان المطمئن تقضى فيه الحاجة إلى الخارج من الإنسان .

(٤) مجاز بالإستعارة: ويمثلون له بقوله تعالى:

﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ﴾ {الكهف: ٧٧} حيث شبه ميل الجدار إلى السقوط بإرادة السقوط التى هى من صفات الحي . واعلم أن تقسيم الكلام إلى حقيقة ومجاز هو المشهور عند المتأخرين فى القرآن وغيره، ومنهم من قال لا مجاز فى القرآن وهو قول ابن خويزمنداد والظاهرية وابن القاص .

ومن أهل العلم من قال لامجاز في القرآن ولا في غيره وبه قال الاسفرائيني وأبو على الفارسي .

وآلف الشنقيطي رسالة سماها: {منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز}، وقد نصر هذا القول شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم، وبين ابن تيمية أن هذا التقسيم اصطلاح حادث بعد القرون المفضلة لم يتكلم به أحد من الصحابة والتابعين ولا أحد من الأئمة ولا علماء اللغة .

والغالب أن المجاز من جهة المعتزلة ونحوهم من المتكلمين ليكون سلباً لنفي كثير من صفات الله تعالى بإدعاء أنها مجاز وهذا من أعظم وسائل التعطيل . كما بين أيضاً بطلان هذا التقسيم وأن من ذهب إلى ذلك فقد تكلم بلا علم وابتدع في الشرع وخالف العقل، ومما يدل على بطلان ذلك أنه لا أحد يثبت أن العرب وضعت ألفاظاً لمعان ثم استعملت هذا الوضع في معان أخرى .

ومن ادعى أنه يعلم وضعاً تقدم ذلك فهو مبطل . وكل ما يسميه القائلون بالمجاز مجازاً فهو عند من يقول بنفي المجاز أسلوب من أساليب اللغة العربية المتنوعة، بعضها يتضح المراد منه بلا قيد، وبعضها يحتاج إلى قيد وكل منهما حقيقة في محله . {انظر فهارس فتاوى شيخ الإسلام ٢ / ١٣}.

أنواع التأويل

قال تعالى حاكياً عن الخضر : ﴿ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾

{ الكهف: ٧٨ } .

وتأويل الشيء : مآله، أى قال له: إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ .

وقيل فى تفسير هذه الآيات التى وقعت لموسى مع الخضر: إنها حجة على موسى، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودى: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت فى التابوت مطروحا فى اليم !! فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك القبطى وقضائك عليه !! فلما أنكر إقامة الجدار نودى يا موسى: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !! وفى نهاية القصة قال موسى: ﴿ ذلك تأويل ﴾ أى تفسير ﴿ ما لم تستطع عليه صبرا ﴾ {الكهف: ٧٨} .

والتأويل يطلق في الإصطلاح مشتركاً بين ثلاث معان:

الأول: يطلق على ما تؤول إليه حقيقة الأمر في ثانی حال، وهذا هو معناه في القرآن نحو:

﴿ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [الأسراء: ٣٥]، ﴿وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الثاني: ويطلق التأويل بمعنى التفسير، كقول ابن جرير: القول في تأويل قوله تعالى كذا (أى تفسير)

الثالث: أما في اصطلاح الأصوليين فالتأويل هو صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لدليل.

وصرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه له عند علماء الأصول ثلاث حالات:

(١) إما أن يصرف عن ظاهره المتبادر منه لدليل صحيح من كتاب أو سنة، وهذا النوع من التأويل صحيح مقبول لا نزاع فيه.

(٢) صرف اللفظ عن ظاهره المتبادر منه لشيء يعتقد المجتهد دليلاً، وهو في نفس الأمر ليس بدليل، فهذا يسمى تأويلاً بعيداً، ويقال له فاسد.

(٣) أما حمل اللفظ على غير ظاهره لا لدليل، فهذا لا يسمى تأويلاً في الإصطلاح، بل يسمى لعباً، لأنه تلاعب بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، ومن هذا النوع صرف آيات الصفات عن ظواهرها إلى محتملات ما أنزل الله بها من سلطان.

كقولهم استوى بمعنى استولى، واليد بمعنى القدرة والتزول بمعنى نزول الأمر، فهذا تلاعب بكتاب الله جل وعلا من غير دليل، ولا يجوز ذلك لأنه تهجم على كلام رب العالمين.

فالواجب علينا أن نثبت لله تعالى ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له نبيه ﷺ وننفي عن الله عز وجل ما نفاه عن نفسه، وما نفاه عنه رسوله ﷺ.

ورب العزة جل وعلا وصف نفسه في سبع مواضع من كتابه فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فنؤمن بذلك على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وكما أن ذات الله لا تشابه ذوات المخلوقين فكذلك صفات الله لا تشابه صفات المخلوقين، ولذلك قال الإمام مالك: الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، ومن قال استوى بمعنى استولى فقد وقع فيما فر منه، فالمخلوق أيضاً يستولى كما قالوا:

استولى بشر على العراق من غير سيف ولا دم مهراق والاستواء إذا ما أضيف إلى الله فعل ما يليق به سبحانه من صفات الكمال ونعوت الجلال وإذا أضيف إلى العبد فعل ما يليق به من ضعف وعجز وفقر وقس على ذلك . والكلمة إنما يكون معناها بحسب ما أضيفت إليه ككلمة رأس، يقال رأس الجبل ورأس المال ورأس الإنسان وكذلك الأمر بالنسبة للإستواء فإستواء الخالق ليس كإستواء المخلوق، وفس على ذلك بقية الأسماء والصفات، فلا تشبه الخالق بالمخلوق ولا تنفى عن الله ما أثبتته لنفسه سبحانه بزعم التنزيه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ {الأعراف: ١٨٠}.

مساكين رغم امتلاكهم السفينة

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة ولا اللقمتان إنما المسكين الذي يتعفف، اقرءوا إن شئتم: ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾ {البقرة: ٢٧٣}.

وفى لفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرمة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفتن له فيصدق عليه، ولا يقوم فيسأل الناس»^(١)

وليس هناك فرق بين الفقراء والمساكين من حيث الحاجة والفاقة، ومن حيث استحقاقهم الزكاة،

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ... الآية﴾ {التوبة: ٦٠} والمسكين قد يمتلك مالا لكنه لا يكفيه، ولذلك لا يوصف بوصف الغنى، قال تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ {الكهف: ٧٩}

(١) رواه البخاري ومسلم.

ومعناها: أن السفينة كانت لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم.
والفقير والمسكين يعطى إما كفاية عمره وإما كفاية سنته على مذهبين للعلماء .

الرضا بالقضاء

الواجب على كل امرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب، قال تعالى عن الغلام الذى قتله الخضر:

﴿ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴾ (٨١) { الكهف } أى خيراً منه ديناً وصلاً وأوصلاً للرحم .

قال قتادة: لقد فرح به أبواه حين ولد وحزنا عليه حين قتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما.
وعن ابن جبير وابن جريج: أنهما بدلا جارية، قال الكلبي: تزوجها نبي من الأنبياء فولدت له نبياً فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم .

وعن ابن عباس: فولدت جارية ولدت نبياً .

ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعاً من الأكباد،
ومن سلم للقضاء أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء .

وللعبد فيما يكره درجتان: درجة الصبر، ودرجة الرضا، فالصبر واجب على المؤمنين والرضا فضل مندوب إليه، وفى الحديث:

« إن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضى فله الرضا ومن سخط عليه السخط »^(١).

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين .
وفى صحيح البخارى من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
« يقول عز وجل ما لعبدى المؤمن عندى جزاء إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة » .

وفى الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « ما مصيبة تصيب المؤمن إلا كفر الله بها عنه الشوكة يشاؤها » .

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب .

وفى الحديث: «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة فى جسده وفى ماله، وفى ولده حتى يلقى الله وما عليه من خطيئته» (١)

والمؤمن إذا أصيب بمصيبة كان له فيها ثلاث نعم:

أنها لم تكن أكبر مما كانت، وأنها لا بد كائنة وقد كانت، وأنها لم تكن كانت فى دينه. فالواجب على المؤمن أن يقف مع البلاء بحسن الأدب وأن يسترجع ولا يشكو من يرحمه لمن لا يرحمه، وأن يعلم أن الله بقسطه وعلمه جعل الروح والفرح فى اليقين والرضى وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط.

حفظ الأبناء بصلاح الآباء

كان سعيد بن المسيب يطيل فى صلاته ويقول لابنه: والله إنى لأطيل فى صلاتى رجاء أن أحفظ فىك ويتلو قوله سبحانه: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]. وقد قال جعفر بن محمد: هو الأب السابع وقال مقاتل هو الأب العاشر، فحفظ الأبناء بصلاح الآباء، وهذا أيضاً مصداق قول النبى ﷺ فى حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «أحفظ الله يحفظك» فالإنسان يحفظ فى ولده وولد ولده بسبب طاعته لله وحفظه لأوامره سبحانه، وهذا فى الأعم الأغلب وإلا فقد يشذ الابن عن والديه، فيكونا صالحين تقيين، ويكون هو فاسداً، وقد كان كنعان ابن نوح كافراً، ولم يكن نبي الله نوح - وهو أحد أولى العزم من الرسل - يعلم بذلك ولهذا لما قال ﴿إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥] قيل له: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].

قال الحسن: كان كنعان منافقاً .

قال العلماء: فى هذه الآية تسلية للخلق فى فساد أبناءهم وإن كانوا صالحين . وروى أن مالك بن أنس نزل من فوق ومعه حمام قد غطاه، قال فعلم مالك أنه قد فهمه الناس، فقال مالك: الأدب أدب الله لا أدب الآباء والأمهات، والخير خير الله لا خير الآباء والأمهات.

(١) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

هل الخضر حي إلى الآن ؟

ذهب جمهور العلماء إلى القول بحياته، ومن نصر هذا القول القرطبي في تفسيره والنووي وابن الصلاح والنقاش وغيرهم، وحكايات الصالحين عن الخضر أكثر من أن تحصر، ودعواهم أنه يحج هو وإلياس كل سنة ويروون عنهما بعض الأدعية ويذكرون منامات وأحاديث مرفوعة عن أنس وغيره وكلها ضعيف لا تقوم به حجة، ولعل من أقوى ما يستدل به على حياة الخضر آثار التعزية حين توفي رسول الله ﷺ، وقد روى ذلك الإمام ابن كثير بقوله: «وحكى النووي وغيره في بقاء الخضر إلى الآن، ثم إلى يوم القيامة قولين، ومال هو وابن الصلاح إلى بقاءه، وذكروا في ذلك حكايات عن السلف وغيرهم وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شئ من ذلك، وأشهرها حديث التعزية وإسناده ضعيف أ هـ .

وعلى فرض صحة حديث التعزية فهل يلزم من ذلك أن يكون المعزى هو الخضر فقد يكون جنأ، ولم يذكر في الحديث أنهم رأوا الخضر، وقد قال تعالى في الجن: ﴿إِنَّهُ يَرَأِكُمْ هُوَ وَقَبِيلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧] وقد ذهب الشنقيطي في أضواء البيان إلى ترجيح القول بوفاته واستدل على ذلك بعدة أدلة منها:

(١) ظاهر عموم قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] فقوله لبشر نكرة في سياق النفي فهي تعم كل بشر، والخضر داخل في هذا المعنى .

(٢) قوله ﷺ: «اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض» رواه مسلم . فلو كان الخضر حياً في الأرض فإن الله يعبد في الأرض .

(٣) إخباره ﷺ بأنه على رأس مائة سنة من الليلة التي تكلم فيها بالحديث لم يبق على وجه الأرض أحد ممن عليها تلك الليلة فلو كان الخضر حياً في الأرض لما تأخر بعد المائة المذكورة .

قال عبد الله بن عمر: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهرها أحد» قال ابن عمر: فوهل الناس في مقالة رسول الله ﷺ تلك فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال

رسول الله ﷺ: «لا يبقى من هو اليوم على ظهر الأرض أحد» يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن .

وفى بعض الروايات: «ما من نفس منفوسة تبلغ مائة سنة» فقال سالم: تذاكرنا ذلك عنده: إنما هي على نفس مخلوقة يومئذ وكلمة نفس منفوسة تعم كل نفس مخلوقة كل الأرض وهذا العموم يشمل الخضر بلا شك لأنه نفس منفوسة على الأرض .

(٤) أن الخضر لو كان حياً إلى زمن النبي ﷺ لكان من أتباعه، ولنصره وقاتل معه لأنه مبعوث إلى جميع الثقلين الإنس والجن، والآيات الدالة على عموم رسالته كثيرة جداً كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨].

إذاً كان موسى حياً زمن بعثته ﷺ لوجب عليه أن يتبعه وكذلك الخضر - سواء كان نبياً أو ولياً - فلو كان حياً في زمن رسول الله ﷺ لكان أشرف أحواله أن يكون بين يديه يؤمن بما أنزل الله عليه، وينصره أن يصل أحد من الأعداء إليه، لأنه كان ولياً فالصديق أفضل منه وإن كان نبياً فموسى أفضل منه .

وهذا الذي يقطع به ويعلم من الدين علم الضرورة .

وقد صلى النبي ﷺ بالأنبياء صلاة الصبح إثر رجوعه من رحلة الإسراء والمعراج إماماً، ومن المعلوم أن عيسى عليه السلام إذا نزل في آخر الزمان يحكم بشريعة الإسلام لا يخرج منها ولا يحيد عنها وهو أحد أولى العزم من الرسل . فالقول بوفاة الخضر هو الأشبه بالصحة والصواب، وإن خالف في ذلك بعض الأئمة - رحمهم الله - فلا نملك إلا أن نقول: شيخ الإسلام حبيب إلى نفوسنا والحق أحب إلينا منه .

الخاتمة

قيل إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى: أوصني، قال: كن بساماً ولا تكن ضحاكاً، ودع اللجاجة، ولا تمشى في غير حاجة، ولا تعب على الخاطئين خطاياهم، وابك على خطيئتك يا ابن عمران.

إن الوصول إلى الخاتمة يستثير في النفس الشجون، فمع تمنى الإنسان حسن الخاتمة وحرصه على تجويدها استجابة لأمر الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] واجتهاده في الدعاء ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وما ينطوى تحت الكلمة من معاني التذكرة .

ورد عن ابن عباس في معنى كنز اليتيمين الذي وجد تحت الجدار، قال: كان علماً في صحف مدفونة. وعنه أيضاً قال: كان لوحاً من ذهب مكتوباً فيه **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها، لإله إلا الله محمد رسول الله . والعلاقة بين البداية والنهاية وثيقة، ففساد الإنهاء من فساد الإبتداء، والعبد إذا فسدت بدايته فسدت نهايته، وإذا فسدت نهايته فربما هلك، فالسعيد الموفق هو من ختم له بإحسان .

ففي الحديث: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، والوعظ والتذكير قيمة كبيرة في اقتلاع العبد من غفلته، وخصوصاً في لحظات الفراق والوداع، ومن ذلك قول رسول الله ﷺ: «لقنوا موتاكم لا إله إلا الله» .

وقال لمعاذ بن جبل وهو يودعه: «اتق الله حيثما كنت واتبع السيئة الحسنة تمجها وخالق الناس بخلق حسن»

واستحب للمسافر أن يقول لمن يخلف: «استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه»، ويقول المقيم للمسافر: «استودع الله دينك وأمانتك وخواتيم أعمالك، زدك الله بالتقوى وغفر ذنبك ويسر لك الخير حيثما كنت عليك بتقوى الله والتكبير على كل شرف»، فإذا ولى المسافر دعا له المقيم «اللهم اطو له البعد وهون عليه السفر» .

وما اجتمع النبي ﷺ بأصحابه وأراد أن يقوم من المجلس إلا ودعا: «اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

إن الخواتيم مطوية، والغيب لا يعلمه إلا الله، ولذلك كان ابن عمر يقول: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة لكان فرحي بالموت أشد من فرح الأهل بقدم الغائب وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ {المائدة: ٢٧}. فلا نملك إلا أن نسير إلي ربنا بين رغبة ورهبة نرجو رحمته ونخشى عذابه قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ {الأنبياء: ٩٠} .

وما كتبناه وذكرناه نرجو غنمه ونفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ونسأله سبحانه أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، إنه ولى ذلك والقادر عليه .

وختاماً نقول: سبحان الله وبحمده، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .



أخي الكريم:

أحرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر،
ففيها القدوة في الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر في
الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت
بها فؤاده في طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن في هذه
الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

قصة موسى والخضر

قصة ذي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأندود

قصة

ذی القرنین

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١] .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

الدارس لأحداث التاريخ والذي يقرأ سير الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان، يجد توافقاً في المواقف واتحاداً في المفاهيم، وهذا الأمر لا يستغرب لأنهم إنما يصدرون عن مشكاة واحدة ويتلقون عن رب واحد، ويدعون إلى رسالة واحدة وهؤلاء يمثلون خط الاستقامة، وهذا الخط يبدأ بنبي الله آدم، وعليه سار جميع الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، وعلى جنبتي هذا الخط طرق كثيرة معوجة قال تعالى:

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣] .

أى كان الناس أمة واحدة على دين واحد هو دين الإسلام ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] .

فلما اختلفوا وقع فيهم الشرك بعث الله النبيين مبشرين للمؤمنين ومنذرين للكافرين .
وقال تعالى : ﴿ وَكَوْشَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ
وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ﴾ {البقرة : ٢٥٣} .

فبين سبحانه خلقه أن البشرية انقسمت إلى قسمين مؤمنين وكفار، فمن تابع الأنبياء فهو مسلم، ومن كذب الأنبياء فهو كافر، وبالتالي فتوزيع البشرية ينبغي أن يتم على أساس العقيدة وليس على أساس النسب أو الوطن أو القومية أو اللغة أو الإقتصاد، كما لا يجوز أن يتم هذا التوزيع على أساس التاريخ المشترك وحده ولا المصالح والآمال والآلام وحدها .

ودارس التاريخ عليه ملاحظة هذه الرابطة المشتركة بين المؤمنين بالله على مر العصور حتى وإن تباعدت ديارهم واختلفت ألسنتهم وألوانهم وتفاوتت أزمانهم، فالتاريخ الإسلامي يشكل وحدة واحدة بسماته وخصائصه، كما أن التاريخ الجاهلي يشكل وحدة واحدة بسماته وخصائصه على مدار العصور .

ولا يمكن أن تستقيم الدراسة التاريخية على أساس التوزيع الجغرافي أو العائلي أو الزمني، فالعصور المظلمة عند الغرب هي من أزهى العصور عند المسلمين، وتقسيم التاريخ إلى قديم ووسيط وحديث، يصلح للغرب ولا يستقيم بالنسبة للمسلمين، فالبشرية بدأت بمرتبة من أعلى مراتب الهداية ثم : ﴿ وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ {فاطر : ٢٤} .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ {الانبياء : ٩٢} .

إذا كان الإسلام هو الدين الذي ارتضاه سبحانه للعالمين، فيجب علينا أن نصدر عنه وأن نرجع إليه في دراستنا للتاريخ وغيره، ومأثبت في شرعنا هو المقياس والميزان، وإن خالفه من خالفه ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ {الملك : ١٤} .

ولانملك كمسلمين إذا علمنا الله حكماً يتعلق بالاحداث التاريخية كقصة ذي القرنين وغيرها إلا أن نقول سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

وهذا أوان الشروع في المقصود والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله .

مناسبة القصة

قصة ذي القرنين هي القصة الرابعة في سورة الكهف، فقد ورد ذكرها بعد قصة أصحاب الكهف وقصة صاحب الجنتين وقصة موسى بن عمران مع الخضر، وهذه القصة تبدأ بالآية الثالثة والثمانين من السورة: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ {الكهف: ٨٣} .

قال قتادة إن اليهود سألو النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ {الكهف: ٨٣} .

وذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه القصة مشروحاً فقال: كان النضر بن الحارث من شياطين قريش وكان يؤذى رسول الله ﷺ وينصب له العداوة وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث رستم واسفنديار، وكان رسول الله ﷺ إذا جلس مجلساً ذكر فيه الله وحدث قومه ما أصاب من كان قبلهم من الأمم، وكان النضر يخلفه في مجلسه إذا قام، فقال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه، فهلتموا فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ثم إن قريشاً بعثوه وبعثوا معه عتبة بن أبي معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا: لهم سلوهم عن محمد وصفته وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من العلم ما ليس عندنا من علم الأنبياء فخرجوا حتى قدما إلى المدينة فسألوا أحبار اليهود عن أحوال محمد فقال أحبار اليهود سلوه عن ثلاث:

عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ماكان من أمرهم فإن حديثهم عجب .

وعن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ماكان نبؤه، وسلوه عن الروح وماهو؟ فإن أخبركم فهو نبي وإلا فهو مستقول، فلما قدم النضر وصاحبه مكة قالوا: قد جئناكم بفصل ما بيننا وبين محمد، وأخبروا بما قاله اليهود فجاءوا رسول الله ﷺ وسألوه فقال رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتكم عنه غداً ولم يستثن، فانصرفوا عنه ومكث رسول الله ﷺ فيما يذكرون خمس عشرة ليلة حتى أرجف أهل مكة به وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة فشق عليه ذلك، ثم جاءه جبريل من عند الله بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبه الله إياه على حزنه عليهم، وفيها خبر أولئك الفتية، وخبر الرجل الطواف .

وقد تعلقت قصة ذى القرنين بخير يأجوج ومأجوج وهما علامة من علامات الساعة الكبرى، وخروجهما من السد الذي بناه ذو القرنين يؤذن بقرب يوم القيامة ولذلك ختمت بقوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۙ (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠].

ولذلك لاعجب أيضاً أن كانت هذه القصة هي ختام المسك في سورة الكهف، وفيها من العجائب والآيات لمن تدبرها، أن تكون عاصمة له بإذن الله من فتنة الدجال كما ذكر النووي وغيره، وفي الحديث عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال: «من قرأ العشر الأواخر من سورة الكهف عصم من فتنة الدجال»^(١) وعنه أيضاً عن النبي ﷺ قال: «من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف عصم من الدجال»^(٢) وعن أبي سعيد عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة الكهف في يوم الجمعة أضاء له من النور ما بينه وبين الجمعتين»^(٣)

مسائل سئل عنها رسول الله

فأجاب عنها بما يطابق الحق

بعث الله محمد ﷺ بالحق وأنزل عليه الكتاب ليبين للناس ما اختلفوا فيه من الأخبار والأحكام، قال تعالى بعد ذكر التوراة والإنجيل : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ [المائدة: ٤٨].

وسورة الكهف وهذه القصة من شواهد ذلك، فهذا الإخبار هو الواقع في الواقع، وإنما يوافق من الكتب التي بأيدي أهل الكتاب ما كان منها حقاً وأما ما كان محرفاً مبدلاً فذاك مردود.

وقد ورد في قصة إسلام عبد الله بن سلام، وأنه قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة المنجفل (اجتمع) الناس إليه فكنت فيمن المنجفل، فلما رأيت وجهه قلت: إن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول ما سمعته يقول: أيها الناس أفسحوا السلام، وصلوا الأرحام وأطعموا الطعام وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام .

(١) رواه أحمد ومسلم .

(٢) رواه مسلم وغيره .

(٣) رواه البيهقي والحاكم وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

وثبت فى صحيح البخارى وغيره عن أنس رضى الله عنه قصة سؤاله رسول الله ﷺ عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبى : ما أول أشرط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ وما ينزع الولد إلى أبيه وإلى أمه؟ فقال رسول الله ﷺ : أخبرنى بهن جبريل آنفاً، ثم قال أما أول أشرط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد إلى أبيه، وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع الولد إلى أمه.

وقال ثوبان : كنت قائماً عند رسول الله ﷺ فجاءه حبر من أحبار اليهود فقال السلام عليك يا محمد، فدفعته دفعة كاد يصرع منها، قال : لم تدفعنى؟ قال : قلت ألا تقول يا رسول الله؟ قال : إنما سميت به باسمه الذى سماه به أهله، فقال رسول الله ﷺ : إن اسمى الذى سماني به أهلى محمد، فقال اليهودى : جئت أسألك، فقال رسول الله ﷺ : ينفعك شئ إن حدثتك؟ قال : أسمع بأذنى . فنكت بعود معه، فقال له : سل، فقال له اليهودى : أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات، فقال رسول الله ﷺ : فى الظلمة دون الجسر، قال : فمن أول الناس إجازة؟ فقال : فقراء المهاجرين، قال اليهودى : فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال : زيادة كبد الحوت، قال وما غذاؤهم على إثره؟ قال : ينحر لهم ثور الجنة الذى كان يأكل من أطرافها، قال : فما شرابهم عليه؟ قال : من عين فيها تسمى سلسبيلاً، قال : صدقت، قال : وجئت أسألك عن شئ لا يعلمه أحد من الأرض إلا نبى أو رجل أو رجلان، قال : ينفعك إن حدثتك؟ قال : أسمع بأذنى، قال : جئت أسألك عن الولد، قال : ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فعلا منى الرجل منى المرأة أذكرا بإذن الله، وإذا علا منى المرأة منى الرجل أنثا بإذن الله، فقال اليهودى : صدقت وإنك لنبى ثم انصرف، فقال النبى ﷺ : «إنه سألتنى عنه وما أعلم شيئاً منه حتى أتانى الله به»^(١).

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٩٤) وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ {البقرة: ٩٤-٩٥}

ومثلها في سورة الجمعة وهي قوله : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاءُ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧-٦﴾ .

فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة وأن يدعوا بالموت على المبطل منهم فنكلوا عن ذلك لعلمهم بظلم أنفسهم، وأن الدعوة تنقلب عليهم ويعود وبالها إليهم . وهكذا دعا النصرارى من أهل نجران حين حاجوه فى عيسى بن مريم، فأمره الله أن يدعوهم إلى المباهلة فى قوله : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعِ آبَاءَنَا وَأَبْنَاكُمْ وَمِنَّا وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١]

عتاب الوحى

قال العلماء : عتاب الله تعالى نبيه ﷺ على قوله للكفار حين سأله عن الروح والفتية وذى القرنين : غداً أخبركم بجواب أسئلتكم، ولم يستثن فى ذلك - أى لم يقل إن شاء الله - فاحتبس الوحى عنه خمسة عشر يوماً حتى شق ذلك عليه وأرجف الكفار به، فنزلت عليه هذه السورة - سورة الكهف - مفرجة ونزل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴾ [الكهف: ٢٣] . وأمر فى هذه الآية ألا يقول فى أمر من الأمور إنى أفعل غداً كذا وكذا، إلا أن يعلق ذلك بمشيئة الله عز وجل .

وهذا العتاب، وما حدث فى هذه القصة دليل من دلائل النبوة، وأن القرآن كلام الله تعالى، أوحى به لنبيه ﷺ وتعبدنا بتلاوته، ولذلك ختمت السورة بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠] .

ونظير هذا معاتبته فى قبول الفداء من أسرى بدر، ومعاتبته فى توليه عن عبد الله بن أم مكتوم الأعمى، وقد اتهم المنافقون زوجته عائشة رضى الله عنها بحديث الإفك، ومضى شهر بأكمله، فلم يزد على أن قال لها آخر الأمر : «أما إنه بلغنى كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله» وظل هكذا إلى أن نزل الوحى ببراءتها، فما الذى كان يمنعه لو أن

القرآن كلامه من أن يقول كلاماً يقطع به السنة المتخرصين، ويحمي عرضه؟ ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧]

لقد تحدى ربنا الإنس والجن على مر العصور وكر الدهور، أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن فما استطاعوا على الرغم من أن العرب هم أرباب الفصاحة وأهل البلاغة والبيان إلا أنهم عجزوا عن مواجهة التحدى.

قال تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

إنه العجز فى الماضى والمستقبل عن مواجهة وحى الله لئيبه الأسمى صلوات الله وسلامه عليه .

الوقوف مع القرآن بحسن الأدب

لا يجوز الزيادة ولا النقصان فى كلام الله تعالى، وقد اتفق فقهاء بغداد على استتابة ابن شنبوذ المقرئ لقراءته بالشواذ، فكيف بمن أراد حذف كلمة [قل] المذكورة فى قوله تعالى: ﴿قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٧٣] وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) ٠٠٠ الآيات﴾، يزعم أن الخطاب توجه فيها لرسول الله ﷺ ولم تعد بنا حاجة لقراءتها أو كتابتها!!! وهذا من أعظم الجهل والتبديل لآيات الله، ومن أسباب المروق من دين الله، قال تعالى: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥].

فالخطاب الذى يتوجه لرسول الله ﷺ هو خطاب لأمتة والأمة داخلية فى التكليف تبعاً لرسول الله ﷺ، طالما لم يرد دليل يخصص الحكم برسول الله ﷺ، والنبي ﷺ لم يكتف شئنا أمر بتبليغه، ولو كان كاتماً لشيء لكتف هذه الآية: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ [الاحزاب: ٣٧].

كما تروى أم المؤمنين عائشة - رضى الله عنها - وهذه الآيات بشأن زواجه من زينب بنت جحش رضى الله عنها .

كما لم يزد حرفاً على كتاب الله، قال تعالى:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴾ {الحاقة ٤٤-٤٧}

وقد نقل إلينا القرآن نقلاً متواتراً، حفظته الصدور والسطور أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى .

فالواجب علينا أن نقف مع القرآن بحسن الأدب، ولانقدم بين يديّ الله ورسوله بقول أو فعل، وإذا عرفنا قول الله أو قول رسوله ﷺ قلنا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير.

هل ذو القرنين هو

الإسكندر الذي بنى الإسكندرية؟

قال الرازى في {التفسير الكبير} : اختلف الناس فى أن ذا القرنين من هو وذكروا فيه أقوالاً :

الأول: أنه هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى .

قالوا: والدليل عليه أن القرآن دل على أن الرجل المسمى بذى القرنين بلغ ملكه إلى أقصى المغرب بدليل قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ﴾ {الكهف : ٨٦} .

وأيضاً بلغ ملكه أقصى الشمال بدليل أن يأجوج ومأجوج قوم من الترك يسكنون فى أقصى الشمال، فهذا الإنسان المسمى بذى القرنين فى القرآن قد دل القرآن على أن ملكه بلغ أقصى المغرب والمشرق والشمال وهذا هو تمام القدر المعمور من الأرض، ومثل هذا الملك البسيط لاشك أنه على خلاف العادات وماكان كذلك وجب أن يبقى ذكره مخلداً على وجه الدهر وأن لا يبقى مخفياً مستتراً، والملك الذى اشتهر فى كتب التواريخ أنه بلغ ملكه إلى هذا الحد ليس إلا

الإسكندر وذلك لأنه لمامات أبوه جمع ملوك الروم بعد أن كانوا طوائف ثم جمع ملوك المغرب وقهرهم ومضى حتى انتهى إلى البحر الأخضر ثم عاد إلى مصر فبنى الإسكندرية وسماها باسم نفسه ثم دخل الشام وقصد بنى إسرائيل وورد بيت المقدس وذبح في مذبحة ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب ودانت له العراقيون والقبط والبربر ثم توجه نحو دارا بن دارا وهزمه مرات إلى أن قتله صاحب حرسه فاستولى الإسكندر على ممالك الفرس ثم قصد الهند والصين وغزا الممالك البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ورجع إلى العراق ومرض بشهرزور ومات بها.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين كان رجلاً ملك الأرض بالكلية، أو مايقرب منها وثبت بعلم التواريخ أن الذى هذا شأنه ماكان إلا الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذى القرنين هو الإسكندر بن فيلبوس اليونانى إلا أن فيه إشكالاً قوياً وهو أنه كان تلميذ أرسطاطاليس الحكيم وكان على مذهبه فتعظيم الله إياه يوجب الحكم بأن مذهب أرسطاطاليس حق وصدق وذلك مما لاسبيل إليه . والله أعلم .

قال ابن كثير فى تفسيره : وإنما الذى كان من الروم الإسكندر الثانى وهو ابن فيلبس المقدونى الذى تؤرخ به الروم، فأما الأول فقد ذكر الأزرقى وغيره أنه طاف بالببيت مع إبراهيم الخليل عليه السلام أول ما بناه وآمن به واتبعه وكان وزيره الخضر عليه السلام، وأما الثانى فهو إسكندر بن فيلبس المقدونى اليونانى وكان وزيره أرسطاطاليس الفيلسوف المشهور والله أعلم.

وهو الذى تؤرخ من مملكته ملة الروم وقد كان قبل المسيح عليه السلام بنحو من ثلثمائة سنة، فأما الأول المذكور فى القرآن فكان فى زمن الخليل كما ذكره الأزرقى وغيره وإنه طاف مع الخليل عليه السلام بالببيت العتيق لمابناه إبراهيم عليه السلام وقرب إلى الله قرباناً، وقد ذكرنا طرفاً صالحاً من أخباره فى كتاب البداية والنهاية بما فيه كفاية ولله الحمد اهـ .

وقد رجح شيخ الإسلام ابن تيمية أن ذا القرنين ليس هو الإسكندر الذى بنى الإسكندرية لأن الأول كان مؤمناً والثانى كان كافراً، وقد قيل: امتلك الدنيا مؤمنان وكافران أما المؤمنان فسلیمان وذو القرنين وأما الكافران فالنمرود وبختنصر.

حكم الآثار والمخلفات الحضارية

نشطت حركات البحث والتنقيب عن الآثار فى الآونة الأخيرة، وحرص بعض المغرضين على قطع صلة المسلمين بإسلامهم وعلى نسبة هذا البلد للفرعونية وهذا للبابلية أو الأشورية أو الفينيقية، وتم إضفاء الهالة على الآثار والمخلفات المكتشفة بزعم أنها تدل على حضارة الآباء والأجداد .

والحضارة عند المسلمين هى التى تقوم على منهج العبودية لله وحده، وعلى أساس تعمير الدنيا بدين الله، فهذه هى الحضارة الحقّة التى يبارك فيها ويتنفع بها أحسن انتفاع، وخلاف ذلك من صور التقدم والتطور المادى يعوّد وباله على صاحبه إن خلا من معانى الإيمان وشأنهم كما قال سبحانه: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ {الروم: ٧} .

بل الآثار والمخلفات المتروكة قد تدل على هلكة هؤلاء المعذبين كما هو الحال بالنسبة لقوم لوط وعاد وئمود، فأى فخر فى الانتساب لأمثال هؤلاء وتزيين آثار دمارهم ثم اعلم أن الآثار عن الأمم السابقة متنوعة فمنها ما له فائدة علمية أو مادية مثل الوثائق والنقوش وقطع النقود ومثل الجسور والآبار والعيون والسدود والقناطر والطرق فهذه يستفاد منها، ولايجوز تعظيم بناتها أو تقديسهم .

ومنها ما يتنافى مع عقيدة التوحيد كالأصنام والتماثيل والصور وبيوت العبادة لغير الله والمشاهد التى على القبور والمزارت فهذه من جملة المنكرات التى تزال وفق ضوابط الإنكار الشرعية بحيث تتحقق المصلحة وتندفع المضرة والمفسدة، وهذا ما عمله رسول الله ﷺ يوم فتح مكة حيث حطم الأصنام والطواغيت التى كان يعبدها العرب، ويلتحق بهذا النوع من المخلفات المادية والمخلفات الثقافية والفكرية الضارة ككتب السحر والإلحاد والتهتك والفجور .

وهناك نوع من المخلفات والآثار لانفع فيه ولاضرر منه لذاته مثل المباني الخربة وبقايا الأسوار والحصون والبنيات الكبيرة كالأهرامات التى فى مصر ومثل إيوان كسرى فى العراق، فهذا النوع من الآثار يهمل ولانعيره اهتماماً كما فعل سلفنا الصالح فقد مروا على هذا النوع ولم يشغلوا أنفسهم بالمحافظة عليه وترميمه وزيارته . لقد أصبحت همة البعض فى زيارة الآثار والتقاط التصاوير بجوارها

واللعب واللهو عندها فى الوقت الذى كان ينبغى أن نأخذ العظة والعبرة ونشاهد آيات الله وقدرته وعقابه للمجرمين وإنجائه للصالحين .

قال تعالى : ﴿ فَكَايِنَ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْتَلَّةٌ وَقَصِيرٌ مَّشِيدٌ (٤٥) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ {الحج: ٤٥-٤٦} وقال تعالى بعد أن ذكر جملة من الأقوام وتكذيبهم لرسولهم وكفرهم بالله :

﴿ فَكَلَّا أَتَيْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ فَحَمَلْنَا عَلَيْهَا حَصَابًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {العنكبوت: ٤٠} .

ولما مر رسول الله ﷺ بديار ثمود - مدائن صالح - وهو فى طريقه إلى تبوك قال لأصحابه «لاتدخلوا على هؤلاء المعذنين» وفى رواية: «لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم لا يصيبكم ما أصابهم ثم قنع رأسه ﷺ وأسرع السير حتى أجاز الوادى وكان بعض القوم قد استقوا البئر التى كانت ترد عليها الناقة»^(١) .

فأين فعل رسول الله ﷺ ممانحن فيه الآن .

من هو ذى القرنين

قال أبو الريحان الهروى فى كتابه الذى سماه [بالآثار الباقية عن القرون الخالية] قيل إن ذا القرنين هو أبو كرب شمر بن عبيد بن أفريقش الحميرى فإنه بلغ ملكه مشارق الأرض ومغاربها قال : ويشبه أن يكون هذا القول أقرب لأن الأذواء كانوا من اليمن وهم الذين لاتخلو أساميهم من ذى كذى النادى وذى نواس وذى النون وغير ذلك .

وقيل: إنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض وأعطاه العلم والحكمة وألبسه الهيبة وإن كنا لانعرف أنه من هو، وقد سأل ابن الكوا عالياً رضى الله عنه عن ذى القرنين وقال: أملك هو أم نبى؟ فقال: لا ملك ولا نبى كان عبداً صالحاً ضرب على قرنه الأيمن فى طاعة الله فمات ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات فبعثه الله فسمى بذى القرنين وملك ملكه .

وقيل : إن ذا القرنين ملك من الملائكة .

عن عمر أنه سمع رجلاً يقول: يا ذا القرنين، فقال: اللهم غفرأ، أما رضيتم أن تسموا بأسماء الأنبياء حتى تسموا بأسماء الملائكة !

وقد ذهب البعض إلى القول بنبوته مستدلين على ذلك بقوله تعالى: ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٨٤] وأن التمكين الكامل فى الدين هو النبوة، وقوله سبحانه: ﴿ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴾ [الكهف: ٨٤] وأنه تعالى آتاه فى النبوة سبباً، كما استدلوأعلى ذلك بقوله تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ [الكهف: ٨٦] وأن كلام الله معه يدل على نبوته .

ولعل الأشبه بالصواب والصحة أنه كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض ومكن له فيها وهى له من الأسباب ماساعده على ذلك ويجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته .

وقد استدفعنا القول بأن ذا القرنين هو الإسكندر الذى بنى الإسكندرية .

سبب تسميته ذى القرنين

قال وهب بن منبه: كان ملكاً وإنما سمي ذا القرنين لأن صفحتى رأسه كانتا من نحاس قال: وقال بعض أهل الكتاب لأنه ملك الروم وفارس، وقال بعضهم: كان فى رأسه شبه القرنين .

وروى عن على أنه سُئل عن ذى القرنين، فقال: كان عبداً ناصحاً لله دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فأحياه الله، فدعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه فمات فسمى ذا القرنين .

ويقال: إنه إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ المشارق والمغرب من حيث يطلع قرن الشمس و يغرب .

وقيل سمي بذي القرنين لأنه انقرض في وقته قرنان من الناس .

وقيل : إن الله تعالى سخر له النور و الظلمة فإذا سرى يهديه النور من أمامه و تمده الظلمة من ورائه .

ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً كأنه ينطح أقرانه .
وقيل: رأى في المنام كأنه صعد الفلك فتعلق بطرفي الشمس وقرنيها و جانبها فسمى لهذا السبب بذي القرنين .

وقيل : سمي بذلك لأنه دخل النور والظلمة .

وليس في هذه الأقوال شئ مرفوع لرسول الله ﷺ ، ومعظمها مأخوذ عن أهل الكتاب، والعلم عند الله تعالى، وإلا فاسمه الذي سماه الله به هو ذو القرنين، فإن ورد نص صحيح عن المعصوم قلنا به و إلا أمسكنا عن القطع والجزم وقلنا الله أعلم إذ رد العلم إليه أسلم .

تقديم المصادر الشرعية

لإثبات الحوادث التاريخية

القرآن الكريم هو كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه وقد تكفل الله بحفظه من التحريف أو الزيادة والنقصان ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ { الحجر: ٩} والقرآن قطعى الثبوت، آية وآية وكلمة وكلمة . و النبي ﷺ - كما أخبر الله عنه - لا ينطق عن الهوى، وقد حفظ الصحابة رضي الله عنهم أقوال الرسول وأفعاله وتقريراته و أدوها إلى من بعدهم كما سمعوها .

وقد قال ابن المبارك: الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ماشاء، ولما سئل عن الأحاديث الموضوععة، قال: تعيش لها الجهابذة . فالمنهج العلمى فى التوثيق والتثبيت من الأخبار والروايات عند المسلمين لا مثيل له .

والقرآن والسنة يعطيان الدارس التصورات والمفاهيم والقيم التي في ضوئها يفسر أحداث التاريخ ويحكم عليها حكماً صحيحاً .

وأى دراسة تتباعد عن المصادر الشرعية، لا بد أن تصاب بالنقص والتشوه كهذه الدراسات التي أخذها البعض عن المستشرقين، وعن المدارس المتعددة في تفسير التاريخ كالمدرسة الإجتماعية والمدرسة النفسية والمدرسة المادية والمدرسة القومية والجغرافية واللاهوتية . فالواجب على كل من يتصدى لدراسة التاريخ الإسلامى وتدريسه، أن يقوم بدراسة القرآن الكريم ومعرفة أسباب النزول وأصول علم التفسير وأصول علم الحديث ومعرفة الأحكام الشرعية وعقيدة أهل السنة والجماعة وعقائد الفرق المخالفة لأن هذه من أهم المصادر لدراسة التاريخ و تقييم الأحداث على أسس صحيحة .

حكم الأخذ من كتب أهل الكتاب

قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ {النساء : ٤٦} .

وقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {البقرة: ٤٦} .

فالكتب السابقة لنزول القرآن منسوخة الشرائع والأحكام بالإسلام، وأخبارها وقصصها مترددة بين الصواب والخطأ لثبوت وقوع التحريف والزيادة والنقص، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا . . . الآية﴾» (١) .

ومن المعروف أن الأناجيل قد دونت بعد رفع عيسى بزمن طويل وهى اليوم مختلفة لا تتفق نسخة مع أخرى، وكذلك التوراه و التلمود، دونها أجبار اليهود بعد موسى بأزمان متطاولة .

وقد جعل شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات على ثلاثة أقسام :

١- ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح .

٢- ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه فذاك كذب .

٣- ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل ولا من هذا فلا تصدق به ولا تكذبه .

وهذا القسم الأخير تجوز حكايته و يشهد لذلك حديث النبي ﷺ أنه قال :

« إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » .

فقد نهينا عن تصديق ما ينقل عن أهل الكتاب إلا أن يكون مما يجب علينا تصديقه

مثل ما أخبر به نبينا عن الأنبياء وأممهم فإن ذلك يجب تصديقه مع الإحتراز فى نقلته كما بين ابن تيمية .

ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين

المسلم له شأن وللناس شأن، ومنهج المسلمين منهج مستقل فى تصوره وغاياته وطريقة عمله، فيه سمة الربانية والكمال والشمول ولذلك لا يحتاج إلى شئ من غيره كما أن له الهيمنة والحكم على كافة المناهج .

قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ {المائدة: ٤٨} .

والنظر إلى كتب غير المسلمين للأخذ منها يكون بحسب الموضوع . فإذا كان الموضوع متعلقاً بديانتهم وهى ديانة وثنية فإنه حيثئذ لا بأس من الأخذ عنهم مع النظر والمقارنة .

أما بالنسبة للإسرائيليات المأخوذة عن أهل الكتاب فلا تقبل منهم ولا تؤخذ عنهم إلا وفقاً للضوابط التى ذكرناها آنفاً .

وإذا كان الموضوع متعلقاً بديننا فإنهم لا يصدقون فيما يقولونه، إذ من شروط البحث فى قضايا الدين الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، فإذا كان علماء الإسلام لا يثبتون الأحكام بما يرويه المسلم ضعيف الضبط فكيف يحق لقوم مؤمنين أن يحملوا عن كافر ساقط العدالة بل يحمل من الحقد والبغضاء على هذا الدين

وأهله ما الله به عليم، فالقول في الأحكام الشرعية والنظم الإسلامية وفي تقدير رجاله وتاريخه لا يؤخذ إلا من المسلم العارف الثقة أما غير ذلك فلا اعتبار لقوله ولخلافه لو خالف .

أما إذا كان ما فى كتبهم ليس له تعلق بشئ من الأنواع السابقة فإنه يخضع لموازن النقد العلمى ومثبت منه لاشئ على من أخذ به ولاسيما إذا كان ذلك وصفاً لحالهم وأوضاعهم ومعاشهم لأنهم بها أخبر، ولها أدري .

التمكين فضل من الله

توجه السؤال لرسول الله ﷺ عن ذى القرنين فجاءت الإجابة : ﴿ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ [الكهف: ٨٣] .

أى إنى سأفعل هذا إن وفقنى الله تعالى وأنزل فيه وحياً وأخبرنى عن كيفية تلك الحال ، ثم شرعت الآيات توضح مدى الفضل الذى امتن الله به على ذى القرنين ﴿ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٨٤] .

قال على رضى الله عنه : سخر له السحاب ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له فى النور فكان الليل والنهار عليه سواء .

وقال ابن كثير : أى أعطيناه ملكاً عظيماً ممكناً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من التمكين والجنود وآلات الحرب والحصارات ولهذا ملك المشارق والمغرب من الأرض ودانت له البلاد وخضعت له ملوك البلاد وخدمته الأمم من العرب والعجم، ولهذا ذكر بعضهم أنه إنما سُمى ذا القرنين لأنه بلغ قرنى الشمس مشرقها ومغربها .

وقد ذكر الرازى أن النبوة أعظم أسباب التمكين فقال: يحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب النبوة ويحتمل أن يكون المراد منه التمكين بسبب الملك وحمل كلام الله على الوجه الأكمل الأفضل أولي .

وسواء كان هذا أو ذاك، فالتمكين فضل من الله تعالى، ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ

الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦-٥﴾ القصص: ٥-٦ .

وهو نعمة تستوجب الشكر لله وإقامة واجب العبودية لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] .

والإيمان والعمل الصالح عدة التمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] .

والواجب على العباد أن يعملوا بأمر الله ويخضعوا لحكمه سبحانه، سواء مكن لهم أو لم يمكن لهم، فالعبادة واجبة حتى الممات، في الرخاء والشدة والعسر واليسر، والمنشط والمكره وفي حال الإستضعاف وحال التمكين .

متابعة الأسباب

قال سبحانه في معرض الإمتنان على ذى القرنين: ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤] .

قال ابن عباس: من كل شئ علماً يتسبب به إلى ما يريد. وقال الحسن: بلاغاً إلى حيث أراد، وقيل من كل شئ يحتاج إليه الخلق، وقيل: من كل شئ يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء، وقال قتادة: منازل الأرض وأعلامها، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: تعليم الألسنة قال: كان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم .

وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٤] أى مما يؤتى مثلها من الملوك، وهكذا ذو القرنين يسر الله له الأسباب أى الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرساتيق والبلاد والأراضى وكسر الأعداء وكبت ملوك الأرض وإذلال أهل الشرك، قد أوتى من كل شئ مما يحتاج إليه مثله سبباً كما قال ابن كثير . وهذا من جملة ما تفضل به سبحانه على ذى القرنين، وهو من التهئية

الربانية، فما كان منه إلا أن أخذ بالأسباب الشرعية المرسومة له، وهذا من فقهه في دين الله، وعدم الأخذ بالأسباب قدح في التشريع، والاعتقاد في الأسباب قدح في التوحيد كما يقرر العلماء .

قال ابن عباس: ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ {الكهف: ٨٥} يعنى بالسبب المنزل . وقال مجاهد: منزلاً وطريقاً ما بين المشرق والمغرب، وفي رواية عن مجاهد قال: طرفى الأرض وقال قتادة: أى اتبع منازل الأرض ومعالمها، وقال الضحاك: أى المنازل، وقال سعيد بن جبير: علماً، وقال مطر: معالم وآثار، وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو ﴿فَاتَّبَعَ سَبَبًا﴾ {الكهف: ٨٥} يوصلها، أى اتبع سبباً من الأسباب التى أوتيتها .

ثم اعلم أن الأخذ بالأسباب لا يتنافى مع التوكل على الله، ولذلك فسر بعض العلماء التوكل بإغلاق الباب، وإطفاء السراج، والسبب بمفرده لا يقوم بل يحتاج لفضل من الله أكبر لكى يحدث أثره .

وخالق الأسباب قادر على تعطيلها، ولذلك فبعد الأخذ بالأسباب يجب أن تتعلق القلوب بخالق الأرض والسموات فى جلب النفع ودفع الضر .

وقد ذكر الرازى فى تفسير الآية كلاماً غريباً قال: ثم إن الذين قالوا إنه كان نبياً قالوا من جملة الأشياء النبوة فهذه الآية ﴿وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ {الكهف: ٨٤} تدل على أنه تعالى أعطاه الطريق الذى به يتوصل إلى تحصيل النبوة أ.هـ .

فالنبوة فضل من الله يمن به على من يشاء من عباده والله أعلم حيث يجعل رسالته ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ {الحج: ٧٥} ولا ينال العبد درجة بكسبه وإن اجتهد ما اجتهد وبذل وسعه فى الطاعة والعبادة .

الشمس لاتدخل في الأرض

قال تعالى عن ذى القرنين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ {الكهف: ٨٦}.

قال ابن كثير - رحمه الله -: أى فسلك طريقاً حتى وصل إلى أقصى مايسلك فيه من الأرض من ناحية المغرب وهو مغرب الأرض وأما الوصول إلى مغرب الشمس من السماء فممتعذر وما يذكره أصحاب القصص والأخبار من أنه سار فى الأرض مدة والشمس تغرب من ورائه فشىءٌ لاحقيقة له وأكثر ذلك من خرافات أهل الكتاب واختلاق زنادقتهم وكذبهم وقوله: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ {الكهف : ٨٦} أى رأى الشمس فى منظره تغرب فى البحر المحيط وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه وهى لاتنفارق الفلك الرابع الذى هى مثبتة فيه لاتنفارقه أهـ .

وقال القرطبى: قال القفال: قال بعض العلماء: ليس المراد أنه انتهى إلى الشمس مغرباً حتى وصل إلى جرمها ومسّها، لأنها تدور مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض، بل هى أكبر من الأرض أضعافاً مضاعفة، بل المراد أنه انتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ولهذا قال: ﴿تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ {الكهف: ٩٠} ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم أهـ .

وقال الرازى : إنه ثبت بالدليل أن الأرض كرة وأن السماء محيطة بها، ولاشك أن الشمس فى الفلك وأيضاً قال : ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ {الكهف ٨٦} { ومعلوم أن جلوس قوم فى قرب الشمس غير موجود، وأيضاً الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة فكيف يعقل دخولها فى عين من عيون الأرض .

إنفصال الكنيسة

عن العلم المادى التجريبي

درجت الكنيسة فى وقت مضى على مصادمة العلم المادى التجريبي بخرافات
وخزعبلات نادى بها القساوسة دون مستند من الوحي الصادق .

وقد أدى هذا الصراع بين الكنيسة والعلم إلى قتل وحرق كثير من العلماء،
ولهذا السبب وغيره ثار الغرب على الكنيسة وطالب بفصل الدين عن الدولة،
وقالوا : دع مالمقيصر لقيصر وما لله لله، وانتشرت وذاعت هذه المقولة، وتناقلها
بعض الأغرار والمنافقين مطالبين بتحقيقها فى بلاد المسلمين، وتناسى هؤلاء حقائق
كثيرة منها أنه لا فصل فى الإسلام بين الدولة والدين والدنيا والآخرة، والأرض
والسما، وبين بعض الرجال والبعض الآخر، وبين بعض العبادات والبعض
الآخر، وكذلك لا فصل بين ساعة وساعة، فهى حسبة واحدة : ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي
وَنُكْبِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٦) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ
الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣] .

فالحلقة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به، ولا بد من تعميم الدنيا بطاعة
الله، فهذا الدين ليس ديناً كهنوياً، ولا يحل لحاكم ولا محكوم أن ينسلخ عن شرع
الله، ولا يجوز لرجال الدولة أن يحكموا بالأهواء أو الآراء سواء كانت لأغلبية أو
أقلية - إذا صادمت دين الله - ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ
ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] .
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ
أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦] .

إن دين الإسلام شامل لكل ناحية من نواحي الحياة سواء كانت سياسية أو
اقتصادية أو اجتماعية أو أخلاقية وسواء تعلقت بالحرب أم بالسلم، بالمسجد أم
بالبیت أم بالسوق قال تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي
وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

وقال سبحانه: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾

{ الشورى : ٢١ } .

ولانتاقض بين الدين والعلم الثابت اليقيني، ويكفى الإسلام أنه حث العباد على إطلاق النظرفى ملكوت السموات والأرض وختمت آيات كثيرة بقوله تعالى: لقوم يتفكرون - لقوم يعلمون - إن في ذلك لآيات لأولي الألباب وأمر بالسيرفى الأرض سير اتعاط واعتبار وتأمل ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ {العنكبوت : ٢٠}

وفى القرآن والسنة إشارات كثيرة علمية - طيبة وفلكية ونباتية وهذه الإشارات سبقت مساق الهداية، وقد تكلم العلماء قديماً وحديثاً فى المسائل العلمية وقضايا الإعجاز - كما مر بك عن بعضهم - فمن الذى قتلهم أو حرقهم من أجل ذلك؟! وخلاصة القول أنه لايجوز نقل اللوثة والمصادمة التى حدثت فى الغرب إلى بلاد المسلمين إذ لامبرر لها، فالدين والوطن كلاهما لله، وقيصر وماملك ملك لله، والكل يجب أن ينصنح بصبغة الإسلام فى حركاته وسكناته وأقواله وأفعاله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ {مريم: ٤٠} .

لايستوي المحسن والمسيء فى الجزاء

لماسار ذو القرنين جهة المغرب، وجد أمة من الأمم، ذكروا أنها كانت أمة عظيمة من بنى آدم: ﴿وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا﴾ {الكهف: ٨٦} فمكته الله تعالى منهم وحكمه فيهم وأظفره بهم، وكانوا كفاراً، فخير الله ذا القرنين فيهم بين التعذيب لهم إن أقاموا على كفرهم وبين المن عليهم والعفو عنهم، وهذا التخيرعلى معنى الاجتهاد فى أصلح الأمرين كما خير نبيه عليه الصلاة والسلام بين المن على المشركين وبين قتلهم.

﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ {الكهف: ٨٦} .

قال الاكثرون: هذا التعذيب هو القتل، وأما اتخاذ الحسنى فيهم فهو تركهم أحياء، ثم قال ذوالقرنين:

﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ {الكهف: ٨٧} أى استمر على كفره وشركه بربه ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ﴾ {الكهف: ٨٧} أى بالقتل فى الدنيا .

وقال وهب بن منبه : كان يسلط الظلمة فتدخل أجوافهم ويوتهم وتغشاهم من جميع جهاتهم والله أعلم . ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴾ {الكهف: ٨٧} أى شديداً بليغاً وجيعاً أليماً وفى هذا إثبات المعاد والجزاء .

﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ {الكهف ٨٨} أى تابعنا على ما ندعوه من عبادة الله وحده لا شريك له فله جزاء الحسنى أى فى الدار الآخرة عند الله عز وجل .
﴿ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ {الكهف: ٨٨} .

قال مجاهد: معروفاً فلا يستوى المؤمن والكافر ولا المطيع والعاصى فى الدنيا ولا فى الآخرة ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿ {القلم: ٣٥-٣٦}، إن القاعدة الشرعية عدم التسوية بين المختلفين وعدم التفريق بين المتساويين .

مسائل تربوية تتعلق بالأطفال

لا بد من تعويد الصبى وتعليمه أصول الإيمان، وهى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وتعليمه أركان الإسلام، وهى الشهاداتان والصلاة والصوم والزكاة والحج، وتبسيط المعانى له ومخاطبته على قدر عقله بحيث يستوعب هذه المعانى الإيمانية، ويراعى فى ذلك ربط الأمور بعظيم قدرة الله فى خلقه ورحمته بهم ونعمته عليهم حتى يشب على محبة الله جل وعلا ومراقبته سبحانه .

أخرج الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «كنت خلف النبى ﷺ يوماً فقال يا غلام إنى أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشئ لم ينفعوك إلا بشئ قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشئ لم يضروك إلا بشئ قد كتبه الله عليك رفعت الأقلام وجفت الصحف» وفى رواية غير الترمذى زيادة : «احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسراً» .

ومما يحتاج إليه الطفل غاية الإحتياج الإعثناء بأمرخلُّقه، فإنه ينشأ على ما عودَه المربى فى صغره، وتصير هذه الأخلاق صفات وهىئات راسخة له .

كما يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: وقد اهتم النبى ﷺ والسلف الصالح بغرس الأخلاق الفاضلة فى الأطفال^(١) وينبغى الحذر من ظهور الأب بمظهر القسوة والام بمظهر الرأفة، بل لابد من العدل والاعتدال فى تربية الأولاد، وإشعار الصبى بمحبة والده له وشفقته عليه، ومحبة والدته لأدبه وتحليه بالفضائل وتخليه عن الرذائل كماينبغى الحذر من قصر الترغيب والترهيب على النواحي المادية، فلا بأس من مكافأة الصبى وتشجيعه وإدخال السرور إلى نفسه إذا أصاب، وعقوبته إذا استدعى الأمر ذلك، ولاحرج من زرع التنافس البناء بين الأطفال، وكل ذلك وردت به الآثار، ولا بد مع ذلك من غرس المعانى الإيمانية فى حسه وشعوره فهو يصلى لكى يرضى ربه ويدخل الجنة، وينتهى عن الكذب، لأن الكذب فجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا أصلح من المنهج القرآنى فى تربية الصغير والكبير، فالقرآن بشر من آمن بالجنة، وأنذر من خالف بالعذاب واختلطت فيه الأحكام بمعانى الترغيب والترهيب، وقد تجمد ذلك فى الآية الواحدة كما فى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أَمَّنْ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا...﴾ الآية ﴿الكهف: ٨٨﴾ والجزاء فى الأصل أخروي، وهذا لا يمنع من ورود عقوبات دنيوية كالتعزير والحدود . إن الترغيب والترهيب من أهم الأساليب التى ينبغى على الدعاة إلى الله أن يتبهاها لها فى إبلاغ الحق للخلق .

الآيات تحبب فى الخير

وتركز على الغايات الهامة

لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذى القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب والشرق وإلى السدين، وبنائه للسد فى وجه «ياجوج ومأجوج» وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة، فالإرتكاز على محور العقيدة والتذكير به فى كل مناسبة، وربط الحوادث به وبمقتضياته هو أسلوب

(١) راجع كتابنا (الإشكالية المعاصرة فى تربية الطفل المسلم).

القرآن وطريقته فى عرضه للتاريخ، فإنه يركز على الوحدانية وإخلاص العبودية لله ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص وتناججه مرتبط بذكر. فالبشرية على طول تاريخها كلما فاءت إلى هذه العقيدة وتمسكت بها حصل لها السعادة والتمكين فى الأرض، وكلما بعدت عنها أصيبت بالأمراض الإجتماعية الخلقية وفشا فيها الظلم والجور وسلط عليها الأعداء .

لم تذكر الآيات كيف بلغ ذو القرنين المغرب والمشرق، وفى كم يوم، وماذا كان يأكل، وهل كان طويلاً أو قصيراً، أبيضاً أم أسوداً بل ركزت على قوله لمن كفر: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جِزَاءُ الْحَسَنِیِّ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ [الكهف: ٨٧-٨٨].

إنه العرض الذى يحجب فى الخير وينفر من الشر ويرد الحق لنصابه، فالحق حق مهما كان فاعله، والباطل باطل مهما كان قائله، والميزان هو شرع الله ولذلك كان لا بد من الإشادة بالخير ومدح صاحبه، وذم الشر وزجر فاعله، وهذا من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته كما ينبغى أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية فى حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له، وعن الاعتبار الذى يترك فى النفس أثراً، وإنفاق الوقت والجهد فى البحث عن أمور لا طائل تحتها ولا تعود على البحث بفائدة، فليست من هدف المسلم ولا غايته فى الحياة .

ما الذى فعله ذو القرنين عند بلوغه

مطلع الشمس ؟

قال تعالى: ﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خَيْرًا﴾ [الكهف: ٨٩-٩١].

قال ابن كثير: يقول تعالى ثم سلك طريقاً فسار من مغرب الشمس إلى مطلعها وكان كلما مر بأمة قهرهم وغلبهم ودعاهم إلى الله عز وجل فإن أطاعوه وإلا أذلهم وأرغم أنافهم واستباح أموالهم وأمتعتهم واستخدم من كل آية ما تستعين به جيوشه على قتال الإقليم المتاخم لهم، وذكر فى أخبار بنى إسرائيل أنه عاش ألفاً وستمئة سنة يجوب الأرض طولها والعرض حتى بلغ المشارق والمغارب ولما انتهى

إلى مطلع الشمس من الأرض كما قال الله تعالى: ﴿وَجَدَهَا تَطَّلُعُ عَلَيَّ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا﴾ [الكهف: ٩٠] أى ليس لهم بناء يكنهم ولا أشجار تظلهم وتستريحهم من حر الشمس. قال الحسن: كانت أرضهم لا جبل فيها ولا شجر وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى الماء فإذا ارتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم. وقال قتادة: ذكر لنا أنهم بأرض لا تثبت لهم شيئاً فهم إذا طلعت الشمس دخلوا فى أسراب حتى إذا زالت الشمس خرجوا إلى حروثهم ومعايشهم.

قال القرطبي: قلت: وهذه الأقوال تدل على أن لامدنية هناك والله أعلم، وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السرب فلا تناقض بين قول الحسن وفتاده أه.

وقد ذكر البعض أن حال أكثر الزنج كذلك وحال كل من يسكن البلاد القريبة من خط الإستواء كذلك، وقد قيل إن ذا القرنين لما قصد أقرب الأماكن المكونة من مطلع الشمس، كانت حالته مع أهل المطلاع كما كانت مع أهل المغرب قضى فى هؤلاء كما قضى فى أولئك، من تعذيب الظالمين والإحسان إلى المؤمنين.

وقيل: إنه تم الكلام عند قوله كذلك والمعنى أنه تعالى قال أمر هؤلاء القوم كما وجدهم عليه ذو القرنين ثم قال بعده: ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ [الكهف: ٩١]، أى كنا عالمين بأن الأمر كذلك.

بناء السد عمل إيمانى

أخبر تعالى عن ذى القرنين أنه: ﴿أَتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ [الكهف: ٩٢] أى سلك طريقاً من مشارق الأرض ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ [الكهف: ٩٣] وهما جبلان متناوحيان بينهما ثغرة يخرج منها يأجوج ومأجوج على بلاد الترك فيعيشون فيها فساداً ويهلكون الحرت والنسل كما قال ابن كثير:

وروى عطاء الخرساني عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتَّبَعَ سَبِيًّا﴾ (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ ﴿ [الكهف: ٩٢-٩٣] أى الجبلين أرمينية وأذربيجان.

قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴾ {الكهف: ٩٣}. أى وجد من وراء الجبلين قوماً، لاهم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم، لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعسر فاشتكوا لدى القرنين من إفساد يأجوج ومأجوج، فقدم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم، وهذا فى حد ذاته عمل صالح، إذ لم يكن بناء السد لإظهار التطور الزائف، أو لون من الحضارة الكاذبة، أو لإشباع معانى الغرور والكبر ووضع المال والعرق فى غير موضعه، وإنما هو عمل قام على أساس منهج العبودية دون تطاول أو جراءة على الخالق أو المخلوق.

قال تعالى: ﴿ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾

{ الكهف: ٩٥ } .

أى ما بسطه الله تعالى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان أى برجال وعمل منكم بالأبدان، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السد .

وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاوره، فإن القوم لو جمعوا له خرجاً وجزءاً من أموالهم لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى إنقضاء هذا العمل .

إن ذا القرنين عبد موفق مسدد فى بداية أمره ونهايته، فنية الخير فى بناء السد ظاهرة، واستقامة الفعل واضحة، وامتنانه وإنابته يدل عليها قوله تعالى بعد فراغه من بناء السد : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ { الكهف: ٩٨ } .

فرض على الملك

أن يقوم بحماية الخلق

الخلافة والحكم والإمارة موضوعة لإقامة الدين ولسياسه الدنيا به، وهذا مما اتفق عليه العلماء، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

وقال سبحانه: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

ولذلك لاعجب أن يتولى أبو بكر الصديق رضى الله عنه الخلافة ويجتمع الصحابة على توليته قبل دفن رسول الله ﷺ.

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ [الكهف: ٩٥]

قال القرطبي: فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم، وسد فرجتهم، وإصلاح ثغورهم، من أموالهم التى تفتى عليهم، وحقوقهم التى تجمعها خزائنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتها الحقوق، وأنفذتها المؤن، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر لهم، وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألا يستأثر عليهم بشئ.

الثانى: أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم.

الثالث: أن يستوى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم، فإذا فئيت بعد هذا وبقيت صفراً فأطلعت الحوادث أمراً بذلوا أنفسهم قبل أموالهم، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير، وتصرف بتدبير، فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج قال: لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أى اخدموا بأنفسكم معى، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ورأى أن الأموال لاتغنى عنهم، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه، فيعود بالأجر عليهم، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى.

وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض، فيؤخذ ذلك المال جهراً لا سراً، وينفق بالعدل لا بالإستئثار، ويرأى الجماعة لا بالإستبداد بالأمر والله تعالى الموفق للصواب أ.هـ.

وتعفف ذى القرنين عن أموالهم لتمكين الله إياه شبيه بقول نبى الله سليمان:

﴿فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ﴾ {النمل : ٣٦} .

إتخاذ السجون

وحبس أهل الفساد فيها

ذكرنا كيف أقام ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم وشرهم عنهم.

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ {الكهف: ٩٧} أى ما استطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه، لأنه أملس مستو مع الجبل، والجبل عال لا يرام.

﴿وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ {الكهف: ٩٧} لبعده عرضه وقوته .

وفى هذه القصة دليل على إتخاذ السجون وحبس أهل الفساد فيها ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضرباً ويحبسون أو يكلفون ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه (ذكره القرطبي) .

وقد إتخذ بعض الخلفاء السجون، كما عاقب عمر ابن الخطاب بهذه العقوبة فى النشوز والهجاء وهذا فى الحقيقة نوع من التوقيت والتعزير فى الجرائم التى لم ينزل تحديد شرعى بعقوبتها .

ولا يصلح السجن أن يكون عقوبة لحد من حدود الله تعالى كسرقة وقتل وزنا ونحو ذلك من العقوبات التى جاء لها حدود فى الشريعة الإسلامية ولا يزيد على السنة على قول البعض . وقد صار السجن هو صلب العقوبات الوضعية وذلك فى كافة الجرائم على اختلاف صورها وأشكالها كالسرقة والقتل، بل هو العقوبة فيما ليس بجريمة أصلاً كالقتل الخطأ .

وبالإضافة لكون السجن عقوبة خيالية كالسجن المؤبد حتى الموت والسجن مائة سنة وأكثر..... فقد صارت السجون مدرسة للشذوذ والانحراف الجنسي ودورة للإجرام وذلاً وموتاً بطيئاً للسجين من جهة وتحطيماً لأسرته من جهة آخر وإلا فما الذى تفعله الزوجة والأولاد أثناء غياب العائل فى السجن مدة عشرين سنة مثلاً..... إلى غير ذلك من المفاسد، إن السجن لا يصلح بديلاً عن العقوبات الشرعية كالجلد والقطع . ولا يمكن أن يحقق شيئاً من الحكم والأهداف الموجودة فى العقوبات الشرعية كالتطهير والقصاص والتعويض والزجر، فإن كان السجن على النحو الذى استخدم فيه فى عهد عمر وغيره من الخلفاء فلا بأس وإلا كانت مفسدته أضعاف ما قد يوجد فيه من مصالح تافهة كما نشاهد الآن فى حياتنا .

هل قولهم

﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض﴾

غيبية محرمة ؟

لا خلاف أن الغيبة من الكبائر، وأن من اغتاب أحداً عليه أن يتوب إلى الله عز وجل والغيبة المحرمة هى ذكرك أخاك بما فيه من خلفه وبما يكره، قال تعالى : ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ [الحجرات : ١٢] .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «أتدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: «ذكرك أخاك بما يكره» قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : «إن كان فيه ماتقول فقد اغتبتة وإن لم يكن فيه فقد بهته» .

وليس من هذا الباب غيبة الفاسق المعلن به المجاهر، أو الفاجر الذى ألقى جلاباب الحياء فلاغيبه له ليحذره الناس . روى عن الحسن أنه قال: ثلاثة ليست لهم حرمة: صاحب الهوى والفاسق المعلن والإمام الجائر،

وعنه أيضاً: ليس لأهل البدع غيبة وكذلك قولك للقاضي تستعين به على أخذ حقلك ممن ظلمك فتقول: فلان ظلمنى أو غصبنى أو خاننى أو ضربنى أو قذفنى أو أساء إلىّ، ليس بغيبية، وعلماء الأمة على ذلك مجمعة، فلصاحب الحق مقال .

وفى الحديث: «مطل الغنى ظلم يحلّ عرضه وعقوبته».

ومن ذلك الإستفتاء، كقول هند للنبي ﷺ: إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي، فأخذ من غير علمه، فقال النبي ﷺ: «نعم فخذى» فذكرته بالشح والظلم لها ولولدها، ولم يرها مغتابة، لأنه لم ينكر عليها، بل أجابها عليه الصلاة والسلام بالفتيا لها .

وكذلك إذا كان فى ذكره بالسوء فائدة كقوله ﷺ لما استشهد: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه» .

فهذا جائز وكان مقصوده ألا تغتر فاطمة بنت قيس بهما ومن ذلك قول علماء الحديث عن الرجل: «كذاب» أو ليس بشئ ونحو ذلك، وقول النبي ﷺ: «ما أظن أن فلان وفلاناً لا يعرفان من ديننا شيئاً» لرجلين من المنافقين .

ومن هذا القبيل شكوى القوم لذى القرنين من يأجوج ومأجوج لكثرة فسادهم، وذلك لإعانتهم على دفع شرهم، وقد كان أمر ذى القرنين من العظمة والسلطان وأسباب العلم والقدرة بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير .

يأجوج ومأجوج

(١) أصلهم :

يأجوج ومأجوج : إسمان أعجميان ليس لهما اشتقاق، وقيل عربيان، وعلى هذا يكون اشتقاقهما من أجت النار أجيحاً إذا التهبت . أو من الأجاج وهو الماء الشديد الملوحة .

وقيل : عن الأجاج وهو سرعة العدو، وقيل يأجوج من ماج إذا اضطرب، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف: ٩٩].

وذلك عند خروجهم . وأصل يأجوج ومأجوج من البشر من ذرية آدم وحواء عليهما السلام . وقد قال بعض العلماء: إنهم من ذرية آدم لآمن حواء، وذلك أن آدم احتلم فاختلط منه بالتراب فخلق الله من ذلك يأجوج ومأجوج، وهذا دليل عليه .

قال ابن حجر: «ولم نر هذا عن أحد من السلف إلا عن كعب الأحبار، ويرده الحديث المرفوع أنهم من ذرية نوح، ونوح من ذرية حواء قطعاً» فيأجوج ومأجوج من ذرية يافث أبى الترك، ويافث من ولد نوح عليه السلام .

روى البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : «يقول الله تعالى : يا آدم، فيقول لبيك وسعديك والخير فى يديك، فيقول : أخرج بعث النار قال : وما بعث النار قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فعنده يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، قالوا : وأينا ذلك الواحد ؟ قال : أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف .

وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ : «إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم وإنهم لو أرسلوا إلى الناس لأفسدوا عليهم معاشهم ولن يموت منهم أحد إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً»^(١) .

(٢) صفتهم :

ذكر ابن حجر بعض الآثار فى صفتهم، ولكنها روايات ضعيفة وما جاء فى هذه الآثار أنهم ثلاثة أصناف :

(١) صنف أجسادهم كالأرز وهو شجر كبار جداً.

(٢) صنف أربعة أذرع فى أربعة أذرع .

(٣) صنف يفترشون آذانهم ويلتحفون بالأخرى . وقد نقل القرطبى فى تفسيره : «أنهم لا يمرون بفيل ولا خنزير إلا أكلوه ويأكلون من مات منهم، مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة وبيت المقدس» قال : وقال على رضى الله تعالى عنه : وصف منهم فى طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحر والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها . . .

(١) رواه أبو داود، وروى الحاكم طرفاً منه فى المستدرک وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي» .

وقال وهب بن منبه: رأهم ذو القرنين، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربع منا، لهم مخالب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع، وأضاك كأضاك الإبل، وهم هلبٌ عليهم من الشعر مايواريهم

وقال السدى والضحاك: الترك شذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السد فبقيت فى هذا الجانب.

قال السدى: بنى السد على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السد فهم الترك وقاله قتاده .

قلت (أى القرطبي): وإذا كان هذا، فقد نعت النبى ﷺ الترك كما نعت يأجوج ومأجوج .

وقال ﷺ: «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك قوماً وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون فى الشعر» فى رواية: «يتتعلون الشعر»^(١).

وروى الإمام أحمد عن ابن حرملة عن خالته قالت: «خطب رسول الله ﷺ وهو عاصب أصبعه من لدغة عقرب فقال إنكم تقولون لاعدو وإنكم لاتزالون تقاتلون عدواً حتى يأتى يأجوج ومأجوج: عراض الوجوه صغار العيون شهب الشعاف»^(٢) من كل حذب ينسلون كأن وجوههم المجان المطرقة»^(٣).

وقد دلت الروايات الصحيحة على أنهم رجال أقوياء لاطاقة لأحد بقتالهم ويبعد أن يكون طول أحدهم شبر وشبرين، ففى حديث النواس بن سمعان: «أن الله تعالى يوحى إلى عيسى عليه السلام بخروج يأجوج ومأجوج فيقول له: «حرز عبادى إلى الطور» .

وقد أنكر ابن كثير قول من قال: إن طولهم شبر وشبرين وأطولهم ثلاثة أشبار وقال: إن من زعم أن هذه صفاتهم فقد تكلف مالا علم له به، وقال مالا دليل عليه .

(١) أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما .

(٢) الشعاف: جمع شعفة وهي أعلي الرأس والمراد شهب الشعور .

(٣) قال الهيثمي: رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح .

يأجوج ومأجوج علامة من علامات

الساعة العشر الكبرى

روى الإمام مسلم عن حذيفة بن أسيد الغفارى رضى الله عنه قال : «اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر، فقال: ما تذكرون؟ قالوا: نذكر الساعة، قال: إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات، فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج أو ثلاثة خسوف، خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم».

قال الحافظ بن حجر : «الذى يرجح من مجموع الأخبار أن خروج الدجال أول الآيات العظام المؤذنة بتغير الأحوال العامة فى معظم الأرض وينتهى ذلك بموت عيسى عليه السلام وأن طلوع الشمس من المغرب هو أول الآيات العظام المؤذنة بتغير أحوال العالم العلوى، وينتهى ذلك بقيام الساعة، ولعل خروج الدابة يقع فى ذلك اليوم الذى تطلع فيه الشمس من المغرب، ثم قال: والحكمة فى ذلك أن عند طلوع الشمس من المغرب يغلق باب التوبة فتخرج الدابة تميز المؤمن من الكافر تكميلاً للمقصود من إغلاق باب التوبة، وأول الآيات المؤذنة بقيام الساعة النار التى تحشر الناس».

وقال الطيبى : الآيات أمارات للساعة إما على قربها وإما على حصولها .

فمن الأول : الدجال ونزول عيسى ويأجوج ومأجوج والخسف .

ومن الثانى : الدخان وطلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة والنار التى تحشر الناس .

وقد تواترت النصوص بظهور المهدي، ويكون ظهوره سابقاً لهذه العلامات، فهو الذى يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، ويجتمع عليه المؤمنون لقتال الدجال، ثم ينزل عيسى عليه السلام ويصلى خلفه . ولم يظهر شئ من الأمارات الكبرى حتى زماننا هذا، وستظهر بإذن الله وفق خبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

العلامات الكبرى كخرزات في النظام

إذا ظهر أول علامات الساعة الكبرى تابعت الآيات كمتابع الخرز في النظام يتبع بعضها بعضاً .

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ : «الآيات خرزات منظومات في سلك فإن يقطع السلك يتبع بعضها بعضاً»^(١)

وروى الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «خروج الآيات بعضها على إثر بعض يتتابعن كما تتابع الخرز في النظام»^(٢)

وأول العلامات الكبرى بعد المهدي ظهور الدجال ثم نزول عيسى عليه السلام لقتله ثم ظهور يأجوج ومأجوج ودعاء عيسى عليه السلام عليهم فيهلكهم الله ثم قال عيسى عليه السلام: «ففيما عهد إلى ربي عز وجل أن ذلك إذا كان كذلك فإن الساعة كالحامل المتم التي لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولادها ليلاً أو نهاراً» وهذا دليل على قرب الساعة قريباً شديداً، والعلامات المذكورة تقع في وقت قصير جداً قبل قيام الساعة .

قال الحافظ ابن حجر : وقد ثبت أن الآيات العظام مثل السلك إذا انقطع تنائر الخرز بسرعة، وهو عند أحمد .

الأدلة على خروج يأجوج ومأجوج

(١) الأدلة القرآنية :

قال الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحَتْ بِأُجُوجٍ وَمَأْجُوجٍ وَهُمْ مِّنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ (٩٦) وَأَقْرَبَ الْوَعْدِ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾ {الأنبياء: ٩٦-٩٧} .

وقال سبحانه عن ذى القرنين : ﴿ ثُمَّ أَتَعَ سَبِيًّا ﴾ (٩٢) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ

(١) إسناده صحيح كما قال العلامة أحمد شاكر .

(٢) صححه الالباني .

مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ إلى قوله تعالى عن السد: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَمَجَمَّعَنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾﴾ [الكهف: ٩٢-٩٩].

وقد دلت الآيات على أنه إذا جاء الوقت المعلوم واقتربت الساعة اندك هذا السد الذي بناه ذو القرنين وخرجت يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة وجمع كبير لا يقف أمامه أحد من البشر فماجوا في الناس وعاثوا في الأرض فساداً، وهذا علامة على قرب النفخ في الصور وخراب الدنيا وقيام الساعة .

(٢) أدلة السنة :

عن أم حبيبة بنت أبي سفيان عن زينب بنت جحش أن رسول الله ﷺ دخل عليها يوماً فزعاً يقول : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون ؟ قال نعم إذا كثر الخبث»^(١).

ومنها ما جاء في حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه وفيه : «إذ أوحى الله إلى عيسى أنى قد أخرجت عبداً لى لايدان لأحد بقتالهم فحرز عبادى إلى الطور ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون مافيها ويمر آخرهم فيقولون : لقد كان بهذه مرة ماء، ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف^(٢) فى رقابهم فيصبحون فرسى^(٣) كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون فى الأرض موضع شبر إلا ملاء زهمهم وتنتهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت^(٤) فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله» رواه مسلم وزاد فى رواية بعد قوله : «لقد

(١) رواه البخاري ومسلم .

(٢) دود يكون في أنوف الإبل والغنم .

(٣) فرسى أي قتلي .

(٤) طوال الأعناق .

كان بهذه مرة ماء ثم يسرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر^(١) وهو جبل بيت المقدس فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض هلم فلنقتل من فى السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء.

وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال : لما كان ليلة أسرى برسول الله ﷺ لقى إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام فتذاكروا الساعة - إلى أن قال - فردوا الحديث إلى عيسى : «فذكر قتل الدجال، ثم قال : ثم يرجع الناس إلى بلادهم فيستقبلهم بأجوج ومأجوج وهم من كل حدب ينسلون لايمرون بماء إلا شربوه ولا بشئ إلا أفسدوه فيجأرون إلى فادعوا الله فيميتهم فتجوى الأرض من ربحهم، فيجأرون إلى فادعوا الله فيرسل السماء بالماء فيحملهم فيقذف بأجسادهم فى البحر»^(٢).

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فذكر الحديث وفيه : «ويخرجون على الناس فيستقون المياه ويفر الناس منهم فيرمون سهامهم فى السماء فترجع مخضبة بالدماء فيقولون : قهرنا أهل الأرض وغلبنا من فى السماء قوة وعلوا. قال : فيبعث الله عز وجل عليهم نغفاً فى أقفائهم، قال : فيهلكهم، والذي نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن وتبطر وتشكر شكراً وتسكر سكرأ من لحومهم»^(٣).

السد موجود ، ولكن أين مكانه ؟

ورد فى الأخبار الصحيحة مايدل على وجود السد وأنه لم يندك منذ أقامه ذو القرنين، ومن ذلك ما روى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ فى السد قال : «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غداً، قال : فيعيده الله عز وجل كأشد ماكان حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذى عليهم : ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى واستثنى، قال : فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم»^(٤).

(١) الشجر الملتف وقد فسر فى الحديث .

(٢) رواه أحمد والحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٣) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم وصححه الألباني .

(٤) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم .

والذي جاء في حديث الصحيحين، أنه فتح منه جزء يسير ففرع من ذلك النبي ﷺ .

وقد ذكر ابن كثير أن مكانه في جهة المشرق لقوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ {الكهف : ٩٠} ولا يُعرف مكان هذا السد بالتحديد، وقد حاول البعض التعرف على مكانه، ولا يعيننا تحديد مكان السد بل نقف عند ما أخبرنا الله تعالى به وما جاء في الأحاديث وهو أن سد يأجوج ومأجوج موجود إلى أن يأتي الوقت المحدد لك هذا السد وخروج يأجوج ومأجوج وذلك عند دنو الساعة كما قال تعالى: ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴾ (٩٨) وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجٌ فِي بَعْضٍ وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَمَجَمَّاعَهُمْ جَمْعًا ﴿

{ الكهف: ٩٨-٩٩ .

قال الإمام البخارى : قال رجل للنبي ﷺ : « رأيت السد مثل البرد المحبر . قال : قد رأيتة .»

خطأ من قال إن يأجوج ومأجوج

هم التتار أو روسيا ..

خروج يأجوج ومأجوج من أشراف الساعة الكبرى، التي تحدث في آخر الزمان وقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن خروجهم يكون بعد نزول عيسى عليه السلام وأن هلاكهم يتم ببركة دعاء المسيح عليه السلام فتستريح البلاد والعباد من شرهم ومن ذهب إلى أن يأجوج ومأجوج هم التتار أو الشعب الأصفر أو روسيا... فقد جانب الصواب وتكلف ما لا علم له به.

وعمن رجح أنهم التتار الإمام القرطبي حيث قال :

«وقد خرج منهم - أى الترك - فى هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم» وسلك الأستاذ سيد قطب نفس المسلك فرأى أن وعد الله بذلك السد قد وقع وأنه قد خرج يأجوج ومأجوج وهم التتار الذين ظهوروا فى القرن السابع الهجرى ودمروا الممالك الإسلامية وعاثوا فى الأرض فساداً .

ولا يُختلف على فساد ما فعله التتار، ولكن لو تركنا الواقع يفسر لنا أمارات الساعة لوجدنا أن البون شاسع والفارق كبير بين التتار وبين يأجوج ومأجوج حتى وإن اشتركا فى معنى وأصل الفساد، فالتتار أسلم منهم خلق كثير بعد ذلك وحسن إسلامه، وقد مضت قرون متطاولة على خروجهم ومن المعلوم أن الإمارات الكبرى - ويأجوج ومأجوج منها - كحبات الخرز فى النظام، يرتبط بعضها ببعض ويتبع بعضها بعض، كما سبق أن أوضحنا، فلو كان التتار هم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم لتابعت العلامات فى الظهور منذ زمن طويل كخروج المهدي وظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام .

كيف لم يطلع عليهم الناس

رغم التطور؟!

يقول الإمام الشنقيطى فى كتابه { أضواء البيان } ج٤ ص١٨٥ : «والعمدة فى الحقيقة لمن ادعى أن يأجوج ومأجوج هم روسية، ومن ادعى من الملحدين أنهم لا وجود لهم أصلاً، هى حجة عقلية فى زعم صاحبها وصورة نظمه أن يقول : لو كان يأجوج ومأجوج وراء السد إلى الآن، لاطلع عليهم الناس لتطور طرق المواصلات، لكنهم لم يطلع عليهم أحد فهم ليسوا وراء السد إلى الآن فيقول المعارض : الربط بين المقدم والتالى غير صحيح، لإمكان أن يكونوا موجودين والله يخفى مكانهم على عامة الناس حتى يأتى الوقت المحدد لإخراجهم على الناس .

ومما يؤيد إمكان هذا ما ذكره الله تعالى فى سورة «المائدة» من أنه جعل بنى إسرائيل يتيهون فى الأرض أربعين سنة وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ {المائدة : ٢٦} الآية، وهم فى فراسخ قليلة من الأرض، يمشون ليلهم ونهارهم ولم يطلع عليهم الناس حتى انتهى أمد التيه، لأنهم لو اجتمعوا بالناس لبينوا لهم الطريق، وعلى كل حال، فربك فعال لما يريد .

وأخبار رسوله ﷺ الثابتة عنه صادقة، وما يوجد بين أهل الكتاب مما يخالف ما ذكرنا ونحوه من القصص الواردة فى القرآن والسنة الصحيحة - زاعمين أنه منزل فى التوراة أو غيره من الكتب السماوية، باطل يقيناً لا يعول عليه، لأن الله جل

وعلا صرح فى هذا القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد بأنهم بدلوا وحرّفوا وغيروا فى كتبهم كقوله: ﴿يَحْرَفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ وقوله: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَأَاطِيسَ تَبَدُّونَهَا وَتَخْفُونَ كَثِيرًا﴾ بخلاف هذا القرآن العظيم، فقد تولى الله جل وعلا حفظه بنفسه، ولم يكله أحد حتى يغير فيه أو يبدل أو يحرف كما قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ {الحجر: ٩} .

لقد دلت الأخبار على وجود الدجال وأجوج ومأجوج، وإذا ورد شرع الله بطل نهر معقل، فالتعويل على صحة الخبر لاعلى تطور زائف ناقص، فالكثرة يصدق عليها قول الله: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ {الروم: ٧} .

ومازالوا يكتشفون أشياء تحت الأرض وفى البحر، ويعلنون عن اكتشاف مجرات بمليين النجوم فى السماء من حولنا، فهل يليق أن نفى وجود هذه الأشياء لجهلنا بوجودها؟! وهل كان يصح نفى وجود الميكروبات قبل اختراع المجهر؟! وصدق من قال: أن علم البشرية اليوم كطفل يلعب بساحل البحر وهو يجهل أعماقه .

علم الساعة

وميعادك السد

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي إِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دُكَّاءً وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (٩٨) وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ونفخ فى الصور فجمعناهم جمعا ﴿الكهف: ٩٨-٩٩﴾ قال القرطبي: الضمير فى ﴿تركنا﴾ لله تعالى أى تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم فى بعض. وقيل: تركنا يأجوج ومأجوج ﴿يومئذ﴾ أى وقت كمال السد يموج بعضهم فى بعض. واستعارة الموح لهم عبارة عن الحيرة وتردد بعضهم فى بعض، كالمولاهين من هم وخوف، فشبهم بموج البحر الذى يضطرب بعضه فى بعض .

وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم انفتاح السد يموجون فى الدنيا مختلطين لكثرتهم . قلت (أى القرطبي) : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأبعدها آخرها ، وحسن الأول ، لأنه تقدم ذكر القيامة فى تأويل قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي ﴾ والله أعلم . وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ [الكهف : ٩٩] قال ابن كثير : أى الناس يومئذ أى يوم يدك هذا السد ويخرج هؤلاء (يأجوج ومأجوج) فيموجون فى الناس ويفسدون على الناس أموالهم ويتلفون أشياءهم وهكذا قال السدى قال : ذاك حين يخرجون على الناس وهذا كله قبل يوم القيامة وبعد الدجال أه .

علمنا أن هذا السد بناه ذو القرنين (العبد الصالح) وهو غير ذى القرنين الإسكندر المقدوني فإن هذا كان كافراً ، وهو متأخر عن المذكور فى القرآن وبينهما أكثر من ألفى سنة كما ذكر ابن كثير . ولا ندرى متى يدك السد ويخرج يأجوج ومأجوج ، كما لا ندرى متى تقوم الساعة ، فذلك من الغيب الذى لا يعلمه إلا الله ، فلم يُطَلَع عليه ملكاً مقرباً ولا نبياً مرسلأ كما قال تعالى :

﴿ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ [الأحزاب : ٦٣] .

سبحانه : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ (٤٢) فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا (٤٣) إِلَى رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ﴿ [النازعات : ٤٢-٤٤] .

وجبريل ورسول الله ﷺ لا يعلمان متى تقوم الساعة ولذلك لما سأل جبريل النبي ﷺ عن الساعة قال : «ما المسئول عنها بأعلم من السائل» (١) . وكذلك عيسى عليه السلام لا يعلم متى تقوم الساعة مع أنه ينزل قرب قيامها وهو من علامات الساعة الكبرى . فعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «لقيت ليلة أسرى بى إبراهيم وموسى وعيسى قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى ابراهيم فقال : لا علم لى ، فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لى بها فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أما وجبتها فلا يعلمها أحد إلا الله ، ذلك وفيما عهد إلى ربي عز وجل أن الدجال خارج قال : ومعى قضيبان ، فإذا رآنى ذاب كما يذوب الرصاص قال : فيهلكه الله» (٢) . وقد عبر القرآن بقرب قيام

(١) رواه البخاري .

(٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

الساعة فقال تعالى: ﴿اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَّ الْقَمَرُ ۗ﴾ [القمر: ١] وقال: ﴿اِقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١] وهذا قرب نسبي لما عند الله: ﴿وَأَنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧].

وقد قال ﷺ: «إنما أجلكم - فى أجل من خلا من الأمم - ما بين صلاة العصر ومغرب الشمس»^(١).

وقال أيضاً: «بعثت أنا والساعة جميعاً إن كادت لتسبقنى»^(٢).

أشراط حدثت تدل على

قرب وقوع الساعة

ما أكثر العلامات التى وقعت، ومن جملة ذلك:

(١) بعثة النبى ﷺ، فعن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين، قال: وضم السبابة والوسطى»^(٣).

(٢) موت النبى ﷺ

فعن عوف بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «اعدد ستاً بين يدى الساعة: موتى»^(٤).

(٣) فتح بيت المقدس:

للحديث السابق، وقد تم ذلك فى عهد عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

(٤) طاعون عمواس:

فقد ورد فى الحديث السابق: «ثم موتان يأخذ فيكم كقعاصى الغنم» وكان ذلك بعد فتح بيت المقدس فى خلافة عمر، ومات فيه خلق كثير من الصحابة.

(١) رواه البخاري.

(٢) قال ابن حجر: أخرجه أحمد والطبري وسنده حسن.

(٣) رواه مسلم.

(٥) استفاضة المال والإستغناء عن الصدقة

فعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان يطوف الرجل فيه بالصدقة من الذهب، ثم لا يجد أحداً يأخذها منه»^(١). وقد حدث ذلك فى عهد الصحابة بسبب ما وقع من الفتوح ثم فاض المال فى عهد عمر بن عبد العزيز وسيكثر المال فى آخر الزمان كما يحدث فى زمن المهدي وعيسى .

(٦) ظهور الفتن :

فعن أم سلمة رضى الله عنها قالت : «استيقظ رسول الله ﷺ ليلة فزعاً يقول : سبحان الله، ماذا أنزل الله من الخزائن ؟ وماذا أنزل من الفتن ؟ من يوقظ صواحب الحجرات - يريد أزواجه - لكى يصلين، رب كاسية فى الدنيا عارية فى الآخرة»^(٢). وأحاديث الفتن كثيرة، فقد حذر النبي ﷺ أمته من الفتن وأمر بالتعوذ منها وأخبر أن آخر هذه الأمة سيصيبها بلاء وفتن عظيمة وليس هنالك عاصم إلا الإيمان بالله واليوم الآخر ولزوم جماعة المسلمين وهم أهل السنة وإن قلوا وقد ظهرت فتن كثيرة كموقعة الجمل وصفين والحرة ومقتل عثمان وظهور الخوارج، وكان منبع معظم الفتن من جهة المشرق.

ففى الحديث : «رأس الكفر من ههنا من حيث يطلع قرن الشيطان يعنى المشرق»^(٣).

فمن العراق وما والاها ظهر الخوارج والشيعية والباطنية والمعتزلة والجهمية والمجوس والمناوية والمزدكية والهندوسية والبوذية والقاديانية والبهائية والتتار والدجال ويأجوج ومأجوج والإلحاد، نعوذ بالله من الفتن ماظهر منها وما بطن .

(٧) اتباع سنن الأمم الماضية

فعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : «لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها شبراً بشبر وذراعاً بذراع» فقيل : يارسول الله كفارس والروم؟ فقال : «ومن الناس إلا أولئك»^(٤).

(٣، ١) رواه مسلم .
(٤، ٢) رواه البخاري .

وفى رواية عن أبى سعيد قلنا يارسول الله اليهود والنصارى قال : «فمن»^(١).

(٨) ظهور مدعى النبوة :

ففى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله» .

(٩) انتشار الأمن :

فمن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يسير الراكب بين العراق ومكة لا يخاف إلا ضلال الطريق»^(٢).

وهذا قد وقع زمن الصحابة وسيكون ذلك فى زمن المهدي وعيسى عليه السلام

(١٠) ظهور نار الحجاز :

للحديث : «لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضى أعناق الإبل ببصري»^(٣). وقد ظهرت هذه النار سنة (٦٥٤) هجرية وأفاض العلماء فى وصفها.

(١١) قتال الترك :

روى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون الترك، قوماً وجوههم كالمجان المطرقة يلبسون الشعر ويمشون فى الشعر». وقد قاتلهم المسلمون من عصر الصحابة وذلك فى أول خلافة بنى أمية والصفات التى جاءت فى وصف الترك تنطبق على التتار (المغول)، وقد كان ظهورهم فى زمن الإمام النووى، وقد دخل كثير من الترك فى الإسلام ووقع على أيديهم خير كثير.

(١٢) ضياع الأمانة :

عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة قال كيف أضاعتها يارسول الله ؟ قال : إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة»^(٤). كما أخبر أنه ستكون هناك سنون خداعة يكذب فيها الصادق ويصدق

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد .

(٤) رواه البخاري.

فيها الكاذب ويخون الأمين ويؤتمن الخائن ويرتفع فيها الأسافل وينطق الروبيضة وهي السفية يتكلم في أمر العامة .

(١٣) قبض العلم وظهور الجهل :

لما ورد في الصحيحين عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل» ومن أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر وهم أهل البدع كما قال ابن المبارك .

(١٤) كثرة الشرط وأعوان الظلمة :

الذين يتسلطون ويعذبون الناس دون وجه حق، ففي حديث النبي ﷺ لأبي هريرة : «إن طالت بك مدة أو شكت أن ترى قوماً يغدون في سخط الله ويروحون في لعنته في أيديهم مثل أذنان البقر»^(١) .

(١٥) إنتشار الزنا :

ففي الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «إن من أشراط الساعة (فذكر منها) ويظهر الزنا . فتشيع الفاحشة ويظهر من يستحل الحر (الزنى) والجهر .

(١٦) إنتشار الربا :

لما ورد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «ليأتين على الناس زمان لا يبالي المرء بما أخذ المال أمن حلال أم من حرام»^(٢) .

(١٧) ظهور المعازف وإستحلالها :

قال : «سيكون في آخر الزمان خسف وقذف ومسخ، قيل : ومتى ذلك يارسول الله ؟ قال : إذا ظهرت المعازف والقينات»^(٣) . والقينات أى المغنيات .

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري . وفي رواية الطبراني : «بين يدي الساعة يظهر الربا» .

(٣) رواه ابن ماجه وصححه الالباني .

(١٨) كثرة شرب الخمر واستحلالها :

فقد روى مسلم عن أنس قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «من أشراط الساعة» وذكر منها «ويشرب الخمر». وفي حديث الإمام أحمد : «لستحلن طائفة من أمتي الخمر باسم يسمونها إياه»^(١).

أى يسمونها مياه روحية أو كينا أو بيرة أو أم الأفراح

(١٩) زخرفة المساجد والتباهي بها :

فعن أنس أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس فى المساجد»^(٢).

قال أنس : يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلاً، وقال ابن عباس : لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى .

(٢٠) التطاول فى البنيان : مثل ناطحات السحاب والتفاخر فى طول الأبنية وعرضها وزخرفتها وقد ورد فى الحديث : «وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون فى البنيان»^(٣)

(٢١) كثرة القتل : لحديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرج، قالوا : وما الهرج يارسول الله؟ قال: القتل القتل»^(٤) فلا يدرى القاتل فىم قتل؟ ولا المقتول فىم قتل؟ وانتشار الأسلحة الفتاكة والإنحلال وطيش العقول من أعظم أسباب ذلك .

(٢٢) تقارب الزمان : فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «لا تقوم الساعة حتى يتقارب الزمان»^(٥).

وقد يكون المراد بذلك قلة البركة، أو تقارب أحوال أهله أو بسبب توفر وسائل المواصلات أو بسبب الرخاء زمن المهدي وعيسى أو قصره وسرعته سرعة حقيقية كما ورد فى النصوص أن السنة تكون كالشهر .

(١) صححه الألباني.

(٢) رواه البخاري.

(٣، ٤) رواه مسلم.

(٥) رواه البخاري.

(٢٣) تقارب الأسواق :

لحديث : « لا تقوم الساعة حتى تظهر الفتن ويكثر الكذب وتتقارب الأسواق »^(١).

(٢٤) ظهور الشرك في هذه الأمة : فقد روى أبو داود والترمذى عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وُضع السيف فى أمتى لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتى بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتى الأوثان »^(٢). وقد ورد أن الناس يعبدون اللات والعزى وذا الخلصة مرة ثانية.

(٢٥) ظهور الفحش وقطيعة الرحم وسوء الجوار لما رواه أحمد والحاكم عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يظهر الفحش والتفاحش وقطيعة الرحم وسوء المجاورة ».

(٢٦) تشبب المشيخة : عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « يكون قوم يخضبون فى آخر الزمان بالسواد كحواصل الحمام لا يريحون رائحة الجنة »^(٣) وهذه كحالة البعض الذى يحلق عوارضه ويدع ما على ذقنه من الشعر، ثم يصبغه بالسواد فيغدوا كحواصل الحمام .

(٢٧) كثرة الشح : وهو أشد البخل، فعن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح »^(٤).

(٢٨) كثرة التجارة : روى أحمد والحاكم عن ابن مسعود عن النبى ﷺ أنه قال : « بين يدى الساعة تسليم الخاصة وفسو التجارة حتى تشارك المرأة زوجها فى التجارة ».

(٢٩) كثرة الزلازل : لحديث : « لا تقوم الساعة حتى تكثر الزلازل »^(٥).

(١) رواه أحمد

(٢) صححه الألبانى .

(٣) رواه أحمد، وقال ابن حجر : إسناده قوي .

(٤) رواه البخارى .

(٥) رواه البخارى عن أبى هريرة .

(٣٠) ظهور الخسف والمسخ والقذف، فعن عائشة قالت : قال رسول الله ﷺ : «يكون فى آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، قالت : قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال : نعم إذا ظهر الخبث»^(١).
وأكثر ما يحدث ذلك فى الزنادقة والقدرية .

وروى الترمذى عن عمران بن حصين أن رسول الله ﷺ قال : «فى هذه الأمة خسف ومسخ وقذف، فقال رجل من المسلمين : يا رسول الله ومتى ذلك؟ قال : إذا ظهرت القيان والمعازف وشربت الخمر»^(٢).

(٣١) ذهاب الصالحين وقلة الأخيار وكثرة الأشرار : فقد روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ أنه قال : «يأتى على الناس زمان يغربلون فيه غربة يبقى منهم حثالة قد مرجت عهودهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبك بين أصابعه»^(٣)

(٣٢) إرتفاع الأسافل : فى البخارى : «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» وروى الطبرانى فى الأوسط : «من أشراط الساعة : أن يغلب على الدنيا كع بن كع» وهو الأحمق اللئيم .

(٣٣) أن تكون التحية للمعرفة : فلا يلقى الرجل السلام إلا على من يعرفه، فى الحديث : «إن بين يدي الساعة تسليم الخاصة»^(٤) . والسنة إلقاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف

(٣٤) ظهور الكاسيات العاريات ، فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات ميملات مائلات رؤسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»^(٥) . وقد ورد فى بعض الروايات أن ظهور ذلك سيكون فى آخر الزمان، وهو من معجزات النبوة، فالتهتك فى الشوارع وعلى شواطئ البحر لا يخفى .

(٢، ١) رواه الترمذى وصححه الألبانى .

(٣) رواه أحمد والحاكم، وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٤) رواه أحمد وصححه الألبانى .

(٥) رواه مسلم .

(٣٥) صدق رؤيا المؤمن: ففي الصحيحين عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا اقترب الزمان لم تكذب رؤيا المسلم تكذب ، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً ، ورؤيا المسلم جزء من خمس وأربعين جزءاً من النبوة »^(١)

(٣٦) كثرة الكتابة وانتشارها ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : « إن بين يدي الساعة ظهور القلم »^(٢) .

(٣٧) اتخاذ المساجد طرقات : عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول : « إن من أشراط الساعة أن يمر الرجل بالمسجد لا يصلح فيه ركعتين »^(٣) .

وورد عنه أيضاً : « إن من أشراط الساعة أن تتخذ المساجد طرقات »^(٤) .

(٣٨) انتفاخ الأهلة : عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقترب الساعة انتفاخ الأهلة »^(٥) .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « من اقترب الساعة انتفاخ الأهلة ، وأن يرى الهلال لليلة فيقال لليلتين »^(٦) .

(٣٩) كثرة الكذب وعدم التثبت في نقل الأخبار : فعن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « سيكون في آخر أمتي أناس يحدثونكم ما لم تسمعوا أنتم ولا أبائكم فإياكم وإياهم »^(٧) .

(٤٠) كثرة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق : ففي حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال : « إن بين يدي الساعة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق »^(٨) .

(١) هذا لفظ مسلم ، ولفظ البخاري : « لم تكذب رؤيا المؤمن تكذب » .

(٢) رواه أحمد وقال أحمد شاكر : إسناده صحيح .

(٣) رواه ابن خزيمة وله طرق يتقوي بها كمال قال الألباني .

(٤) رواه البزار وصححه الهيثمي .

(٥) رواه الطبراني في الكبير وقال الألباني صحيح .

(٦) رواه الطبراني في الصغير . وفي صحيح الجامع الصغير : « أن يرى الهلال قبلاً لليلة » .

(٧) رواه مسلم .

(٨) رواه أحمد ، وصححه أحمد شاكر .

(٤١) كثرة النساء وقلة الرجال : لقول رسول الله ﷺ : «من أشرط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل ويظهر الزنا، وتكثر النساء ويقل الرجال حتى يكون لخمسين امرأة القيم الواحد»^(١). وقد يكون ذلك بسبب كثرة الفتن والقتل فى الرجال وبسبب كثرة الفتوح فتكثر السبايا، أو قلة من يولد من الرجال.

(٤٢) كثرة موت الفجأة : لقول النبى ﷺ : «إن من أمارات الساعة . . . أن يظهر موت الفجأة»^(٢).

(٤٣) وقوع التناكر بين الناس : عن حذيفة رضى الله عنه قال : «سئل رسول الله ﷺ عن الساعة فقال : علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو ولكن أخيركم بمشاريطها وما يكون بين يديها، إن بين يديها فتنة وهرجاً قالوا : يارسول الله الفتنة قد عرفناها فالهرج ماهو؟ قال بلسان الحبشة : القتل، ويلقى بين الناس التناكر فلا يكاد أحد أن يعرف أحداً»^(٣). ويحدث التناكر عند كثرة الفتن والمحن وكثرة القتال وانتشار الأناثية البغيضة .

(٤٤) عود أرض العرب مروجاً وأنهاراً : فعن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى تعود أرض العرب مروجاً وأنهاراً»^(٤).

وقد تفجرت فى هذا العصر عيون كثيرة وقامت عليها زراعات عديدة وهناك فكرة بجر نهر الفرات للجزيرة العربية فلعلها تخرج إلى حيز الوجود .

(٤٥) كثرة المطر وقلة النبات : لحديث أنس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتى يمطر الناس مطراً عاماً ولا تنبت الأرض شيئاً»^(٥).

(٤٦) حسر الفرات عن جبل من ذهب : عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لا تقوم الساعة حتى يحسر الفرات عن جبل من ذهب يقتل الناس عليه فيقتل من كل مائة تسعة وتسعون، ويقول كل رجل منهم لعلى أكون أنا الذى أنجو»^(٦).

(١) رواه البخاري عن أنس.

(٢) رواه الطبراني في الأوسط والفضياء المقدس وحسنه الألباني.

(٣) قال الهيثمي : رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد، وقال ابن كثير : إسناده جيد.

(٦) رواه البخاري ومسلم.

و قد سمعنا مؤخراً عن اختلاط التراب بذرات الذهب والتقاط التصاوير لجبل من ذهب عند الفرات، وعلى كل حال فالأمر سيحدث كما أخبر الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه .

(٤٧) كلام السباع والجمادات للإنس : فعن أبي سعيد الخدرى فذكر قصة الراعى الذى كلمه الذئب حتى قال : قال رسول الله ﷺ : «صدق والذى نفسى بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس ويكلم الرجل عذبة سوطه وشراك نعله ويخبره فخذة بما أحدث أهله بعده»^(١) .

(٤٨) تمنى الموت من شدة البلاء

فعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول : ياليتنى مكانه»^(٢) .

وتمنى الموت يكون عند كثرة الفتن وتغير الأحوال . وقال ابن مسعود : سيأتى عليكم زمان لو وجد أحدكم الموت يباع لاشرته .

خطأ من قال أنه لم يبق على الساعة

إلا الأمارات الكبرى

ظن البعض أن الساعة قد استوفت جميع الأمارات والعلامات إلا الأمارات العشر الكبرى - والتي تبدأ بظهور المهدي - وهذا الظن فى غير موضعه فما زالت علامات كثيرة لم تحدث حتى يومنا هذا .

ومن جملة هذه العلامات التي تظهر مصاحبة للأشراط الكبرى أو بعدها .

(١) كثرة الروم وقتالهم للمسلمين : وفى الحديث «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»^(٣) . وفى الحديث : «تغزون جزيرة العرب فيفتحها الله، ثم فارس فيفتحها الله، ثم تغزون الروم فيفتحها الله، ثم تغزون الدجال فيفتحها الله، وقال نافع :

(١) رواه أحمد والترمذي وقال : حديث حسن صحيح، وقال الألباني : هذا صحيح .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) رواه مسلم عن عمرو بن العاص .

يا جابر لانرى الدجال حتى تفتح الروم^(١). وهذا القتال يقع بالشام فى آخر الزمان، وقد وردت الأخبار بفتح القسطنطينية قرب قيام الساعة .

(٢) خروج القحطاني : روى أحمد والشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه . وهذا الرجل تدين له الناس بالطاعة وتجتمع عليه وذلك عند تغير الزمان، وهذا القحطاني ليس هو الجهجاه، فالجهجاه من الموالي .

(٣) قتال اليهود : روى الشيخان عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال : لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهود من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودى خلفى فتعال فاقتله، إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود» واليهود يكونون من جند الدجال فيقاتلهم المسلمون الذين هم جند عيسى عليه السلام ويحدث ذلك فى آخر الزمان وينطق الحجر والشجر حقيقة فيقول : يا مسلم يا عبد الله .

(٤) نفي المدينة لشوارها ثم خرابها آخر الزمان

فقد ورد فى الحديث الذى رواه مسلم عن أبى هريرة : «لا تقوم الساعة حتى تنفى المدينة شوارها كما ينفى الكير خبث الحديد» .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : «تتركون المدينة على خير ماكانت لا يغشاها إلا العوافى - يريد عوافى السباع والطيور - وآخر من يحشر راعيان من مزينة يريدان المدينة ينعانان بغنمهما فيجدانها وحشاً، حتى إذا بلغا ثنية الوداع خرا على وجوههما» . وروى الإمام مالك عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : «قال لتتركن المدينة على أحسن ماكانت حتى يدخل الكلب أو الذئب فيغذى (يبول) على بعض سوارى المسجد أو على المنبر، فقالوا يارسول الله فلمن تكون الثمار ذلك الزمان؟ قال : للعوافى، الطيور والسباع» .

وقد رجح ابن كثير أن خراب المدينة بعد وفاة المسيح ودفنه بها .

(٥) رفع القرآن من المصاحف والصدور :

قال ابن مسعود : «ليتزعن القرآن من بين أظهركم يُسرى عليه ليلاً فيذهب من أجواف الرجال فلا يبقى فى الأرض منه شئ»^(١).

قال ابن تيمية: يسرى به فى آخر الزمان من المصاحف والصدور فلا يبقى فى الصدور منه كلمة، ولا فى المصاحف منه حرف.

(٦) بعث الريح الطيبة لقبض أرواح المؤمنين :

جاء فى حديث النواس بن سمعان الطويل فى قصة الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج : «إذا بعث الله ريحاً طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر فعليهم تقوم الساعة»^(٢).

فهذه الريح تكون بعد نزول عيسى وقتله الدجال وهلاك يأجوج ومأجوج .

(٧) استحلال البيت الحرام وهدم الكعبة : حدث أبو هريرة أن رسول

الله ﷺ قال : «يباع لرجل ما بين الركن والمقام ولن يستحل البيت لإأهله فإذا استحلوه فلا يُسأل عن هلكة العرب ثم تأتى الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كنزه»^(٣).

وروى أحمد والشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «يخرب الكعبة ذو السويقتين»^(٤) من الحبشة

وخراب الكعبة يحدث فى آخر الزمان حين لا يبقى فى الأرض أحد يقول الله الله فالحرم آمن إلى قرب قيام الساعة ومالم يستحله أهله .

(١) رواه الطبراني وقال ابن حجر: سنده صحيح .

(٢) رواه مسلم .

(٣) رواه أحمد، وقال ابن كثير هذا إسناد جيد قوي، وصحح الألباني إسناده.

(٤) سمي ذلك لصغر ساقه لأن الغالب على سوق الحبشة الدقة والحموشة .

الأشراط تتابع ونحن في غفلة

هناك علامات للساعة ظهرت وانقضت كانشقاق القمر وبعثة النبي ﷺ وموته ومن الإمارات مالم يحدث بعد - حتى الآن - كظهور الدجال ونزول عيسى عليه السلام وخروج يأجوج ومأجوج وطلوع الشمس من مغربها .

وهناك علامات ظهرت منذ زمن طويل وهي في ازدياد ثم صارت تكثر في بعض الأماكن دون بعض، ولكن نتيجة الغفلة والإعراض عن ذكر الله وغربة الدين وسط أهله وبنيه، اعتبرنا ذلك من جملة الأشياء العادية التي لا يؤبه ولا يُلتفت لها، وهي من العلامات التي تدل على قرب قيام الساعة، والتي توجب علينا أهمية الإستعداد والتأهب للقاء الله .

والساعة لن تقوم بإذن الله حتى تستوفي جميع الإمارات - الصغرى والكبرى - فتفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة .

والذى يعقبه قيام الساعة هو استحكام الأمانة والعلامة كما في قبض العلم ويسط الجهل بحيث تصير هذه سمة غالب أهل الوقت .

ولا يشترط أن تكون علامات الساعة محرمة وممنوعة ومذمومة بل قد تكون مباحة مثل تناول الناس فى البنيان وفشو المال ومشاركة المرأة للرجل فى التجارة وتقارب الأسواق وكون خمسين امرأة لهن قيم واحد .

فالإمارات تكون بالخير والشر والمباح والمحرم والواجب وغيره والواجب علينا أن نتعامل مع كل مسألة وفق الضوابط الشرعية وأن نكون على بصيرة من أمرنا وأمر الناس .

المدنية والتطور يتلاشى قرب

قيام الساعة

من تابع أخبار الدجال ويأجوج ومأجوج وغيرها من علامات الساعة يلمس بوضوح أن الحالة قرب قيام الساعة ستختلف عن أوضاع التطور المادى الذى نعيشه اليوم فالبشرية ستعود مرة أخرى إلى القتال على الخيول واستعمال النشاب والرماح والسيوف .

ومما يدل على ذلك ما رواه مسلم بشأن يأجوج ومأجوج : «ثم يسرون حتى يتتوها إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون : لقد قتلنا من فى الأرض، هلم فلنقتل من فى السماء فيرمون بنشابهم (سهامهم) إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء» .

وفى الحديث : «سيوقد المسلمون من قس يأجوج ومأجوج ونشابهم وأسلحتهم وأترستهم سبع سنين»^(١) .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «إن يأجوج ومأجوج يحفرون كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم : ارجعوا فسنخفره غداً، فيعيده الله أشد ماكان، حتى إذا بلغت مدتهم، وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا، حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس، قال الذى عليهم : ارجعوا فسنخفره غداً إن شاء الله تعالى واستثنوا، فيعودون إليه، وهو كهيئته يوم تركوه، فيحفرونه ويخرجون على الناس، فينشفون الماء ويتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فترجع عليها الدم الذى احفظ^(٢)، فيقولون قهرنا أهل الأرض، وعلونا أهل السماء فيبعث الله عليهم نغفاً فى أقفائهم فيقتلون بها، قال رسول الله ﷺ : «والذى نفس محمد بيده إن دواب الأرض لتسمن، وتشكر شكراً من لحومهم»^(٣) .

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وصححه الألبانى .

(٢) أى مغللة دماً .

(٣) رواه الترمذى وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه الألبانى .

وفى سنن ابن ماجه، وصحيح ابن حبان، ومستدرک الحاكم، ومسند أحمد عن أبى سعيد الخدرى، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «يفتح يأجوج ومأجوج، يخرجون على الناس كما قال الله عز وجل : ﴿مَنْ كَلَّ حَدْبٍ يَنْسِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٦]، فيغشون الأرض وينحاز المسلمون عنهم إلى مدائنهم وحصونهم، ويضمون إليهم مواشيهم، ويشربون مياه الأرض، حتى أن بعضهم ليمر بالنهر، فيشربون ما فيه حتى يتركوه يبساً، حتى إن من بعدهم ليمر بذلك النهر، فيقول : قد كان هنا مرة ماء، حتى إذا لم يبق من الناس إلا أحد فى حصن أو مدينة، قال قائلهم : هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم، بقى أهل السماء، قال : ثم يهز أحدهم حربته، ثم يرمى بها إلى السماء، فترجع مخضبة دماً للبلاء والفتنة، فبينما هم على ذلك، إذ بعث الله دوداً فى أعناقهم كنعف الجراد الذى يخرج فى أعناقهم، فيصبحون موتى لا يُسمع لهم حس، فيقول المسلمون: ألا رجل يشرى نفسه، فينظر ما فعل هذا العدو، قال: فيتجرد منهم محتسباً لنفسه، قد أظنها على أنه مقتول، فينزل فيجدهم موتى، بعضهم على بعض، فينادى: يامعشر المسلمين: ألا أبشروا، فإن الله قد كفاكم عدوكم، فيخرجون من مدائنهم وحصونهم، ويسرحون مواشيهم، فما يكون لها رعى إلا لحومهم، فتشكر عنه كأحسن ما تشكر عن شئ من النبات أصابته قط».

وورد فى حديث قتال الروم : «بينما هم كذلك إذ سمعوا ببأس هو أكبر من ذلك فجاءهم الصريخ : ان الدجال قد خلفهم فى زرايهم فيرفضون ما فى أيديهم، ويقبلون فيبعثون عشرة فوارس طليعة . قال رسول الله ﷺ : أنى لأعرف أسماءهم وأسماء آباءهم وألوان خيولهم، هم خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ، أو من خير فوارس على ظهر الأرض يومئذ»^(١).

وورد أيضاً فى حديث انتصار المسلمين على الروم : «ويفتح الثلث لايفتون أبداً، فيفتحون قسطنطينية، فبينما هم يقتسمون الغنائم قد علقوا سيوفهم بالزيتون»^(٢).

والشاهد من هذا كله أن الحياة تعود بدائية، فلا قنابل ولا صواريخ ولا أسلحة فتاكة في الحروب وذلك قرب قيام الساعة، وهذا هو القدر المتيقن الذي نطقت به النصوص كما مر بك، أما كيف يحدث ذلك، فعمل البشرية تدمر نفسها بنفسها وتعود إلى القتال بالسيوف وركوب الخيول مرة ثانية والعلم عند الله تعالى.

٩ بِمَا يَفُوزَ النَّفْسَ مِنَ الْعَاجِ هَذَا وَالسَّامِيَّ
قول الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه

غداً إن شاء الله

ورد عن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ في السد قال : «يحفرونه كل يوم حتى إذا كادوا يخرقونه قال الذي عليهم أرجعوا فستخرقونه غداً، قال : فيعيده الله عز وجل كأشد ماكان، حتى إذا بلغوا مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس، قال الذي عليهم :

ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله تعالى واستثني، قال : فيرجعون وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس، فيستقون المياه ويفر الناس منهم» (١).

وواضح من هذا أن الإستثناء (وهو قول الإنسان إن شاء الله) أرجى لصاحبه في تحصيل مقصوده، حتى وإن كان فاسداً مفسداً كياجوج ومأجوج ولايبعد حتى على الكافر أن ينطق بكلمة إيمانية ككلمة إن شاء الله.

وقد ذكر لنا سبحانه ماكان من بني إسرائيل حينما أمروا بذبح البقرة فقالوا : ﴿إِنَّ الْبَقْرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ٧٠] وهذا استثناء منهم، وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنابة ما وانقياد ودليل ندم على عدم موافقة الأمر .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال : «لوما استثنوا ما اهتدوا إليها أبداً»، وورد : «لوما يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد» (٢)

(١) رواه الترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٢) أخرجه الطبري بإسناد منقطع عن ابن جريج وقناه السدوسي عن النبي ﷺ، وروي متصلاً.

وهذه القصة دليل على أن السنن لاتعرف المحاباه ولا المجاملة، فقد ينسى المسلم أن يستثنى فتفوت المصلحة، ففي الحديث: «قال سليمان بن داود لأطوفن الليلة على مائة امرأة، تلد كل واحدة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله - ولم يقل إن شاء الله - فما ولدت إلا واحدة منهن بشق إنسان، وقال رسول الله : لو قال إن شاء الله لولدت كل امرأة منهن غلاماً يقاتل فى سبيل الله عز وجل»^(١)

وعن عمر أن رسول الله ﷺ قال : «من حلف على يمين فقال : إن شاء الله فلا حنث عليه»^(٢).



(١) رواه البخاري وأحمد بلفظ متقارب.

(٢) رواه أحمد وغيره وصححه ابن حبان، وحنث فى يمينه إذ لم يبر لها.

الخاتمة

قرون متطاولة مرت على بناء ذى القرنين للسد، سارت فيها الأيام والليالي بأمر كثيرة فأسلمتهم إلى ربهم وقدمت بهم على أعمالهم فهل تحس منهم من أحد أو تسمع له ركزاً، وسيأتى اليوم - بإذن الله - الذى يندك فيه السد فتخرج يأجوج ومأجوج، وكل ما هو آت فهو قريب والبعيد ما ليس بآت .

قال عبد الله بن مسعود : ما آمن مؤمن أفضل من إيمان بغيب، ثم قرأ: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] فهم يؤمنون أن لهم رباً قادراً يجازى على الأعمال ، فهم يخشونه فى سرائرهم وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس لعلمهم باطلاعه عليهم، والغيب يدخل فيه كل ما أخبر به الرسول ﷺ مما لا تهتدى إليه العقول من أشراط الساعة وعذاب القبر والحشر والنشر والصراف والميزان والجنة والنار، أى أنهم آمنوا بالقرآن وما فيه من الغيوب .

ولما كانت هذه الأمة هى آخر الأمم ومحمد ﷺ هو خاتم الأنبياء، خص الله تعالى أمته بظهور أشراط الساعة فيها، وبينها لهم على لسان نبيه ﷺ أكمل بيان وأتمه، فمن علم يقيناً أن الساعة آتية لا ريب فيها فالواجب عليه أن يعمل ويتزود بالصالحات قبل فوات الآوان وانقضاء الأجل المحدود : ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الزمر: ٥٦-٥٨] .

وقد أشفق الصحابة رضى الله عنهم من قيام الساعة عليهم كما جاء فى حديث النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : «ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداة فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه فى طائفة النخل، فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا فقال : ماشأنكم؟» .

وقد ظهر كثير من أشراف الساعة وتحقق ما أخبر به النبي ﷺ وهذا كله من دلائل نبوته وآيات صدقه ﷺ وزيادة الإيمان واليقين الحاصلة لا بد وأن تكون دافعة لمزيد من العمل الصالح والإستعداد للقاء الله، فالدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، ولذلك لا عجب أن ختمت قصة بناء السد بقوله تعالى: ﴿ وَنَفِخْ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ۙ (٩٩) وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ [الكهف: ٩٩-١٠٠] وكانوا يقولون: من لم يردعه ذكر الموت والقبور والآخرة فلو تناطحت الجبال بين يديه لم يرتدع، فقصروا آمالكم وأثبتوا آجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء واعلموا أن من كان قبلكم كانوا يجمعون كثيراً ويبنون شديداً ويأملون بعيداً فأصبح جمعهم بوراً وبنيانهم قبوراً وأملهم غروراً .

اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها وخير أيامنا يوم نلتقاك .

وسبحانك اللهم ربنا وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .



أخي الكريم:

احرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر،
ففيها القدوة في الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر في
الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت
بها فؤاده في طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن في هذه
الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

قصة موسى والخضر

قصة ذبي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأخدود

قصة

صاحب بيس

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

مقدمة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

{آل عمران: ١٠٢} .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ {النساء: ١} .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ {الأحزاب: ٧٠-٧١} .

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها وكل محدثة بدعة؛ وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

وبعد، فقصة صاحب يس توضح حقيقة الإيمان وقيمة اليقين وكيف تكون الاستجابة لداعي الحق وفعل الله بأوليائه وتصور الصراع بين الحق والباطل والإيمان والكفر.

إن صاحب يس وهو الذي تعرضت السورة لقصته تنوياً بذكره وإعلاء لشأنه... لم يذكر القرآن اسمه ولا لونه ولا طوله ولا سنه ولا بلده... وكل ذلك طواه القرآن؛ لأنه لا فائدة ترجى من البحث فيه؛ وأسماء الأشخاص وتحديد الزمان وتعيين المكان ليست هي الهدف من قصص القرآن وإنما الهدف إظهار العلاقة بين

الخير والشر وعاقبة كل منهما، الأمر الذي يدعو العباد إلى الإيمان وفعل الخيرات ويخوفهم من الكفر وفعل المنكرات.

إن قصة صاحب يس دعوة للاستقامة على منهج الله ومتابعة طريق الأنبياء والمرسلين. لقد وقعت أحداثها في زمن مضى؛ وتكررت هنا وهناك؛ إنها قصة الإيمان على مر العصور وكر الدهور؛ ولا يمنع أن تكون أنت صاحبها الآن؛ ومن يشارك في أحداثها؛ وإلا فالزمان والمكان والأشخاص ليسوا غرضاً ولا هدفاً من وراء ذكر القصة؛ وإنما الغرض والهدف؛ هو إقامة واجب العبودية في كل عصر ووقت؛ ودعوة الخلائق لإسلام الوجه لله جل وعلا؛ وإبلاغ الحق للخلق ليحيى من حيي عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة .

إنها تذكرة سيقت مساق القصة في بساطة أسلوب وسلاسة عرض؛ تصل إلى شغاف القلوب من أيسر وأقصر طريق لتحقيق هدفها وتبلغ مرامها بإذن الله؛ فلا يبقى بعد ذلك الأمر إلا التأسى وعلو الهمة؛ وتجديد ما اندرس من الدين عملاً بالإسلام وللإسلام؛ حتى لو فعلوا بك ما فعلوا بصاحب يس، فذلك هو الفضل العظيم .

والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

وكتبه

سعيد عبد العظيم

القصة كما ذكرت في القرآن

قال تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مِنْ لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مِنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس : ٢٠-٢٩] .

أقوال المفسرين :

قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ [يس : ٢٠] : هو حبيب بن مرى وكان نجاراً وقيل إسكافياً؛ وقيل قصاراً وقال ابن عباس ومجاهد ومقاتل : هو حبيب بن اسرائيل النجار وكان ينحت الأصنام .

وهو ممن آمن بالنبي ﷺ وبينهما ستمائة سنة كما آمن به تبع الأكبر وورقة بن نوفل وغيرهما ؛ ولم يؤمن بنبي أحد إلا بعد ظهوره .

قال وهب : وكان حبيب مجذوماً، ومنزله عند أقصى باب من أبواب المدينة ؛ وكان يعكف على عبادة الأصنام سبعين سنة يدعوهم لعلهم يرحمونه ويكشفون ضره فما استجابوا له ؛ فلما أبصر الرسل دعوه إلى عبادة الله فقال إن هذا لعجب لى، ادعوا هذه الآلهة سبعين سنة تفرج عنى فلم تستطع ؛ فكيف يفرجه ربكم فى غداة واحدة ؟ قالوا نعم ربنا على ما يشاء قدير؛ وهذه لا تنفع شيئاً ولا تضر فآمن ودعوا ربهم فكشف الله ما به كأن لم يكن به بأس؛ فحيثما أقبل على التكسب فإذا أمسى تصدق بكسبه، فأطعم عياله نصفاً وتصدق بنصف؛ فلما هم قومه بقتل الرسل جاءهم ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس : ٢٠] الآية .

وقال قتادة : كان يعبد الله فى غار، فلما سمع بخبر المرسلين جاء يسعياً، فقال للمرسلين : أتطلبون على ما جئتم به أجر؟ قالوا: لا ما أجرنا إلا على الله .

قال أبو العالية: فاعتقد صدقهم وأمن بهم وأقبل على قومه ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس: ٢٠-٢١] أي: لو كانوا متهمين لطلبوا منكم المال . ﴿ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ [يس: ٢١] : فاهتدوا بهم .

﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس: ٢٢] قال قتادة : قال له قومه أنت على دينهم؟ فقال : ﴿ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ [يس: ٢٢] : أي خلقتني .

﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٢] : وهذا احتجاج منه عليهم . وأضاف الفطرة إلى نفسه لأن ذلك نعمة عليه توجب الشكر؛ والبعث إليهم: لأن ذلك وعيد يقتضى الجزر، فكان إضافة النعمة إلى نفسه أظهر شكراً؛ وإضافة البعث إلى الكافر أبلغ أثراً.

﴿ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ [يس: ٢٣] : يعنى أصناماً .

﴿ إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ ﴾ [يس: ٢٣] يعنى ما أصابه من السقم . ﴿ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ﴾ [يس: ٢٣] يخلصونى مما أنا فيه من البلاء يعنى إن فعلت ذلك . ﴿ لَقَدْ لَبِئْتُ لَئِيمًا ﴾ [يس: ٢٤] أى خسران ظاهر . ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴾ [يس: ٢٥] .

قال ابن مسعود: خاطب الرسل بأنه مؤمن بالله ربهم . ومعنى ﴿ فَاسْمِعُونِ ﴾ : أى فاشهدوا أى كونوا شهودى بالإيمان . وقال كعب وهب: إنما قال ذلك لقومه إني آمنت بربكم الذى كفرتم به .

وقيل : إنه لما قال لقومه: ﴿ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٢٠) ﴿ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا ﴾ [يس: ٢٠-٢١] ، رفعوه إلى الملك وقالوا: قد تبعت عدونا فطول معهم الكلام ليشغلهم بذلك عن قتل الرسل؛ إلى أن قال: ﴿ إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [يس: ٢٥] فوثبوا عليه فقتلوه .

قال ابن مسعود : وطئوه بأرجلهم حتى خرج قُصْبُهُ [أمعاؤه] من دبره وألقى فى بئر وهى الرُّسُ وهم أصحاب الرس ، وفى رواية أنهم قتلوا الرسل الثلاثة . وقال السدى رموه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى حتى قتلوه .

﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦] ، وذلك لما قُتِل .

قال قتادة: أدخله الله الجنة وهو فيها حي يرزق؛ أراد قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْزُقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩] ﴿قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) بِمَا غَفَر لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] تمنى أن يعلموا بحاله ليعلموا حسن مآله وحميد عاقبته، وليؤمنوا مثل إيمانه فيصيروا إلى مثل حاله .

قال ابن عباس: نصح قومه حياً وميتاً . فلما قُتل حبيب غضب الله له وعجل النعمة على قومه فأمر جبريل فصاح بهم بصيحة فماتوا عن آخرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ [يس: ٢٨]: أى ما أنزلنا عليهم من رسالة ولا نبي بعد قتله .

قال قتادة ومجاهد والحسن: أى لم أحتاج فى هلاكهم إلى إرسال جنود ولا جيوش ولا عساكر بل أهلكتهم بصيحة واحدة؛ قال معناه ابن مسعود وغيره ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾ تصغير لأمرهم؛ أى أهلكناهم بصيحة واحدة من بعد ذلك الرجل .

التناسب بين الآيات

سورة يس مكية بالإجماع . وهى ثلاث وثمانون آية، إلا أن فرقة قالت: أن قوله تعالى: ﴿وَنَكُتِبُ مَا قَدُمُوا وَأَنَارَهُمْ﴾ [يس: ١٢] أنزلت فى بنى سلمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم ويتقلوا إلى جوار مسجد الرسول ﷺ وقد تناولت السورة مواضع أساسية ثلاثة وهى الإيمان بالبعث والنشور، وقصة أهل القرية، والأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .

ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صحة الوحي وصدق رسالة محمد ﷺ ثم تحدثت عن كفار قريش الذين تمادوا فى الغنى والضلال وكذبوا سيد الرسل صلوات الله وسلامه عليه؛ فحق عليهم عذاب الله وانتقامه .

ثم ساق قصة أهل القرية «أنطاكية» الذين كذبوا الرسل؛ لتحذر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة، على طريقة القرآن فى استخدام القصص للعتبة والاعتبار .

قال تعالى : ﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْتُمْ ذَكَّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [يس: ١٣-١٩] .

ثم تعرضت السورة لموقف الداعية المؤمن «حبيب النجار - صاحب يس» الذي نصح قومه فقتلوه، فأدخله الله الجنة ولم يمهل المجرمين بل أخذهم بصيحة الهلاك والدمار.

وتحدثت السورة بعد ذلك عن دلائل الوحداية والقدرة؛ وانتقلت للحديث عن القيامة وأهوالها لتختتم بالحديث عن الموضوع الأساسى وهو موضوع :

« البعث والجزاء »

﴿ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

وأنت لوتأملت لوجدت تناسبا بين الآيات التى تعرضت لقصة صاحب يس والآيات قبلها وبعدها . . فقبلها تحدثت الآيات عن قصة المرسلين مع أصحاب القرية وكيف واجهوا دعوة الهداية والخير بتشاؤم وتكذيب ؛ ثم قتل المرسلين الثلاثة ولكن الدعوة لم تنته، إذ جاء صاحب يس متابعا للمرسلين وداعيا أهل القرية للدخول فى دين رب العالمين ؛ ولذلك تواصلت الآيات وتناستت . فلما أخذوا وقتلوا، أهلكهم ربنا جل وعلا بالصيحة وأعقب ربنا القصة بقوله : ﴿ يَا حَسْرَةَ عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [يس: ٣٠] .

فالتكذيب هو هو مع المرسلين وأبنائهم ويا لها من حسرة وخيبة على هؤلاء المستهزئين الذين بدلوا الإيمان بالكفر والسعادة بالشقاوة وأوردوا أنفسهم موارد الهلكة قال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١] .

وقد تناسبت القصة أيضاً مع بداية السورة ففيها تعريض بكفار قريش حيث كذبوا سيد المرسلين ولم يتعظ هؤلاء المشركون بمن أهلك الله قبلهم من المكذبين للرسول، فدعوة المرسلين وصاحب يس لم تختلف عن دعوة الرسول ﷺ .

كما ارتبطت القصة بخاتمة السورة ارتباطاً واضحاً، فالخلق خلقه والعبد عبده وليس شئ يخرج عن سلطانه وقهره، خلق الخلق وأحصي كل شئ عدداً وهو المبدئ المعيد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، فكيف نستتكف عن عبادته ونكذب رسله وأوليائه .

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، له الخلق والأمر سبحانه . أحيا صاحب يس حياة الكرامة بعد موته، وأهلك أعداءه بصيحة لم تُشفع بثانية قال تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس: ٨٣] فاحذروا سخطه وأليم عقابه وأقيموا حياتكم وفق منهجه سبحانه .

والسورة سُميت «سورة يس» لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بهذين الحرفين «الياء والسين» للتبنيه على إعجاز القرآن؛ وقد ارتبطت قصة الداعية المؤمن باسم السورة فأطلق عليه اسم «صاحب يس» .

هل القصة والسورة بضاعة للموتى!!!

لقد صار كثير ممن ينتسب لدين الله وكان القرآن يناديهم من مكان بعيد، من يوم بدر وأحد .

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] .

«سورة يس» لا يقرأ بها إلا على الموتى وفي المقابر . والقرآن لا يُحرص عليه إلا في الأربعين والسنوية!! وعمل الختمة للميت؛ والمصاحف على كثرتها لتزيين المنازل والمكاتب والسيارات، إلى غير ذلك من صور الإهمال والهجران لكتاب الله ولآياته البينات .

قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾

{الفرقان : ٣٠}

أين الحرص على إقامة حياتنا الخاصة والعامة وفق شرع الله؟ أين تطبيق هذه الآيات في السياسة والاقتصاد والاجتماع والأخلاق، والبيت والسوق والحرب والسلم والبيع والشراء . . . آية واحدة تكفى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ سورة واحدة كسورة يس أو غيرها فيها من العظات والعبر والدعوة لتوحيد الله جل وعلا؛ ما يجعلنا نرتدع وننيب لخالق الأرض والسموات . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ {القمر : ١٧} .

طالع قوله سبحانه في بداية سورة يس : ﴿ يَسَّ (١) وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ ، فهل انتفعنا بهذه النذارة ؟

ثم بعد آيات تقرأ قوله سبحانه : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴾ {يس : ١١} ، فهل انتفعنا بالبشارة؟

ثم يأتى قوله جل وعلا : ﴿ لِيُنذِرَ مَنِ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ {يس : ٧٠} ، أى لينذر بهذا القرآن من كان حيا القلب مستنير البصيرة وهم المؤمنون لأنهم المتفجعون به ﴿ وَيَحِقُّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، أى وتجب كلمة العذاب على الكافرين لأنهم كالأموات لا يعقلون ما يُخاطبون به ، أين ذلك كله ممن لا يعرف عن سورة يس أو {عديّة يس} إلا أنها يُستخرج بها الأشياء المسروقة!!
ما أعظم الفرق بين أمسنا ويومنا وما أشد غربة أمتنا وبعُد المسلمين عن دينهم وكتاب ربهم .

تمييز الغث من السمين فيما ورد بشأن سورة يس

حديث : «من دخل المقابر فقرأ سورة «يس» خفف الله عنهم وكان لهم بعدد من فيها حسنات» قال عنه الألباني: لا أصل له في شيء من كتب السنة.

والسيوطي لما أورده في شرح الصدور لم يزد في تخريجه على قوله : أخرجه عبد العزيز صاحب الخلال بسنده عن أنس! وعد قراءة «يس» على المقابر من جملة البدع . كما ذكر الشيخ الألباني في كتابه أحكام الجنائز ص ١١ : «أن قراءة سورة يس عند المحتضر لم يصح فيه حديث» . وقد نقل كثير من المفسرين كالقرطبي وابن كثير والشوكاني... أحاديث كثيرة في فضائل هذه السورة؛ ومن ذلك :

ما رواه أبو هريرة قال : قال ﷺ : «من قرأ يس في ليلة أصبح مغفوراً له، ومن قرأ حم التي يذكر فيها الدخان أصبح مغفوراً له» قال ابن كثير : إسناده جيد وحديث : «اقرأها على موتاكم» يعني يس . رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي في اليوم واللييلة وابن ماجه .

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله - : ولهذا قال بعض العلماء من خصائص هذه السورة أنها لا تقرأ عند أمر عسير إلا يسره الله، وكان قراءتها عند الميت لتنزل الرحمة والبركة وليسهل عليه خروج الروح والله تعالى أعلم .

قال الإمام أحمد رحمه الله : حدثنا أبو المغيرة حدثنا صفوان قال : كان المشيخة يقولون إذا قرئت يعني يس عند الميت خفف الله عنه بها .

وقال البزار : حدثنا سلمة بن شبيب حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال النبي ﷺ : «لوددت أنها في قلب كل إنسان من أمتي» (يعني يس) أه .

وقد ساق الترمذي حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لكل شيء قلباً وقلب القرآن يس؛ ومن قرأ يس كتب الله له بقراءتها قراءة القرآن عشرة مرات» ثم قال : هذا حديث غريب لانعرفه إلا من حديث حميد بن عبد الرحمن، وهارون أبو محمد شيخ مجهول .

وفى الباب عن أبى بكر الصديق رضي الله عنه ولا يصح لضعف إسناده؛ وأخرج الطبرانى وابن مردويه قال السيوطى بسند ضعيف عن أنس قال: قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات مات شهيداً».

القصة فى القرآن

قصص القرآن هى الآيات البينات التى صورت الوقائع وسجلت الأحداث وظروفها وملابساتها ونزل فيها وحى السماء ببيان أمر الله وحكمه وهداية وشفاء وإعجازاً وتبشيراً وتبشيراً وإنذاراً وعقيدة وشريعة وتفصيلاً لكل شئ وفى ذلك

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كَذَّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشْءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠) لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١٠٩-١١١].

وقد حكى لنا القرآن قصصاً كثيراً منه ما كانت أحداثه على عهد النبى صلى الله عليه وسلم كقصة بدر وأحد والأحزاب وحديث الإفك وقصة المجادلة؛ ومنه ما حدث فى الأمم السابقة؛ فقد ذكر لنا القرآن قصص الأنبياء وما كان من شأنهم مع أمهم وتتبع آثار كل قوم وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه، ومنه ما هو مفرد لم يتكرر كقصة أصحاب الكهف وصاحب يس وقصة أصحاب الجنة ووصايا لقمان لابنه؛ أما القصص المكرر فهو مستفيض؛ فقد وردت قصة إبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب وموسى وهارون وعيسى فى أكثر من موضع من كتاب الله، ثم القصص القرآنى بنوعيه الإسلامى وقصص الأولين مستمر بطول القرآن وعرضه، من أوائل البقرة إلى آخر ورقة فى المصحف الشريف .

ولو تتبعنا ما صح ورجح من أسباب النزول لوجدنا صبغة القصص غالبية وراء أكثر الآيات؛ وكان معظم القرآن قصصاً؛ إما بالنص أو بسبب النزول؛ فإذا كان لابد من إبلاغ الحق للخلق؛ فإن الأسلوب القصصى من أنفع الأساليب؛ والقصص القرآنى . . . ومنه قصة صاحب يس تصل إلى شغاف القلوب من أيسر طريق .

القصص القرآنى كله حق لا خيال فيه

القصص مأخوذ من القصص، وهو تتبع الأثر قال تعالى: ﴿فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أى رجعا يقصان الأثر الذى جاء به .

وقال سبحانه على لسان أم موسى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيه﴾ [القصص: ١١]، أى تتبعى أثره حتى تنظرى من أخذه . والقصص كذلك الأخبار المتتابعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] .

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ﴾ [يوسف: ١١١] . والقصة: الأمر والخبر، والشأن والحال .

وقصص القرآن كله حق لا خيال فيه، قال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾ [الكهف: ١٣] . وقال سبحانه: ﴿تَلَوْا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾ [القصص: ٣] .

ويقول سبحانه: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] . وهذا مما يفترق به القصص القرآنى عن هذا القصص الذى يؤلفه الناس من بنات عقولهم ويتخيلون وقائعه وأحداثه، ولسنا فى حاجة إلى القصص الخيالى المكذب قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] .

وقد كان على بن أبى طالب رضى الله عنه يأمر بإخراج القصص من المساجد، وهم الذين كانوا يروون الأقاصيص المكذوبة لترغيب الناس أو لترهييبهم .

ولا يجوز تربية أبناء المسلمين على الخرافات والشعوذة والخزعبلات الموجودة فى القصص الخيالى مثل ميكى ماوس وبطوط . . . فهذا القصص من شأنه أن ينحرف بعقائد الصغار ويعودهم على الكذب والخيالية، والبعض يبرر لنفسه ولأولاده بزعم الترويح والتسلية ولو تأمل لوجد أن الترويح لا يجوز أن يتم بمحرم ولا بما يستدخل الشر والفساد ويطمس الفطر، وقد كان رسول الله ﷺ يمزح ولا يقول إلا حقاً وصدقاً . لقد أمرنا أن نخاطب الناس على قدر عقولهم .

ومن الملاحظ أن الدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها و تستوعب عناصرها إلا بصعوبة شديدة وإلى أمد قصير ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً وأكثر فائدة؛ والطفل بصفة خاصة يميل إلى سماع الحكاية ويصغى إلى رواية القصة، بل وتستوعب ذاكرته ما يُحكى له، فيحكيه. ولذلك لا ينبغي أن يغيب عنا هذا المسلك في التربية والتعليم ومن طالع صفحة من كتاب الله فسيجد كيف اختلطت الرغبة بالرهبة والوعد بالوعيد والقصة بالموعظة، والأحكام الشرعية في ثنايا ذلك كله .

أهداف القصص القرآني

القصص القرآني له أهداف كبار، كل هدف منها يلح في التكرار والمزيد من التكرار، فليس هو حكايات للتسلية، وليس مغامرات مثيرة لسد الفراغ في النفس أو قتل فراغ الزمن ،

ومن بين هذه الأهداف :

١ - إظهار صدق النبي ﷺ في دعوته الأمم بما أخبر به عن الأحوال الماضية عبر القرون والأجيال وقيام التحدى بذلك؛ وهذا في حد ذاته إعجاز، فالنبي ﷺ كان أمياً وقد جاء بكتاب فيه نبأ من قبلنا وخبر من بعدنا وحكم ما بيننا. قال تعالي: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لِأَرْتَابِ الْمُبْطُلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]. ويقول جل وعلا: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود: ٤٩] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة تحمل في طياتها معنى التسلية للنبي ﷺ وللعصبة المؤمنة في دعوة لاقوا فيها التكذيب والتعذيب ومن أجلها هاجروا وفي سبيلها حاربوا وجاهدوا، فاحتاج الأمر لتثبيت متكرر، ولذلك تكرر بعض القصص بما يتكافأ مع حجم الرسالة وعظم الأمانة ومشقة الدعوة وقسوة العناد ومرارة الجهاد، في رحلة طويلة امتدت ثلاثة وعشرين سنة من حياة رسول الله ﷺ .

قال تعالى : ﴿ وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ {الحج: ٤٠} ، وفي بيان هذا الهدف يقول ربنا جل وعلا : ﴿ وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ {هود: ١٢٠} .

٢ - زجر الكفار وإنذارهم وتخويفهم وهو كثير في كتاب الله تعالى ومن ذلك ما جاء في سورة العنكبوت؛ فبعد أن قص علينا سبحانه قصصها .

قال تعالى : ﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ {العنكبوت: ٤٠} .

وقوله : ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ {فصلت: ١٣}

وقوله : ﴿ أَكْفَارَكُمْ خَيْرٌ مِنْ أَوْلَادِكُمْ ﴾ {القمر: ٤٣} .

٣ - بيان أسس الدعوة، وأن الدين واحد، هو الإسلام وإنما تعددت الشرائع وشرعية الإسلام حاکمة ومهيمنة على سائر الشرائع .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ {الأنبياء: ٢٥} .

وما من نبي إلا وقال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ {الأعراف: ٦٥} وسار الأتباع على خطى الأنبياء دون تبديل أو تغيير .

٤ - إعجاز في إيجاز، فمن بين صور الإعجاز التي وردت في كتاب الله تعالى الإعجاز اللغوي والبياني .

وتكرار القصة في القرآن يدل على هذا المعنى بكل وضوح كما في قصة موسى وفرعون؛ فهي في كل موضع تأتي بأسلوب يتمايز عن الآخر؛ ولا يمل الإنسان من تكرارها، وهي قصة تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل وقد يذكر بعض معانيها الوافية بالعرض في مقام وتبرز معان أخرى في سائر المقامات؛ حسب اختلاف الأحوال بالإضافة إلى أن إيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة منها أبلغ في التحدى .

ومن المعلوم أن القرآن نزل منجماً مفزقاً وعلى مكث، وبين القصة والقصة زمن؛ وكل هذا تصديق وتأكيد للإعجاز وأنه من عند الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

٥- الحث على مكارم الأخلاق كما فى قصة موسى مع شعيب وابنته، عندما ورد ماء مدين. فإذا لم نجد أدباً ولا تربية بعد ذلك دل هذا على أن هؤلاء قد اتخذوا القرآن مهجوراً، وأنهم لم ينتفعوا بهدى القرآن ولا قصصه.

إن هذه الأهداف التى ذكرناها تتجلى بوضوح من خلال التعرف على قصة صاحب يس.

قواعد هامة فى عرض الحوادث التاريخية

لما كان التاريخ أداة من أدوات الدعوة إلى الله وتحقيق عبوديته، وكان عبارة عن حلقات متصلة قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، لم ينفصل مثل هذا الفصل المريب إلى تاريخ قديم ووسيط وحديث، إذ أن البشرية ابتدأت بمرتبته هى من أعلى مراتب الهداية، فالبداية كانت بنى الله آدم، وكان نبياً مكملاً.

ولما كانت الغاية من خلق الخلق إقامة واجب العبودية قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥٦) ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨] كان لابد من ربط الماضى بالحاضر، والسنن الشرعية بالسنن الكونية، والأرض بالسماء والدنيا بالآخرة... وبالتالي فدراسة التاريخ ترتبط ارتباطاً وثيقاً بعقيدة المسلم، ومن هنا يتوجب عليه ملاحظة هذه القواعد فى الأسلوب والعرض:

(١) العقيدة الإسلامية هى الأصل والأساس الذى يركز عليه الحدث.

إن التركيز على معنى العقيدة لا يعنى الإخلال بالوقائع التاريخية، كما لا يعنى

أيضاً أننا سنقتحم أمراً لا وجود له فالملك له مالك والخلق له خالق والعبد عبده والأمر أمره، والحلال ما أحل، والحرام ما حرم والدين ما شرع، والكون من حولنا يسير وفق نظام محكم دقيق . والناظر في أسلوب القرآن وطريقته في عرضه لتاريخ الأنبياء وأتباعهم سيجد تركيزاً على الوحدانية وإخلاص العبودية لله، ونبذ الشرك والمشركين وبيان تناقضهم، ويجعل القصص ونتائجه مرتبطاً بذلك.

إن المتابع لأحداث التاريخ سيجد أن السعادة والتمكين والأمن والأمان والنصر والرخاء مرتبط بطاعة الله والاستقامة على أمره، وأن التعاسة والشقاء والظلم والجور في الانحراف عن منهجه سبحانه وشرعه .

قال تعالي: ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سِيلَ الْعَرَمِ وَاَبَدْنَا بِمَجْتَنِبِهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكُفُورَ ﴿سبأ: ١٥-١٧﴾ .

نظرة سريعة على دعوة صاحب يس والمرسلين من قبله ستجد تركيزاً على جانب العقيدة؛ وكما يقرر العلماء؛ فإن تقديم الأهم على المهم أمر واجب في العلم والعمل والدعوة إلى الله . وأعظم ما اهتم به العباد هو قضية العقيدة . فالتوحيد أولاً لو كانوا يعلمون .

(٢) التركيز في العرض على الأهداف والغايات ينبغي أن لا تشغلنا الدقائق التفصيلية في حوادث التاريخ عن العبرة من الحدث والرؤية الشاملة له والمسلم له هدف محدد في هذه الحياة وغاية يسعى إليها؛ ويعلم أنه مأخوذ عليه في سماعه وبصره وسائر جوارحه ولذلك لايسمح لنفسه أن يبدد وقته فيما لا طائل تحته؛ كما لا يوافق غيره على أن يعبت بعمره فيما لا فائدة فيه؛ إلا أن يكون البحث في التفصيلات متعلق به مقصد شرعى فلا بأس حينئذ، ومن أدل ما يلفت الأنظار لهذا المعنى قوله تعالي:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بَعْدَتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿الكهف: ٢٢﴾ .

يستوى فى أخذ العبرة أن يكون عددهم ثلاثة أو خمسة أو أقل أو أكثر، وسنهم ٢٠ أو ٢٥ سنة أو أكثر أو أقل، ولون كليهم أسود أو أحمر أو غير ذلك وكذلك الأمر فى قصة صاحب يس؛ فالعبرة حاصلة سواء كان طويلاً أو قصيراً، أيضاً أو أسوداً، بديناً أو نحيفاً؛ كبيراً أو صغيراً، شريفاً أو ضيعاً، وجد هنا أو هناك فالذى يجب على المسلم هو التركيز على الأهداف والغايات والتذكير بها فى كل مناسبة.

(٣) أن يكون العرض موحياً بتحييب الخير وتبغيض الشر .

المسلم صاحب رسالة وميزانه هو شرع الله، والشرع له حكمه على كل قول أو فعل وهو شرع شامل لكل زمان ومكان أو لكل ناحية من نواحي الحياة .

وعرض الأحداث التاريخية بأمانة والفحص والتدقيق والنقد والتثبت لا يتعارض بحال مع الحكم على الأشياء بشرع الله، لاجمأ تعارف عليه الناس أو قررتة هيئة أو استحسنته طائفة من المؤرخين، فالحق حق مهما كان فاعله والباطل باطل مهما كان قائله، ولنحذر فى ذلك التفسير المادى للتاريخ، هذا التفسير الذى يفصل الدنيا عن قضية الإيمان . فالصراع فيه لطلب الدنيا والبطولة عنده لتحقيق الوطنية والقومية .

إن تحييب الناس فى الخير وتبغيض الشر لهم من خلال العرض التاريخى يعد من أعظم غايات دراسة التاريخ وثمراته، وهذا المعنى واضح كل الوضوح فى قصة صاحب يس .

(٤) إبراز دور الأنبياء وأتباعهم فى تاريخ البشرية .

الإسلام هو الدين الذى ارتضاه ربنا للعالمين قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران]، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥] . وهذا الدين هو دين آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى ورسول الله ﷺ ، لا يقبل ربنا جل وعلا من مخلوق سواء، ثم الأنبياء وأتباعهم فى هذه الحياة يمثلون خط الاستقامة، وتقف بإزائه الجاهليات على تعدد أنواعها واختلاف عصورها .

والتاريخ البشرى يمثل صراعاً بين الحق والباطل، والغلبة فى النهاية والعاقبة إنما هى لحزب الرحمن فى مواجهة حزب الشيطان قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣] .

لقد قتل المسلمون وهم يبلغون أمر الله لأصحاب القرية، ثم جاء صاحب يس يكرر لهم نفس الدعوة فقتلوه هو الآخر فماذا كانت عاقبة هؤلاء وأولئك ؟

قال تعالى عن صاحب يس: ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦]. وقال عن أصحاب القرية: ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩].

إن لدعوة المسلمين وأتباعهم أعظم الأثر في تاريخ البشرية، إن كلمة الحق لا تضيع هباء ولا بد أن تترك أثراً، فلذلك مقدمة نتيجة ولكل عقيدة تأثير. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾

{آل عمران: ١٦٤}.

إن دعاة الحق يريدون تطبيق شرع الله وإسلام الوجه لخالق الأرض والسموات وأعداؤهم يبغونها عوجاً .

قال تعالى: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢].

(٥) تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية .

كل لفظ له مدلوله وكل مصطلح له معناه كالديمقراطية والاشتراكية والسلام العالمى والحرية والإخاء واليمين واليسار والتاريخ الحديث والشرق الأوسط . . . والمعنى الذى اشتهر لكلمة أو تعارف الناس عليه ليس بالحثم أن يكون موافقاً لشرع الله . فإذا علمنا أن كل كلمة لها وقع وتأثير واستحضرتنا صورة الصراع بين الحق والباطل ومحاولة كل صاحب عقيدة أن يروج لعقيدته، وأن يستخدم أساليبه ومفاهيمه ويبت مصطلحاته وأفكاره رجاء أن تسود وتعلو ويدين الناس بها، علمنا أهمية تحرى استعمال المصطلحات الإسلامية وخصوصاً في وقت ازداد فيه ضحايا الفكر العلمانى الوافد، واشتدت فيه وطأة التغريب .

إن للمسلم لسانه الذي يصوغ به الحقائق التاريخية، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨] وهذه الصياغة الإيمانية تفتقر كثيراً عن الصياغة الكفرية، وحتى لو قلنا إن العلم والحقائق عالمية فاللسان الذي تصاغ به ليس كذلك، وعلينا أن نضبط كل لفظ نقوله أو نسمعه بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

(٦) الابتعاد عن أسلوب التعميم قبل حصول الاستقراء.

عرض الحدث التاريخي يستلزم الدقة وأن تكون العبارات محددة الدلالة واضحة المعنى وأن لا نطلق حكماً عاماً على أهل بلد أو على أهل زمان أو على جنس من الأجناس، أو تنفى حدوث واقعة معينة، قبل حدوث الاستقراء التام؛ فصاحب يس كان رجل مغموراً لا يلتفت لمثله؛ لو وُجد في عصرنا وخصوصاً مع الانبهار والإعجاب بالدنيا وزخرفها والانخداع بالتييسيرات المادية وغلبة الباطل والضلال وفقدان الموازين الشرعية. ولكن من ينفى وجود صاحب يس وأن قتله ترتب عليه إهلاك أصحاب القرية لتمردهم وكفرهم وشدة بغيتهم وعدم ارتداعهم؟.

إن كثرة الباطل لم تنفى وجود الخير والصلاح وإن كان المرسلون وصاحب يس قد قتلوا وتم إهلاك أصحاب القرية؛ أي أن الجميع قد انتقلوا إلى ربهم إلا أن الفارق كبير بين الفريقين ويا بعد ما بين العاقبتين فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿[القلم: ٣٥-٣٦].

صفات الداعية المؤمن عند صاحب يس

إن الدعوة الناجحة لا بد أن تركز على أسس وتقوم على دعائم لا بد من توافرها وقد ذكر ربنا جل وعلا دعوة صاحب يس في معرض الثناء والمدح؛ فعلى كل من أراد حسن التأسى والاقتداء بأن ينظر بعين الاعتبار لهذه الصفات التي تحلى بها في دعوته .

ومن أهم هذه الصفات :

(١) الفهم الدقيق :

الفهم فضل من الله ومرتبة من مراتب الهداية .

قال تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

لقد فهم صاحب يس غايته في الحياة، وأن له رسالة لا بد من تأديتها؛ فتجافى عن دار الغرور وتعلق بالآخرة وأتى من أقصى المدينة يسعى لمواصلة مسيرة الدعوة إلى الله، فما ينبغي لهذا الخير بأن يتوقف؛ وبلغ قومه هذه الدعوة الإيمانية فما ترك هدى إلا وحثهم عليه؛ ولا شبهة تتعلق بها نفوسهم إلا وحرص على إزالتها.

﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس: ٢٠-٢٢] .

إن حسن موازنته وتقديره؛ وقيامه بطاعة الوقت وثباته على الأمر حتى لقي ربه؛ يدل على فهم دقيق؛ إذ من المعلوم أن القلوب تضطرب وقت الشدة، وتطيش العقول وقت الفتنة؛ ولا يمسك الإيمان في القلب إلا الذي يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده؛ وحتى يكون الإنسان على بصيرة من أمره وأمر الناس فهو يحتاج لتوفيق وفضل ونور وهداية حتى يُلهم رشده ويسلك صراطاً مستقيماً؛ صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً .

إن الفهم الدقيق لا بد فيه من علم بمواضع الأقدام، والنفس والأعداء والأصدقاء؛ علم بشرع الله وبالحلال والحرام وبما يجوز وما لا يجوز وبما يسوغ فيه الاجتهاد وما لا يسوغ، فعلى المسلم أن يستزيد من هذا العلم الشرعى النافع ليعرف موضوع دعوته وليكون فيها على بصيرة وبينة فلا يأمر إلا بالحق ولا ينهى إلا عن باطل ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ طه: ١١٤.

قال تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ المجادلة: ١١، وعليه أن يتزود لرحيله ويستشعر غربته فى الدنيا ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ البقرة: ١٩٧، وأن يكون دائماً بين الخوف والرجاء؛ فإذا تمكنت هذه المعانى من النفوس هيجتها لطلب الآخرة فتتشط الجوارح فى العبادة، والجهاد فى سبيل الله والدعوة إليه؛ حتى لو تطلب الأمر بذل الغالى والرخيص والنفس والنفس .

(٢) الصدق :

الصدق خلق فاضل تتمتع به النفس من فعل مالا يحسن ولا يجمل، به تبين معادن الرجال وخصوصاً وقت الشدة، وهو من الدرجات العلى؛ قال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ (٢٢) الأحزاب.

وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً؛ وإن الكذب يهدى إلى الفجور والفجور يهدى إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً» أخرجه الشيخان .

إن صاحب يس كان صادقاً مع ربه؛ صادقاً مع المرسلين؛ صادقاً مع نفسه؛ وصادقاً أيضاً مع أصحاب القرية الكافرين؛ لقد علم أن الإيمان بالله يترتب عليه تبعات؛ فحمل الرسالة وأدى الأمانة؛ صدق الله فصدقه؛ وتابع المرسلين ليس فقط حال حياتهم بل أيضاً بعد وفاتهم؛ ووفاء العهد من الدين، وهو أمانة صدق عظيمة وتكاد تلمح من قصة صاحب يس صدق النية والإرادة؛ فالحركات والسكنات لله جل وعلا؛ وصدق العزم فى أخذه الأمر بقوة وبلا ضعف وتردد ولذلك أثنى عليه سبحانه هذا الثناء العطر .

إن المعانى الطيبة عندما تستقر بالنفس وتمكن من القلب؛ تأبى إلا أن تولد مثل هذا الصدق فى الأقوال والأفعال؛ لقد أتى من أقصى المدينة يسعي؛ فلم يضمن بالخطوات ولم يتكاسل أو يتباطأ فى دعوة الخلق وطلب الآخرة، وكأنه كان يستعجل نهايته المحتومة ويقابل الموت غير هيب، ما أعظم الشبه بين صدق صاحب يس وصدق صحابة رسول الله ﷺ .

روى أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بداراً مع رسول الله ﷺ فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه أما والله لئن أرانى الله مشهداً مع رسول الله ﷺ ليرين الله ما أصنع، قال فشهد أحداً فى العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال: واهما لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد فى جسده بضع وثمانون ما بين رمية و ضربة فقالت اخته: ما عرفت أختى إلا بينانه فنزلت تلك الآية: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. والحديث رواه البخارى وغيره .

(٣) أمارات الإخلاص فى دعوته

إخلاص العبد لا يعلمه إلا الله، والكل مطالب بمجاهدة نفسه حتى يكون عمله لله، فجهاده وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . . . ينبغي أن تكون ابتغاء مرضات الله، لا عملاً لنفسه، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] .

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] .

وقد حكى النبى ﷺ لأمته قصة الثلاثة الذين هم أول من تسعر بهم النار يوم القيامة، ومنهم الذى قاتل حتى قتل؛ وكيف يؤتى به ويعرفه الله نعمه فيعرفها ويسأل ما فعلت فيها؟ فيقول: يارب قاتلت فى سبيلك حتى قتلت؛ فيقال له: كذبت ولكن ليقال عنك شهيد وقد قيل ويؤمر ويسحب على وجهه فى النار؛ وكذلك العالم والمرائي؛ وقد كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئاً أعلمه وأستغفرك لم لا أعلمه» .

إن الإخلاص عزيز، وهو فقد رؤية الإخلاص، ومن أحس في إخلاصه الإخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص؛ فلا بد من الاستعانة بالله؛ وأن يكون عملك هنا ونظرك في السماء؛ ولتعلم أن ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك و الإخلاص أن يعافيك الله منهما، والنفس في سيرها إلى الله لا تتخلص من كيد الشيطان إلا إذا أخلصت، ولذلك كان بعض الصالحين يقول لنفسه: يانفس أخلصي تتخلصي، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢] .

والإخلاص وإن كان أمراً بين العبد وربه؛ إلا أن له أمارات وعلامات؛ فما أسر عبد سريرة إلا أظهرها الله علي صفحات وجهه وقلبات لسانه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمُ فُلُوعَرَّتُهُمْ بَسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠] .

والأمارات كثيرة في دعوة صاحب يس؛ ذلك الرجل المغمور الذي رفعه ربنا مكاناً علياً؛ وأدخله الجنة بمنه وكرمه. لقد أننى عليه سبحانه في مجيئه لأصحاب القرية ودعوته لهم؛ وذكر عنه قوله تعالى :

﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢-٢٣] .

وقبلها ذكر لهؤلاء القوم دعوة المرسلين، وكيف أنها كانت دعوة لوجه الله ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [يس: ٢١] إن العلم والإخلاص واليقين رحم موصولة بين المؤمنين في كل عصر ووقت .

حاصر «مسلمة» حصنا فندب الناس إلى نقب منه فما دخله أحد، فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحته الله عليهم فنادى «مسلمة»: أين صاحب النقب؟ فما جاء أحد؛ فنادى إنى قد أمرت الإذن بإدخاله ساعة يأتي؛ فعزمت عليه لإجاء، فجاء رجل فقال: استأذن لى على الأمير فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال : أنا أخبركم عنه؛ فأتى «مسلمة» فأخبره عنه؛ فأذن له فقال: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً:

- ألا تسودوا اسمه في صحيفة الخليفة .

- ولا تأمروا له بشئ.

- ولا تسألوه عن هو.

قال: فذاك له، قال: أنا هو. فكان «مسلمة» لا يصلى بعدها صلاة إلا قال:

اللهم اجعلنى مع صاحب النقب.

ما أعظم التعامل مع الله؛ وإخلاص الأمر له؛ ونفض اليدين ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً. فالنظر للمخلوق والتطلع له ومراءاته محبط للعمل مسخط لله جل وعلا. وما أقرب الشبه بين صاحب يس وأصحاب الكهف ومؤمن آل فرعون وصاحب النقب؛ فاحرص على التجرد لله فى قولك وفعلك؛ وأحسن التأسى؛ وسل الله من فضله فمن سأل الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه كما صح بذلك الخبر عن الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه.

فى الحديث: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً ولا وطننا موطناً يغيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا مخمصة إلا شركونا فى ذلك وهم بالمدينة» قالوا: وكيف ذلك يارسول الله وليسوا معنا؟ قال: «حبسهم العذر» والحديث رواه مسلم وغيره.

(٤) متابعته

الدعوة الناجحة المباركة، هى التى يستقيم فيها الاتباع على هدى الأنبياء والمرسلين فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، قال تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدَهُ﴾ [الأنعام: ٩٠] وقال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]. وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

ولا ينال العبد درجة المحبة إلا بالاتباع الصادق، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] قال الحسن: ادعى قوم محبة الله فابتلاهم الله بهذه الآية.

فالإيمان ليس بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل وأن قوماً غرتهم
أمانى المغفرة، ذهبوا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا
الظن لأحسنوا العمل.

أتى رجل للإمام مالك يقول: يا إمام إنى أريد أن أحرم فمن أين أحرم؟ فقال له:
من حيث أحرم رسول الله ﷺ، من ذى الحليفة، فقال الرجل: فإنى أريد أن أحرم
من أبعد منه، فقال الإمام: لا تفعل، قال الرجل: ولما؟ قال الإمام: أخاف عليك
الفتنة، فقال الرجل: وأى فتنة في ازدياد الخير، قال له الإمام: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ
يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقد نزلت سورة الحجرات تحض على المكارم ورعاية حقوق الأدب، فلا يجوز
أن نتقدم بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل، ولا أن نرفع أصواتنا فوق صوت
رسول الله ﷺ حال حياته، ولا على سنته بعد مماته، كما لا يحل أن نجهر له
بالقول كجهر بعضنا لبعض . . . والنصوص الشرعية في هذا المعنى كثيرة وكلها
تحض على الاتباع وتزجر وتنهى عن الابتداع، وعلى هذه النصوص تربي صحابة
رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان، فكان عمر رضي الله عنه يقول: كل بدعة ضلالة وإن
رأها الناس، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم،
عليكم بالأمر العتيق، وعلى هذا المنهج تربي التابعون ومن تبعهم بإحسان، فكان
الشافعي رحمه الله يقول من استحسنت فقد شرع. ولذلك كان لسان حال ومقال
المسلمين في كل عصر ووقت يردد، إنما أنا متبع ولست بمتدع، وهذا شأن
صاحب يس، فمجيئه وإسراعه وحرصه على إبلاغ الحق للخلق وقوله: ﴿اتَّبِعُوا
الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي
وَأَلِيهِ تَرْجِعُونَ﴾ [يس: ٢٠-٢٢] آيات تدل على متابعة صادقة لا ابتداع فيها.

(٥) الرحمة والرفق والشفقة

ينبغي على المسلم في دعوته إلى الله أن يكون رحيماً بالخلق، رفيقاً بالمدعويين،
شغوفاً عليهم، حريصاً كل الحرص على هدايتهم، مع معرفته أن قلبه وقلوبهم
بيد الله، وقد بلغ من حرص صاحب يس على نجاة أصحاب القرية أن نصحهم
حياً وميتاً .

﴿ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾

{يس: ٢٦-٢٧}.

ومحبة الخير للناس تجرى من المؤمن مجرى الدم من العروق تجعله يبذل حياته ويحمل روحه على كفه، ويترك راحة بدنه، بل قد يرتحل تاركاً المال، والأهل، والوطن في سبيل نجاته، ونجاة الناس، فهل هناك شفقة، ورحمة أعظم من دعوة تقرب من الله، وتدل على طريق الله، ويتخلص بها العبد من الكفر، والباطل والضلال، وينجو بها من عذاب الله، ثم هو وجه كلمات هادية حانية بلا سب ولا شتم ولا ضرب بل كان رقيقاً حليماً، وما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه، وربنا جل وعلا رقيق، ويحب الرفق في الأمر كله، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على غيره .

للأسف لقد تغيرت المعاني وتبدلت في حياتنا وحياة الناس فأصبحت الرحمة والشفقة بالأولاد تكمن في شراء الفيديو، والتلفزيون لمشاهدة أفلام العنف والجنس والجريمة !!! وإقرار الفتيات على التبرج والاختلاط . . . بزعم أن كل إنسان معلق من عرقوبه !!! وبدعوى الاستمتاع بشبابهن !!! ومواجهة الإلحاد والكفر بأنها حرية شخصية وحرية فكر ورأى . . . ونصطنع الابتسامة الهادئة والدبلوماسية الفاجرة، حتى عدنا لا نغير منكرأ لا بالاستتار ولا بأيدينا، بل ألفت القلوب الضلالات واعتادت النفوس مشاهدة المنكرات .

إن الرحمة لا تتحقق إلا بالحرص على من تدعو، والشفقة الحقيقية لا تتم إلا بمحبة الخير للناس في العاجل والآجل ولذلك وصف ربنا جل وعلا نبيه ﷺ بقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ {التوبة: ١٢٨} .

ومن الرحمة القول الحسن الذي لا مخالفة فيه لأمر الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴾ {البقرة: ٨٣} وهذا القول متأكد في الغضب والرضا، وقد كان أويس بن عامر القرني رضي الله عنه يقول: نأمرهم بالمعروف وننهاهم عن المنكر فيشتموا آباءنا ويسبوا أعراضنا فوالله لا ندعهم حتى نقوم بحق الله فيهم .

(٦) الصبر والحلم

الإيمان نصفه صبر ونصفه شكر، والعبد لا ينفك عن نعمة يجب عليه أن يؤدي شكرها وابتلاء يجب عليه أن يواجهه بصبر، وقد خص سبحانه في الانتفاع بآياته، أهل الصبر، وأهل الشكر، فقال في أربع مواضع من كتابه ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ: ١٩] .

والناظر في قصة صاحب يس يلمس فيه إيماناً صادقاً وتحلياً بمعاني الصبر واليقين ولذلك كان إماماً في الدين، قال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] .

وإذا كان فعل الواجبات والانتها عن المحرمات والرضى بالقضاء لا يتم إلا بصبر، فدعوة صاحب يس وسيرته خير شاهد على ذلك ، فلم يتخل عن الدعوة، وتباعد بنفسه عن أدران الشرك ، ولم يواجه الأذى بجزع أو تشكي، ولم يثبت أنه لطم خدماً أو شق جيباً، بل كانت قوة إقدام نفسه مصروفة إلى ما ينفعه ، وقوة إحجامها إمساكاً عما يضره ، ولم يكن صبره سلوكاً سلبياً كهذا السلوك الذي يعيش به كثير من الناس فتولد لهم معاني الاستسلام والخضوع والمذلة، بل كان صبراً إيجابياً فيه معاني التأسى كما قال تعالى : ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥] .

إن الداعية الصابر الصادق يردد بلسان حاله قبل مقاله : «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

إن صاحب يس لم يكتف بالإيمان مسرعاً حاملاً الدعوة إليهم، بل واجه جهلهم بصبر عظيم، وحلم كبير، ولم يرد الانتقام منهم بعد ما قتلوه ، بل قال : ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾

{يس: ٢٦-٢٧}

ما أعظم حظه مما كان عليه رسول الله ﷺ من صبر وحلم. فقد روى عن عبد الله بن سلام من قصة زيد بن سعة قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى زيد بن سعة قال زيد: مامن علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه: يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل إلا حلاًماً. فكنت أنطلق إليه لأخالطه فأعرف حلمه من جهله، فخرج يوماً من الحجرات - يريد النبي ﷺ - ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه . . . فجاءه رجل يسير على راحلته كالبدوي فقال: يا رسول الله إن قرية بنى فلان أسلموا، ودخلوا في الإسلام، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أتتهم أرزاقهم رغداً، وقد أصابتهم سنة وشدة وقحطاً من العيش . . . وإنى مشفق أن يخرجوا من الإسلام طمعاً كما دخلوا فيه طمعاً فإن رأيت أن ترسل إليهم بشئ تعينهم به فعلت . . . فقال زيد بن سعة : فقلت : أنا أبتاع منك بكذا أو كذا وسقاً فباعني، وأطلقت همياني وأعطيته ثمانين ديناراً فدفعتها إلى الرجل وقال : أعجل عليهم وأغثهم، فلما كان قبل المحل بيوم أو يومين أو ثلاثة فخرج رسول الله ﷺ إلى جنازة بالقيع ومعه أبو بكر وعمر في نفر من أصحابه، فلما صلى على الجنازة ودنا من الجدار جبدت برديه جبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه، ثم أقبلت بوجه جهم غليظ فقلت ألا تقضييني يا محمد؟ . . . فوالله ما علمتكم يا بنى عبد المطلب إلا مظل، وقد كان لى بمخالطتكم علم، قال زيد : فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب رضي الله عنه كالفلك المستدير ، ثم رمى ببصره ثم قال: أى عدو الله أتقول هذا لرسول الله؟ وتصنع ما أرى؟ وتقول ما أسمع؟ فوالذى بعثه بالحق لولا ما أخاف فوته لسبقنى رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر فى تؤدة وسكون ثم تبسم ثم قال : لأنا وهو أحوج إلى غير هذا منك، أن تأمرنى بحسن الأداء وتأمره بحسن الاقتضاء . . . اذهب به يا عمر فاقض حقه، وزده عشرين صاعاً من تمر مكان ما روعته، فقلت: أتعرفنى يا عمر؟ قال: لا، فمن أنت، قلت : أنا زيد بن سعة ، قال: الخبر؟ قلت: الخبر ، قال فما دعاك إلى أن تفعل برسول الله ﷺ ما فعلت؟ وتقول له ما قلت؟ قلت : يا عمر إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها فى وجه رسول الله ﷺ حين نظرت إليه إلا اثنتان لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلاًماً ، فقد اختبرته منه ، فأشهدك يا عمر

أننى قد رضيت بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ﷺ نبياً ، وأشهدك أن شطر مالي ، فإنى أكثرها مالاً ، صدقة على أمه محمد ﷺ . فقال عمر : أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم كلهم؟ قلت أو على بعضهم ، قال : فرجع عمر وزيد بن سعة إلى رسول الله ﷺ فقال زيد : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، فأمن به وصدقه وبايعه وشهد معه مشاهد كثيرة .

تجفيف منابع سياسة قديمة

حرص الباطل والكفر على وأد دعوة الإسلام ، وتجفيف منابع الخير ، حرص قديم ، لا يقتصر على قتل المرسلين ، ثم من بعدهم صاحب يس ، حتى يسكتوا صوت الحق والهدى إلى الأبد فمن قبل استهزءوا بنبي الله نوح وكذبوه وقالوا :

﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدَائِكَ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ [هود: ٢٧] ووضعوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً .

وحاولوا إحراق نبي الله ابراهيم بالنار وتهده والده بالرجم والطرود والإبعاد ﴿ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦] .

وتنادى قوم لوط : ﴿ أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ ﴾

[النمل: ٥٦] .

كما حذر الملائكة فرعون من دعوة نبي الله موسى وقالوا : ﴿ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَيَآئِسُكَ فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لَا تَهْتِكْ قَالَ سَنَقْتَلِ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٢٧] .

لقد قتلوا نبي الله زكريا وابنه يحيى ، وحاولوا قتل المسيح فأنجاه الله ورفعته إلى السماء . ومحاولات قريش مع رسول الله ﷺ لمنع دعوته بالترغيب والترهيب تارة أو المقاطعة الاقتصادية ثم الاستهزاء والسخرية تارة أخرى ، ثم تأمرهم على قتله تارة ثالثة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ [الأنفال: ٣٠] .

ثم لما انتقل إلى المدينة، لم ينته الصراع بل شنوا الحرب تلو الأخرى وانضاف إليهم اليهود، والمنافقون، كل ذلك رجاء منع كلمة الحق من الوصول إلى الناس .
فحرص الكفار على تخفيف منابع الإسلام حرص قديم يأخذ أشكالا وصوراً متعددة قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ [إبراهيم: ١٣].

وشبيه بما حدث مع الأنبياء والمرسلين، يحدث مع أتباعهم كصاحب يس وأصحاب الأخدود . . . ولو أتقلنا إلى الآونة الأخيرة لوجدنا أن الحكومة السوفيتية حين هاجمت الإسلام سلكت طريقاً غير مباشر في بداية الأمر وذلك بالقضاء على المؤسسات الإسلامية الثلاث وهي: أولاً: الأوقاف، ثانياً: المحاكم الشرعية، ثالثاً: التعليم الديني الإسلامي .

وكانت هذه التجربة الرائدة التي سار عليها الشياطين هنا وهناك في محاولتهم تخفيف منابع الإسلام، فمن الدعوة إلى جعل الإسلام (عصرياً) إلى الدعوة إلى العلمانية (أى فصل الدين عن الدولة) وأخيراً محاولة الإجهاز على منابع الإسلام الاقتصادية والتعليمية والتشريعية والسعي في إنهاء الكثير من شعائر الإسلام الظاهرة فهذا هو سعيهم قديماً وحديثاً ﴿ تَشَابَهتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [البقرة: ١١٨]. وهذا هو حرصهم ﴿ يَرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

انتصر صاحب يس رغم مصرعه

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقال سبحانه: ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الروم: ٤٧] وقال ﴿ إِنْ تَصَرُّوا لِلَّهِ يَنْصُرْكُمْ ﴾ [محمد: ٧]، وقال جل وعلا: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

ومن المعلوم أن وعد الله لا يتخلف، والنصر حاصل حتى وإن طرد دعاة الحق أو قتلوا أو عذبوا، وهذا النصر لا يقتصر على صورة واحدة، فمن الأنبياء من آذاه قومه، فنصره الله عليهم فأهلكهم وأقام الدين في حياته، كموسى ومحمد عليهما

أفضل الصلاة والسلام ، ومنهم من ولاء الله الملك ، وهو نصر عظيم . . . كداود ، وسليمان عليهما السلام ، ومنهم من آذاه قومه ، ولم يؤمنوا به سوى قليل منهم فنجاه الله ومن معه وأهلك عدوه كنوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، ومنهم من قتله قومه ، أو حاولوا قتله فانتقم الله له بعد حين ، كيعحي ، وعيسي ، ومنهم من يئس من قومه فتركهم فعاقبه الله ثم عفا عنه ، ولما عاد إليهم ، نصره الله نصراً مؤزراً ، وظهر الدين وهو يونس عليه السلام .

ومن الدعاة من قتله قومه فأمن به بعض قومه فقتلوا وحرقوا وهؤلاء هم أصحاب الأخدود الذين ثبتوا على معاني العقيدة وفهموا حقيقة الانتصار ويتضح منها كيف انتصر الغلام عندما فاز بالشهادة في سبيل الله وانتصرت إرادته وعقيدته وفهمه وقراره عندما تحقق ما كان يتوقعه وقدم نفسه من أجله ، فأمن الناس وقالوا : آمنا بالله رب الغلام ، وانتصر أخيراً عندما خلد الله ذكره قذوة لمن بعده وذكرأ حسناً على لسان المؤمنين حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين ، وكذلك الأمر بالنسبة للمرسلين الثلاثة ولصاحب يس فقد نصرُوا نصراً مؤزراً على الرغم من مصرعهم .

ويتمثل النصر في الحقائق التالية :

(١) أن هؤلاء الرسل قد بلغوا رسالة الله ولم يستسلموا لشبه أهل القرية أولاً وتهديدهم ثانياً ، وهذه هي مهمتهم ﴿ وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس: ١٧] ، ومن أدى ماعليه فقد انتصر وفاز .

(٢) إيمان رجل من أهل القرية بهم ، وتأييده لهم علانية ، يعد نصراً وانتصاراً له ولهم .

(٣) أن قتل الداعية نصرله ولنهجه ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢] ، ولذلك ﴿ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ ﴾ [يس: ٢٦] ، فتمنى أن يعلن عن فوزه وانتصاره : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] .

(٤) وتبرجاً لانتصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعية جاءت النهاية المحققة ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٨-٢٩] .

(٥) انتصاره على نفسه ، كما ورد عند الطبرى فقد كان يقول أثناء قتل قومه له : ﴿ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴾ [يس: ٢٦] وهذا من حرصه على هداية قومه ، وهكذا يكون الداعية محباً لهداية الناس ، لا يحمل الحقد ولا الضغينة ، ومن حرم الانتصار على نفسه فلن ينتصر على غيره .

استدراج الله العباد وإملاؤه لهم

عن أبى موسى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن الله ليملئى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ، ثم قرأ : ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢] ، رواه الشيخان وغيرهما .

وعن عقبه بن عامر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا رأيت الله يعطى العبد من الدنيا - على معاصيه - ما يحب فإنما هو استدراج ثم تلا : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِم أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤] .

وفى تفسير قوله تعالى : ﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٤٤) وأملئ لهم إن كيدي متين ﴿ [القلم: ٤٤-٤٥] .

قال العلماء : يسبغ عليهم نعمه ويمنعهم شكره ، وقالوا : كلما أحدثوا ذنباً أحدث الله لهم نعمة .

إن أصحاب القرية واجهوا نعمة الله بكفر وجحود ، فلم يقيموا واجب العبودية فلما بعث فيهم المرسلون قتلوهم ، وبدلاً من أن يتوبوا تبادوا فى غيهم وضلالهم ظانين أن الأمر سيدوم لهم ، فصرعوا صاحب يس ، فكانت نهايتهم المحتومة ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ [يس: ٢٩] ، ولعذاب الآخرة أشد ، وماربك بظلام للعبيد ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات .

الشرع لا يفرق بين المتماثلين ولا يساوي بين المختلفين

من رحمة الله وعدله، أنه لم يجعل المسلم كالكافر، لا في الحياة ولا في الممات، قال تعالى: ﴿أَفَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥-٣٦]، فإن تساوينا نحن وهم استحقتنا من العذاب ما استحقوه، قال تعالى بعد ما ذكر عذاب قوم لوط: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]. وقد ذكرت قصة أصحاب القرية مع المرسلين وصاحب يس تسلياً لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام من جهة، وردعاً لكفار قريش ومن كان على شاكلتهم من جهة أخرى، وختمت القصة ببيان هلاك أصحاب القرية ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس: ٢٩] ثم أعقبها ربنا جل وعلا بقوله: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [يس: ٣٠].

إن الذنوب التي أهلك الله بها الأمم قسمان :

معاندة الرسل وجحد رسالاتهم والإسراع في الفجور والذنوب، فالقسم الأول يهلك الله تعالى أصحابها ويعذبهم عذاب استتصال وإبادة، كما فعل بقوم نوح، وعاد، وثمود، ولوط، وشعيب .

أما القسم الثاني فيصابون بالمجاعات، والجوائح والأمراض، والاختلاف، والزلازل وقد يكون مع ذلك موت وقد لا يكون، وعذاب الأمة المسلمة من هذا القبيل، فإن الله لا يستأصلها ولا يهلكها بسنة عامة كما يفعل مع الأمم السابقة ولكنه يعذبهم بأنواع عديدة متنوعة من البلاء كما وردت بذلك الأخبار.

وعموماً فالبلاء الذي ينتزل بالكافر نعمة، أما البلاء الذي ينتزل بالمؤمن فهو رحمة، إذ فيه تمحيص الخطايا والذنوب ورفع الدرجات كما يدعو للإنباة والتوبة بعكس الكافر الذي ينزل به البلاء فشأنه كشأن البعير عقله أهله ثم حلوه فلم يدر لما عقلوه ولما حلوه، نسأل الله السلامة والعافية .

علو الهمة

أى همة أعلى من أن يحيا الإنسان بالحق وللحق، ويسعى جاهداً لإظهاره، ويبدل عمره وحياته في سبيله، أى همة أعظم من تلك التى تابعت المرسلين، وسلكت طريقهم، ولم تنكص على عقبها القهقرى بعد أن رأت مصرعهم، بل أتت من أقصى المدينة تسعي، لتواجه مصيرها المحتوم .

لقد علم صاحب يس الغاية من خلق الخلق، فرأى أنه لا بد من الإرتفاع لمستوى الإسلام، ولذلك كان توحيد الله جل وعلا هو بداية الأمر ونهايته ،

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥] ، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦] .

وما من نبي إلا قال لقومه : ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٦٥] .

وقد ثبت أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما وجهه لليمن: «إنك تقدم على قوم أهل كتاب فليكن أول ماتدعوهم إليه أن يعبدوا الله ، فإذا هم عرفوا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات فى اليوم والليلة» . الحديث .

ومن المعلوم أن الكلمة التى تدخل بها فى الإسلام هى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله . أى لامعبود بحق إلا الله، والتوحيد توحيدان : توحيد المرسل جل وعلا وتوحيد متابعة الرسول ﷺ ، وإذا كان رأس المعروف توحيد الله تبارك وتعالى، فإن أحط دركات المنكر ، الكفر بخالق الأرض والسموات ﴿ لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكوننَّ من الخاسرين ﴾ [الزمر: ٦٥] ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [النساء: ١١٦] .

فدعوة صاحب يس ومجيئه، ومظهره ومخبره تدل على همة عالية، بل هو العلو فى الحياة وعند الممات، إن صاحب يس لم يكن دبلوماسياً مراوغاً يعيش حياة الثعالب، ويستبيح الكذب، والغش، والخداع، ويربر لنفسه الوسائل المنحطة من أجل غايات الوصول والكسب .

أين مثل صاحب يس الآن ؟

للأسف لقد غابت معانى القدوة والقيادة الحقة فى حث الكثيرين، وأصبحت الطموحات لكسب الدرهم والدينار، أو الهجرة إلى أمريكا وكندا !! أى لندنيا يصيها وامرأة يتزوجها، إن أمنية الشباب الآن أن يكون لاعب كرة أو مديعاً أو فناناً أن يكون طبيباً أو مهندساً والفنائة تريد أن تكون راقصة أو مغنية أو عارضة أزياء ولو أتى ذلك على حساب الدين وصار به ملحدأ زنديقأ.

أين الآن من يهاجر لله ورسوله؟!؟

أين من يأتى من أقصى المدينة يسعى لدعوة الخلق باذلاً مهجته فى سبيل الله، تاركأ المال والأهل والوطن استجابة لأمر الله؟!؟

لا نغالى لو قلنا: إننا بحاجة لإعادة صياغة سواء أكننا رجالاً أونساء، كباراً أو صغاراً ، حتى نرتفع لمستوى إسلامنا فقد علمنا القرآن أن ندعو ونقول: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ {الفرقان: ٧٤}.

فالؤمن إذا دعا ربه قال: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ {الفرقان: ٧٤}، ولم يكتف أن يكون من جملة المتقين .

إنه علو الهمة الذى ربت عليه هند بنت عتبة ابنها معاوية رضي الله عنه، فقد دخل عليهما يوماً أحد أقاربها وهى تحمله، فقال لها: إن عاش معاوية ساد قومه، فقالت: نكلته إن لم يسد إلا قومه .

إن الحياة الذليلة لا قيمة لها، والعلو فى الأرض إن لم يتم على أساس من الإيمان والعمل الصالح لا خير فيه ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ {آل عمران: ١٣٩} .

إن موتى الأحياء كثيرون وكم من ميت يحى بذكره القلوب .

أسباب للهلاك فاعتبروا يا أولي الأبواب

من أهم وأعظم أسباب الهلاك: الكفر بالله، والجحود لوحديته، ورد دعوة رسله، والاستهزاء، والسخرية بآياته، وتعطيل شريعته، والصد عن سبيله وقتل الداعين إليه من الأنبياء وأتباعهم .

وقد وردت النصوص بتفصيل هذه الأسباب؛ ومنها:

(١) كثرة الخبث :

لما روته زينب بنت جحش رضي الله عنها: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يوماً فزعاً يقول: لا إله إلا الله ويلٌ للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه، وحلق باصبعه الإبهام والتي تليها؛ قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثرت الخبث» رواه البخاري ومسلم .

(٢) الاختلاف في كتاب الله :

فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: هجرت (جئت مبكراً) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب؛ فقال : «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في هذا الكتاب» رواه أحمد ومسلم .

(٣) كثرة السؤال والاختلاف على الأنبياء :

لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال : خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : «يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا؛ فقال رجلٌ : أكلتُ عام يارسول الله؛ فسكت حتى قالها ثلاثاً، فقال : لو قلتُ نعم لوجبت ولما استطعتم . ثم قال : ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشئ فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شئ فذروه» رواه مسلم .

(٤) الغلو في الدين :

لحديث: «ياكم والغلو في الدين». والغلو في الدين: هو مجاوزة الحد . وفي الحديث أيضاً: «هلك المتنطعون ثلاثاً» رواه أحمد ومسلم . والتنطع هو التعمق في الشئ ومنه التغالى في العبادات حتى تخرج عن قوانين الشريعة .

(٥) التافس في الدنيا :

لقول رسول الله ﷺ : «والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم» رواه البخارى .

(٦) الشح :

لما رواه جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة؛ واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم» رواه البخارى ومسلم .

وورد : «إياكم والشح فإنما هلك من كان قبلكم بالشح أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور ففجروا» رواه أبو داود والحاكم .

(٧) ظهور الربا والزنى وتعاطى الرشوة :

لحديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال : «ما ظهر فى قوم الربا والزنا إلا أحلوا بأنفسهم عقاب الله عز وجل» رواه أحمد بسند صحيح .

وفى الحديث : «ما من قوم يظهر فيهم الربا إلا أخذوا بالسنة (الجدب والقحط) وما من قوم يظهر فيهم الرشا إلا أخذوا بالرب» رواه أحمد .

(٨) البّخس فى الكيل والميزان ومنع الزكاة ونقض العهود وعدم تنفيذ

أحكام الله :

فمن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : «يا معشر المهاجرين؛ خمس إذا ابتليتم بهن؛ وأعوذ بالله أن تدركوهن؛ لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن مضت فى أسلافهم الذين مضوا؛ ولم ينقصوا الكيل والميزان إلا أخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم؛ ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر (المطر) من السماء ولولا البهائم لم يمطروا؛ ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله ﷺ إلا سلط الله عليهم عدوهم من غيرهم فأخذوا بعض ما كان فى أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتحرروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» رواه ابن ماجه والحاكم وسنده صحيح .

(٩) ظهور المعاصى وعدم تغييرها :

لقوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَأُتْسِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ {الأنفال: ٢٥}.

وفى الحديث : «والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتتهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً منه ثم تدعونه فلا يستجيب لكم» رواه أحمد والترمذى بسند صحيح .

(١٠) إقامة الحد على الضعيف وترك الشريف :

لقول رسول الله ﷺ : «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» رواه البخارى .

(١١) إتخاذ القصة ووصل الشعر بغيره :

لقول معاوية وهو على المنبر وتناول قصة من شعر كانت فى يد حرس : يا أهل المدينة أين علماءكم؛ سمعت رسول الله ﷺ نهى عن مثل هذه ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم» رواه البخارى ومسلم .

(١٢) مخالفة أمر رسول الله ﷺ :

لقوله تعالى : ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {النور: ٦٣} .

وفى الحديث : «بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لا شريك له؛ وجعل رزقى تحت ظل رمحي؛ وجعل الذل والصغار على من خالف أمرى، ومن تشبه بقوم فهو منهم» رواه أحمد بسند حسن، والبخارى تعليقاً .

(١٣) ترك الجهاد والإخلاق إلى الدنيا :

فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : «إذا ضن الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة واتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد فى سبيل الله أنزل الله بهم بلاء فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» رواه أحمد .

(١٤) استحلال العرب لبيت الله الحرام :

لحديث : «يباع لرجل بين الركن والمقام، ولن يستحل هذا البيت إلا أهله، فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب، ثم تظهر الحبشة فيخربونه خراباً لا يعمر بعده أبداً وهم الذين يستخرجون كتزه» رواه أحمد وأبو داود والحاكم.

(١٥) ولاية غلمان قريش وامارتهم على الناس :

لحديث : «هلكة أمتي على يد غلمة من قريش» رواه البخاري، ورواه أحمد والنسائي بلفظ : «إن فساد أمتي على يد غلمة سفهاء من قريش».

(١٦) إذا ظهرت المعازف والمغنيات :

لحديث : «ليشربن ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها يعزف على رؤوسهم بالمعازف والمغنيات؛ يخسف بهم الأرض ويجعل منهم القردة والخنازير» رواه البخاري وأبو داود وابن ماجه .

(١٧) التكذيب بالقدر :

لحديث : «في هذه الأمة أو في أمتي خسف أو مسخ أو قذف في أهل القدر» رواه أحمد وابن ماجه والترمذي وقال حديث صحيح غريب .

الحق لا يعرف بكثرة ولا بقلّة ولا بغنى ولا بفقر ...

على الحق نور؛ وهو أبلج؛ يقبل من كل من جاء به؛ وهو ما وافق الكتاب والسنة؛ والباطل بضد ذلك؛ فاعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من أتاه؛ واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين .

ومن نظر في دعوات الأنبياء والمرسلين؛ يجد أن الضعفاء والمساكين هم أنصار الرسل في كل زمان ومكان؛ وهم الأسعدون بالانقياد لله تعالى ودعائه وخصوصاً في بداية الأمر؛ ولذلك قال قوم نوح له : ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ ﴾ [هود: ٢٧]، وقالوا له : ﴿ أَنْتَ مِنْ لِكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴾ [الشعراء: ١١١] وقال كفار قريش : ﴿ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ ﴾ [الأحقاف: ١١] يعنون ضعفاء المسلمين .

وساق الإمام البخارى - رحمه الله - فى كتاب بدء الوحى حديث ابن عباس من إرسال هرقل إلى أبى سفيان وسؤاله إياه عن النبى ﷺ وأنه قال له : « فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؛ فقال له : بل ضعفاؤهم ، قال هرقل : وهم أتباع الرسل ؛ وكان هرقل حذاءً ينظر فى النجوم وعلى معرفة بالكتاب الأول . ولما جاء المشركون لرسول الله ﷺ يطلبون منه أن يطرد الضعفاء من مجلسه حتى يجالسوه هم نزل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ﴾ [الأنعام : ٥٢] .

وقصته ﷺ مع ابن أم مكتوم الأعمى مشهورة . وجاء فى السنة الصحيحة أن الضعفاء والفقراء سيدخلون الجنة قبل أغنياء المسلمين بخمسمائة سنة .

فالإعتبار إنما هو بموافقة الحق لا بقوة هذا وضعف ذاك ، ولا بشرف الأول ووضاعة الثانى .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [سبأ : ٣٤] .

وقال سبحانه : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا ﴾ [الأعراف : ٨٨] وقال سبحانه : ﴿ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ [المؤمنون : ٣٣] والملا هم السادة والعظماء والوجهاء ، ولا يكونون إلا من المترفين الأغنياء .

كما أن الحق لا يعرف بكثرة ولا بقله لقوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ تَطَعْ أَكْثَرَ مِنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسَ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] ، ولقوله جل وعلا : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] .

وقصة صاحب يس مع أهل القرية خير شاهد على ذلك .

وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا

لقد أهلك ربنا أصحاب القرية، وهو غير ظالم لهم وكان إهلاكهم بعد تتابع النذارة فيهم .

قال تعالى: ﴿ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذُوبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [يس: ١٤-١٧] .

فلما قتلوا المرسلين الثلاثة، أتى صاحب يس من أقصى المدينة يسعي، يواصل المسيرة، ويبشر من آمن بالجنة وينذر من كفر بالعذاب، وهذا من رحمة الله بخلقه ومن سته في عباده، أنه لا يعذب ولا يهلك أحداً إلا إذا ذكرهم وأنذرهم .

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرُنِي وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨-٢٠٩] .

وقال تعالى: ﴿ وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر: ٢٤] .

وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾ [القصص: ٥٩] .

لقد أخذ ربنا على الخلق العهد والميثاق أنه ربهم ومليكنهم لارب غيره ولا معبود بحق سواه .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الاعراف: ٥٩] .

ولم يكتف سبحانه بآن ركب في العباد عقولا وأودع فيها فطراً، بل أنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل ليحيى من حى عن بيته، ويهلك من هلك عن بيته .

قال تعالى: ﴿ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴾

[الانعام: ١٣١] .

وفى الحديث: «لا أحد أغير من الله ولذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا أحد أحب إليه المدح من الله ولذلك مدح نفسه، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل» رواه البخارى ومسلم والترمذى عن ابن مسعود رضي الله عنه.

وهؤلاء الرسل والدعاة على دربهم يقيمون حجج الله وبيناته على العباد، فإذا نسوا ما ذكروا به أهلكهم حيثئذ بغتة وكان البأس الشديد الذى لا يرد عن القوم المجرمين جزاءً وافقاً .

قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمِ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ {الأنعام: ٤٤-٤٥} .

لماذا كان إهلاكهم بعد مصرع صاحب يس

ولم يكن بعد قتلهم المرسلين؟!

قد يهمل الله أقواماً ويرجئ عذابهم إلى وقت ما، ويمدهم مع ذلك بالأموال والبنين ويوسع عليهم فى حياتهم؛ ويمهد لهم سبل المعاش، فيظن الجهال منهم بسنة الله أنهم على خير وأنهم ناجون غير معاقبين؛ وأن حالتهم تلك لا توجب لهم نقمة ولا يستحقون بها بأساً، فيتمادون فى غيهم وعتوهم ولا يرفعون بأمر الله رأساً كحالة أصحاب القرية؛ وهذا من الاغترار .

قال تعالى: ﴿ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿﴾ {المؤمنون: ٥٥-٥٦} .

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿﴾ {الحج: ٤٨} .

وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا ﴿﴾ {آل عمران: ١٧٨} .

وفى تفسير قوله سبحانه: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمِ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقَطَّعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿﴾ {الأنعام: ٤٤-٤٥} ذكر العلماء: أنه كان بين تذكيرهم

ومواجهتهم له بالإعراض والتكذيب وبين انتقام الله منهم أكثر من عشرين سنة . وقد وردت الآيات توضح أن الله تعالى قد يرفع بعض الشدائد عن هؤلاء المجرمين ليرجعوا عما هم فيه ويتوبوا إليه ويكفوا عن كفرهم وضلالهم ولكنهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَلْجُؤِ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ {المؤمنون: ٧٥} . وقال تعالى في قوم موسى عليه الصلاة والسلام : ﴿ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴾ {الأعراف: ١٣٥} .

فمن رحمة الله بخلقه تنوع أسباب الهداية بالخير والشر كما قال تعالى : ﴿ ثُمَّ بَدَلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضُّرُّ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ {الأعراف: ٩٥}

وقال تعالى : ﴿ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

{الأعراف: ١٦٨}

والحسنيات هي الرخاء والخصب والعافية، والسيئات هي الجذب والبلاء والعقوبة؛ وهذا التنوع لا يجدى نفعاً مع من انطمست بصيرته، وران على قلبه، بسبب إسرافه على نفسه في الكفر والذنوب والمعاصي؛ فهو ينظر له على أنه أمر عادي طبيعي لا دخل للإيمان ولا للكفر به؛ فهم لا بالعذاب والعقاب يتأدبون ولا بالخير والرخاء يتهذبون؛ فهم في كل أحوالهم كافرون ظالمون وينعم الله ييطرون .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ (٤٢) ﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ {الأنعام: ٤٢-٤٣} .

ما أعظم حلم الله على عباده؛ وما أكثر نعمه عليهم؛ فاللهم اجعلنا من الشاكرين لنعمك المثنين بها عليك؛ وثبت قلوبنا على دينك وتوفنا مسلمين غير خزايا ولا مفتونين ولا تجعلنا اللهم من هؤلاء الذين قلت فيهم : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ {الأعراف: ١٧٩} .

ولا تجعلنا اللهم من هذا الصنف الذى عينته بقولك سبحانه : ﴿وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلاً وإن يروا سبيل الغي يتخذوه سبيلاً﴾ [الأعراف: ١٤٦] اللهم آمين .

الدنيا والآخرة حسبة واحدة

إنتقاله سريعة من حياة إلى حياة، والفارق بينهما لحظة خروج الروح، ونقله عجيبة من دار هى سجن المؤمن إلى حياة أوسع وأرحب، تحكيها قصة صاحب يس .

هذه القصة التى تضمنت الكثير من الفوائد على الرغم من إختصارها وإيجازها فقد ذكرت فى بضع آيات بينات سريعة الإيقاع، وصفت لنا دعوة صاحب يس المباركة ومجيئه ونهايته، وكأنه كان يستحث الخطوات ليلقى حتفه كما ذكر سبحانه وتعالى : ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى﴾ [يس: ٢٠]، وكان الآيات تذكرنا بأن الأنفاس تعد والرحال تشد والعارية ترد والتراب ينتظر الخد، وعلى أثر من سلف يمشى من خلف، وما ثم إلا أمل مكذوب وأجل مكتوب، وكل نفس ذائقة الموت فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

من كان يتصور أن صاحب يس وهو فى الحياة والحيوية سيصير جثة هامدة بعد لحظات، وهل فات الآيات أن توضح لنا كيفية قتله ؟

كلا فالموت نهاية كل حي، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره، ولذلك كان حرص الأفاضل على طلب معالى الأمور حتى فى الموت، ولذلك قال خالد بن الوليد رضي الله عنه : «لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما فى جسدى إلا ضربة سيف أو طعنة رمح وها أناذا أموت كما يموت البعير فلانامت أعين الجبناء» وقتل ابن الزبير وعلق على الخشب بعد أن خلع أذراعه نزولاً على أمر أمه أسماء رضي الله عنها أجمعين، إنها الرفعة فى الحياة وعند الممات .

لقد قتل صاحب يس، فانتقل إلى دار الكرامة، وآن له أن يطمئن على نفسه فقال تعالى : ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧] .

إن الحياة تمتد زماناً ومكاناً في نظر المؤمن، زماناً لأبد الأبدان ومكاناً لجنة فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ونحن في واقع الأمر نتقل من حياة دنيوية إلى حياة برزخية إلى حياة أخروية وكل صورة أرحب وأوسع من سابقتها، والمؤمن في طلبه الدار الآخرة قد يتشم عبير الجنة وهو مازال على ظهر هذه الأرض كأنس بن النضر رضي الله عنه يوم أحد عندما انكشف الصحابة وسمع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات - وما كان مات - قال : علام الحياة بعده قوموا فموتوا على مثل ما مات عليه ثم تبرأ إلى الله مما جاء به المشركون واعتذر إلى الله مما فعله أصحابه وقال : واهأ لريح الجنة إنى لأجد ريحها من دون أحد، ودخل يقاتل حتى قتل رضي الله عنه وما عرفته إلا أخته بينانه .

ولما سمع عمير بن الحمام رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، قال : بخ بخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : علام قلت بخ بخ، فقال: لا والله يارسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال له: فإنك من أهلها وأخرج تمرات من قرنه يأكل منها ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فألقى بها ثم دخل يقاتل فقتل رضى الله عنه . إن صاحب يس وأنس بن النضر وعمير بن الحمام رضي الله عنهم أجمعين، إخوة بعضهم على شاكلة بعض كانت الدنيا والآخرة في حسهم حسبة واحدة وطريق واحد .

بل الكل ممتحن

عندما نتأمل امتحانات الدنيا وما يحدث فيها من نجاح ورسوب وما يستتبع ذلك من فرحة وحزن وتفاوت هنا وهناك وما يسبق هذه الامتحانات من تأهب واستعداد وتهيئة وما يصاحبها من اضطراب وتخوف . . . نجد أنها بمثابة التذكرة بالامتحان الأكبر .

قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾

{الكهف: ٧}

وقال سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ {الملك: ١-٢} .

والفارق كبير بين امتحان الدنيا وامتحان الآخرة، فمعرفة العبد أنه سيقف بين يدي من لا تخفى عليه خافية يقول تعالى :

﴿يَوْمَ يَنعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦] .

وأنه لن تزول قدم عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن علمه ماذا عمل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن جسده فيما أبلاه، وأن الأمر إما جنة وإما نار

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ [الشوري: ٧]

وهنا وهناك خلود فلا موت .

قال تعالى : ﴿وَأَنذَرَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نُرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿مريم: ٣٩-٤٠﴾ .

وشتان بين من يؤتى كتابه بيمينه وبين من يؤتى كتابه بشماله .

قال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَٰؤُلَاءِ مِمَّا كَتَبْتُ فِيهَا ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيهِ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهِ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرَمَا حَسَابِيهِ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيهِ ﴿٢٨﴾ هَلَكْتُ عَنِّي سُلْطَانِيهِ﴾ [الحاقة: ١٩-٢٩] .

ثم لا سبيل للرجوع إلى الدنيا للإيمان والعمل الصالح كما يستدرك الطلبة في امتحانات الدنيا بإعادة السنة أو بالدور الثاني . . . بل تأتي نفس تقول : ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ [غافر: ١١]، وتقول الثانية كما حكى القرآن : ﴿أَخْرَجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ [فاطر: ٣٧]، وتأتي الثالثة تقول : ﴿يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّطْتُ فِي جَنبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦]، وتقول رابعة : ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] .

فتأتى الإجابة : ﴿كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُعْتَبُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠] .

وكانى بصاحب يس قد علم أنه مأخوذ عليه . وأنه موقوف ومستول ولاسيبيل
للنجاه إلا بالصدق فاتى من أقصى المدينة يسعى . . . يسابق الريح فى مرضات
الله ويقول: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ {طه: ٨٤}، وسرعان ما انكشف الغطاء
وظهرت نتيجة الامتحان فقيل له: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾
بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ {يس: ٢٦-٢٧} ولما افترق السعى، وكان
البون شاسعاً بين الإيمان والكفر اختلفت النهايات ونتائج الامتحانات .

قال تعالى: ﴿إِنْ كَانَتْ إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ {يس: ٢٩} .

ياليتنا نعى حقائق الأشياء ونأخذ عظة وعبرة ودرساً وتذكرة من كل شئ يحدث
حولنا ونطلق أبصارنا وبصائرنا فى الكون من حولنا، ياليتنا ونحن نهتم بامتحانات
آخر العام نضع الموت نصب أعيننا وتذكر السؤال فى القبر وحالة العباد عند الميزان
وتطائر الصحف عند الصراط .

وياليتنا أيضا ونحن نهتم بأولادنا ونعدهم ليكونوا أطباء ومهندسين . . . ونتعاهد
أجسادهم ونبدى النصيحة لهم حتى يهتموا بدراساتهم ونحزن لإهمالهم فيها
ورسوبهم . . . لا يفوتنا أن نذكرهم بأمر الآخرة وأن يكونوا عباداً صالحين
يحرصون على طاعة ربهم ويؤدون الصلاة فى وقتها ويطالعون كتاب ربهم . . .
حتى يفوزوا بسعادة الدارين، فإن لكل مقام مقالاً . . . شئ من الاهتمام بقلوبهم
وقلوبنا حتى نخرج من الامتحان بسلام إلى دار السلام .

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾
وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ {العنكبوت: ١-٤} .

اللهم اجعل صمتنا فكراً ونطقنا ذكراً ونظرنا عبراً .

رجل والرجال قليل

الرجولة الحقّة عملة نادرة، كثيراً ما يُذكر أهلها في كتاب الله تعالى في معرض الثناء والمدح، كما في قوله تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٢٣].

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨]، ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧].

ولقد كان صاحب يس رجلاً بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، وبغض النظر عن اسمه ورسومه وسنه، رجل عرف غايته فلم ينشغل عنها، وأدى مهمته وأمانته بلا تفريط أو تقصير، آثر ما عند الله على متع الدنيا الزائلة، ارتسم الصدق على كلماته وفي أفعاله، نصح قومه حياً وميتاً وتمنى الخير لقتلته، تطهر من الأدناس، وعلم أن التوحيد طهارة لأنه اعتراف بالحق، فعمل به ودعا الناس إليه، وأن الشرك نجاسة، لأنه جحد للحق، وهذه رذيلة وأي رذيلة فتباعد عنه وحذر الناس منه وقال: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (٢٢) أأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٢-٢٣].

لقد غابت معاني الأسوة الحسنة واضمحلت معاني القدوة الطيبة، وفُرغت الكلمات من رصيدها ومحتواها، فصار الإنسان يوصف باللطف والظرف والوسامة وليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، وظهر شباب فُنع لاخير فيهم لا يعرفون إلا الرقص والغناء والفيلم والمسرحية والأزياء والتسريحات... وحدث انقسام مريب بين بعض الرجال وبعض، فهؤلاء هم رجال الدين، وأولئك هم رجال الدولة، وانفصل الدين عن الدولة وأصبح الإسلام وكأنه ينادينا من مكان بعيد من يوم بدر وأحد: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

آيات بينات ردها مصعب بن عمير رضي الله عنه لحظة مصرعه يوم أحد، وذكر بها أبو بكر الصديق رضي الله عنه أجمعين يوم وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن اليوم ما أحوجنا أن نتذكرها حتى نخلص أمرنا لله ونعمل بالإسلام وللإسلام، فيا له من دين لو أن له رجالاً، يبذلون الغالي والرخيص في سبيله ويجددون سيرة الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان كصاحب يس، ويعيشون حياة الرجولة الحقة، فلا يهدأ لهم بال ولا يقر لهم قرار حتى يقيمون أمر الله ويبلغون الحق للخلق، وعندهم من علو الهمة ما يرتفعون به عن السفاسف والدنايا وما يصلحون معه أن يكونوا قادة وسادة.

إن الراقصين والمغنين والزنادقة والملحدّين واللاهين والعابثين . . . لا يُذكرون إلا في معرض الذم، فالقرآن لا يخلد الا ذكرى أمثال صاحب يس بينما ضرب الذكر صفحاً عن كثيرين ممن يوصفون بالرجولة ولا رجال، فقد ذهب الناس وبقي النسناس، ناس يشبهون الناس، همتهم في تحصيل شهوات البطون والفروج، قد تركوا دينهم ورائهم ظهرياً فضلوا وأضلوا كثيراً وضلوا عن سواء السبيل. فاحذرهم، واسلك طريق الهدى ولا يضرك قلة السالكين، وإياك وطرق الضلالة ولا تغتر بكثرة الهالكين، واعرف الحق تعرف أهله واعرف الباطل تعرف من آتاه .

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٨] ، ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١] .

إيمان عمره لحظات صنع الأعاجيب

لقد سمع صاحب يس دعوة المرسلين فخالطت بشاشتها قلبه وجرت منه مجرى الدم من العروق. واستحالت الآيات سلوكاً جعلته يأتي من أقصى المدينة يسعى لدعوة هؤلاء القوم، فهل قضى عمره في التدين والالتزام حتى استطاع أن يقف هذا الموقف الإيماني في مواجهة أصحاب القرية؟! وهل كان هناك فاصل بين العلم النافع والعمل الصالح في حياته كما هي حالة الكثيرين؟ أو بمعنى آخر ما شأن من قرأ المجلدات والكتب المنهجية في التوحيد والتفسير والفقه والسيرة . . . هل يكون أقل تديناً والتزاماً من صاحب يس؟! و متى انفصل العلم عن العمل والدعوة إلى الله!؟

إن البعض موفق ومسدد، تكفيه الآية من كتاب الله أو الحديث من أحاديث رسول الله ﷺ ومن هؤلاء أصحاب رسول الله ﷺ مثل أبي ذر الذي أسلم وقام يجهر بكلمة التوحيد فاجتمع عليه المشركون يضربونه حتى كادوا يقتلونه، ومثل ابن مسعود عندما سمع آيات من رسول الله ﷺ فخرج يصدع بها في مسامع المشركين. وهكذا كان الأمر بالنسبة إلى سحرة فرعون عندما رأوا الآيات وآمنوا بنبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، تهددهم فرعون وقال لهم: ﴿فَلَا قُطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ {طه: ٧١} فقالوا له: ﴿فَأَقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ {طه: ٧٢} .

قال عبد الواحد بن زيد: عصفت بنا الريح على جزيرة في البحر فإذا برجل يعبد صنماً، فقلنا له: أيها الرجل من تعبد؟ فأوماً بيده إلى الصنم فقلنا له: إن معنا في المركب من يعمل هذا، قال: وأنتم من تعبدون؟ قلنا نعبد الله تعالى، قال: ومن هو؟ قلنا: الذي في السماء عرشه وفي الأرض سلطانه وفي الأحياء والأموات قضاؤه قال: كيف علمتم هذا؟ قلنا: وجه إلينا رسولا أعلمنا به، قال: فما فعل الرسول؟ قلنا: قبضه الله إليه، قال: فهل ترك عندكم علامة؟ قلنا: ترك عندنا كتاب الملك، قال: أرونيه؟ فأتيناه بالمصحف فقال: ما أعرف هذا؟ فقرأنا له سورة وهو يبكي، ثم قال: ينبغي لصاحب هذا الكلام ألا يعصي، فأسلم وحملناه معنا وعلمناه شرائع الإسلام وسوراً من القرآن فلما جن عليه الليل، صلينا وأخذنا مضاجعنا، فقال يا قوم الإله الذي دلتمونى عليه أينام إذا جنه الليل؟ قلنا: لا يا عبد الله، هو حى لا ينام، فقال: بشس العبيد أنتم تنامون ومولاكم لا ينام؟ فعجبنا من كلامه، فلما قدمنا عبدان جمعنا له دراهم وأعطيناها له، وقلنا له: أنفقها، قال: لا إله الا الله دلتمونى على طريق لم تسلكوه إني كنت في جزيرة في البحر أعبد صنماً من دونه فلم يضيعني، فكيف الآن وقد عرفته، فلما كان بعد أيام أتاني آت، فقال لى إنه يعالج سكرات الموت، فجئته وقلت له: ألك حاجة؟ فقال: قد قضى حوائجى من عرفتنى به، ثم رأيت في المنام فى القبة والجارية إلى جانبه وهو يتلو:

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ {الرعد: ٢٤}.

وقد روى لنا النبي ﷺ قصة المهدي، وفيها أن الله يصلحه في ليلة، يملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً .

ويحكى أن الإمام البغوي - رحمه الله - عندما أراد طبع تفسيره المشهور . . . سمع برجل ببلاد الهند، توسم فيه أن يساعده على ذلك، فاستأجر سفينة ليرحل إليه وبينما هو يسير بمحاذاة شاطئ دجلة إذ رأى رجلاً يمشي، فطلب من قائد السفينة أن يحمله معه، ففعل، فسأله الرجل من أنت؟ قال : البغوي، قال : المفسر قال : نعم، فسأله عن وجهته، فقال له الرجل : ماذا قلت في تفسير قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فقال الإمام : قلت فيها كذا وكذا، ثم انتبه، فالسؤال لم يكن على عواهنه، بل لتوضيح أن سفر الإمام وارتحاله لهذا الغرض لا يتناسب مع علمه وتوكله ومعرفته بهذه الآية، فطلب الإمام من قائد السفينة أن يرجع . و يذكرون أنه ما مكث إلا أياماً حتى جاءه رسول الرجل الغني يقول له إن فلاناً قد سمع بكتابك وهو يريد طبعه، فأخذه ووزنه ذهباً وأعطى الذهب للإمام البغوي وطبع الكتاب .

آية واحدة اكتفى بها هؤلاء الأفاضل وهي تكفينا بإذن الله . فإذا انضافت الآية إلى الآية، ارددنا إيماناً على إيماننا وقلنا : ﴿وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه : ٨٤] .

غداً عند الله تجتمع الخصوم

سيعلم الظالمون حظ من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقوبة وإن المظلوم ينتظر النصر قال تعالى : ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطٰناً فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً﴾ [الإسراء : ٣٣] .

غداً يقتص للمظلوم من الظالم، وتحيط بالظالم المظالم، وليس لمن لايرحمه الإله من عاصم قال تعالى : ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتِنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً (٢٧) يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلاناً خَلِيلاً (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطٰنُ لِلإِنْسٰنِ خَدُولاً﴾ [الفرقان : ٢٧-٢٩] .

غداً يقتص ربنا من الشاة القرناء للشاة الجماء، ثم يقول : كوني تراباً، فيومئذ يتمنى الكافر أن لو كان تراباً، ولا يظلم ربك أحداً. فهل يضع حق صاحب يس؟ وهل لا يقتص ولا يتقم له من قتله؟! .

قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقَسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنا حَاسِبِينَ ﴾ {الأنبياء: ٤٧} .

بل يحبس المؤمنون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتصر لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم فى الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم فى دخول الجنة .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمَلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحَضَّرًا وَمَا عَمَلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ {آل عمران: ٣٠} ، وقال سبحانه : ﴿ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمناه طَائِرَهُ فى عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتابًا يَلْقاهُ مِنْشُورًا ﴾ {١٣} اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً {الإسراء: ١٣-١٤} .

يوم عظيم يقال للإنسان فيه : كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً وبالكرام الكاتبين شهوداً وتستنطق فيه الجوارح، فيقول الإنسان لأعضائه بعداً لكن وسحقاً فعنكن كنت أذاف، فلا نجاة إلا لمن رد الحقوق لأصحابها، وإن لربك عليك حقاً ولنفسك عليك حقاً ولاهلك عليك حقاً فاعط لكل ذى حق حقه، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً لعلكم تفلحون، توبة تندمون بها على ما مضى وتعزمون على عدم العودة فيه مرة أخرى، تندمون بالقلب وتستغفرون باللسان وتقلعون بالجوارح، ومن كانت لأخيه عنده مظلمة من مال فليتحلل منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم إلا الحسنات والسيئات .

احذروا الظلم على أنفسكم، فالظلم ظلمات، ومن أجل ذلك حرمه الله على نفسه وجعله محرماً بين العباد فلا تظالموا قال تعالى : ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾

{فصلت: ٤٦} .

إن الويل غدا لمن أتى ربه كفاراً أثيماً وملحداً لثيماً، الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار كما قال سعيد بن جبير للحجاج بن يوسف الثقفى . بل قد يأتى العبد بصلاة وصيام وزكاة وحج ويأتى وقد سفك دم هذا وقذف هذا و سلب مال هذا وشتم هذا فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته حتى إذا فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم ألقى فى النار، وهذا هو المفلس بحق من هذه الأمة .

والمظلّمة إذا كانت بين العبد وربّه فهي إلى العفو أقرب، أما بين العباد فلا بد من القصاص إلا أن يعفوا العبد عن حقه. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَعْزِمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ {المجادلة: ٦} كيف ينجوا من عذاب الله غداً من قتل صاحب يس والمرسلين الثلاثة من قبل، وكفر بخالق الأرض والسموات يا حصرة على العباد وعلى كل من أضاع آخرته بدنيا لا بقاء لها ولا وفاء .

بكى عمر بن عبد العزيز ليلة فأطال البكاء فسئل عن بكائه فقال: ذكرت مصير القوم بين يدي الله .

﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ {الشوري: ٧} .

وقال عبد الملك بن مروان - رحمه الله - : وددت أنى عبد لرجل من تهامة أرمى غنيمات فى جبالها وأنى لم آكل من هذا الأمر شيئاً .

وأمر هارون الرشيد - رحمه الله - بحفر قبره ثم حمل إليه فاطلع فيه فبكى حتى رحم ثم قال : يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه .

قال أحد الحكام لملك بن دينار : ادع الله لى فقال: ألف مظلوم بالباب يدعون عليك أفيستجاب لوأحد ولا يستجاب لألف .

ستنطق الأعضاء بالخصال وتظهر القبائح ويخسر العاصى ويربح الطائع ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ {مريم: ٣٨} .

يوم عظيم يجتمع فيه عثمان رضي الله عنه مع قاتليه وعلي رضي الله عنه مع ابن ملجم الخارجي والإمام أحمد مع المأمون، وسعيد بن جبير مع الحجاج، وعند الله تجتمع الخصوم، يُقتص فيه للحجاج كما يُقتص منه .

لقد أشفق عمر على نفسه من أن تتعرّ شاة بوادى الفرات فيسئل عنها لم يمهدها الطريق، ورفض تولية ابنه من بعده، فلا تكثر خصومك ورد الحقوق لأصحابها من قبل أن يأتى يوم لا مرد له من الله، يوم تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً، واحذر أن تكون خصومتك مع رسول الله صلّى الله عليه وآله، فيقول فيك عندما ترد حوضه الشريف فيزاد بك جهة الشمال لانحرافك عن شريعته وهديه سحقاً سحقاً لمن بعدى .

ما أهون الخلق على الله إن هم عصوه

عن جبير بن نفير : « لما فتحت قبرص فُرقَ بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض ، فرأيت أبا الدرداء جالساً وحده يبكي ، فقلت يا أبا الدرداء : ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله ، فقال : ويحك يا جبير ما أهون الخلق على الله إذا أضاعوا أمره بينما هي أمة قاهرة ظاهرة ، لهم الملك تركوا أمر الله فصاروا إلى ماتري» .

وقال عمر رضي الله عنه : «توشك القرى أن تخرب وهي عامرة ، قيل : وكيف تخرب وهي عامرة ، قال : إذا علا فجارها أبرارها وساد القبيلة منافقوها» .

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول : «أقلوا الذنوب فإنكم لن تلقوا الله بشئ أفضل من قلة الذنوب» .

وكان بعضهم يقول : «رأيت المعاصي نذالة فتركتها مروءة فاستحالت ديانة» .

وقال الحسن : «هانوا على الله فعصوه ولو عزوا عليه لعصمهم» . وقال الفضيل : «أوحى الله إلى بعض الأنبياء إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني» .

فاحذروا الذنوب دقها وجلها ، واعلم أن أعظم الذنب والظلم أن تجعل لله نداً وهو خلقك ، ولزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم ، وكان ابن عباس رضي الله عنهما ينظر إلى الكعبة ويقول : إن الله عظيمك وشرفك وكرمك وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

فعظموا حرمت الله وشعائر الله قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يُعْظِمِ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] .

قال الحسن : عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم ، إن المؤمن جمع إيماناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة ومناً .

ولقد توجه الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ [الأنعام : ١٥] ، فكيف تكون حالة من هو دونه إذا كفر بالله ، ولذلك لا عجب أن هان أصحاب القرية على ربهم بسبب كفرهم وصددهم عن سبيل الله وقتلهم المرسلين وصاحب يس دون وجه حق .

قال تعالى : ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ ﴾ (٢٨)
 إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴿يس: ٢٨-٢٩﴾ .

فيا قومنا أجيئوا داعي الله وآمنوا به، واحذروا طريق قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً و ضلوا عن سواء السبيل، فلا تصدوا عن سبيل الله تبغونها عوجاً، ولا تنفروا من طاعة الله، فمن زرع خيراً حصد الكرامة، ومن زرع شراً لم يحصد إلا الندامة ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴾ {فصلت: ٤٦}، ﴿ فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿طه: ١٢٣-١٢٤﴾ .

ولا تنسوا ما نزل بساحة غيركم من المثالات عندما كفروا بربهم، ولم يشكروا نعمه، فقد صاروا عبرة للمعتبرين، ومثلاً سائراً للمتدبرين .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴾ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ يَسِيلُ الْغُرَمِ وَيَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ﴿سبأ: ١٥-١٧﴾ .

يا قومنا : أكفاركم خير من أولئكم، اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنا الإسلام حتى نلقاك عليه، واجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أعمارنا أواخرها وخير أيامنا يوم نلقاك .

حكمة الابتلاء

إن الابتلاء الذى يصيب العبد فى الله لا يخرج عن أربعة أقسام :

- ١- ابتلاء فى نفسه .
- ٢- ابتلاء فى ماله .
- ٣- ابتلاء فى عرضه .
- ٤- ابتلاء فى أهله ومن يحب .

وأشد هذه الأقسام هو المصيبة فى النفس .

ومن المعلوم أن الخلق كلهم يموتون، وغاية المؤمن أن يستشهد فى الله، وتلك أشرف الموتات وأسهلها، فإنه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، والفرار من مواطن القتل لا يطول به العمر، ولذلك قال سبحانه : ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتَعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦] .

وقد ترتب على مخالطة صاحب يس لأهل القرية أذى له، وهذا ألم يسير يعقبه لذة عظيمة دائمة وهى أولى بالاحتمال من لذة سيرة يعقبها ألم عظيم دائم، فلا بد من حصول الألم والمحنة لكل نفس آمنت أو كفرت، لكن المؤمن يحصل له الألم فى الدنيا ابتداء، ثم تكون له عاقبة الدنيا والآخرة، والكافر والمنافق والفاجر تحصل له اللذة والنعيم ابتداءً ثم يصير إلى الألم الدائم، فهى لذة ساعة وألم دهر، وبالتالي فلا يطمع أحد أن يخلص من المحنة والألم البتة .

إن ابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحياناً فيه حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل . فمنها :

١- استخراج عبوديتهم وذلهم لله وانكسارهم له، وافتقارهم إليه وسؤاله نصرهم على أعدائهم، فإذا غلبوا تضرعوا إلى ربهم وأتابوا إليه وخضعوا له وانكسروا له وتابوا إليه وإذا غلبوا أقاموا دينه وشعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدوه ونصروا أوليائه .

٢- تمييز من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه .

٣- أنه سبحانه وتعالى يحب من عباده تكميل عبوديتهم على السراء والضراء وفي حالة العافية والبلاء، وفي حالة إدالتهم والإدالة عليهم، فتلك المحن والبلايا شرط في حصول الكمال الإنساني والاستقامة المطلوبة منه .

٤- إن امتحانهم بإدالة عدوهم عليهم يحصهم ويخلصهم ويهذبهم، ولقد بين سبحانه أنه إنما خلق السموات والأرض وخلق الموت والحياة وزين الأرض بما عليها لا ابتلاء عباده وامتحانهم، وليعلم من يريد ما عنده ممن يريد الدنيا وزينتها .

قال تعالى: ﴿ وَنَبِّئُكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ {الأنبياء: ٣٥} .

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَأْتِ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى نَبِيٌّ يُحَدِّثُهُمْ صِدْقًا وَسُنَّةً مَلَكًا ﴾ {الأنبياء: ١٠٤} .
 ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾

{العنكبوت: ١-٣} .

فالرخاء والشدة والبلاء والعافية، امتحان منه، ليرى صدقك وصبرك، هل أنت صادق في مجيئك إليه، وإقبالك عليه، فتصبر على البلاء، فتكون لك العاقبة، أم أنت كاذب فترجع على عقبك فاستقم في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك .

وفي الحديث: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً، ويمسى كافراً، ويمسى كافراً ويصبح مؤمناً، يبيع دينه بعرض من الدنيا» رواه مسلم .

كان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: تقوى الله خلف من كل شئ وليس من تقوى الله خلف. واعلم أن الدنيا بأسرها لا تصلح عوضاً عن معنى من معاني الآخرة وأن غمسة في جنات النعيم ستهب عنك آلام الدنيا وكدرها .

فاللهم لا تجعل مصيبتنا في ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا إلى النار مصيرنا واجعل الجنة هي دارنا ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك فينا ولا يرحمنا إنك ولي ذلك والقادر عليه .

آفة النسيان

هناك نسيان معفو عنه، هو من عوارض الأهلية، ولكل صورة منه حكمها في الشرع كالأكل والشرب نسياناً أثناء الصيام، ونسيان ركعة أثناء الصلاة وما شابه ذلك من صور النسيان مما لا إثم فيه لقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، قال: قد فعلت.

وهناك نسيان آخر، هو بمثابة داء وآفة من أخطر الآفات، إذا حل بقلب إنسان آكل أمره إلى العطب والهلاك، وسيطرت عليه شياطين الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٩]. ومثل هذا في الناس لا تراه إلا غافلاً، لاهياً، غارقاً في الضلال والفساد منصرفاً عن معالى الأمور، منشغلاً بدنياها وهذا النسيان متفاوت وقد يصل الإنسان في نسيانه إلى أن ينسى ربه عز وجل الذى خلقه ورزقه، فتكون النتيجة أن ينسى نفسه فيرى الخير شراً والنفع ضرراً ويرى الظلم عدلاً والقسوة رحمة، وهذا وصف من عتاهم الله بقوله:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].
وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الحشر: ١٩].

وقد ينسون أمر الله وشرعه وحكمه ويتركون دين الله ورائهم ظهرياً ويستبدلونه بنظم وضعية وقوانين طاغوتية كفرية قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً (١٢٥) قال كذلك أتينا فنسيها وكذلك اليوم تنسى ﴿

طه: ١٢٤-١٢٥﴾

وقد ينسى الآخرة وما فيها من بعث وحشر وحساب وجنة ونار قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ ﴾ {ص: ٢٦} .
وقال تعالى : ﴿ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسَيْتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا ﴾ {الجاثية: ٣٤} .

وقد ينسى الإنسان من أى شئ خلق وكيف خلق كما قال عز وجل : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾ {يس: ٧٨-٧٩} .

إن الغافل من الناس قد يجحد ربه ويكفر به وينكر عالم الآخرة بكل ما فيه ويستهزئ بآيات الله عز وجل ، ويكذب الرسل فيما جاءوا به من الهدى والنور ، وهذا شأن أصحاب القرية خسروا الدنيا والآخرة ، وهذا هو الخسران المين ، فقد خرجوا من الدنيا بأسوأ ذكر .

﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ ﴾ {يس: ٢٩} ، وأتبعوا بحسرات : ﴿ يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ ﴾ {يس: ٣٠} ، ثم هم يوم القيامة من المحضرين فى العذاب .

إن الميت بحق ، هو الذى يُعرض عن ذكر ربه وينسى أمر الله . وفى الحديث : «مثل الذى يذكر ربه والذى لا يذكر ربه مثل الحى والميت» رواه البخارى .

ومن الغريب أن يذكر الإنسان أولاده وطعامه وأهله وماله ، بل قد يطعم المسكين و يعين على نوائب الحق ، وينسى من فطره وخلقه ومن لاقىام نفسه إلا به ولا غنى عنه طرفة عين كحالة ابن جدعان لما سئل عنه رسول الله ﷺ وهل ينتفع بذلك فقال: إنه لم يقل يوماً ، «رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين» .

والنسيان الذى يتتاب الأفراد ، يحدث مثله فى حياة الأمم والجماعات ، ولذلك قص علينا سبحانه من أخبارهم . تذكرة لأولى الألباب ، وعبرة للمعتبرين ، وإيقاظاً لنا من غفلة ونسيان مريب . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ {يوسف: ١١} .

الضار النافع (جل وعلا)

في قول صاحب يس لأهل القرية : ﴿أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾ [يس: ٢٣]، إشارة إلى ضعف وعجز وفقر الآلهة الباطلة التي عبّدت من دون الله، وأن الله تعالى هو الضار النافع، بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله، فلا تنبغى العبادة إلا له سبحانه وتعالى، وهذا يدل دلالة واضحة على تمكن معاني التوحيد من نفس صاحب يس، وامتلاء قلبه من محبة الله والتعلق به سبحانه في جلب النفع ودفع الضر .

ولاشك أن معرفة العبد بأسماء الله وصفاته، وأن كلها أسماء جلال ونعوت جلال، من شأنها أن تدفع العبد إلى كل خير وتزجره عن كل شر .

وقد ذكر الإمام الخطابي في اجتماع هذين الاسمين (الضار النافع) أنه وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضُر من يشاء وذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادراً لم يكن مرجواً ولا مُتخوفاً .

وقال الحلیمی : الضار هو القادر على أن ينقص عبده مما جعل له إليه الحاجة، ومعنى النافع أنه السادُّ للخلة أو الزائد على ما إليه الحاجة . وقد يجوز أن يدعى الله جل ثناؤه باسم النافع وحده ولا يجوز أن يدعى الضار وحده حتى يجمع بين الاسمين كما ذكر في الباسط القابض وقال الصديقي: هذا وصف بالقدرة التامة الشاملة، فهو الذي يصدر عنه النفع والضر فلا خير ولا شر ولا نفع ولا ضر إلا هو صادر عنه منسوب إليه كما أن الوصف بالتوحيد وهو أنه لا يحدث في ملكه شئ إلا بإيجاده وحكمه وقضائه ومشيئته فمن استسلم لحكمه فاز بالنعمة العظمى .

قال الغزالي: هو الذي يصدر عنه النفع والضر والخير والشر، وكل ذلك منسوب إلى الله تعالى إما بواسطة الملائكة والإنس والجمادات، أو بغير واسطة، فلا تظن أن السم يقتل ويضر بنفسه، أو أن الطعام يشبع وينفع بنفسه، أو أن الملك والإنسان والشيطان أو شيئاً من المخلوقات من فلك أو كوكب أو غيرهما يقدر على خير أو شر أو نفع أو ضرر بنفسه، بل كل ذلك أسباب مسخرة لا يصدر عنها إلا ما سُخرت له .

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم فقال لي: يا غلام أو يا بني ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلي، قال: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله عز وجل، قد جف القلم بما هو كائن، فلو أن الخلق جميعاً أرادوا أن ينفعوك بشئ لم يقضه الله لك لم يقدرُوا عليه، وإن أرادوا أن يضروك بشئ لم يقضه الله عليك لم يقدرُوا عليه، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن الصبر على ما تكره خير كثير، وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً» حديث صحيح .

إن قصة صاحب يس ترجمة لهذه الموعظة، وحالة ثبات تدل على إيمان راسخ بأن الله هو المحيي المميت، المبدئ المعيد، الخافض الرافع، المعز المذل سبحانه وتعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠] (١).

(١) راجع كتاب شرح أسماء الله الحسنى للأستاذ محمد حسين.

الخاتمة

اللهم يا معلم إبراهيم الخير ويا مفهم سليمان فهمني .

الفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء حتى عدّ ألف بواحد، فانظر إلى فهم ابن عباس وقد سأله عمر: ومن حضر من أهل بدر وغيرهم عن سورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر: ١] وما خص به ابن عباس من فهمه منها: أنها نعى الله سبحانه نبيه إلى نفسه وإعلامه بحضور أجله، وموافقة عمر على ذلك، وخفائه عن غيرهما من الصحابة وابن عباس إذ ذاك أحدثهم سنًا .

وأين تجد في هذه السورة الإعلام بأجله لولا الفهم الخاص؟ ويدق هذا حتى يصل إلى مراتب تتقاصر عنها أفهام أكثر الناس، فيحتاج مع النص إلى غيره، ولا يقع الاستغناء بالنصوص في حقه، وأما في حق صاحب الفهم فلا يحتاج مع النصوص إلى غيرها كما يقول ابن القيم رحمه الله .

وقد أثنى سبحانه على نبيه سليمان بالفهم فقال: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩] .

وقال على بن أبي طالب، وقد سئل: هل خصكم رسول الله ﷺ بشيء دون الناس؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إلا فهما يؤتيه الله عبدا في كتابه، وما في هذه الصحيفة وكان فيها العقل، وهو الديات وفكاك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر .

وفي كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري رضى الله عنهما: «والفهم فيما أدلى إليك»، فالفهم نعمة من الله على عبده ونور يقذفه الله في قلبه، فيفهم من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه وفهم أصل معناه . فاسأل الله من فضله، وقل: اللهم يا معلم إبراهيم الخير علمني ويا مفهم سليمان فهمني .

وليكن شأنك الخشوع والتدبر عند تلاوة القرآن، فقد بات جماعة من السلف يتلون آية واحدة يتدبرونها ويرددونها إلى الصباح .

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] و﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قام النبي صلى الله عليه وسلم بآية يردها حتى أصبح» والآية هي ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] الآية رواه النسائي وابن ماجه .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله .

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين قرأ أحدهما البقرة وآل عمران والآخر قرأ البقرة وحدها وزمنهما وركوعهما وسجودهما وجلسهما واحد سواء؟ فقال: الذي قرأ البقرة وحدها أفضل .

وثبت عن ابن مسعود أن رجلاً قال: إنى أقرأ المفصل في ركعة واحدة، فقال ابن مسعود هكذا هكذا الشعر، إن أقواماً يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع» رواه البخاري ومسلم .

قال العلماء: يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه، لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب، فالترتيل مستحب للتدبر ولغيره .

ولقد كان الإيمان ثم القرآن هو منهج التربية عند سلفنا الصالح رضي الله عنهم، يقول جرير بن عبد الله: تعلمنا الإيمان ثم تعلمنا القرآن فازددنا إيماناً .

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا نؤتى الإيمان ثم نؤتى القرآن فتعلم حلالها وحرامها وما ينبغى أن يوقف عنده ولقد رأيت أقواماً يؤتى أحدهم القرآن فيقرؤه من فاتحته إلى خاتمته ينثره نثر الدقل لا يدري ما أمره ولا زاجره ولا ما ينبغى أن يوقف عنده .

إن الفرق كبير بيننا وبين من تقدمنا بإحسان فقد تجمع فيهم العلم النافع والعمل الصالح، وكانت الآية الواحدة تكفيهم، أما نحن فقد صار علمنا في واد وعملنا في واد آخر . وظهر فينا من يجعل للجهل مزية وفضيلة، ومن صار عنده العلم ثقافة بلا رصيد، وما هكذا كان سلفنا الصالح رضي الله عنهم أجمعين .

كان سفيان بن عيينة يقول: العلم إن لم ينفعك ضرك، وقال: إن كان نهاري نهار سفيه وليلى ليل جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت، وقال أبو حازم: رضى الناس من العمل بالعلم ومن الفعل بالقول . وقال البعض: ما عرضت قولى على فعلى إلا خشيت أن أكون مكذباً، وقالوا: كثرة العلم من غير عمل مادة الذنوب، وقال حكيم لرجل يستكثر من العمل: يا هذا إذا أفنيت عمرك فى جمع السلاح فمتى تقاتل به، وقيل العلم أسس والعمل بناء والأسس بلا بناء باطل.

إن الخير كله فى حسن التأسى والافتداء بمن تقدمنا بفضل وسبقنا بإحسان وذلك يتطلب منا متابعة العلم النافع بعمل صالح وأن نسأل ربنا من فضله أن يرزقنا علماً نافعاً ورزقاً واسعاً وديناً قيماً وشفاء من كل داء، إنه سبحانه ولى ذلك والقادر عليه . وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وكتبه

سعيد عبد العظيم

أخي الكريم:

احرص على متابعة سلسلة قصص القرآن عظات وعبر،
ففيها القدوة في الصالحين وطريق الدعوة القويم وفيه الصبر في
الشدائد ومنها نستلهم الواقع.

هذه القصص التي قصها الله سبحانه على نبيه الكريم ليثبت
بها فؤاده في طريقه في الدعوة إلى الله، فما أحوجنا نحن في هذه
الأيام إلى تلك القصص بعظاتها الشاملة.

قصة أهل الكهف

قصة صاحب الجنتين

قصة موسى والخضر

قصة ذبي القرنين

قصة صاحب يس

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأندود

قصة

مؤمن آل فرعون



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة :

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

ذكر الله تعالى أهل الجنة وأهل النار، فذكر أهل الجنة بأحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئه، وذكر أهل النار بأسوأ ما عملوا وتجاوز عن أحسنه، ولم يسو سبحانه بين المؤمنين والكافرين، في الحياة وعند الممات وقال: ﴿ أَفَجَعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٦] فقام البعض ممن وفقهم الله وسددهم يجددون ما اندرس من الدين يحيون ما أمات الناس من السنن، ويدلون الخلق على الخالق، ويسلكون في ذلك مسالك الأنبياء والمرسلين، فرفعهم الله مكاناً علياً، وذكرهم الله في كتابه بأحسن وصف: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [غافر: ٢٨] .

فما من إنسان قد علم الغاية التي من أجلها خلق إلا ويتمنى أن يوصف بوصف الإيمان، وعندما تأتي هذه الشهادة من خالق الأرض والسماوات، ممن يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور، وممن أحاط بكل شيء علماً، ولا يعزب عنه شيء في الأرض ولا في السماء، فأنعم بهذا الوصف والثناء .

لقد اصطفاه سبحانه واجتباه من وسط ركाम الكفر والضياع، فهو من آل فرعون، وما أعظم الفارق بينه وبين فرعون وآله، إنه رجل أطلق الله بصيرته، فلم ترهبه صولة الباطل ولا كثرة الانحراف، وتابع نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه معتصماً بالله، مؤثراً ما عنده سبحانه .

وكعادة القرآن الكريم، فقد طوى عنا اسمه ورسمه وسنه وطوله وشكله مما لا طائل تحته ولا فائدة من وراء معرفته، لتبقى قصته درساً في إخلاص الأمر لله، وعبرة لكل من أراد أن يتاجر مع الله، وعظة لكل من أراد أن يقيم واجب العبودية، حتى لو خفى اسمه على أهل الأرض يكفيه أن يُعرف في أهل السماء، ويكون من جملة الأتقياء الأخفياء . فإذا ما زمجر الباطل من حولك، واشتد الظلم والظلام، فانهض على ساق عزمك، أحسن التأسى بمن تقدمك بإحسان .

وهذا أوان الشروع في المقصود، والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بالله . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنبت .

وكتبه

سعيد عبد العظيم

وقفات بين يدي القصة

الأولى : الإرهاب بالباطل سلاح من لاجحة له

أيد الله تعالى أنبيائه بالمعجزات الباهرات، والآيات البيّنات، وقال عن نبيه موسى صلوات الله وسلامه عليه : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا ﴾ وهى التسع الآيات المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ .

﴿ وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴾ [غافر: ٢٣] أى بحجة واضحة بينة .

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ ﴾ [غافر: ٢٤] خصهم بالذكر لأن مدار التدبير فى عداوة موسى كان عليهم، ففرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون صاحب الأموال والكنوز فجمعه الله معهما، لأن عمله فى الكفر والتكذيب كأعمالهما .

﴿ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٤] لما عجزوا عن معارضته حملوا المعجزات على السحر . فهم لم ينقادوا للحق على الرغم من ظهوره ووضوحه، ثم هم لم يتركوا موسى وشأنه، بل كادوا له ولبن آمن به، يقول تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِن عِنْدِنَا ﴾ [غافر: ٢٥] وهى المعجزة الظاهرة .

﴿ قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ ﴾ [غافر: ٢٥] .

وهذا قول الملأ الذين أحاطوا بفرعون وكانوا على شاكلته، كفراً وضلالاً، فقد ضاقت صدورهم بالحق وأهله، وعجزوا عن مواجهة الحجّة بالحجة، فلجئوا إلى سلاح الإرهاب بالباطل، عساهم يستطيعون إخماد صوت الحق، ووآد البراعم التى تنطق به فى وقت من الأوقات، وإلا فما ذنب أبناء الذين آمنوا مع موسى؟! إنه مسلّك الباطل فى كل عصر ووقت .

وخرج فرعون بدوره - وبنفس عقلية البطش والإرهاب - يقول : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ﴾ [غافر: ٢٦] ولعله قيل لفرعون: إنا نخاف أن يدعوك عليك، فقال: لا يهولكنكم ما يذكر من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى .

وقال سيد قطب فى تفسيره: ويبدو من قوله : ﴿ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ [غافر: ٢٦] أن رأيه هذا كان يعجد ممانعة ومعارضة - من ناحية الرأى - كأن يقال

مثلاً: إن قتل موسى لاینهى الإشکال فقد یوحى هذا للجماهير بتقدیسه واعتباره شهیداً، والحماسة الشعورية له وللدين الذى جاء به، وبخاصة بعد إیمان السحرة فى مشهد شعبى جامع، وإعلانهم سبب إیمانهم، وهم الذين جئ بهم لیسطلوا عمله ویناوتوه وقد يكون بعض مستشارى الملك أحس فى نفسه رهبة أن ینتقم إله موسى له، ویبطش بهم، وليس هذا ببعید، فقد كان الوثنيون یعقدون بتعدد الآلهة، ویتصورون بسهولة أن يكون لموسى إله ینتقم له ممن یعتمدون علیه !

ویكون قول فرعون: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦] رداً على هذا التلويح وإن كان لا یبعد أن هذه الكلمة الفاجرة من فرعون، كانت تبجحاً واستهتاراً، لقی جزاءه فى نهاية المطاف كما سیجئ أهد .

إن الطيور على أشكالها تقع، فما أعجب التناسب بين الحاكم والمحكومين وما أعظم الشبه بين موقف فرعون والملأ، إنهم كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] .

ثانياً: لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية

الديمقراطية دين عند أهلها، كما أن الإسلام دين عند أهله، وقد صارت الديمقراطية صنماً يعبد من دون الله، وهى كلمة تعنى حكم الشعب نفسه بنفسه لنفسه، وتشتمل على حريات واسعة - كما يقولون - كالحرية الشخصية وحرية الرأى والفكر وحرية التملك، وكلها أشبه بالسيارات التى تنطلق بلا فرامل - أى بلا ضابط ولا رابط -، فالحبل فيها على الغارب، وانحرفها عن الكتاب والسته واضع بين (١)

وهذه الحريات عند من ینادى بالديمقراطية، لا یسمح بشئ منها لمن يؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وخصوصاً إذا طالب بأن تنصبغ الدنيا بدين الله، وسعى فى تطبيق شرع الله، وإظهار شعائر الإسلام، واستشعروا منه أنه قد يصل إلى قلب وعقل الجماهير، حيث لا بد من المواجهة، وتطبيق شعار لا ديمقراطية لأعداء الديمقراطية، وقد تم استخدام هذا الشعار، هنا وهناك

(١) راجع كتابنا الديمقراطية فى الميزان.

وخصوصاً مع من انخرط في المجالس النيابية وخيف منه الوصول إلى الحكم عن طريقها .

ما أشبه هذه الديمقراطية بصنم العجوة، الذي كان يصنعه المشركون، فإذا جاعوا أكلوه، ومن عجيب الأمر أنه بينما يُسمح للملاحدة، والزنادقة بالوصول إلى قمة المسئولية والتسلط على رقاب البلاد والعباد، بل ولا حرج على من يزنني ويُزني به، ويعلن رده وكفره ويرقص ويتعامل بالربا... في ظل النظام الديمقراطي، والحرج كل الحرج على من طالب بإقامة خلافة على منهاج النبوة!! ونادى بأن الخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به!! فمثل هذا لا يؤمن عليه المضرة والأذي! وقد يستحق الطرد والإبعاد، أو الحبس والقتل، كما حاول فرعون مع نبي الله موسى ومن آمن به .

ثالثاً : الباطل قد ينشغل عن مطاردة الحق فترة

الصراع دائر بين الحق والباطل، منذ قديم ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهْدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ﴾ [الحج: ٤٠].

وهذا الصراع قد يخبو حيناً ويشتد حيناً آخر، فقد ينشغل الباطل بنفسه أو بغير ذلك من الأسباب التي يسلطها الله على من كفر به، فالواجب على دعاة الحق أن لا يياسوا، وأن يعملوا لدينهم في عسرهم ويسرهم ومنشطهم ومكرهم، وأن يتربصوا بالباطل، فما أكثر لحظات الضعف التي يمر بها، وإذا كنا لا نخلق الفرص فلا يليق بنا إضاعتها .

يقول قتادة في تفسير قوله تعالى : ﴿قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [غافر: ٢٥] هذا قتل غير القتل الأول، لأن فرعون كان قد أمسك عن قتل الولدان بعد ولادة موسى، فلما بعث الله موسى أعاد القتل على بنى إسرائيل عقوبة لهم فيمتنع الإنسان من الإيمان، ولئلا يكثر جمعهم فيعضدوا بالذكور من أولادهم، فشغلهم الله عن ذلك بما أنزل عليهم من أنواع العذاب، كالضفادع والقمل والدم والطوفان إلى أن خرجوا من مصر، فأغرقهم الله، وهذا معنى قوله

تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ {غافر: ٢٥} أى فى خسران وهلاك . وأن الناس لا يمتنعون من الإيمان وإن فعل بهم مثل هذا فكيفه يذهب باطلاً .

إن هناك احتمالات فيما حدث بعد ذلك الأمر الأول، ومنها أن فرعون الذى أصدر ذلك الأمر كان قد مات وخلفه ابنه أو ولى عهده، ولم يكن الأمر منفذاً فى العهد الجديد حتى حدثت المواجهة بين نبي الله موسى وفرعون الجديد فأشارت الحاشية بما أشارت به، أو أن فرعون الذى بنى موسى تراخى فى تنفيذ الأمر الأول بعد فترة، فكانت الإشارة بتجديده وتخصيصه بالذين آمنوا مع موسى وحدهم للإرهاب والتخويف وعلى كل حال فهذا من عجائب التدبير قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهْلُ الْكَافِرِينَ أَمَهُلُهُمْ رُوَيْدًا﴾ {الطارق: ١٥-١٧} وقال سبحانه: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ {الأنفال: ٣٠} . وقال جل وعلا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ {فاطر: ٤٣} .

فتدبير الكفرة تدبيرهم، وكيدهم دائماً يرتد إلى نحورهم ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ {يوسف: ٢١} .

رابعا : موازين الباطل معكوسة

ذكر فرعون السبب الموجب لقتل نبي الله موسى، وهو أن وجوده يوجب إما فساد الدين أو فساد الدنيا، كما ذكر الرازى فى تفسيره، أما فساد الدين فلأن القوم اعتقدوا أن الدين الصحيح هو الذى كانوا عليه، فلما كان موسى ساعياً فى إفساده كان فى اعتقادهم أنه ساع فى إفساد الدين الحق، وأما فساد الدنيا فهو أنه لا بد وأن يجتمع عليه قوم وبصير ذلك سبباً لوقوع الخصومات وإثارة الفتن، ولما كان حب الناس لأديانهم فوق حبهم لأموالهم لا جرم بدأ فرعون بذكر الدين فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ {غافر: ٢٦} ثم أتبعه بذكر فساد الدنيا فقال: ﴿أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ {غافر: ٢٦} .

وهذه الكلمات التى ذكرها فرعون، هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟ هى بعينها - كما يقول سيد قطب - كلمة الباطل الكالغ فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها - كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر فى وجه الإيمان الهادئ؟ إنه منطق واحد، يتكرر كلما إلتقى الحق والباطل، والإيمان والكفر،

والصلاح والطغيان على توالى الزمان واختلاف المكان . والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين . ولنا أن نتعجب من هذه الموازين المعكوسة، كيف يصير الإيمان كفرةً والكفر إيماناً، والإفساد فى الأرض صلاحاً، والصلاح إفساداً!

بل كيف يخالف الإنسان مقتضى العقل والفطرة، والكتب المنزلة والرسل المرسلة؟! نعوذ بالله من طمس البصر والبصيرة .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢].
 ﴿ أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢] .

وقد ذكر سبحانه عن المبطلين أنهم: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف: ١٤٦] .

وقال سبحانه: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] .

وسبب ذلك ما حكاه حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصر عوداً عوداً، فأى قلب أشربها نكتت فيه نكتة سوداء، وأى قلب أنكرها نكتت فيه نكتة بيضاء، حتى تعود القلوب على قلبين قلب أسود مرباداً كالكور مجخياً، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه، وقلب أبيض لاتضره فتنة ما دامت السموات والأرض»^(١).

لقد دعا فرعون الناس إلى عبادته من دون الله، وقال لهم: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَىٰ ﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ [القصص: ٣٨] وهذا إستخفاف منه بعقولهم، لما وجد منهم سفاهة ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] وكان فى قرارة نفسه يعلم أن ماجاء به موسى هو

الحق ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ {النمل: ١٤} .

وهذا شبيه بموقف أبى جهل مع رسول الله ﷺ ، ولذلك قال سبحانه لنيه:

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ {الأنعام: ٢٣} .

وهكذا يصنع الاستكبار فى الأرض بغير الحق ومكر السئى نعوذ بالله من الخذلان، ومن أن نقول زوراً، أو أن نغشى فجوراً، أو أن نكون بك من المغرورين .

خامساً : قلوب معلقة بالله فى أخرج اللحظات

لما هدد فرعون موسى بالقتل استعاذ موسى بالله وقال موسى: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ {غافر: ٢٧} .

لقد سلم أمره إلى المستعلى على كل متكبر، القاهر لكل متجبر، القادر على حماية العائذين به من المتكبرين، وأشار إلى وحدانية الله ربه وربهم لم ينسها أو يتركها أمام التهديد والوعيد، يكفيه أنه استجار بالله وتعوذ به من شره وشر أمثاله، من المتكبرين الذين لا يؤمنون بيوم الحساب، ولهذا جاء فى الحديث عن أبى موسى رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ كان إذا خاف قوماً قال: «اللهم إنا نعوذ بك من شرورهم وندراً بك فى نحورهم» .

وقد ذكر الرازى فى تفسيره لهذه الآية فوائد كثيرة فقال ما نصه: «المعنى أنه لم يأت فى دفع شره إلا بأن استعاذ بالله واعتمد على فضل الله، لا جرم صانه الله عن كل بلية وأوصله إلى كل أمنية .

واعلم أن هذه الكلمات التى ذكرها موسى عليه السلام تشتمل على فوائد:

الفائدة الأولى: أن لفظة ﴿إِنِّي﴾ {غافر: ٢٧} تدل على التأكيد فهذا يدل على أن الطريق المؤكد المعتبر فى دفع الشرور والآفات عن النفس الاعتماد على الله والتوكل على عصمة الله تعالى .

الفائدة الثانية: أنه قال: ﴿إِنِّي عُدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ فكما أن عند القراءة يقول المسلم: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فالله تعالى يصون دينه وإخلاصه عن وساوس شياطين الجن، فكذلك عند توجه الآفات والمخافات من شياطين الإنس إذا قال المسلم: أعوذ بالله، فالله يصونه عن كل الآفات والمخافات .

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ والمعنى كأن العبد يقول: إن الله سبحانه هو الذي رباني وإلى درجات الخير رقاني، ومن الآفات وقاني، وأعطاني نعماً لا حد لها ولا حصر، فلما كان المولى ليس إلا الله وجب أن لا يرجع العاقل في دفع كل الآفات إلا إلى حفظ الله تعالى .

الفائدة الرابعة: أن قوله: ﴿رَبِّكُمْ﴾ فيه بعث لقوم موسى عليه السلام على أن يقتدوا به في الاستعاذة بالله، والمعنى فيه أن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة قوى ذلك التأثير جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلوات في الجماعات .

الفائدة الخامسة: أنه لم يذكر فرعون في هذا الدعاء، لأنه كان قد سبق له حق تربية على موسى من بعض الوجوه، فترك التعيين رعاية لذلك الحق .

الفائدة السادسة: أن فرعون وإن كان أظهر ذلك الفعل إلا أنه لا فائدة في الدعاء على فرعون بعينه، بل الأولى الاستعاذة بالله في دفع كل من كان موصوفاً بتلك الصفة، حتى يدخل فيه كل من كان عدواً سواء كان مظهراً لتلك العداوة أو كان مخفياً لها .

الفائدة السابعة: أن الموجب للإقدام على إيذاء الناس أمران:

أحدهما: كون الإنسان متكبراً قاس القلب .

والثاني: كونه منكراً للبعث والقيامة وذلك لأن المتكبر القاسي قد يحمله طبعه على إيذاء الناس إلا أنه إذا كان مقراً بالبعث والحساب صار خوفه من الحساب مانعاً له من الجرى على موجب تكبره، فإذا لم يحصل عنده الإيمان بالبعث والقيامة كانت الطبيعة داعية له إلى الإيذاء، والمانع وهو الخوف من السؤال والحساب زائلاً، وإذا كان الخوف من السؤال والحساب زائلاً فلا جرم تحصل القسوة والإيذاء .

الفائدة الثامنة: أن فرعون لما قال: ﴿ذُرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى﴾ [غافر: ٢٦] قال على سبيل الاستهزاء: ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾ [غافر: ٢٦] فقال موسى: إن الذي ذكرته يا فرعون بطريق الاستهزاء هو الدين المبين والحق المنير، وأنا أدعو ربي وأطلب منه أن يدفع شرك عني، وسترى أن ربي كيف يقهرك، وكيف يسلمني عليك . واعلم أن من

احاط بهذه الفوائد علم أنه لا طريق أصلح ولا أصوب في دفع كيد الأعداء وإبطال مكرهم إلا الاستعاذة بالله والرجوع إلى حفظ الله والله أعلم أهـ.

لقد تعلقت قلوب الأنبياء والصالحين بالله في جلب النفع ودفع الضر، فلم يلتفتوا لأحد سواه، فلما حققوا معاني الإيمان واليقين وتحققوا بالتوكل والإنابة في عسرهم ويسرهم ورخائهم وشدتهم، ما ضاعوا ولا خابوا، بل كان الله معهم بنصره وتأييده ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ {النحل: ١٢٨}. هذا هو فعل نبيه إبراهيم عندما أضرموا له النيران، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، وفعله بنبيه موسى عندما قالت له بنو اسرائيل: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ {٦١} قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿الشعراء: ٦١-٦٢﴾ فما فرغ من قوله حتى أمر ﴿أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطُّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ {الشعراء: ٦٣}.

وفعله برسول الله ﷺ يوم الهجرة

﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ {التوبة: ٤٠}

ولو نظر أحد المشركين تحت قدمه لرآهما كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وشواهد ذلك كثيرة فما خاب من استعاذ به سبحانه وتوكل عليه وأتاب إليه وفوض الأمر له.

لا حَجْرَ عَلَي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ

إن قلوبنا وقلوب العباد بيد الله، يصرفها كيف يشاء، فضلاً وعدلاً، ولا حَجْرَ عَلَي سَعَةِ رَحْمَةِ اللَّهِ، فعلى الدعاة إلى الله أن ينهضوا بواجب الدعوة، وأن يعمموا بها الخلائق وليس لهم أن يأسوا أو يقنطوا من رحمة الله، أو أن يستبعدوا وصول معاني الهداية إلى القلوب والنفوس، وعلى كل داعية أن يقول لنفسه إن لم يستجيبوا اليوم فلربما استجابوا غداً، وإن لم يستجيبوا بهذه الكلمة، فلربما استجابوا بكلمة خير أخرى. ولن نعدم بدعوتنا إقامة الحججة لله على الخلائق وإعذار النفس بين يدي الله بالبلاغ، حتى وإن فاتنا هداية الناس على أيدينا وإقامة المجتمع المسلم حال حياتنا.

وقد أمر سبحانه نبيه بالدعوة والبلاغ فقال سبحانه: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا
الْبَلَاغُ﴾ {الشورى: ٤٨} وقال: ﴿وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ {القصص: ٨٧} وقال سبحانه: ﴿فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ﴾ {الغاشية: ٢١}
والتذكرة مطلوبه حتى وإن غلب على الظن عدم استجابة المدعوين، قال تعالى:
﴿فَذَكَرْ إِنْ نَفَعْتَ الذِّكْرَىٰ﴾ {الأعلى: ٩} أي وإن لم تنفع فذكر مثل ﴿سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ
الْحَرَّ﴾ {النحل: ٨١} ومن المعلوم أنها تقى البرد أيضاً .

وعموماً فالكلمات الصالحات الطيبات لا تضيع سدى، وقد ينفع الله بها، من
لم يكن في الحسبان وصولها إليه ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ {الفتح: ٤٠} .
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ {المدثر: ٣١} .

لقد وقع الحق في قلب مؤمن آل فرعون، عندما سمع دعوة نبي الله موسى
- صلوات الله وسلامه عليه - وقيل كان ابن عم فرعون كما ذكر السدي .

وقال ابن جرير عن ابن عباس ^(١) رضي الله عنه: لم يؤمن من آل فرعون سوى هذا
الرجل وامرأة فرعون والذي قال: ﴿يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾
{القصص: ٢٠} .

إذا فمؤمن آل فرعون كان من جملة الملأ - الأشراف والسادة - وهذا من عجائب
التدبير، أن تصل الدعوة إلى أمثاله، ولربما لو آمن رجل منهم لأسلم بإسلامه
خلق كثير، فكيف يبخل الإنسان على نفسه بمثل هذا الأجر، والدادل على خير
كفاعله، وقد أسلم ستة من العشرة المبشرين بالجنة على يد أبي بكر رضي الله عنه، وذلك
فضل الله يؤتيه من يشاء .

يكفيه أنه رجل مؤمن

الألفاظ في كتاب الله، لها دلالاتها، فمؤمن آل فرعون ، رجل مؤمن كما وصفه سبحانه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ ﴾ [غافر: ٢٨] .

فهو رجل والرجال بحق قليل ، عناهم سبحانه بقوله:

﴿ رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣] .

﴿ فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَرُوا ﴾ ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِيمُهُمْ تِجَارَةً وَلَا بَيْعًا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ [النور: ٣٧] .

أما الرجال كجنس يذكر في مقابلة النساء، فهؤلاء عددهم كثير . وهذا الرجل المذكور وصفه العليم الخبير بوصف الإيمان، وهي كلمة تُذكر في مقابلة الكفر، وكان متابعا لموسى - ودين الأنبياء جميعاً هو الإسلام:

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ [آل عمران: ١٩] وأصل الإيمان التصديق، وأصل الإسلام الإستسلام والإنقياد . فقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون مصدقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر . والتزام الدين الذي يكون به النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وبه يفوز العبد بالجنة ويزحزح عن النار إنما هو ما كان على الحقيقة، ومالم يكن منه على الحقيقة ولم يظهر منه ما يناقضه أجريت عليه أحكام المسلمين في الدنيا ووكلت سيرته إلى الله تعالى .

قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وقال تعالى: ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] وقال ﷺ:

«لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة» . ولهذا حصر الله الإيمان فيمن التزم الدين كله باطناً وظاهراً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٢-٤] .

والإنسان لا يكون مؤمناً إلا إذا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، وهذا الإيمان يستلزم الكفر بالطاغوت قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ {البقرة: ٢٥٦} والطاغوت كما قال ابن القيم: «هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه بغير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله» أهـ.

وقد كان فرعون طاغوتاً، يُعبد من دون الله، فخرج نبي الله موسى يدعوه ويدعو قومه لعبادة الله وحده ويقول لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {المؤمنون: ٢٣} فأمن به من أراد الله سعاده ومنهم مؤمن آل فرعون .

كتمان الإيمان

يدخل الإنسان في الإسلام بنطقه بالشهادتين، بإتفاق العلماء، وتجري عليه أحكام الإسلام، ولا يخرج منه إلا بمناقضتهما، إما بجحود لما دلنا عليه أو باستكبار عما استلزمته .

ومؤمن آل فرعون كان يكتُم إيمانه بعد أن وقع الحق في قلبه، ولهذا انتدب يدفع عن موسى ويحتال لدفع القوم عنه، ويسلك في خطابه لفرعون وملائته مسالك شتى . فهل من الممكن أن يكتُم الإنسان إيمانه ولا يتلفظ به بلسانه ؟

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: «ظن بعضهم أن المكلف إذا كتُم إيمانه، ولم يتلفظ بلسانه لا يكون مؤمناً باعتقاده، وقد قال مالك: إن الرجل إذا نوى بقلبه طلاق زوجته أنه يلزمه، كما يكون مؤمناً بقلبه وكافراً بقلبه .

فجعل مدار الإيمان على القلب وأنه كذلك، لكن ليس على الإطلاق وقد بيناه في أصول الفقه، بما لبابه أن المكلف إذا نوى الكفر بقلبه كان كافراً وإن لم يتلفظ بلسانه، وأما إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمناً بحال حتى يتلفظ بلسانه، ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى، إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره، وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير في صحته من التكليف، وإنما يشترط سماع الغير له ليكف عن نفسه وماله» أ.هـ.

إن المؤمن قد يُستكره على النطق بكلمة الكفر الخبيثة، ولا يزول عنه وصف الإيمان، طالما أن قلبه مطمئن بالإيمان، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

كما في قصة عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم له: «إن عادوا فعد» أي إن عادوا لاستكراهك ولإيذائك، فعد إلى النطق بها بلا إثم عليك فإن الله يحب أن تؤتى رخصه، كما يحب أن تؤتى عزائمه، والاستكراه يلغى الاختيار ويرفع الإثم، كما في الحديث: «رفع لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه».

وقد يكون كتمان الإيمان وإخفاء الشعائر سياسة شرعية، واجبة الأخذ والانتشار، يليها النظر الشرعى، وليس غيرها أفضل منها، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه: «احصوا لى كل من تلفظ بالإسلام، فقلنا أتخاف علينا ونحن ما بين السماة إلى السبعمائة»، يقول حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلى لإسراً.

إن هذا الرجل كتم إيمانه فى أول أمره، فأنى الله عليه فى كتابه، وقد صرح القرآن بأن مؤمن آل فرعون أظهر إيمانه لما أرادوا قتل موسى عليه السلام.

أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!؟

أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر كما ثبت بذلك الحديث، ولا أعظم من هذه الكلمة عند فرعون، وهى قول مؤمن آل فرعون: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] اللهم إلاما رواه البخارى عن عروة بن الزبير قال: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أخبرنى بأشد شئ صنعه المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصل بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبى معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ثوبه فى عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله عنه فأخذ بمنكبه ودفعه عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم!؟».

وخرج الترمذى الحكيم فى {نوادير الأصول} عن أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها قالوا لها: ما أشد شئ رأيت المشركين بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقالت: كان المشركون قعوداً فى المسجد، ويتذاكرون رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقول فى آلهتهم، فيينا

هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ ، فقاموا إليه بأجمعهم ، وكانوا إذا سألوه عن شئ صدقهم ، فقالوا: ألتست تقول كذا في آلهتنا قال: «بلي» فتشبهوا فيه بأجمعهم ، فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال له: أدرك صاحبك . فخرج من عندنا وإن له غدائر ، فدخل المسجد وهو يقول: ويلكم: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا أبو بكر فجعل لايمس شيئا من غدائره إلا جاء معه ، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام ، إكرام إكرام . فقال علي: والله ليوم أبي بكر خير من مؤمن آل فرعون ، إن ذلك رجل كتم إيمانه فأنى الله عليه في كتابه ، وهذا أبو بكر أظهر إيمانه وبذل ماله ودمه لله عز وجل .

لم يتمكن الكافرون من قتل رسول الله ﷺ ولأنبي الله موسى ، بينما قتل آخرون انتقلوا إلى ربهم شهداء ﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] .

قتل زكريا ويحيى وقتل أصحاب الأخدود والغلام وصاحب يس
طابور طويل ، جريمة أصحابه الوحيدة أنهم آمنوا بالله وصدقوا المرسلين !!!

الواجب إبقاء موسى حياً لاعتبارات كثيرة

خرج الكلام من مؤمن آل فرعون على سبيل الإستفهام الإنكارى فقال: ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ [غافر: ٢٨] وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن الإستنكار ، وذلك لأنه مازاد على أن قال: ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ وجاء بالبيّنات وذلك لا يوجب القتل البتة وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨] يحتمل وجهين :

الأول : أن قوله: ﴿ رَبِّيَ اللَّهُ ﴾ إشاره إلى التوحيد ، وقوله: ﴿ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ إشارة إلى الدلائل الدالة على التوحيد وهو قوله في سورة طه: ﴿ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] .

وقوله في سورة الشعراء: ﴿ رَبَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴾ [الدخان: ٧] إلى آخر الآيات .

ثم ذكر المؤمن حجة ثانية فى أن الإقدام على قتله غير جائز وهى حجة مذكورة على طريقة التقسيم، فقال: إن كان هذا الرجل كاذباً كان وبال كذبه عائداً عليه فاتركوه وإن كان صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم، فثبت أن على كلا التقديرين كان الأولى إبقاؤه حياً .

وقد يُستشكل قول المؤمن: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ [غافر: ٢٨] مقصوراً عليه، لأنه يدعوا الناس إلى ذلك الدين الباطل، فيغتر به جماعة منهم، ويقعون فى المذهب الباطل والاعتقاد الفاسد، ثم يقع بينهم وبين غيرهم الخصومات الكثيرة، فثبت أن بتقدير كونه كاذباً لم يكن ضرر كذبه مقصوراً عليه بل كان متعدياً إلى الكل، ولهذا السبب العلماء أجمعوا على أن الزنديق الذى يدعوا الناس إلى زندقته يجب قتله .

وثانيها : أنه إن كان الكلام حجة له، فلا كذاب إلا ويمكنه أن يتمسك بهذه الطريقة، فوجب تمكن جميع الزنادقة والمبطلين من تقرير أديانهم الباطلة .

وثالثها : أن الكفار الذين أنكروا نبوة موسى عليه السلام وجب أن لا يجوز الإنكار عليهم، لأنه يقال: إن كان ذلك المنكر كاذباً فى ذلك الإنكار فعليه كذبه وإن يك صادقاً انتفعتم بصدقه، فثبت أن هذا الطريق يوجب تصويب ضده .

والجواب عن الأسئلة الثلاثة بحرف واحد كما يقول الرازى، وهو أن تقدير الكلام أن يقال: إنه لا حاجة بكم فى دفع شره إلى قتله بل يكفيكم أن تمنعوه عن إظهار هذه المقالة ثم تركوا قتله، فإن كان كاذباً فحيث لا يعود ضرره إلا إليه، وإن يك صادقاً انتفعتم به والحاصل أن المقصود من ذكر ذلك التقسيم بيان أنه لا حاجة إلى قتله بل يكفيكم أن تُعرضوا عنه وأن تمنعوه عن إظهار دينه فبهذا الطريق تكون الأسئلة الثلاثة مدفوعة .

لماذا لم يقل يصبكم كل الذى يعدكم ؟

لقد دافع مؤمن آل فرعون عن نبي الله موسى فما سب ولا لعن، لكنه تسلل إلى قلوبهم بالنصيحة الرقيقة الممزوجة بالتحويق والاقناع: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] .

تأمل ذكاء هذا الرجل وبعد نظره، تأمل الألفاظ التي اختارها، والكلمات التي تكلم بها، والأسلوب الحكيم الذي يقنع به من يخاطبهم - أسلوب استدراج المخاطب - وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له، وأنه من أتباعه، فجاءهم بطريق النصح والملاطفة فقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ ولم يذكر اسمه، بل قال رجلاً ليوهم أنه لا يعرفه ثم قال: ﴿أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ ولم يقل: رجلاً مؤمناً بالله أو هو نبي الله، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ولم يقبلوا قوله، ثم أتبعه بقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه ثم تلا بقوله: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا﴾ ولم يقل هو صادق وكذلك قال: ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] .

فكان مدار هذا الإستدلال على إظهار الإنصاف وترك اللجاج لأن المقصود منه إن كان كاذباً كان ضرر كذبه مقصوراً عليه، وإن كان صادقاً فلا أقل من أن يصل إليكم بعض ما يعدكم، وإن كان المقصود من هذا الكلام ما ذكر صح، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ: ٢٤] .

ولعله لم يقل: يصيبكم كل الذي يعدكم به موسى لأنه عليه السلام كان يتوعدهم بعذاب الدنيا وبعذاب الآخرة، فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الذي يعدهم به، وحكى عن أبي عبيدة أن ورود لفظ البعض بمعنى الكل جائز .

وقد ختم المؤمن كلامه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] إشارة إلى علو شأن موسى عليه السلام على طريق الرمز والتعريض، لأن الله تعالى هدى موسى إلى الإتيان بهذه المعجزات الباهرة، ومن هداه الله إلى الإتيان بالمعجزات لا يكون مسرفاً كذاباً فهذا يدل على أن موسى يريد السلام وليس من الكاذبين، ويحتمل أيضاً أن يكون المراد أن فرعون مسرف في عزمه على قتل موسى، كذاب في إقدامه على إدعاء الإلهية، والله لا يهدي من هذا شأنه وصفته بل يبطله ويهدم أمره .

التخوف من قتل موسى والنصح له بالخروج

لم يدخر مؤمن آل فرعون وسعاً في دفع الأذى عن نبي الله موسى من جهة، وفي نصح قومه من جهة أخرى على الرغم من تكتّم إيمانه، وكأنه لما علم إصرارهم على قتل نبي الله موسى عليه السلام، لم يكتف بتفنيد شبهاتهم وبيان الحق لهم، بل سعى وتحرك لاستنقاذ نبي الله موسى، قال تعالى: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لَيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ {القصص: ٢٠} .

قال أكثر أهل التفسير: هذا الرجل هو حزقيل بن صبوراً مؤمن آل فرعون، وكان ابن عم فرعون . ذكره الثعلبي وقيل غيره، وروى أن فرعون أمر بقتل موسى فسبق ذلك الرجل بالخير في ﴿ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ ﴾ أى يتشاورون في قتلك بالقبطى الذى قتله بالأمس، وقيل: يأمر بعضهم بعضاً . فاستجاب نبي الله موسى لنصح هذا المؤمن ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ {القصص: ٢١} .

إن خوف المؤمن على أخيه ومحبته الخير له، تدفعه دفعاً طلباً لسلامته ودرءاً للمكروه عنه، وذلك لأن المؤمن مرآة أخيه ويحب لأخيه ما يحب لنفسه، وهذا السعى الذى يحتسبه عند الله، قد يجر عليه نوعاً من الأذى، فلا بأس بذلك طالما كان فى سبيل الله، وهذا الحرص متأكد مع الدعاة إلى الله وخصوصاً الأنبياء والمرسلين ولا أدل على ذلك من موقف أبى بكر الصديق رضي الله عنه يوم الهجرة، فقد كان يتحول عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة وعن يساره أخرى، ويتذكر الرصد والطلب فيسير من أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم تارة ومن خلفه تارة أخرى، ويسد جحور غار ثور ولو بجسده، ويقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن أهلك أهلك وحدى، وإن تهلك تهلك معك الدعوة .

إنه الحرص على حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى استمرارية الدعوة، ما وسعه الأمر، فلما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى، وتيقن أبو بكر رضي الله عنه وفاته، واضطرب من اضطرب بسبب ذلك، صعد على المنبر وقال قوله المشهورة: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت

وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾
 {آل عمران: ١٤٤}.

لا ينبغي للدعوة أن تموت بموت حاملها ولا أن تمرض بمرضه ولا أن تتوقف بتوقفه ولا أن تسافر بسفره، فالأخذ بأسباب استمراريتها وقوتها مطلب واجب يحرص عليه الدعاة والمدعون.

لا منافسة على الملك بل احكموا أنتم بشرع الله

اعلم أن مؤمن آل فرعون لما أقام أنواع الدلائل على أنه لا يجوز الإقدام على قتل موسى خوفاً بعد ذلك بعذاب الله فقال: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾ {غافر: ٢٩} وهذا دليل على أنه قبطي، ولذلك أضافهم إلى نفسه، فقال: ﴿يَا قَوْمِ﴾ ليكونوا أقرب إلى قبول وعظه ﴿لَكُمْ الْمُلْكُ﴾ فشكروا الله على ذلك ﴿ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ {غافر: ٢٩} يعنى قد علوتم الناس وقهرتموهم، فلا تفسدوا أمركم على أنفسكم، ولا تتعرضوا لبأس الله وعذابه، فإنه لا قبل لكم به، والمراد بالأرض أرض مصر فى قول السدى وغيره، كقوله: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ﴾ {يوسف: ٢١} أى فى أرض مصر، وإنما قال هذا المؤمن: ﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ {غافر: ٢٩} لأنه كان يظهر من نفسه أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه فهو واحد منهم ينتظر مصيره معهم، فهو إذن ناصح لهم مشفق عليهم، وهم قومه، لعلهم يأخذون تحذيره بإهتمام، فهم أحق الناس أن يحذروا بأس الله لأنهم أصحاب الملك والسلطان وأجدر الناس أن يتجنبوا سخطه سبحانه وأليم عقابه، وأن يبيتوا منه على وجل وكان مؤمن آل فرعون بهذه الدعوة، وهذه الكلمات، قد أثبت لهم أنه لا ينازعهم الملك ولا ينافسهم فيه، بل هو الحريص على أن يستمروا فى ملكهم وحكمهم، ولا سبيل لذلك إلا بإقامة الحق والعدل، وإخضاع الدنيا لدين الله، بما ملكهم من سلطان وجاه، هذا هو الحرص الحقيقى المستبصر، بلا تزييف أو غش أو خداع، فما قيمة دنيا بلا دين، وكيف تقوم للدنيا قائمة، إذا عصت ربها ولم تقيم واجب العبودية على أرضها فما أهون الخلق على الله إن هم عصوه .

إن طمأنة الملك على ملكه والحاكم على حكمه مطلوب، فلسنا طلاب دنيا، ولا ممن يتتغى الرئاسة والوجاهة وما نسعى إلا لمرضاة الله، وأن تُحكّم الدنيا بدين الله، فلو تمكن عبد حبشى وقهر الناس لسلطانه، وأقام فيهم الشرع والدين، فلن ننازعه الأمر وسنقول: سمعاً وطاعاً .

ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة، فقد عرض عليه المشركون، فى بداية الدعوة أن يكون له الملك عليهم، وأن يكون أغناهم مالا... فرفض ذلك كله، وقال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ {المؤمنون: ٢٣} .

ليس المهم من يحكم؟، ولكنه بماذا يحكم؟ فالخلافة موضوعة لإقامة الدين وسياسة الدنيا به .

قال تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ {النساء: ١٤١} فلا يجوز للكافر أن يتولى إمرة المسلمين، وأى سبيل أعظم من الحكم والإمامة .

وفى الحديث الذى رواه عبادة بن الصامت قال: «بايعنا - أى رسول الله ﷺ - علي السمع والطاعة فى منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحا عندكم من الله فيه برهان»^(١) .

وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كان رأسه زبيبة ما أقام فيكم كتاب الله»^(٢) .

عزة بالإثم وتسمية الأشياء بغير اسمها

ذكر المؤمن وحذر، فعلم فرعون ظهور حجته فقال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ {غافر: ٢٩} .

قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: ما أشير عليكم إلا ما أرى لنفسى ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ {غافر: ٢٩} فى تكذيب موسى والإيمان بى .

لقد أخذ فرعون ما يأخذ كل طاغية توجه إليه النصيحة، تأخذه العزة بالإثم، ويرى فى النصيح الخالص افتياناً على سلطانه، ونقصاً من نفوذه، ومشاركة له فى النفوذ والسلطان .

(٢) رواه البخاري .

(١) متفق عليه ..

يقول ابن كثير فى تفسيره: ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ ﴾ [غافر: ٢٩] لقومه راداً على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ [غافر: ٢٩] أى ما أقول لكم وأشير عليكم إلا ما أراه لنفسى . وقد كذب فرعون فإنه كان يتحقق صدق موسى عليه السلام فيما جاء به من الرسالة ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ ﴾ [الإسراء: ١٠٢] . وقال الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] فقوله: ﴿ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى ﴾ [غافر: ٢٩] كذب فيه وافترى وخان الله تبارك وتعالى ورسوله ﷺ ورعيته فغشهم وما نصحهم وكذا قوله: ﴿ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ [غافر: ٢٩] أى وما أدعوكم إلا إلى طريق الحق والصدق والرشد وقد كذب أيضاً فى ذلك، وإن كان قومه قد أطاعوه واتبعوه قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَاتَّبِعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴾ [هود: ٩٧] . وقال جلت عظمتة: ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ [طه: ٧٩] ، وفى الحديث: « ما من إمام يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا لم يرح رائحة الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة خمسمائة عام » والله سبحانه وتعالى الموفق للصواب « أ. هـ .

إن المرء ليعجب من هذه الجرأة التى وجدت عند فرعون، ومن هذا التلبس والتدليس الذى تحلى به، ويبدو أنه وجد فى عقول القوم سفاهة فسهل عليه الاستخفاف بهم ﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾ [الزخرف: ٥٤] .

لقد كانوا إمتعات فقهرهم فرعون، ولم يُقم لهم وزناً، وهذا يفسر لنا قوله تعالى: ﴿ اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ [طه: ٤٣] بينما قال جل وعلا: ﴿ وَإِلَى عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا ﴾ [هود: ٥٠] . ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ﴾ [هود: ٦١]

إن فرعون كان مظلماً ظالماً نتيجة كفره وإعراضه عن منهج الله، لا بصيرة عنده ولا نور لديه ﴿ وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴾ [النور: ٤٠] .

﴿ أَقْمَنَ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٢] .

﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] .

فكيف يلغى آراء الخلق على مثل هذا النحو، ويزعم هداية قومه سبيل الرشاد وقد

طمست بصيرته بهذه الكيفية !!! إن حظه وافر ونصيبه كبير من أستاذه إبليس، في تسمية الأشياء بغير اسمها، فهو عندما وسوس لأبينا آدم بالأكل من الشجرة التي نهى عن الأكل منها قال له:

﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْغُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَلِيْلُ ﴾ [طه: ١٢٠].

وقد ينخدع البعض بوساوس شياطين الإنس والجن، وبمكر الليل والنهار ويتحول الإيمان كفرًا والكفر إيمانًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، وتقلب الموازين رأساً على عقب.

تخويفهم بيوم الأحزاب

أخبر الله عز وجل عن هذا الرجل الصالح، مؤمن آل فرعون أنه حذر قومه بأس الله تعالى في الدنيا والآخرة فقال: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴾ [غافر: ٣٠] أي الذين كذبوا رسل الله في قديم الدهر كقوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم من الأمم المكذبة، كيف حل بهم بأس الله؟ وما رده عنهم راد ولا صده عنهم صاد ﴿ وما الله يريد ظلماً للعباد ﴾ [غافر: ٣١]. أي إنما أهلكهم الله تعالى بذنوبهم وتكذيبهم رسله ومخالفتهم أمره فأنفذ فيهم قدره، وقوم فرعون لم يقلوا في كفرهم وعتوهم عن هؤلاء الهلكي، وليسوا بأشد قوة من هذه الأمم المعذبة، فوجب الاعتبار بالأمم الغابرة والاعتاظ بأحوالهم.

قال تعالى: ﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥١) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) وَالْمُرْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا عَشَىٰ ﴾ [النجم: ٥٠-٥٤].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١].

وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّا فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَا هُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ [الأنعام: ٦].

وقال سبحانه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسِبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا

وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نَكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا ﴿الطلاق: ٨-٩﴾

وقال: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ ﴿الأنبياء: ١١﴾ .

وقال: ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ ﴿سبا: ٤٥﴾ .

وقال: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿الزخرف: ٨﴾ .

وقال: ﴿أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ ﴿الروم: ٩﴾ .

فالشرع لا يفرق بين المتماثلين ولا يساوى بين المختلفين، فوجب الحذر والإشفاق من نعمة الله وحلول العذاب فى الدنيا قبل الآخرة وأن لا نأمن مكر الله فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ٩٧-٩٩﴾ .

وقال جل ذكره: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ ﴿النحل: ٤٥-٤٧﴾ .

فهو سبحانه وتعالى قادر على أخذهم فى كل الأحوال فيلزمهم أن لا يأمّنوا عذابه فى جميع تقلباتهم وتصرفاتهم، فإن عذاب الله لا يأتى الماكرين والمفسدين فى الغالب إلا عند استراحتهم من ليل أو نهار حيث لا يكون لهم استعداد ولا تذكر . وتخويف المؤمن قومه من مثل يوم الأحزاب، قال: ﴿مِثْلُ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودٍ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ ﴿غافر: ٣١﴾ يدل على أنهم كانوا على معرفة بمصارع هؤلاء الهلكى .

قوم نوح (١)

هم أول قوم عبدوا الأصنام وأشركوا بالله، ولهذا بعث الله إليهم نوحاً بالإنذار والتخويف كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١ ﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ٢ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ٣ ﴾ [نوح: ١-٣].

وقد روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه قال: «كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام».

وقد دعا نبي الله نوح قومه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً، وأقام فيهم تسعمائة وخمسين عاماً يذكرهم ويعظهم.

فلما يش نوح من إيمانهم دعى عليهم فقال: ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضَ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ٢٦ ﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ٢٧ ﴾ [نوح: ٢٦-٢٧] وكان الله قد أوحى إليه أنه لن يؤمن من قومه بعد هؤلاء المؤمنين أحد ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ٣٦ ﴾ [هود: ٣٦] وقد استجاب الله دعاءه وأعلمه بأنه سيهلكهم بالطوفان وأوحى إليه أن يصنع الفلك ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ٢٧ ﴾ [هود: ٢٧].

وكان كلما مر عليه ملا من قومه سخروا منه فقال: ﴿ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ٣٨ ﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ٣٩ ﴾ [هود: ٣٨-٣٩] وكان الطوفان الذى لم ينج منه إلا ركاب السفينة.

حتى كنعان ابن نوح الذى لم يؤمن بالله ولم يركب مع أبيه فى السفينة كان من الهالكين.

قوم عاد

كانت مساكن (عاد) في أرض الأحقاف جهة اليمن، من جنوب شبه الجزيرة العربية، وتقع شمال حضرموت، وفي شمالها الربع الخالي، وفي شرقها (عمان) وموضع بلادهم اليوم رمال، ليس بها أنيس ولا سمير، بعد ذلك العمران والنعيم المقيم، قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١].

وعاد هم عاد إرم، التي تسمى عاد الأولى، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى﴾ [النجم: ٥٠] وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: ٦-٨].

وقد قص القرآن ما كانوا عليه من مظاهر النعمة والترف، قال تعالى: ﴿أَتَنْبُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿١٣١﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨-١٣٤].

قال ابن كثير: كانت لهم أصنام ثلاثة (صدا، وضمودا، وهرا) وكانوا عرباً جفاة، عتاة كافرين متمردين على الله، وكان (هود) عليه السلام يندرهم ويحذرهم عذاب الله، ويضرب لهم المثل بقوم نوح ويذكرهم بنعم الله تعالى عليهم، ويبين لهم أنه لا يطلب على نصيحته أجراً منهم، ولا يبتغي جزاءً ولا شكوراً، وكان منهم ناس قد عتوا عتواً كبيراً فقد قاوموا دعوته، وسفهاوا رأيه، وعزموا على الفتك به، ورموه بالسفه والجنون، واتهموه بأن آلهتهم قد أصابته بسوء، وأن ما يهزى به إنما بسبب مس الآلهة له.

قال تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ﴾

{هود: ٥٣-٥٥} .

فلما اغتروا بقوتهم، واستكبروا على الله، وعتوا عن أمر رسله، وتمادوا في

طغيانهم، أهلكهم الله بالريح العاتية كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

ولما كان الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢] فإن الله تعالى حبس عنهم المطر فاستغاثوا، فأرسل عليهم سحاباً، فلما رآوه فرحوا واستبشروا وظنوا أنه مطر غزير، وما كان إلا ريحاً عقيماً، فأهلكهم الله وأبادهم وصارت أجسامهم كأنها أعجاز نخل خاوية. قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالَوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

وهذا من عجائب الاستدراج ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأَمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [الأعراف: ١٨٢-١٨٣] وأنجى الله هوداً والذين معه من ذلك العذاب الغليظ.

قوم ثمود

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥] ومساكن ثمود بالحجر، ولذلك سماهم الله (أصحاب الحجر) قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسِلِينَ (٨٠) وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨١].

والحجر تقع بين الحجاز والشام وتعرف الآن ب(فج الناقة) وآثار مدائنهم ظاهرة حتى الآن وتسمي(مدائن صالح) قريبة من خليج العقبة.

وقوم ثمود ساروا على درب قوم عاد - من قبلهم - في عبادة الأوثان والكفر بالله الواحد الديان، وكانوا أهل خصب ونعيم، فبعث الله إليهم صالح عليه السلام يذكرهم بنعم الله، ويهديهم طريق الفوز والسعادة،

قال تعالى: ﴿أَتُرْكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعَيْونَ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بِيُوتًا فَارِهِينَ ﴿الشعراء: ١٤٦-١٤٩﴾ .

فأمن بصالح نفر قليل، وأكثرهم كذوبه وكفروا بريالته، وطلبوا منه معجزة تشهد بصدقه فأيده الله بمعجزة الناقة، وقد كانت آية عظيمة دالة على صدق صالح عليه السلام، حيث خرجت الناقة من صخر أصم ورأوا بأعينهم كيف انفلقت الصخرة وخرجت منها ناقة عشراء وقيل لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَمَنْ تَكْفُرْ فِي آرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿هود: ٦٤﴾ . وكانت هذه الناقة تشرب ماء القبيلة بأجمعه، وتعطى القبيلة من اللبن بقدر الماء الذي شربته ﴿لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ ﴿الشعراء: ١٥٥﴾ .

يقول ابن كثير: «وقد ذكر المفسرون أن ثمود اجتمعوا يوماً في ناديبهم، فجاءهم صالح فدعاهم إلى الله وذكرهم وحذرهم ووعظهم فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه - وأشاروا إلى صخرة عظيمة - ناقة عشراء (يعنى حاملاً) يكون من أوصافها كذا وكذا تؤمن بك ونصدقك، فأخذ عليهم نبي الله العهود والمواثيق على ذلك ثم قام إلى مصلاه فصلى ودعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ماطلبوا فأجاب الله دعاءه فانفطرت الصخرة عن ناقة عظيمة عشراء على الوجه المطلوب فلما عاينوها رأوا أمراً عظيماً، ومنظراً هائلاً، وقدرة باهرة، ودليلاً قاطعاً، وبرهاناً ساطعاً فأمن بعضهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم ﴿وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا ﴿الإسراء: ٥٩﴾ .

وقد حذرهم صالح عليه السلام من التعرض للناقة بسوء، فخرج أشقى القوم (قدار بن سالف) فعقرها، وابتدراها الرجال بأسيافهم وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿الشمس: ١١-١٥﴾ .

وقد كان هلاك ثمود بالصاعقة التي دمرتهم قال تعالى:

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿فصلت: ١٧﴾ .

والصيحة التي أخذتهم ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١] والرجفة التي زلزلت تحتهم الأرض، قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٨].

وأما صالح والذين آمنوا معه فقد نجوا من العذاب الذي أدرك قومهم بعد ثلاثة أيام من عقر الناقة: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولًا مِنْ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

الهلكى من بعدهم

سارت الايام والليالى سيرا حثيثا بقوم نوح وعاد وثمود، وقرون بين ذلك كثيرا اسلمتهم الى ربهم، وقدمت بهم على اعمالهم، فهل تحس منهم من احد او تمنع لهم ركزا .

لقد حاول المؤمن ان يلفت انظار قومه الى مصارع الاحزاب قبلهم، وهى شاهدة بياس الله فى اخذ المكذبين والطغاة

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

كل هؤلاء اخذهم ربنا اخذ عزيز مقتدر، اهلكهم بياسه الذى لا يرد عن القوم المجرمين، واقتلعهم من الارض وهو غير ظالم لهم، وكانوا هم الظالمين، وما اهون الخلق على الله ان هم عصوه، بينما هى امم ظاهرة قاهرة، تركوا امر الله وعصوا رسله واتبعوا امر كل جبار عنيد، ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدَ الْمُرُودُ﴾ [هود: ٩٨]. وهذا شأن كل طاغية وطاغوت، وهو شأن فرعون ومن تابعه، قال تعالى: ﴿وَاتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرْآنِ نَقَّصَهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٌ ﴿١٠١﴾ وَكَذَلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنْ أَخَذَهُ الْيَمُّ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ﴾ [هود: ٩٩-١٠٣].

ولكل حزب كان يوم، ولكن المؤمن يجمعها في يوم واحد ﴿مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ {غافر: ٣٠} فهو اليوم الذي يتجلي فيه بأس الله. وهو يوم واحد في طبيعته على تفرق الأحزاب ... ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ {غافر: ٣١}. إنما يأخذهم بذنوبهم، وما خلق سبحانه الخلق لكي يعذبهم وقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ {النساء: ١٤٧} أمرهم أن يوحده سبحانه، وأن يقيموا واجب العبودية، فأبى أكثر الناس إلا كفوراً، مخالفين بذلك الكتب المنزلة ومعاندين لمقتضى العقل والفطرة، ومتابعين لوساوس الشياطين التي اجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحل الله لهم وأمرتهم أن يشركوا به سبحانه ما لم ينزل به سلطاناً، فظلموا بذلك أنفسهم ظلماً عظيماً، وأى ظلم أعظم من أن تجعل لله نداً وهو خلقك، وأى تدسية للنفس أكبر من ذلك، لقد تساوي هؤلاء في ظلمهم لأنفسهم وعتوهم وإجرامهم، ولذلك لاتستبعد حلول العذاب بساحتهم ويكل من كان على ساكتهم ولذلك قال تعالى عن قوم لوط:

﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجِيلٍ مُّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ {هود: ٨٢-٨٣} .

يوم التناد

زاد المؤمن في الوعظ والتخويف وأفصح عن إيمانه، إما مستسلماً موطناً نفسه على القتل أو واثقاً بأنهم لا يقصدونه بسوء، فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ {غافر: ٣٢}. وهو اليوم الذي تنادى فيه الملائكة الذين يحشرون الناس للموقف، وسمى بيوم التناد لمناداة الناس بعضهم بعضاً، فينادى أصحاب الأعراف رجالاً يعرفونهم بسيماهم، وينادى أصحاب النار: ﴿أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا﴾ {الأعراف: ٤٤} وينادى أصحاب النار أصحاب الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ﴾ {الأعراف: ٥٠} وينادى المنادى أيضاً بالشقوة والسعادة: ألا إن فلان بن فلان قد شقى شقاوة لا يسعد بعدها أبداً، ألا إن فلان بن فلان قد سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً. وهذا عند وزن الأعمال. وتنادى الملائكة أصحاب الجنة: ﴿أَنْ تَلَكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ {الأعراف: ٤٣} وينادى حين يذبح الموت: يا أهل الجنة خلود لاموت ويا أهل النار خلود لاموت وينادى كل قوم بإمامهم .

فالتنادى واقع فى صور شتى وتسميته «يوم التناد» تلقى عليه ظل التصايح وتناوح الأصوات من هنا ومن هناك، وتصور يوم زحام وخصام، فبعض الظالمين ينادى بعضاً بالويل والثبور فيقولون «يا ويلنا» وينادى المؤمن: ﴿هَآؤُمُ أَقْرَعُوا كِتَابِيَهٗ﴾ [الحاقة: ١٩] والكافر: ﴿يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوْتِ كِتَابِيَهٗ﴾ [الحاقة: ٢٥] وينادى باللعنة على الظالمين، وكل ذلك يحدث يوم القيامة.

إنها صور تبعث على الرهبة، وتدفع من كان له قلب للإنبابة وكلها تتفق مع قول الرجل المؤمن: ﴿يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ [غافر]

يوم عظيم تذهل فيه المراضع وتضع فيه الحوامل ما فى بطونها وتشيب الولدان وتتطاير الشياطين هاربة فتلقاها الملائكة تضرب وجوهها ويولى الناس مدبرين ينادى بعضهم بعضاً، وقد يكون ذلك فرارهم عند هول جهنم، أو محاولتهم، ولا عاصم يومئذ من أمر الله إلا من رحم، وصورة الفزع والفرار هى أولى الصور هنا للمستكبرين المتجبرين فى الأرض أصحاب الجاه والسلطان .

ثم نبه المؤمن على قوة ضلالتهم وشدة جهالتهم فقال: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣] .

الهدى هدى الله

إذا كان الهدى شيئاً هو له سبحانه، فله أن يعطيه من يشاء ويمنعه من يشاء ولا ظلم بين العباد، فقد ركب فى العباد عقولاً، وأودع فيها فطراً وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل، ليحيى من حى عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة، والناس فى الدنيا والآخرة يتقلبون بين فضل وعدل، ولذلك كان على بن أبى طالب يدعو ويقول: رب احملنى على فضلك ولا تحملى على عدلك .

فمن أسلم وختم له بإيمان وأدخل جنات النعيم فهو المحمول على فضل الله، ولذلك جاء فى الحديث: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قيل: ولا أنت يارسول الله، قال: ولا أنا إلا أن يتغمدى الله برحمته». وما الأعمال الصالحة التى نعملها إلا سبباً لدخول الجنة وهى من فضل الله وتوفيقه لنا، قال تعالى: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أَوْ رِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] .

والإنسان بحاجة لهداية الله، بل حاجته لذلك أوكد من حاجته للماء والهواء، ولذلك ندعو على الأقل كل يوم خمس مرات ونقول: ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة: ٦].

ولو وكل الإنسان لنفسه، لوكل إلى عورة وعجز وضعف، ولضل الصراط المستقيم ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ [يوسف: ٥٣] وقد ذكر المؤمن قومه فقال:

﴿وَمَنْ يُضِلُّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [غافر: ٣٣] ولعل فيها إشارة خفية إلى قولة فرعون: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وتلميحاً بأن الهدى هدى الله، وأن من أضله الله فلا هادى له، والله يعلم من حال الناس وحقيقتهم من يستحق الهدى ومن يستحق الضلال.

إن الله تعالى يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون. وقد أحاط بكل شيء علماً ولا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، وقد قضى وقدر كل شيء قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، وكتب سبحانه كل شيء وفق علمه وحكمته. والقدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع عليه مخلوق، والإيمان بالقدر ركن من أركان الإيمان وهو نظام التوحيد فمن كذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

والتسليم للقدر إنما يكون في المصائب لا في المعائب، يقول عبد القادر الجيلاني: «كثير من الناس إذا ذكر القدر أمسكوا، أما أنا فقد نازعت أقدار الحق بالحق للحق» فكما نستدفع قدر الجوع بقدر الأكل وقدر العطش بقدر الشرب، فكذلك نستدفع قدر البلاء بقدر الدعاء، وكلاهما من قدر الله تعالى.

والواجب على كل عبد أن يسلم وجهه لله، وأن يحرص على طاعته، وأن يتباعد عن موجبات سخطه، ويرجو رحمته ويخشى عذابه، ويوقن أن الله هو الحكيم العدل، لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن رحمة الله، أن بعث الرسل هداة مهتدين، وقال في وصف نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢] أي أنه صلى الله عليه وسلم يوضح للمخلق طريق

الاستقامة، لا أنه يخلق الهداية في قلوبهم، فليس ذلك لأحد إلا لله تعالى، وما بعد الهدى إلا الضلال، فكيف يزعم فرعون هداية قومه وقد كفر بالله، وعاند موسى عليه السلام، ولذلك قال المؤمن: ﴿وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾.

لم ينتفعوا ببينات يوسف

جاء في وعظ مؤمن آل فرعون وتذكيره لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ الْبَيِّنَاتِ فَمَا زَلْتُمْ فِي شَكِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ {غافر: ٢٤}

وقيل هذا من قول موسى، ذكرهم عنوهم على الأنبياء، وأراد يوسف بن يعقوب جاءهم بالبينات ﴿أَرَأَيْبُ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ {يوسف: ٣٩}

قال ابن جريج: هو يوسف بن يعقوب بعثه الله تعالى رسولا إلى القبط بعد موت الملك من قبل موسى بالبينات وهى الرؤيا.

وقال ابن عباس: هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف بن يعقوب أقام فيهم نبيا عشرين سنة. لقد وقف القوم موقف الشك من نبي الله يوسف ومن رسالته وما جاءهم به من الآيات، فذكرهم المؤمن، وقفهم هذا، حتى لا يكرروا الموقف مع موسى عليه السلام، فهو من ذرية يوسف، ويصدق ما جاءهم به. وكان الآيات تصور حالة شكهم فيما جاءهم به يوسف من قبل ولكنهم لم يجهروا بتكذيبه، فهل كان ذلك لأنه أصبح عزيز مصر وصار الحكم والسلطان بيده، فلم يجدوا إلا أن يصانعه لقد تحقق ليوسف - عليه السلام - ما رآه حال صغره ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلْنَا رَبِّي حَقًّا﴾ {يوسف: ١٠٠}.

ومن المعلوم أن الملك له سطوة على النفوس، ولذلك قال عثمان: «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» وكأنما استراحوا لموت نبي الله يوسف، فراحوا يظهرون ارتياحهم في هذه الصورة، ورفضهم لما جاءهم به من التوحيد الخالص. فزعموا أن لن يجيئهم من بعده رسول، فهل أخذوا بذلك وعداً من الله، أم هى النفوس المريضة الشاكرة، التى أسرفت على نفسها فى التكذيب والانحراف، ولذلك قال

الرجل المؤمن: ﴿ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴾ [غافر: ٣٤].
 وهذا عدل لا ظلم فيه ولا جور معه، وإلا فما الذى يستحقه من ضاق صدره
 بالأنبياء والمرسلين؟
 وما الذى يتظره من أسرف على نفسه فى الكفر والذنوب، وارتاب قلبه غير
 وضوح الحق وبيانه وكثرة حججه وآياته؟!

مقت المجادلين بلا حجة

ذم الله تعالى الذين يدفعون الحق بالباطل ويجادلون الحجج بغير دليل وحجة
 من الله، ولذلك اشتد المؤمن فى مواجهة قومه بمقت الله ومقت المؤمنين لمن
 يجادل فى آيات الله بغير حجة ولا برهان، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ
 سُلْطَانٍ أَنَّهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ
 جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

والسلطان بمعنى الحجة كما قال ابن عباس رضي الله عنهما.

قال النووى فى {التبيان فى آداب حملة القرآن}: يحرم المراء فى القرآن والجدال
 فيه بغير حق، فمن ذلك أن يظهر فيه دلالة الآية على شئ يخالف مذهبه ويحتمل
 احتمالاً ضعيفاً موافقة مذهبه فيحملها على مذهبه وينظر على ذلك مع ظهورها
 فى خلاف مايقول. وأما من لا يظهر له ذلك فهو معذور، وقد صح عن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المراء فى القرآن كفر». قال الخطابى: «المراء بالمراء الشك.
 وقيل: الجدال المشكك فيه. وقيل: وهو الجدال الذى يفعله أهل الأهواء فى آيات
 القدر ونحوها» أه.

وما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أتوا الجدل المذموم، أما الجدال بالحجة
 لإظهار الحق ودحض الباطل فحسن وهو الذى دل عليه قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا
 أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

وأيضاً قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ
 بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: ١٢٥].

تعليق على مسائل الرازي الثلاث

قال الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٣٥] ما نصه: «ثم بين تعالى ما لأجله بقوا في ذلك الشك والإسراف فقال: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ﴾ [غافر: ٣٥] أى بغير حجة، بل إما بناء على التقليد المجرد، وإما بناء على شبهات خسيّة .

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [غافر: ٣٥] والمقت هو أن يبلغ المرء في القوم مبلغاً عظيماً فيمقته الله ويغضه ويظهر خزيه وتعسه .

قال: وفيه مسائل :

المسألة الأولى: في ذمه لهم بأنهم يجادلون بغير سلطان دلالة على أن الجدل بالحجة حسن وحق وفيه إيصال للتقليد .

التعليق: التقليد هو إتباع القول بلا دليل ولا برهان، والمقلدون لا يستطيعون فهم الكتب ولا الترجيح بين الأقوال والروايات، ولم يؤتوا علماً يميزون به طبقات الترجيح، وقد وصفهم ابن عابدين بقوله: ﴿لا يفرقون بين الغث والثلث ولا يميزون الشمال من اليمين بل يجمعون ما يجدون كحاطب بليل، فالويل لمن قلدهم كل الويل﴾ .

وما عادى الرسل إلا للعادة وتقليد الآباء والأجداد ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣]

المسألة الثانية: قال القاضى: مقت الله إياهم يدل على أن فعلهم ليس بخلق الله لأن كونه فاعلاً وماقثاً له محال .

التعليق: هذا خطأ من القاضى وقصور من الرازي -رحمهما الله- فالعباد فاعلون حقيقة، والله خالق أفعالهم ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] الله خالق كل شئ والعبد هو المؤمن والكافر والبر والفاجر والمصلى والصائم، وللعباد قدرة على أعمالهم، ولهم إرادة، والله خالقهم وخالق إرادتهم، ولا يكون فى ملكه إلا ما يريد، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا حول ولا قوة إلا بالله . قال تعالى: ﴿لِمَن شَاءَ مِنْكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] وهذه الدرجة -كما يقول ابن تيمية- يكذب بها عامة القدرية

الذين سماهم النبي ﷺ مجوس هذه الأمة ويغلو فيها قوم من أهل الإثبات حتى سلخوا العبد قدرته واختياره، ويخرجون عن أفعال الله وأحكامه حكمها ومصالحها^(١).

المسألة الثالثة: الآية تدل على أنه يجوز وصف الله تعالى بأنه قد يمقت بعض عبادته، إلا أن ذلك صفة واجبة التأويل في حق الله كالغضب والحياء والتعجب والله أعلم . ثم بين أن هذا المقت كما حصل عند الله فكذلك قد حصل عند الذين آمنوا .

التعليق: أخطأ الرازي - رحمه الله - في تأويل صفة المقت والغضب والحياء والتعجب وخالف في ذلك الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسلف الصالح ومبحث الصفات يرتكز على ثلاثة أسس: (٢).

الأول: تنزيهه - جل وعلا - عن أن يشبه شيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١].
﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ٤] فلا تضربوا لله الأمثال .

الثاني: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠] . والإيمان بما وصفه به رسول الله ﷺ ، لأنه لا أعلم بالله بعد الله من رسول الله ﷺ ، الذي قال في حقه: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣-٤] .

الثالث: قطع الأطماع عن إدراك حقيقة الكيفية، لأن إدراك حقيقة الكيفية مستحيل وهذا نص الله عليه في سورة (طه) حيث قال: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠] فكما أن ذات الله لا تشابه ذات المخلوقين، فكذلك صفات الله لا تشابه صفات المخلوقين، فكان الواجب على الرازي - رحمه الله - إجراء الصفات المذكورة على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا تأويلها كما ذكر، وقد قال الإمام مالك: - رحمه الله - لما سُئِلَ عن الإستواء: الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة .

(١) راجع: العقيدة الواسطية ، معارج القبول ، شرح الطحاوية.

(٢) راجع: «منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات» لمحمد أمين الشنيطي

الطبع على قلوب المتكبرين المتجبرين

القلب ملك مؤمر، والأعضاء تبعاً له، وقد ورد في الحديث: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله»^(١).

ولا ينجو الإنسان من عذاب الله إلا إذا أتى الله بقلب سليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨-٨٩].

وقد تستحكم أمراض الشهوات والشبهات على القلوب حتى تميتهما، والقلب الميت هو القلب الذى لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه ولا يعبد به وأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته رضى ربه أم سخط، فهو متعبد لغير الله حباً وخوفاً ورجاءً وسخطاً وتعظيماً وذلاً، إن أحب أحب لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه وإن منع منع لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، فالهوى إمامه والشهوة قائده والجهل سائقه والغفلة مركبه.

وقد ورد عن حذيفة رضي الله عنه قال: «القلوب أربعة: قلب أجرد فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن، وقلب أغلف فذلك قلب الكافر، وقلب منكوس فذلك قلب المنافق، عرف ثم أنكر وأبصر ثم عمى، وقلب تمده مادتان مادة إيمان ومادة نفاق وهو للغالب عليه منهما».

وقد وردت النصوص بذكر الطبع والين والقسوة والغشاوة التى تحدث للقلوب المنحرفة، ومنها قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

قال ابن كثير فى تفسيره: «﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ أى على اتباع الحق ﴿جَبَّارٍ﴾ وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة وحكى عن الشعبى أنهما قالوا: لا يكون الإنسان جباراً حتى يقتل نفسين وقال: أبو عمران الجونى وقتادة: آية الجبابة القتل بغير حق» أ. هـ.

وقال القرطبي: «أى كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين فكذلك ﴿يَطْبَعُ اللَّهُ﴾ أى يختم ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥] حتى لا يعقل الرشاد

ولا يقبل الحق، وقد ذكر الرازي الفرق بين المتكبر والجبار فقال: قال مقاتل: ﴿مُتَكَبِّرٌ﴾ عن قبول التوحيد ﴿جَبَّارٌ﴾ في غير الحق، وأقول: كمال السعادة في أمرين، التعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، فعلى قول مقاتل التكبر كالمضاد للتعظيم والجبروت كالمضاد للشفقة على خلق الله أ هـ.

إن التعبير على لسان الرجل المؤمن، رسالة تحذير للمجادلين في آيات الله بغير برهان أن يلحقهم المقت، وللمتكبرين المتجبرين من طبع القلوب، حتى ما يبقى في قلوبهم موضع للهدى ولا منفذ للإدراك.

ظاهرة التحقق وباطنه العتو والتمرد

لما قال مؤمن آل فرعون ما قال، وخاف فرعون أن يتمكن كلام هذا المؤمن في قلوب القوم، أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد، فإن بان له صوابه لم يخفه عنهم، وإن لم يصح ثبتهم على دينهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهِ مَوْسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

لقد كان فرعون مصراً على التكرار للحق، ولكنه تظاهر بأنه أخذ في التحقق من دعوى موسى، ولكنه كان في حقيقة أمره وواقعه، ما دفعه لذلك إلا العتو والتمرد والافتراء في تكذيبه موسى عليه الصلاة والسلام فأمر وزيره هامان أن يبني له صرحاً وهو القصر العالى المنيف الشاهق وكان اتخاذه من الأجر المضروب من الطين المشوى كما قال تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صِرْحًا﴾ [القصص: ٣٨]، ولهذا قال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون البناء بالأجر وأن يجعلوه في قبورهم»^(١) وقوله: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ﴾ [غافر: ٣٦-٣٧].

قال سعيد بن جبير وأبو صالح: أبواب السموات، وقيل طرق السموات.
﴿فَأَطَّلِعُ إِلَىٰ آلِهِ مَوْسَىٰ وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [غافر: ٣٧].

وهذا من كفره وتمرده أنه كذب موسى عليه السلام.

استهتار وسخرية من جهة، والتظاهر بالإنصاف والتثبت من جهة أخرى، وهذا شأن الطغاة في كل عصر ووقت، فقد موه فرعون وحاور وداور كي لا يواجه الحق جهره ولا يعترف بدعوة التوحيد التي تهز عرشه، وتهدد الأساطير التي قام عليها ملكه .

نعوذ بالله من الخذلان

لقد زين لفرعون الشرك والتكذيب وصنعه الذي أراد أن يوهم به الرعية أنه يعمل شيئاً يتوصل به إلى تكذيب موسى عليه السلام، ولهذا قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [غافر: ٣٧] قال ابن عباس ومجاهد: يعنى إلا فى خسار .

وقد ورد معنى التزين فى مواضع كثيرة من كتاب الله مثل ﴿ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ [البقرة: ٢١٢] ﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبَّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤] ﴿ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٢] ﴿ بَلْ زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرَهُمْ وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ﴾ [الرعد: ٣٣] ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ ﴾ [محمد: ١] ﴿ وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السُّوءِ ﴾ [الفتح: ١٢] .

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] قال ابن كثير رحمه الله: يعنى كالكفار والفجار يعملون أعمالاً سيئة وهم فى ذلك يعتقدون ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، أى أفمن كان هكذا قد أضله الله ألك فيه حيلة، لا حيلة لك فيه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ [فاطر: ٨] أى بقدره كان ذلك ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ [فاطر: ٨] أى لا تأسف على ذلك فإن الله حكيم فى قدره إنما يضل من يضل ويهذى من يهذى لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [آهـ] .

اللهم زينا بزينة الإيمان، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكلنا لأنفسنا طرفة عين ولا تكلنا لأحد من خلقك، واجعلنا هداة مهتدين .

أين الله ؟

ورد على لسان فرعون أنه قال : ﴿ يَا هَـمَّانُ ابْنُ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴾ (٣٦) أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ﴿ غافر : ٣٦-٣٧ ﴾ فكان التقدير فأطلع إلى الإله الذي يزعم موسى أنه موجود في السماء، وقوله ﴿ وَإِنِّي لأظنه كاذباً ﴾ أى فى ادعائه ذلك، وذلك يدل على أن دين موسى هو أن الإله موجود فى السماء، وهذا علم بديهى متقرر فى دعوة جميع الأنبياء، وفى كل العقول، ولذلك فإن الصبيان إذا تضرعوا إلى الله رفعوا وجوههم وأيديهم إلى السماء، وقد أخبرنا سبحانه أنه فى السماء مستو على عرشه ﴿ أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ﴾ (١٦) أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصباً فستعلمون كيف نذير ﴿ الملك : ١٦-١٧ ﴾ .

وفى الصحيحين عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله ﷺ قال : « ألا تأمنونى وأنا أمين من فى السماء يأتينى خبر السماء صباح مساء » وشهد للجارية بالإيمان عندما أخبرته أن الله فى السماء .

ففى صحيح مسلم وسنن أبى داود أن معاوية بن الحكم السلمى ضرب جارية له لتقصيرها فى الحفاظ على أغنامه ثم ندم فجاء إلى الرسول ﷺ نادماً يستأذنه فى إعتاقها، فطلبها الرسول ﷺ وسألها « أين الله ؟ قالت فى السماء، قال : من أنا ؟ قالت : أنت رسول الله قال : أعتقها فإنها مؤمنة » . وفى حديث عبد الله بن عمر يرفعه «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء» (١) .

وليس المراد أن جرم السماء تحويه - سبحانه وتعالى عن ذلك - بل المراد بالسماء العلو والفوقية ويدل على ذلك قوله تعالى : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ {الأعلى : ١} ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ {النحل} ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴾ {الأنعام : ١٨} .

وفى الدعاء : « وأنت الظاهر فليس فوقك شئ » . وكانت زينب تفخر على زوجات الرسول ﷺ وتقول : « زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سموات » (٢)

(١) رواه الترمذى وقال حديث صحيح .

(٢) رواه البخارى

وقد وردت النصوص برفع بعض الأشياء أو عروجها وصعودها إليه مثل ما جاء في عيسى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] وقوله تعالى: ﴿تَعْرَجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج] ومنها إخباره بإنزال الملائكة: ﴿يُنزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ ومن ذلك أن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر رفع يديه إلى العلو يدعو الله . وإشارته بأصبعه إلى العلو كما في حديث حجة الوداع .

والسموات ليست بشئ بالنسبة إليه سبحانه: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] ، ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] .

ورينا - جل وعلا - مع علوه فهو قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه ويعلم سره ونجواه، وهو أقرب إلى داعيه من عنق راحلته ويعلم ما توسوس به النفوس، وهو أقرب إليه من جبل الوريد وهو يعلم السر وأخفى ويعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو مع خلقه بعلمه وقدرته، لا تخفى عليه منهم خافية، وما يعزب عن ربك مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر فهو سبحانه القريب في علوه، العلى في دنوه، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن

التثبت في نقل الحوادث التاريخية

قالت اليهود: أطبق الباحثون عن تواريخ بنى إسرائيل وفرعون وهامان، أن هامان ما كان موجوداً البتة في زمان موسى وفرعون وإنما جاء بعدهما بزمان مديد، فالقول بأن هامان كان موجوداً في زمان فرعون خطأ في التاريخ، وهذا قول اليهود، الذين كتبوا الكتاب بأيديهم، ثم نسبوه لله تعالى، فكيف نثق في الكتب والمصادر المحرفة والمغيرة والمبدلة كالتوراة، أو كيف نثق في كلمات بعض الباحثين التاريخيين، التي تخالف كلام العليم الخبير !!!

إن تواريخ موسى وفرعون قد طال العهد بها واضطربت الأحوال والأدوار فلم يبق على كلام أهل التواريخ اعتماد في هذا الباب . فكان الأخذ بكلام الله هو الواجب، فليس هناك كتاب في الأرض يوضح تاريخ العقيدة بصدق إلا كتاب الله

سبحانه وتعالى، ففيه علم غزير في هذا الموضوع، وعلم البشر لا يمكن أن يدرك هذا الجانب إدراكاً وافياً لأسباب: (١)

الأول: أن مانعنا عن التاريخ الإنساني قبل خمسة آلاف عام قليل أما ما نعرفه قبل عشرة آلاف عام فيعتبر أقل من القليل . وما قبل ذلك فيعتبر مجاهيل لا يدري علم التاريخ من شأنها شيئاً، لذا فإن كثيراً من الحقيقة ضاع بضائع التاريخ الإنساني .

الثاني: أن الحقائق التي ورثها الإنسان اختلطت بباطل كثير، بل قل ضاعت في أمواج متلاطمة في محيطات واسعة من الزيف والدجل والتحريف، ومما يدل على ذلك أن كتابة تاريخ حقيقي لشخصية أو جماعة ما في العصر الحديث تعتبر من أشق الأمور فكيف بتاريخ يمتد إلى فجر البشرية؟!

الثالث: أن قسماً من التاريخ المتلبس بالعقيدة لم يقع في الأرض بل في السماء لذا كان الذي يستطيع أن يمدنا بتاريخ حقيقي لا لبس فيه هو الله - سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ {آل عمران: ٥} .

الحكمة في خلق الأفلاك والنجوم

ذهب قوم إلى أنه تعالى خلق الأفلاك وحركاتها بحيث تكون هي الأسباب لحدوث الحوادث في هذا العالم الأسفل، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أسباب السموات ﴿غافر: ٣٦-٣٧﴾ قالوا: ومعلوم أنها ليست أسباباً إلا لحوادث هذا العالم، قالوا: ويؤكد هذا بقوله تعالى في سورة ص: ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ {ص: ١} أما المفسرون فقد ذكروا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ (٣٦) أسباب السموات ﴿غافر: ٣٦-٣٧﴾ أن المراد بأسباب السموات طرقها وأبوابها وما يؤدي إليها، وكل ما أدرك إلى شيء فهو سبب كالرشاد ونحوه .

روى البخاري ومسلم عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: «صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح

من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بى كافر بالكوكب، وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بى مؤمن بالكوكب» .

فالإنسان إذا قال مُطرنا بنوء كذا معتقداً أن للنوء تأثيراً فى إنزال المطر، فهذا كفر لأنه أشرك فى الربوبية، والمشرك كافر، وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء وينزله إذا شاء . قال القرطبي: وكانت العرب إذا طلعت نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع ومنهم من ينسبه إلى الغارب، نسبة إلى إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور فى الحديث فهى الشارع عن إطلاق ذلك، لئلا يعتقد ولا يتشبه بهم فى نطقهم . أ هـ .

وفى تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢] أى تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا «وعن أبى مالك الأشعري رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربع فى أمتى من أمر الجاهلية لا يتركونهن - الفخر بالأحساب والطنن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»^(١) .

وقوله فى الحديث: «والاستسقاء بالنجوم» أى: نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم . وقد جعل الله تعالى النجوم، يُهتدى بها فى ظلمات البر والبحر وزينة للسماء ورجوماً للشياطين، وآية مشهودة دالة على عظيم قدرته سبحانه، فمن تكلف بعد ذلك واعتقد أن الكوكب فاعل مدبر منشئ للمطر فلا شك فى كفره، ومن قاله معتقداً أنه من الله ورحمته وأن النوء ميقات له وعلامة بالعادة فهذا لا يكفر، ويحرم ذلك فى أظهر الأقوال، كما لا يجوز إدعاء معرفة الغيب كما يعتقدده المنجمون .

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»^(٢)

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه أبو داود وغيره وصححه الألباني .

دعوته فرعون لإتباع سبيل الرشاد

أمام مراوغة فرعون واستهتاره وإصراره على الكفر، لم يجد مؤمن آل فرعون إلا أن يلقي كلمته الأخيرة مدوية صريحة: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨].

وقد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى والتمسك بطريقته، وهذا هو الرشاد الحقيقي، لا الزائف الذى دعاهم إليه فرعون حين قال: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩] فقد سُمى الغواية والضلال رشاداً، وهذا من تزييفه وتلييسه الحق بالباطل، فكان لا بد من رده على جبروته ورد الحق إلى نصابه ليحیی من حی عن بينة ويهلك من هلك أيضاً عن بينة ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء: ١٨] إنها الحجة البينة يقيمها أتباع الأنبياء على من انحرف عن منهج الله .

واعلم أن مؤمن آل فرعون نادى فى قومه ثلاث مرات: فى المرة الأولى دعاهم إلى قبول ذلك الدين على سبيل الإجمال، وفى المرتين الباقيتين على سبيل التفصيل .

أما الإجمال فهو قوله: ﴿يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٣٨] وليس المراد بقوله: ﴿اتَّبِعُونِ﴾ طريقة التقليد، لأنه قال بعده: ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ والهدى هو الدلالة، ومن بين الأدلة للغير يوصف بأنه هداة، وسبيل الرشاد هو سبيل الثواب والخير وما يودى إليه وهو أيضاً طريق الهدى والجنة، والرشاد نقيض الغى، وفيه تصريح بأن ما عليه فرعون وقومه هو سبيل الغى . إنها كلمة حق خرجت ممن لا يخاف فى الله لومة لائم .

الدنيا دار من لا دار له

انتقل المؤمن من الإجمال إلى التفصيل، فبين حقارة الدنيا، وأنه يستمتع بها فى أيام قليلة، ثم تنقطع وتزول، ولذلك قال: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٩] فهى منقضية منقرضة، ولذلك قال البعض: لو كانت الدنيا ذهباً فانياً، والآخرة خزفاً باقياً، لكانت الآخرة خير من الدنيا، فكيف والدنيا خزف

فان، والآخرة ذهب باق، ومثل الدنيا كقطعة الثلج الموضوعة في الشمس لا تزال في الذوبان حتى تنتهي، وهي كماء البحر، يظل الإنسان يشرب منه ويموت وهو عطشان، وهي دار من لا دار له، ولها يجمع من لا عقل له وقد مدح الله تعالى الزهد في الدنيا وذم الرغبة فيها فقال تعالى: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٦-١٧]

وقال: ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]
وقال: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ (٢٠) وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ﴾ [القيامة: ٢٠-٢١]

وقد بين رسول الله ﷺ حقارة الدنيا فعن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر بالسوق والناس كنفثيه، فمر بجدي أسك ميت فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: «أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم؟ فقالوا: مانحب أنه لنا بشيء وما نصنع به!!؟ ثم قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه لأنه أسك فكيف وهو ميت؟ فقال: والله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم^(١). وفي الحديث: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»^(٢).

وفي الحديث أيضاً: «ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر بم يرجع»^(٣) والنصوص في هذا المعنى كثيرة .

واعلم أن محبة الدنيا تعترض بين العبد وبين فعل ما يعود عليه نفعه في الآخرة، فمن الناس من ينشغل بها عن الإيمان وشرائعه ومنهم من يشغله حب الدنيا عن كثير من الواجبات وأقل درجات حبها أن يشغل عن سعادة العبد، وهو تفرغ القلب لحب الله ولسانه لذكراه، وبالجملة فمن أحب دنياه أضر بآخرته ولا بد .

وقد كان فرعون من الحمق بمكان، فقد باع آخرته بدنياه لا بقاء لها ولا وفاء، وقال لقومه: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] فمات يوم مات، والأنهار تجري من فوق رأسه، جزاءً وفاقاً، وأحمق من فرعون هؤلاء القوم، الذين تابعوه على كفره، وباعوا آخرتهم بدنياه غيرهم، ولذلك قال

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه الترمذي وقال الألباني: صحيح لغيره

(٣) رواه مسلم .

لهم المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ﴾ [غافر: ٣٩] فلا تفتنوا بسببها، ولا تشغلوا بها عن طاعة ربكم فهي ظل زائل وعارية مسترجعة، والنفس فيها إلى موت، والمال فيها إلى فوت.

الآخرة دار القرار

الآخرة هي دار القرار والبقاء والدوام، النعيم فيها دائم وكذلك العذاب فيها دائم. فالترغيب في النعيم الدائم والترهيب عن العذاب الدائم من أقوى وجوه الترغيب والترهيب، والآخرة كثيراً ما تذكر في مقابلة الدنيا، والتذكير بهذه وتلك من أنفع أساليب الدعوة إلى الله ولذلك قال المؤمن: ﴿يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ [غافر: ٣٩] فالذى يؤثر الدنيا على الآخرة من أسفه الخلق وأقلهم عقلاً، إذ أثر الخيال على الحقيقة والمنام على اليقظة، والظل الزائل على النعيم الدائم، والدار الفانية على الدار الباقية.

كان شداد بن أوس يقول: إن الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر وإن الآخرة وعد صادق يحكم فيها ملك قاهر، ولكل دار بنون فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدنيا.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما شبهت الدنيا إلا كرجل نام فرأى في منامه ما يكرهه وما يحبه، فبينما هو كذلك انتبه أن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل.

فالواجب على العاقل اللبيب، أن تكون حساباته حسابات أخروية وأن يكون من أهل الآخرة وهو مازال يأكل ويشرب... ويحيا على ظهر الأرض، لا يغفل عن الغاية التي من أجلها خلق، ويعلم أن المرجع والمآب إلى الله.

﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيذبح بين الجنة والنار، ويقال: يا أهل الجنة خلود بلا موت، ويا أهل النار خلود بلا موت»^(١).

قال تعالى: ﴿وَأَنذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٣٩-٤٠].

إن لم يكن في الجنة إلا الخلود لكفى فكيف وأهلها يُنادى عليهم: يا أهل الجنة إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تموتوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً، فذلك قول الله عز وجل: ﴿وَنُودُوا أَنْ تَتَكَّمُ الْجَنَّةُ أَوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ٤٣] (١) وفي الحديث: «لقاب قوس أحدكم في الجنة خير مما طلعت عليه الشمس أو تغرب» (٢).

لقد خلط المؤمن الرغبة بالرغبة، وذكر قومه بالآخرة وهو يدعوهم للإيمان، وبين لهم أن الدنيا والآخرة حسبة واحدة وطريق واحد، وأن السعادة في الدارين تكمن في إسلام الوجه لله والخضوع لأمره، والعمل بحكمه سبحانه، إنها دعوة من أحسن التامى بالأنبياء والمرسلين

قاعدة الحساب في الآخرة

قرر المؤمن لقومه قاعدة الحساب والجزاء في دار القرار فقال: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠].

فمن فضل الله أن تضاعف الحسنات ولا تضاعف السيئات، رحمة من الله بعباده وهذا دافع للمنافسة في طاعة الله واستباق الخيرات وسلوك طريق الاستقامة، فضاعف لهم الحسنات، وجعل الحسنات بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم، والسيئة بمثلها وهي إلى العفو أقرب، ولن يهلك على الله إلا هالك، ولذلك قالوا: ويل لمن غلبت آحاده عشراته، وقد جعل سبحانه الحسنات كفارة للسيئات كما في الحديث: «وأتبع السيئة الحسنة تمحها» فإذا هم وصلوا إلى الجنة بعد الحساب، رزقهم الله فيها بغير

(١) رواه مسلم .

(٢) رواه البخاري .

حساب وقد فسر البعض قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً﴾ يعنى الشرك ﴿فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ وهو العذاب ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا﴾.

قال ابن عباس: يعنى لا إله إلا الله ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ مصدق بقلبه لله والأنبياء ﴿فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ {غافر: ٤٠} أى لا يتقدر بجزاء بل يشبهه الله عز وجل ثواباً كثيراً، لا انقضاء له ولا نفاذ .

وهذه الآية فيها توضيح كيف تحصل المجازاة فى الآخرة، وفيها إشارة إلى أن جانب الرحمة غالب على جانب العقاب . وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب فى كتاب فهو عنده فوق العرش إن رحمتى تغلب غضبى»^(١) وفى رواية: «غلبت غضبى» وفى رواية: «سبقت غضبى» والمراد بالمثل الوارد فى قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ {غافر: ٤٠} أى ما يقابلها فى الاستحقاق .

فالكافر يفترق عن مرتكب الكبيرة، وسيئة الأول، تختلف عن سيئة الثانى ولذلك تفاوتت عقوبتهما، فالأول يخلد فى النار، بينما يقع الثانى تحت المشيئة، فإن شاء الله غفر له بفضلها، وإن شاء عاقبه بعدله، وهذا فىمن لم يتب ثم مرتكب الكبيرة إن دخل النار، لا يدخلها دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار .

﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ {القلم: ٣٥-٣٦} .

واعلم أن هذه الآية: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ {غافر: ٤٠} تعتبر أصلاً كبيراً فى علوم الشريعة فيما يتعلق بأحكام الجنايات، فإنها تقتضى أن يكون المثل مشروعاً، وأن يكون الزائد على المثل غير مشروع، وهناك أحكام كثيرة فى باب الجنايات على النفوس وعلى الأعضاء وعلى الأموال يمكن تفريعها على هذه الآية .

وإذا كان جزاء السيئة له حساب وتقدير، لثلا يزيد على الاستحقاق، فإن جزاء العمل الصالح بغير تقدير وحساب، بل ما شئت من الزيادة على الحق والكثرة والسعة وفيها ما تشتهيہ الأنفس وتلذ الأعين وهم فيها خالدون .

(١) رواه البخاري ومسلم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ، قال الله عز وجل: « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مصداق ذلك في كتاب الله: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] (١).

والعمل الصالح الذي ينجو به الإنسان في الآخرة من العذاب، لا بد وأن يكون على أساس من الإيمان، ولذلك دائماً ما يقترن الإيمان بالعمل الصالح كما في هذه الآية ﴿ مَن عَمِلْ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ [النحل: ٩٧] والإيمان قول وعمل أو هو قول باللسان وإقرار بالجنان وعمل بالأركان وهذا يستوى فيه الرجل والمرأة، فالنساء شقائق الرجال في الأحكام، والمؤمن منهما إذا مات على ذلك يصدق عليه قوله تعالى: ﴿ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [غافر: ٤٠].

التعجب بلغ منتهاه

ماذا تملك إزاء من واجه الإحسان بالإساءة، والمعروف بالمنكر، والوفاء بالعذر والخيانة، إن الإنسان ليتعجب عندما يكون حريصاً على حياة الآخرين، وهم يسعون جاهدين لإهلاكه، أو أن يستدخلوا الحزن والتكدير عليه في الوقت الذي يبذل فيه قصارى جهده لإسعادهم، وأشد الصور غرابة ما يتعلق بالآخرة، أن تدعو الناس إلى رضوان الله والجنة، وهم في المقابل يدعونك لسخطه والنار، أن تدلهم على الطريق المستقيم، وهم يأبون إلا أن يسيروا في الطرق المعوجة ويحملونك معهم قسراً وكرهاً، لقد بلغ التعجب مداه ومنتهاه فاستأنف المؤمن دعوته ونادى في المرة الثالثة وقال: ﴿ وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴾ [غافر: ٤١]. يعنى أنا أدعوكم إلى الإيمان الذي يوجب النجاة وتدعونني إلى الكفر الذي يوجب النار .

فإن قيل: لمَ كرر نداء قومه، ولمَ جاء بالواو في النداء الثالث دون الثاني؟ فالجواب كما قال الرازي: « أن تكرير النداء فيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ من سنة

الغفلة، وإظهار أن له بهذا المهم مزيد اهتمام، وعلى أولئك الأقوام فرط شفقة، وأما المجئ بالواو العاطفة فلأن الثاني يقرب من أن يكون عين الأول، لأن الثاني بيان للأول والبيان عين المبين، وأما الثالث فلأنه كلام مبين للأول والثاني فحسن إيراد الواو العاطفة، ولما ذكر هذا المؤمن أنه يدعوهم إلى النجاة وهم يدعونهم إلى النار، فسر ذلك بأنهم يدعونهم إلى الكفر بالله وإلى الشرك به، أما الكفر بالله فلأن الأكثرين من قوم فرعون كانوا ينكرون وجود الإله، ومنهم من كان يقر بوجود الله إلا أنه كان يثبت عبادة الأصنام^أ هـ .

لقد دعاهم المؤمن إلى الحياة الحقيقية والسعادة الأبدية، فكانت دعوتهم له للدخول في كفرهم هي جزاؤه ومكافأته!!! وهم لم يدعوه إلى النار، إنما دعوه إلى الشرك وما الفرق بين الدعوة إلى الشرك والدعوة إلى النار؟ إنها قريب من قريب فالكفر سبب الخلود في النار، والمؤمن يخاف أن يعود في الكفر كما يخاف أن يقذف في النار .

﴿ تَدْعُونِي لَأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ [غافر: ٤٢].

شأن بين دعوة ودعوة، إن دعوته لهم واضحة مستقيمة، إنه يدعوهم إلى العزيز الغفار . يدعوهم إلى أفراد الله بالعبادة، يدعوهم إليه ليغفر لهم وهو القادر على أن يغفر، فإلى أى شئ يدعوهم؟ يدعوهم للكفر بالله عن طريق إشراك ما لا علم له به من مدعيات زيفوها رغم قصورها، وصنعوا منها آلهة، رغم معرفتهم أنها مخلوقة مربوبة، إن هؤلاء الشركاء ليس لهم من الأمر شئ، وليس لهم شأن لا في دنيا ولا في آخرة، وإن الرد لله وحده، وأن المسرفين المتجاوزين في الإدعاء سيكونون أهل النار ﴿ لَا جُرْمَ أُنْمَا تَدْعُونِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الآخِرَةِ وَأَنْ مُرْدْنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ [غافر: ٤٣] .

إنها الحقيقة التي يجب على الدعاة إلى الله أن يعوها، وهي أن الناس من حولهم، لهم دعوة يعيشون بها ولأجلها، والدعوات الباطلة كثيرة، وما الحق إلا واحد، وأنت إن لم تدع الآخرين صرت محلاً لدعواتهم، فاختر لنفسك فهذا سيدعوك لدينه، وهذا يدعوك لقوميته، وهذا لا شراكيته . . . وهذا لكأس خمر أو

لمصاحبة النساء، فبادر أنت وسارع بدعوة العباد لسلوك طريق الإستقامة، وإن نسيت مهمتك ودعوتك فتذكر أن المرجع والمآب إلى الله حيث يُجازى المحسن بإحسانه والمسيئ بإساءته .

وأفوض أمري إلى الله

ماذا يبقى بعد هذا البيان الواضح الشامل لهذه المعاني الإيمانية ؟ وقد جهر بها الرجل في مواجهة فرعون وملئه بلا تردد ولا تلعثم، بعد ما كان يكتُم إيمانه، فأعلن عنه هذا الإعلان، لا يبقى إلا أن يفوض أمره إلى الله، وقد قال كلمته وأراح ضميره، مهدداً إياهم بأنهم سيذكرون كلمته هذه في موقف لا تنفع فيه الذكري والأمر كله إلى الله :

﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ {غافر: ٤٤} وقول المؤمن: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ أى سوف تعلمون صدق ما أمرتكم به ونهيتكم عنه ونصحتكم ووضحت لكم وتذكرونه حيث لا ينفعكم الندم، وهذا كلام مبهم يوجب التخويف ويحتمل أن يكون المراد أن هذا الذكر يحصل فى الدنيا وهو وقت الموت، وأن يكون فى القيامة وقت مشاهدة الأحوال وبالجملة فهو تحذير شديد، ثم قال: ﴿ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ أى وأتوكل على الله وأستعينه لو أقاطعكم وأبعدكم، وهذا كلام من هدد بأمر يخافه فكانهم خوفه بالقتل، وهو أيضاً خوفهم بقوله: ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ﴾ .

ثم عول فى دفع تخويفهم وكيدهم ومكرهم على فضل الله تعالى فقال: ﴿ وَأَفْوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ﴾ وهو إنما تعلم هذه الطريقة من موسى عليه السلام، فإن فرعون لما خوفه بالقتل رجع موسى فى دفع ذلك الشر إلى الله حيث قال: ﴿ إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ {غافر: ٢٧} .

اختبار شديد، تتجلى بسببه معادن الرجال، وتتفاوت فيه درجات الثبات، ووقوف المؤمن فى مواجهة فرعون وملئه يمثل صورة من صور إنتصار الإيمان فى كل عصر ووقت ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ {الروم: ٤٧} لقد انتهى الجدل والحوار، وقد سجل المؤمن كلمة الحق خالدة، تتلى فى كتاب الله، وعليها تربي الأجيال المؤمنة فى عسرها ويسرها ومنشطها ومكرها، تبلغ الحق للخلق وتصدع

بكلمة الإيمان في وجه الطغاة والطواغيت، وهي تعلم وتوقن، أن الأمر كله بيد الله، لا يبد أحد سواه ﴿إِنَّ اللَّهَ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ {غافر: ٤٤} أى هو بصير بهم تعالى وتقدس فيهدى من يستحق الهداية ويضل من يستحق الإضلال وله الحجة البالغة والحكمة التامة والقدر النافذ .

من حفظ الله حفظ نفسه

كل مقدمة ولها نتيجة، وكل عقيدة ولها تأثير، وفي الحديث {احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك} ومؤمن آل فرعون لما حسن ظنه بالله عز وجل وقال: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ {غافر: ٤٤} أى أسلمه إلى الله ليعصمني من كل سوء كان الجواب من الله عز وجل: ﴿فَوْقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ {غافر: ٤٥} وهذا هو فعل الله بأوليائه، إذا توكلوا عليه وأنابوا وفوضوا الأمر له سبحانه وتعلقت به قلوبهم فى جلب النفع ودفع الضر، إنها التربية الإيمانية التى تجعل العبد يستشعر أنه لا حول ولا قوة إلا بالله ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ {النمل: ٦٢} فهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، علم ذلك المؤمن، فلم يعول على حوله ولا على طولته وذكائه، بل قال: ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ {غافر: ٤٤} بعد أن جهر بكلمة الحق، وهو يعلم نتيجة موقفه، فلم ترهبه صولة الباطل، لأنه قد اعتصم بجناب الله ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ {آل عمران: ١٠١}.

إنه الموقف الذى تضطرب فيه القلوب وتزلزل فيه الأقدام، ولكنه الإيمان الذى يصنع الأعاجيب، ومعانى التوفيق والتسديد والتثبيت التى يمن الله بها على من يشاء من عباده، فتكون هذه النماذج التى تأسر البشر فى كل عصر ووقت، إن موقف مؤمن آل فرعون شبيه بموقف صاحب يس، وبموقف سحرة فرعون عندما آمنوا، وشبيه بموقف الصحابة يوم الأحزاب، يقول تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ {الأحزاب: ١٠-١١} .

لقد رمتهم قريش نجيلها وحيلائها، وكان الصحابة رضي الله عنهم في شدة البرد وشدة الجوع وشدة الخوف، فلما رأوا الأحزاب، قالوا: ﴿ هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢] فكانت النتيجة، كما قال الله تعالى: ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ﴾ [الأحزاب: ٢٥] وكان هذا هو موقفهم يوم حمراء الأسد - صبيحة يوم أحد - فقد استنفرهم النبي صلى الله عليه وسلم فخرجوا على ما بهم من جراح ولذلك أثنى عليهم سبحانه بقوله: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سَوْءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤] .

ومن قبل هؤلاء، كانت المواقف الإيمانية، التي ضرب بها الأنبياء والمرسلون أروع المثل، ومن ذلك موقف النبي صلى الله عليه وسلم يوم الهجرة، وموقف إبراهيم عندما أضرموه له النيران، وموقف نبي الله موسى عندما كان البحر أمامه وفرعون وملته خلفه ووراءه .

إن للإيمان تكليفات وتبعات يؤديها المؤمن صابراً محتسباً حتى وإن كلفه نفسه .

تدبير الكافر تدميره وكيده يرتد إلى نحوه

لقد طويت الدنيا وعرضت أول صفحة بعدها، فإذا الرجل المؤمن الذي قال كلمة الحق ومضي، قد وقاه الله سيئات مكر فرعون وملته، فلم يصبه من آثارها شيء في الدنيا، ولا فيما بعدها أيضاً، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب: ﴿ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] .

لم يقصر مؤمن آل فرعون في تقرير الدين الحق، وفي الذب عنه، ولم يسلمه سبحانه لأعدائه، بل تولى عنه رد كيد الكافرين وقصد القاصدين ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا ﴾ أي في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فنجاه الله تعالى مع موسى عليه الصلاة والسلام، وأما في الآخرة فبالجنة .

وكان المؤمن لما صرح بتقرير الحق فقد قصدوه بنوع من أنواع السوء، قال مقاتل: لما ذكر هذه الكلمات قصدوا قتله فهرب منهم إلى الجبل فطلبوه فلم يقدروا عليه، وقيل: المراد بقوله: ﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكُرُوا﴾ أنهم قصدوا إدخاله في الكفر وصرفه عن الإسلام، فوَقَاهُ اللهُ ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ {غافر: ٤٥} وهو الغرق في اليم ثم النقلة منه إلى الجحيم، فإن أرواحهم تعرض على النار صباحاً ومساءً إلى قيام الساعة فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم في النار ولهذا قال: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ {غافر: ٤٦} أى أشده ألماً وأعظمه نكالاً وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب أهل البرزخ - كما قال ابن كثير وهى قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ {غافر: ٤٦} .

ونقل القرطبي في تفسيره عن مجاهد وعكرمة ومقاتل ومحمد بن كعب كلهم قال: هذه الآية تدل على عذاب القبر في الدنيا، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ {غافر: ٤٦} .

وفى الحديث عن ابن مسعود: «أن أرواح آل فرعون ومن كان مثلهم من الكفار تُعرض على النار بالغداة والعشى فيقال: هذه داركم»، وعنه أيضاً: «إن أرواحهم فى أجواف طير سود تغدو على جهنم وتروح كل يوم مرتين فذلك عرضها» . . . وكان أبو هريرة إذا أصبح ينادي: أصبحنا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار، فإذا أمسى نادى أمسينا والحمد لله وعرض آل فرعون على النار، فلا يسمع أبا هريرة أحد إلا تعوذ بالله من النار .

وفى حديث صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «إن الكافر إذا مات عُرض على النار بالغداة والعشى» وخرج البخارى ومسلم عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشى إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إليه يوم القيامة» .

وفى الحديث الذى رواه البخارى: «نعم عذاب القبر حق» قالت عائشة رضي الله عنها: «فما رأيت رسول الله ﷺ بعد صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر» .

والقبر إما روضة من رياض الجنة وإما حفرة من حفر النيران، والحياة البرزخية في القبور، لا يعلم كيفيتها إلا الله، والإنسان حتى وإن أغرق في البحر أو ذر رماده في الهواء أو أكلته السباع، فإنه يحيى حياة البرزخ وينعم أو يعذب . وأحاديث عذاب القبر كثيرة جداً .

وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿ غَدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ صباحاً ومساءً ما بقيت الدنيا يقال لهم: يآل فرعون هذه منازلكم، توبيحاً ونقمة وصغاراً لهم، وقال ابن زيد: هم فيها اليوم يغدى بهم ويراح إلى أن تقوم الساعة .



الخاتمة

لا يستوى المؤمن والكافر فى الحياة ولا عند الممات، والفارق كبير بين من أطاع ومن عصى وبين من قال: ﴿ربى الله﴾ ومن قال: ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النارعات: ٢٤] لقد أضل فرعون قومه وما هدى، عاش ضالاً غاوباً ومات يوم مات وهو يقول: ﴿آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ [يونس: ٩٠]

ف قيل له: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ (٩١) فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية﴾ [يونس: ٩١-٩٢].

لقد كان ينشد أمناً ولكنه لم يأخذ بأسبابه، وجرت الأنهار من فوق رأسه ليكون عبرة للمعتبرين، إن الأمن التام والإهتداء التام إنما يكون لمن آمن بالله ولم يشرك معه آلهة أخرى ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون﴾ [الأنعام: ٨٢] والظلم الوارد فى الآية بمعنى الشرك كما ورد فى الحديث .

وبينما تحقق الأمن لمؤمن آل فرعون، فقد خسر فرعون خسراناً مهيئاً، ولم يشفع له ملكه ولم يمنعه جنده وملائه، سارت به الأيام والليالى سيراً حثيثاً، فقدمت به على ربه وقربته من عمله ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ [غافر: ٤٦].

﴿ولا يحق المكر السيئ إلا بالله﴾ [فاطر: ٤٣].

وماذا عليهم لو آمنوا؟! كانوا سيكسبون الدنيا والآخرة، ويأكلون من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم، ولكن غلب عليهم الشقاء، وأبدلوا بالنعيم ناراً تلظي، فباحسرتا على العباد، ونعوذ بالله من الخذلان، وماذا كان يضيرهم لو أنهم أسلموا وجوههم لله، ووافقوا العقل والفطرة، وانقادوا للكتب المنزلّة واتبعوا المرسلين؟!

كانوا سيبتقلون من هذه الدار بسلام إلى دار السلام، إن الحياة بغير الله سراب ﴿فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور﴾ [الحج: ٤٦].

كان عطاء يقول: رب ارحم فى الدنيا غربتى وفى القبر وحدتى وطول مقامى غداً بين يديك .

وكان شميظ بن عجلان يقول: من جعل الموت نصب عينيه لم يبال بضيق الدنيا ولا بسعتها، وقال: إن الله عز وجل وسم الدنيا بالوحشة ليكون أسس المطيعين به .

وقال العلاء: لينزل أحدكم نفسه أنه قد حضره الموت فاستقال ربه عز وجل فأقاله فليعمل بطاعة الله عز وجل . وقال قتادة: من يتق الله يكن الله معه، ومن يكن الله عز وجل معه فمعه الفئدة التي لا تُغلب، والحارس الذي لا ينام والهادى الذي لا يضل .

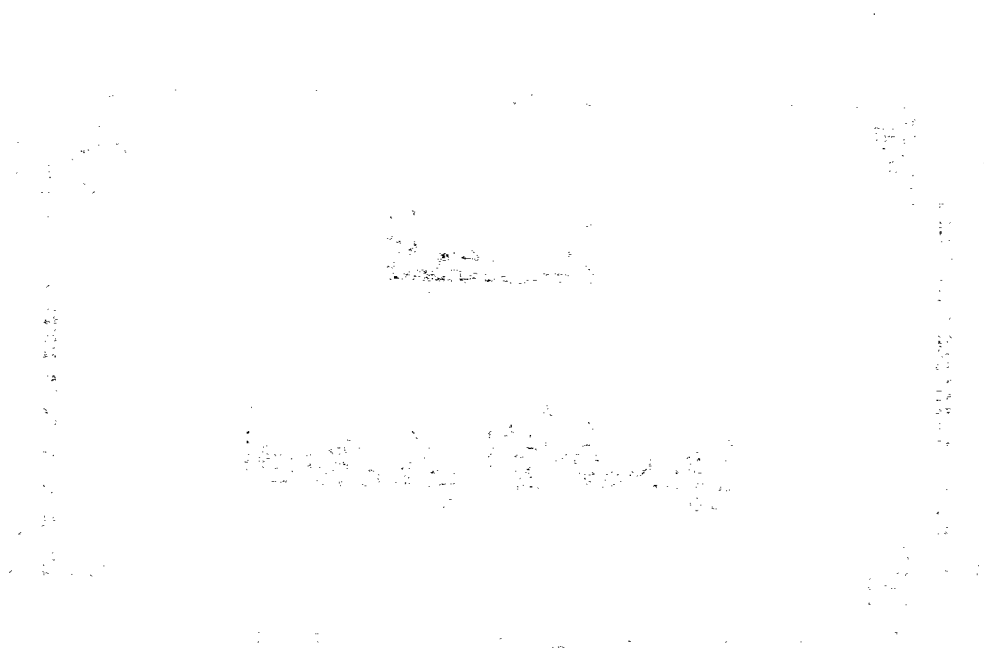
وكان عون بن عبد الله بن عتبة يقول: ما أحد ينزل الموت حق منزلته إلا عد غداً ليس من أجله، كم من مستقبل يوماً لا يستكمله، وراج غداً لا يبلغه، لو تنظرون إلى الأجل ومسيره لأبغضتم الأمل وغروره وقال كان أهل الخير يكتب بعضهم إلى بعض بهؤلاء الكلمات الثلاث ويلقى بها بعضهم بعضاً، من عمل لآخرته كفاه الله عز وجل دنياه، ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح سريره أصلح الله علانيته وكان داود الطائي يقول: ما أخرج الله عبداً من ذلة المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآفه بلا بشر .

لقد كان مؤمن آل فرعون حياً وسط موتي، وكأنه قال بلسان حاله: ما أصغر ما بذلت وما أحقر ما تركت وما أيسر ما فعلت في جنب ما أملت، نظر بقلبه إلى ما بين يديه فأعشى بصر قلبه بصر العيون، فكأنه لم يبصر ما إليه ينظرون وكأنهم لا يبصرون ما إليه ينظر، فهم منه يعجبون، وهو منه يتعجب، فلما نظر إليهم راغبين مغرورين، قد ذهبت على الدنيا عقولهم، وماتت من حبها قلوبهم وعشقتها أنفسهم، وامتدت إليها أبصارهم، استوحش منهم وقال: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ {طه: ٨٤} .

اللهم أحينا مسلمين وتوفنا مسلمين واجعلنا بمنك وكرمك هداة مهتدين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

قصة

أصحاب الأعداء



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمد عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

{آل عمران: ١٠٢}.

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ {النساء: ١}.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ {الأحزاب: ٧٠-٧١}.

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

تصدر قصة الغلام وأصحاب الأخدود في وقت تتوالى فيه أخبار المذابح الجماعية وحرب الإبادة التي تتم للمسلمين في كوسوفو على أيدي الصرب الصليبيين الغاشمين، وشييه بذلك ما فعلوه مع المسلمين في البوسنة والهرسك، وذلك حتى لا تقوم للمسلمين دولة في وسط أوربا، ولو كان انتسابها إلى الإسلام بمجرد الإسم، وقد غض المجتمع الدولي الطرف عن هذه المذابح، وتوارت الشرعية الدولية والأمم المتحدة بمؤسساتها تجاه هذه الإبادة، وهو نفس الموقف تجاه الظلم الواقع على المسلمين في فلسطين والهند والشيستان ولا يتظر من هؤلاء غير ذلك فهم أعداء لهذه الأمة، خذ وصفهم من خالقهم ولا يبينك مثل خير قال تعالى: ﴿ قَدْ بَدَأَ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخْفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ﴾ {آل عمران: ١١٨}.

وقال سبحانه: ﴿وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾

{البقرة: ١٢٠}.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ {المائدة: ٥١}.

وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُوا مَا عَنْتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَقْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ {آل عمران: ١١٨}.

إن الصرب لم يراقبوا في مؤمن إلا ولا ذمة، سواء كان كبيراً أو صغيراً، رجلاً كان أو امرأة، فقد بقروا بطون النساء وهتكوا الأعراض وحرقوا الكبار، وروعوا الصغار ولا تهمة لهؤلاء إلا أن يقولوا ربنا الله ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ {البروج: ٨}.

وما أشبه الليلة بالبارحة، فأعداء الأمس هم أعداء اليوم، فقد قتل أصحاب الأخدود، قتل الغلام والراهب والأعمى، كما قتلت الأم وصغيرها، ولا سبب لذلك إلا أنهم أسلموا وجوههم لله، إن سنن التدافع بين الإيمان والكفر والحق والباطل ماضية في الخلق ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ {البقرة: ٢٥١} ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْدَمَتِ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ {الحج: ٤٠}، وكما كانت المواجهة بين الملك الطاغية وجنده من جهة، والغلام والراهب والأعمى وأصحاب الأخدود مواجهة عقائدية وليست صراعا على الملك أو الأمتار والتراب... فكذاك الأمر بالنسبة للصراع بين الصرب وأهل البوسنة وكوسوفو، وبين الشيوعيين والشيثانيين، وفي فلسطين والهند، كل ذلك من جملة الصراع العقائدى، أو الأيديولوجى، كما يعبر البعض.

قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَقْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مِتْمُ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾

{الصف: ٨}.

وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ {الأنعام: ٣٣}.

ومن اللافت للنظر أن تختفى شعارات التعايش السلمى والسلام العالمى وحقوق الإنسان . . . وغيرها من الشعارات التى روجها ورددها الأعداء، وكأنهم ما صاغوها إلا لتحقيق أهدافهم ومصالحهم على حساب الإسلام وأهله، ويحيث تقوم الدنيا ولا تقعد من أجل يهودى أو شيعوى أو أمريكى . . . أما أن تباد الشعوب المسلمة فهذا لا يستحق أن تتحرك من أجله منظمة العدل وغيرها إلا على سبيل الشجب والإستكار واستخدام الوسائل الدبلوماسية الهادئة!! بينما تتحرك الجيوش فى الحال لضرب ليبيا والعراق والسودان . . . إنها سياسة الكيل بمكيالين، وحتى عندما تحركت أمريكا مؤخرا جدا وشنوا بعض الغارات على يوغوسلافيا، استثمر الصرب هذا الغطاء فى الإجهاز على ما تبقى من البلاد والعباد، واستحكم الطوق، وأصبح المسلمون بين شقى الرحى وفى وضع لا يحسدون عليه، يتمنون إيقاف الغارات على الصرب، حتى لا تستأصل شأفتهم، ونحن ان استدفعنا تهمة تواطؤ الأمريكان وغيرهم مع الصرب وما يعبر به البعض بمسألة توزيع الأدوار بينهم لا يمكن أن نحسن الظن بالأمريكان وأن نصف تدخلهم بأنه إقامه لمعانى الحق والعدل، أو أنه لمصلحة الإسلام والمسلمين، فهؤلاء لا يعملون إلا لمصلحتهم، وكما عبر وزير الخارجية الأمريكى عندما سئل : أتمت تدخلتم فى حرب العراق فلماذا لا تتدخلون فى قضية البوسنة؟ فأجاب: تدخلنا فى العراق لمصلحتنا ولم نتدخل فى قضية البوسنة أيضا لتحقيق مصلحتنا، وقد ذكروا أن يوغوسلافيا تملك أقوى قوة دفاعية على مستوى العالم، وأن الأمريكان يريدون تحجيم هذه القوة وارهاب الروس - الحليف التقليدى ليوغوسلافيا - وإثبات وجودهم كشرطى للعالم وقوة عظمى أمام الأوربيين وغيرهم.

وإذا نظرنا إلى المواقف وجدناها متباينة، بعد إتفاق الجميع على شجب واستنكار المذابح التى تجرى للمسلمين فى كوسوفو، فحكام العراق نددوا بضرب الأمريكان للصرب، ودعوا السفاح الصربى للصمود فى مواجهه الإعتداء عليه!! وهكذا أصبحت السياسة تعمى وتصم عن رؤية الحق وسماعه، ووسط غياب الشريعة يتم التعاطف مع الظالم الجانى الصربى بمن هم من جلدتنا ويتكلمون بلساننا ويزعمون نصرة الإسلام وأهله!!

وصرحت روسيا بمساندتها للصرب ولوحت بالتدخل واستخدام السلاح النووي، وهى التى ارتبطت معها العرب بالصدقة والتحالف عبر عهود، ولم يرفعوا رأسا بقول ربهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُؤَدَّةِ﴾

{الممتحنة: ١}.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ {هود: ١١٣} ﴿وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ {البقرة: ٢١٧} وموقفهم هذا عساه يعطينا درسا حتى نحقق مفهوم الولاء والبراء، فيكون الحب فى الله والبغض أيضا فى الله.

تُحِبُّ أَعْدَاءَ الْحَبِيبِ وَتَدْعَى حَبَالَهُ مَا ذَاكَ فِي إِمْكَانٍ

ووقف اليهود على الحياد من النزاع الدائر، وأرسلوا بعض المعونات الغذائية والطبية لمسلمى كوسوفو، وقد صرح وزير الخارجية الاسرائيلى - شارون - بأنه لا ينبغي السماح بإقامة دولة مسلمة فى كوسوفو، وأن تعاونهم مع الألبان سيكون سببا فى نشأة التطرف الإسلامى فى وسط أوروبا، وهذا الموقف يتناسب مع اليهود وعدائهم، فهم يتشابهون مع الصرب فى الاستيلاء على البلاد والعباد - دون وجه حق - ودولة اسرئيل دولة عقائدية شأنها فى ذلك شأن الصرب وكلاهما يبغض الإسلام وأهله، ولا غرابة فى أن ينسبوا المسلمين للتطرف، فنحن فى عصر صارت فيه المصطلحات مبتذلة وأنقلبت فيه الموازين، فالمظلوم صار ظالما، والجانى صار مجنبا عليه، والمتطرف اليهودى والصربى صار بيده ميزان الحق والعدل والتقييم، واستخدمت وسائل الإعلام فى هذا التدليس والتزييف اسوأ استخدام، وكما أطلق إلهود وصف الإرهابيين على أعضاء حماس والجهاد وكل من خالفهم من المسلمين، كذلك فعل الصرب حين يصورون أنهم ما يحاربون إلا الإرهابيين وهكذا صارت كلمة الإرهاب مرادفة لكلمة الإسلام!!!

وموقف المسلمين من قضية مسلمى كوسوفو كموقفهم من غيرها، وكان الأيدى شلت أو ربطت بالأعناق يتظرون علاج مشاكلهم بأيدي أعدائهم!! ولسان حالهم يقول:

قد أسمعتم لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادى

فالفرقة وأسباب الضعف والوهن قد دبت في أوصالهم، وليس ذلك بسبب قلة العدد أو العتاد، فعدد المسلمين يزيد على مليار ومائتى مليون مسلم، وأموالهم تملأ بنوك أوروبا وأمريكا، ولكنهم غناء كغناء السيل، امتلاءت قلوبهم حبا للدنيا وكرهية للموت. وأعمل فيهم الأعداء سياسات فرق تسد، وصار بعضهم حربا على اسلامه، يشهر ويشوه معالم دينه، فالنظم الوضعية والقوانين الطاغوتية سائدة بينهم، والأحزاب والنعرات قد شتت جمعهم . . . وانصرفت الدول والأفراد والجماعات عن الإهتمام بأمر المسلمين، والشعور بشعور الجسد الواحد إلى اهتمامات مريية وانشغالات مريضة، فهذا منشغل بصناعة السينما، والثانى بمباريات كرة القدم، والثالث بسبل الإرتقاء بالرقص والغناء . . . وكلهم يرى أنه يحسن صنيعا وكان القضية لا تعنيه، وكان الدور لن يأتي عليه ويؤكل كما أكل أخوه، ولو سمينا الأشياء باسمها لقلنا أنها حالة تبرد نتيجة كثرة سماعنا لصراخ المسلمين ورؤية دمائمهم المهذرة، وعدم قيامنا لله بحقه، مما عاد علينا بتحجر القلوب وطمس النفوس، بالضبط كما يحدث مع من تم ترويضه على رؤية المنكرات حتى آدمن مشاهدتها، فلم يعد يبالي أو يحس، بل قد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وكذلك الأمر بالنسبة لمن يتعلم ولا يعمل بعلمه، فهذا العلم يضره ولا ينفعه ونخشى أن تصبح مآسى المسلمين فى كوسوفو وغيرها عبارة عن قصة للتسلية، ومادة للحكاية حظها ونصيبها مصمصاة الشفاة والتباكى على مجد ضائع سليب مع التعلل بوضع الإستضعاف.

إن الواجب علينا أن نخرج من هذا الواقع السيئ لا أن نستمر فى حياة المذلة والمهانة، ولا أن نبرر به المزيد من التخاذل والتنازل، ولا سبيل لهذا الخروج إلا بالعودة الصادقة إلى كتاب الله ولسنة رسوله ﷺ، فهذا هو عزنا ونصرنا وتمكيننا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥] وقال: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ يَنْصِرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] فمن كان الله معه فمن عليه، معه الفئة التي لا تغلب والحارس الذي لا ينام والهادى الذي لا يضل ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

لا بد من إشاعة المفاهيم الصحيحة وسط المسلمين، فالؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضهم بعضاً، والمؤمنون متكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، ومثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى، وقد فتحت عمورية بسبب امرأة مسلمة استصرخت المسلمين، لما أراد يهودى هتك سترها، فماذا يكون حالنا ونحن نرى هتك الأعراض ويقر بطون الحوامل وترويع الصغار وإيادة الكبار، والكل يستصرخ وإسلامه .

إن مصاب المسلمين واحد، وما يحدث مع المسلمين فى كوسوفو وغيرها قد يحدث معنا يوماً، حتى وإن لم يبق من الدين الا رسمه ومن الاسلام الا إسمه فى حياتنا، وقد أكلنا يوم أكل الثور الأبيض .

ما المانع من أن ت جيش الجيوش لاستنقاذ المسلمين فى كوسوفو وغيرها كما حدث فى فتح عمورية ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] أن الجهاد فرض على الكفاية، وفرض الكفاية فرض عين، حتى يقم، وأذا لم يقم أثم القادرون عليه، ومعنى قيام الفرض حصول المأمور به فى عالم الواقع .

وقد يتعين الجهاد إذا داهم العدو المسلمين أو كان النفيير عاماً، أو حضر المسلم الصف، أو استنفر الإمام رجلاً بعينه، فحيثئذ يجب عليه الجهاد، وقسم العلماء الجهاد إلى جهاد دفع، أى دفع الكفار عن عقر ديار المسلمين، وهذا فرض عينى، وجهاد طلب أى طلب الكفار فى عقر دارهم، وهذا فرض على الكفاية، فإذا داهم العدو المسلمين تعين على أهل البلد جهاده، فإذا لم بهم تحصل الكفاية، انتقل الوجوب إلى الأقرب فالأقرب، ومع حنين المسلمين للجهاد فى سبيل الله، وحرصهم على نصرة أخوانهم، قد لا يستطيعون ذلك، فلا إثم حيثئذ إذ الواجبات تسقط بالعذر والعجز وعدم الإستطاعة ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وحيثئذ يتم النظر والعمل بما هو مستطاع ومقدور بالنسبة لنا، جاهدوا المشركين بأيديكم وألستكم وأموالكم، فإن تخلف السلاح ولم تتم المشاركة بالمال والبدن فلا أقل من بعث الروح الإيمانية فى النفوس، والإهتمام بأمر المسلمين، فمن لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم، وأن نجار إلى الله بالدعاء، فالدعاء سلاح المؤمن، والعبد إذا ألهم الدعاء فإن الإجابة معه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] ودعاء الأخ لأخيه يظهر

الغيب مستجاب، فالملك يؤمن على دعاءه ويقول: لك بمثل، وهو سبحانه الذى يجيب المضطر ويكشف الضر، ولا نستبعد أن يتغير حالنا لأحسن الأحوال بدعوات صالحات، فقد دعا نبي الله نوح - عليه السلام - ربه أني مغلوب فانتصر، يقول سبحانه: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدَسَّرَ تَجْرِيهِ بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ [القمر: ١٥] وقال سبحانه: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدٍ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ [إبراهيم: ١٥] حدث ذلك لما استفتحوأ أى أذن لهم فى الدعاء على الظالمين، ودعوة المظلوم من الدعاء المستجاب فليس بينها وبين الله حجاب، ترفع دون الغمام، ويقول سبحانه: وعزتي وجلالى لأجيبنك ولو بعد حين .

لن تعجز عن العمل بطاعة الله، ومتابعة الفرائض بالنوافل، تأهيلا للنفس، وتعويدا لها على حياة الجد والإجتهاد، اخشوشنوا فإن النعمة لا تدموم، وإياك والتنعيم، فإن عبادة الله ليسوا بالمتنعمين، فبالطاعات تنال ما عند الله من خير وبركة وسعة رزق، وتتحصل بذلك على النصر والعز والتمكين، وتتحقق بذلك النعم وتندفع النقم قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ قُمْ اللَّيْلُ إِلَّا قَلِيلًا نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [الزمل: ٥] وقال: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥] وكان النبي ﷺ إذا حزبه أمر يقول: «أرحنا بها يا بلال» (أى الصلاة) وكان يقول: «وجعلت قرعة عيني فى الصلاة» .

لا بد وأن نصل الأرض بالسمااء، وتتعلق قلوبنا بالله فى جلب المنافع ودفع الضر ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [الطلاق: ٣]

وقال سبحانه ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسِهِمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٤] .

إن الدماء التي تسيل وتنزف في كوسوفو وغيرها من بلاد المسلمين، ليس بها هوان على الله ولا على المؤمنين، فلزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم، وكان ابن عباس - رضى الله عنهما - ينظر إلى الكعبه ويقول أن الله عظيمك وشرفك وحرملك، وإن المؤمن أعظم حرمة عند الله منك .

ستظل هذه الدماء الذكية وقودا يشعل نيران الحماسة والجهاد في صدور المسلمين، تذكرهم بأن ما حدث يوما للغلام ولأصحاب الأخدود مازال يتكرر، وأنه لا بد من أخذ الدروس والعظات والعبر مما قصه علينا ربنا - جلا وعلا- في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١]!!! ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

فإلى أتباع الأنبياء والمرسلين، وإليك أختي في زمن الغربة، وإلى كل من سلك طريق الدعوة، وعاش بالإسلام وللإسلام، نهدي هذه القصة .

قصة الغلام وأصحاب الأخدود، فهي معين لا ينضب بالدروس والفوائد، وزاد للغرباء الذين يسيرون على درب الاستقامة في وقت تغيرت فيه القيم وتبدلت فيه الموازين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

كتبه

سعيد عبد العظيم

قصة الغلام وأصحاب الأخدود في القرآن

﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْبُرُوجِ ۝١ وَالْيَوْمَ الْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ ۝٤ النَّارَ ذَاتَ الْوُقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝٨ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٩ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ۝١٠ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ۝١١ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُ هُوَ يُبْدِي وَيُعِيدُ ۝١٣ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ۝١٤ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ۝١٥ فَعَالٌ لَّمَّا يَرِيدُ ۝١٦ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ۝١٧ فَرْعُونَ وَثَمُودُ ۝١٨ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ ۝١٩ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ ۝٢٠ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ۝٢١ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ ﴿البروج﴾

القصة كما جاءت في السنة

وردت روايات بشأن أصحاب الأخدود ومعناها متقارب ففي صحيح مسلم عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر؛ فلما كبر قال للملك : إنى قد كبرت فابعث إلى غلاماً أعلمه السحر؛ فبعث إليه غلاماً يعلمه؛ فكان في طريقه إذا سلك راهب، فقعده إليه وسمع كلامه فأعجبه؛ فكان إذا أتى الساحر مر بالراهب وقعد إليه؛ فإذا أتى الساحر ضربه؛ فشكا ذلك إلى الراهب فقال : إذا خشيت الساحر فقل : حبسنى أهلى وإذا خشيت أهلك فقل : حبسنى الساحر. فبينما هو كذلك إذ أتى على دابة عظيمة قد حبست الناس فقال : اليوم أعلم الساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجراً فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يمضى الناس؛ فرماها فقتلها ومضى الناس. فأتى الراهب فأخبره فقال له الراهب: أى بنى؛ أنت اليوم أفضل منى، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى؛ فإن ابتليت فلا تدل على.

وكان الغلام يرى الأكمة والأبرص ويداوى الناس من سائر الأدواء. فسمع جليس للملك كان أقدم عمى فأتاه بهدايا كثيرة فقال : ما هاهنا لك أجمع إن أنت شفيتنى . فقال: إنى لا أشفى أحداً، أما يشفى الله؛ فإن أنت أمنت بالله دعوت الله فشفاك؛ فأمن

بالله فشفاه الله. فأتى الملك فجلس إليه كما كان يجلس؛ فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟ قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي وربك الله. فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام؛ فجئ بالغلام فقال له الملك: أى بنى! أقد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه والأبرص، وتفعل وتفعل؟! فقال: أنى لا أشفى أحدا، إنما يشفى الله، فأخذه فلم يزل يعذبه حتى دل على الراهب؛ فجئ بالراهب فقبل له: أرجع عن دينك. فأبى فدعا بالمنشار فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه حتى وقع شقاه. ثم جئ بجليس الملك فقبل له: أرجع عن دينك؛ فأبى فوضع المنشار فى مفرق رأسه فشقه به حتى وقع شقاه. ثم جئ بالغلام فقبل له: أرجع عن دينك؛ فأبى فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: أذهبوا به إلى جبل كذا وكذا فأصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذورته فإن رجع عن دينه وإلا فأطرحوه، فذهبوا به فصعدوا به الجبل فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت؛ فرجف بهم الجبل فسقطوا. وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فدفعه إلى نفر من أصحابه فقال: اذهبوا به فاحملوه فى قرقور^(١) فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فاقدفوه؛ فذهبوا به فقال: اللهم أكفنيهم بما شئت؛ فانكفأت بهم السفينه ففرقوا. وجاء يمشى إلى الملك فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله. فقال للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس فى صعيد واحد وتصلبني على جذع؛ ثم خذ سهم من كنانتي^(٢) ثم ضع السهم فى كبد القوس ثم قل: باسم الله رب الغلام، ثم ارمى؛ فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني.

فجمع الناس فى صعيد واحد وصلبه على جذع، ثم أخذ سهم من كنانته ثم وضع السهم فى كبد القوس ثم قال: باسم الله رب الغلام؛ ثم رماه فوق السهم فى صدغه فوضع يده فى صدغه فى موضع السهم فمات؛ فقال الناس: آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! آمنا برب الغلام! فأتى الملك فقبل له: رأيت ما كنت تحذر؟ قد والله نزل بك حذرک، قد آمن الناس؛ فأمر بالأخدود فى أفواه السكك، فخذت وأضرم النيران وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها - أو قيل له اقتحم - ففعلوا؛ حتى جاءت امرأة ومعها صبي لها فتقاعست أن تقع فيها فقال لها الغلام: يا أمه أصبرى فإنك على الحق،

(١) القرقور (بضم القافين): السفينة الصغيرة.

(٢) الكنانة - (بالكسر): جعبة السهام تتخذ من جلود لا خشب فيها، أو من خشب لا جلود فيها.

خرجه الترمذى بمعناه . وفيه : « وكان على طريق الغلام راهب فى صومعة » ، قال معمر : أحسب أن أصحاب الصوامع كانوا يومئذ مسلمين . وفيه : « أن الدابة التى حبست الناس كانت أسدا وأن الغلام دفن - قال - فيذكر أنه أخرج فى زمن عمر بن الخطاب وأصبغه على صدغه كما وضعها حين قتل » وقال حديث حسن غريب .

قال الإمام أحمد : حدثنا عفان ، حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت ، عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن صهيب أن رسول الله ﷺ قال : « كان فى من كان قبلكم ملك وكان له ساحر ، فلما كبر الساحر قال للملك : إنى قد كبر سنى ، وحضر أجلى ، فادفع إلى غلاما لأعلمه السحر ، فدفعت إليه غلاما كان يعلمه السحر ، وكان بين الساحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : ما حبسك ؟ وإذا أتى أهله ضربه ، وقالوا : ما حبسك ؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال إذا أراد الساحر أن يضربك فقل : حبسنى أهلى ، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل : حبسنى الساحر ، فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعوا أن يجوزوا ، فقال : اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر ، قال : فأخذ حجرا ، فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، وربماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أى بنى أنت أفضل منى وإنك ستبتلى ، فإن ابتليت فلا تدل على .

فكان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم ،^(١) وكان للملك جليس فعمى ، فسمع به فاتاه بهدايا كثيرة ، فقال : أشفىنى ، فقال : ما أنا أشفى أحدا ، إنما يشفى الله - عز وجل - فإن آمنت به دعوت الله فشفاك ، فآمن فدعا الله فشفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقال له الملك : يا فلان ، من رد عليك بصرك ؟ فقال : ربه . فقال : أنا ؟ قال : لا ، ربه وربك الله ، قال : أولك رب غيرى ؟ قال : نعم ، ربه وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام ، فبعث إليه فقال : أى بنى : بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص ، وهذه الأدواء ؟ قال : ما أشفى أحدا ، إنما يشفى الله - عز وجل - قال : أنا ؟ قال : لا ، قال : ولك رب غيرى ؟ قال : ربه وربك الله ، فأخذه -

أيضا - بالعذاب فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: أرجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: أرجع عن دينك، فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: أرجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى الجبل كذا وكذا، فقال: إذا بلغت ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدوه، فذهبوا به إلى الجبل، فلما علو به الجبل قال: اللهم أكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدوهوا أجمعون. وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله - تعالى - فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم أكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله - تعالى - ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، وإلا فإنك لا تستطيع قتلي، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلتني، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهم من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني، ففعل ووضع السهم في كبد قوسه ثم رماه، وقال: بسم الله رب الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آما برب الغلام.

فقيل للملك: أ رأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، قد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخدد فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النار، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأفحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأما تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: أصبري يا أماه فإنك على الحق.

القصة كما جاءت في كتب التفسير

قال القرطبي في تفسيره روى الضحاك عن ابن عباس قال: كان ملك بنجران وفي رعيته رجل له فتى فبعثه إلى ساحر يعلمه السحر، وكان طريق الفتى على راهب يقرأ الإنجيل فكان يعجبه ما يسمعه من الراهب فدخل في دين الراهب، فأقبل يوما فإذا حية عظيمة قطعت على الناس طريقهم فأخذ حجرا فقال: باسم الله رب السموات والأرض وما بينهما؛ فقتلها. وذكر نحو ما تقدم. وإن الملك لما رماه بالسهم وقتله قال أهل مملكة الملك: لا إله إلا الله عبد الله بن ثامر؛ وكان اسم الغلام، فغضب الملك وأمر فخذت أخايد، وجمع فيها حطب ونار وعرض أهل مملكته عليها، فمن رجع عن التوحيد تركه، ومن ثبت على دينه قذفه في النار. وجئ بامرأة مرضع فقيل لها: ارجعي عن دينك وإلا قذفناك وولدتك في النار - قال - فأشفقت وهمت بالرجوع، فقال الصبي المرضع: يا أمي، اثبتي على ما أنت عليه فإنما هي غميضة؛ فألقوها وابنها. وروى صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود فصارت فوق الملك وأصحابه أربعين ذراعا فأحرقتهم.

وقال الضحاك: هم قوم من النصاري كانوا باليمن قبل مبعث رسول الله ﷺ بأربعين سنة، فأخذهم يوسف بن شراحيل بن تبع الحميري، وكانوا نيفا وثمانين رجلا، وحضر لهم أخدودا وأحرقهم فيه، حكاه الماوردي، وحكى الثعلبي عنه أن أصحاب الأخدود من بني إسرائيل، أخذوا رجالا ونساء فخذوا لهم الأخايد، ثم أوقدوا فيها النار، ثم أقيم المؤمنون عليها وقيل لهم: تكفرون أو تقذفون في النار؟ ويزعمون أنه دانيال وأصحابه؛ قاله عطية العوفي وروى نحو هذا عن ابن عباس.

وقال علي بن الحسين: أن ملكا سكر فوق على أخته، فأراد أن يجعل ذلك شرعا في رعيته فلم يقبلوا؛ فأشارت عليه أن يخطب بأن الله - عز وجل - أحل نكاح الأخوات فلم يسمع منه. فأشارت عليه أن يخذ لهم الأخدود ويلقى فيه من عصاه، ففعل. قال: وبقياتهم ينكحون الأخوات، وهم المجوس، وكانوا أهل كتاب.

وروى عن علي أيضا أن أصحاب الأخدود كان سببهم أن نبيا بعثه الله تعالى إلى الحبشة، فاتبه ناس فخذ لهم قومهم أخدودا، فمن اتبع النبي رمى فيها، فجئ بامرأة لها بنى رضيح فجزعت، فقال لها: يا أمه، امضي ولا تجزعي. وقال أيوب عن عكرمه قال: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] قال: كانوا من قومك من السجستان.

وقال الكلبي: هم نصارى نجران، أخذوا بها قوما مؤمنين فخذوا لهم سبعة أخاديد، طول كل أخدود أربعون ذراعا، وعرضه اثنا عشر ذراعا. ثم طرح فيه النفط والحطب، ثم عرضهم عليها، فمن أبى قذفوه فيها. وقيل: قوم من النصارى كانوا بالقسطنطينية زمان قسطنطين.

وقال مقاتل: أصحاب الأخدود ثلاثة: واحد بنجران، والآخر بالشام، والآخر بفارس. أما الذي بالشام فأنطينانوس الرومي، وأما الذي بفارس فبختنصر، والذي بأرض العرب يوسف بن ذى نواس. فلم ينزل الله في الذي بفارس والشام قرآنا، وأنزل قرآنا في الذي كان بنجران. وذلك أن رجلين مسلمين كان أحدهما بتهمامة والآخر بنجران، آجر أحدهما نفسه، فجعل يعمل ويقرأ الإنجيل؛ فرأت ابنة المستاجر النور في قراءة الإنجيل، فأخبرت أباهما فأسلم، وبلغوا سبعة وثمانين بين رجلا وأمرأة، بعد ما رفع عيسى، فخذ لهم يوسف بن ذى نواس بن تبع الحميري أخدودا أوقد فيه النار؛ وعرضهم على الكفر، فمن أبى أن يكفر قذفه في النار، وقال: من رجعت عن دين عيسى لم يقذف. وأن امرأة معها ولدها صغير لم يتكلم، فرجعت، فقال لها ابنها: يا أمه، أنى أرى أمامك نار لا تطفأ، فقذفا جميعا أنفسهما في النار، فجعلها الله وابنها في الجنة. فقذف في يوم واحد سبعة وسبعون إنسانا.

وقال ابن إسحق عن وهب بن منبه: كان رجلا من بقايا أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام، يقال له: قيميون، وكان رجلا صالحا مجتهدا زاهدا في الدنيا مجاب الدعوة، وكان سائحا في القرى لا يعرف بقرية إلا مضى عنها، وكان بناء يعمل بالطين. قال محمد بن كعب القرظي: وكان أهل نجران أهل شرك يعبدون الأصنام، وكان في قرية من قراها قريبا من نجران ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر؛ فلما نزل بها قيميون بنى بها خيمة بين نجران وبين تلك القرية التي بها الساحر، فجعل أهل نجران يعثون غلمانهم إلى ذلك الساحر يعلمهم السحر؛ فبعث إليه الثامر عبد الله بن الثامر، فكان مع غلمان أهل نجران، وكان عبد الله إذا مر بصاحب الخيمة أعجبه ما يرى من أمر صلاته وعبادته، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى أسلم، فوحد الله وعبده وجعل يسأله عن اسم الله الأعظم، وكان الراهب يعلمه فكتمه إياه وقال: يا ابن أخي، إنك لن تحمله، أخشى ضعفك عنه؛ وكان أبوه الثامر لا يظن إلا أن ابنه يختلف إلى الساحر كما يختلف الغلمان فلما رأى عبد الله أن الراهب قد بخل عليه بأسم الله

الأعظم، عمد إلى قدها فجمعها، ثم لم يبق لله تعالى اسما لم يعلمه إلا كتبه في قدها، لكل اسم قدها؛ حتى إذا أحصاها أوقد لها نارا، ثم جعل يقذفها فيها قدها قدها، حتى إذا مر بالإسم الأعظم قذف فيه بقدها، فوثب القدها حتى خرج منها لم يضره شيء؛ فأخذه ثم قام إلى صاحبه، فأخبره أنه قد علم اسم الله الأعظم الذي كتبه إياه؛ فقال: وما هو؟ قال: كذا وكذا. قال: وكيف علمته؟ فأخبره بما صنع. فقال له: يا ابن أخي، قد أصبته، فأمسك على نفسك وما أظن أن تفعل. فجعل عبد الله بن الثامر إذا دخل نجران لم يلق أحدا به ضر إلا قال: يا عبد الله، أتوحد الله وتدخل في ديني فادعوا الله لك فيعافيك مما أنت فيه من البلاء؟ فيقول: نعم؛ فيوحد الله ويسلم فيدعو الله له فيشفى، حتى لم يبق أحد بنجران به ضر إلا أنه فاتبعه على دينه ودعا له فعوفى؛ حتى رفع شأنه إلى ملكهم فدعاه فقال له: أفسدت على أهل قريتي وخالفت ديني ودين آبائي، فلأمثلن بك. قال: لا تقدر على ذلك؛ فجعل يرسل به إلى الجبل الطويل فيطرح عن رأسه فيقع على الأرض ليس به بأس. وجعل يبعث به إلى مياه نجران، بحار لا يلقى فيها شيء إلا هلك، فيلقى فيها فيخرج ليس به بأس؛ فلما غلبه قال له عبد الله بن الثامر: والله لا تقدر على قتلي حتى توحد الله وتؤمن بما آمنت به؛ فإنك إن فعلت ذلك سلطت على وقتلتني. فوحد الله ذلك الملك وشهد شهادته، ثم ضربه بعضا فشجه شجة صغيرة ليست بكبيرة فقتله، وهلك الملك مكانه، واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه. ثم أصابهم ما أصاب أهل دينهم من الأحداث؛ فمن ذلك كان أصل النصرانية بنجران. فسار إليهم ذو نواس اليهودي بجنوده من حمير، فدعاهم إلى اليهودية وخيرهم بين ذلك أو القتل، فاخترأوا القتل فخذ لهم الأخدود؛ فحرق بالنار وقتل بالسيف ومثل بهم حتى قتل منهم عشرين ألفا. وقال وهب بن منبه: إننا عشر ألفا وقال الكلبي كان أصحاب الأخدود سبعين ألفا، قال وهب: ثم لما غلب أرباط على اليمن خرج ذو نواس هاربا فاقترحم البحر بفرسه فغرق. قال ابن إسحق: وذو نواس هذا اسمه زرعة بن تبان أسعد الحميري، وكان أيضا يسمى يوسف، وكان له غدائر من شعر تنوس، أي تضطرب، فسمى ذا نواس؛ وكان فعل هذا بأهل نجران فأقلت منهم رجل اسمه دوس ذو ثعلبان، فساق الحبشة ليتصرف بهم، فملكوا اليمن وهلك ذو نواس في البحر؛ ألقى نفسه فيه.

قال فخر الدين الرازي في التفسير الكبير : ذكروا قصة أصحاب الأخدود على طرق متباينة ونحن نذكر منها ثلاثة:

أحدها: أنه كان لبعض الملوك ساحر، فلما كبر ضم إليه غلام ليعلمه السحر ، وكان في طريق الغلام راهب، فمال قلب الغلام إلى ذلك الراهب ثم رأى الغلام في طريقه ذات يوم حية قد حبست الناس فأخذ حجرا، وقال: اللهم إن كان الراهب أحب إليك من الساحر فقوني على قتلها بواسطة رمي الحجر إليها، ثم رمى فقتلها، فصار ذلك سببا لإعراض الصبي عن السحر واشتغاله بطريقة الراهب، ثم صار إلى حيث يبرئ الأكمه والأبرص ويشفي من الأدواء، فاتفق أن عمى جليس للملك فأبرأه فلما راه الملك قال: من رد عليك نظرك؟ فقال: ربي فغضب فعذبه فدل على الغلام فعذبه فدل على الراهب فأحضر الراهب وذجره عن دينه فلم يقبل الراهب قوله فقد بالمنشار، ثم أتوا بالغلام إلى جبل لي طرح من ذروته فدعا الله، فرجف القوم فهلكوا ونجا، فذهبوا به إلى سفينته لجحوا بها ليغرقوه، فدعا الله فانكفأت بهم السفينة فغرقوا ونجا، فقال للملك: لست بقاتلى حتى تجمع الناس في صعيد وتصلبني على جذع وتأخذ سهم من كنتاني، وتقول: بسم الله رب الغلام ثم ترميني به، فرماه فوق في صدغه فوضع يده عليه ومات، فقال الناس: أما برب الغلام. فقيل للملك: نزل بك ما كنت تحذر، فأمر بأخايد في أفواه السكك، وأوقدت فيها النيران، فمن لم يرجع منهم طرحه فيها، حتى جاءت امرأة معها صبي فتقاعست أن تقع فيها فقال الصبي: يا أماه اصبري فإنك على الحق، فصبرت على ذلك.

الرواية الثانية: روى عن علي عليه السلام أنهم حين اختلفوا في أحكام المجوس قال: هم أهل الكتاب وكانوا متمسكين بكتابهم وكانت الخمر قد أحلت لهم فتناولها بعض ملوكها فسكر فوقع على أخته فلما صحا ندم وطلب المخرج فقالت له: المخرج أن تخطب الناس فتقول لهم: إن الله تعالى قد أحل نكاح الأخوات ثم تخطبهم بعد ذلك فتقول بعد ذلك: حرمه فخطب فلم يقبلوا منه ذلك، فقالت له: أبسط فيهم السوط، فلم يقبلوا فقالت: أبسط فيهم السيف فلم يقبلوا فأمرته بالأخايد وإيقاد النار وطرح من أتى فيها الذين أرادهم الله بقوله: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

الرواية الثالثة: أنه وقع إلى نجران رجل ممن كان على دين عيسى فدعاهم فأجابوه فصار إليهم ذو نواس اليهودى بجيش من حمير فخيرهم بين النار واليهودية فأبوا، فأحرق منهم اثني عشر ألفا في الأخاديد، وقيل سبعين ألفا، وذكر أن طول الأخدود أربعون ذراعا وعرضه اثنا عشر ذراعا، وعن النبي ﷺ: «أنه كان إذا ذكر أصحاب الأخدود تعوذ بالله من جهد البلاء».

فإن قيل تعارض هذه الروايات يدل على كذبها، قلنا لا تعارض فقليل: إن هذا كان في ثلاث طوائف ثلاث مرات مرة باليمن، ومرة بالعراق، ومرة بالشام، ولفظ الأخدود، وإن كان واحدا إلا أن المراد هو الجمع وهو كثير من القرآن، وقال القفال: ذكروا في قصة أصحاب الأخدود روايات مختلفة وليس في شيء منها يصح إلا أنها متفقة في أنهم قوم من المؤمنين خالفوا قومهم أو ملكا كافر كان حاكما عليهم فألقاهم في أخدود وحفر لهم، ثم قال: وأظن إن تلك الواقعة كانت مشهورة عند قريش فذكر الله تعالى ذلك لأصحاب رسوله تبيينها لهم على ما يلزمهم من الصبر على دينهم واحتمال المكاره فيه، فقد كان مشركو قريش يؤذون المؤمنين على حسب ما اشتهرت به الأخبار من مبالغتهم في إيذاء عمار وبلال.

فوائد هامة تتعلق بسورة البروج وترتبط بالقصة

الأولى: التناسق والتناسب والارتباط المتعلق بالسورة

سورة البروج مكية يتوافق العلماء، وهي اثنتان وعشرون آية. والمقصود من هذه السورة تسلية النبي ﷺ وأصحابه عن إيذاء الكفار، وكيفية تلك التسلية هي أنه تعالى بين أن سائر الأمم السالفة كانوا كذلك مثل أصحاب الأخدود ومثل فرعون ومثل ثمود، وختم ذلك بأن بين أن كل الكفار كانوا في التكذيب، ثم عقب هذا الوجه بوجه آخر وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وِرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] ثم ذكر وجهاً ثالثاً وهو أن هذا شيء مثبت في لوح محفوظ ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] فهذا ترتيب السورة.

وبمناسبة ارتباط السور بعضها ببعض فإن بعض المفسرين يقول: لما ذكر مآل الفريقين وتطايير الصحف في السورة الأولى، ذكر هنا عملاً من أشد أعمال الكفار مع المؤمنين في قصة الأخدود.

وسورة البروج متأخية مع سورة الطارق ولذلك قرننا للمؤاخاة، وذكرنا بعد الإنشاق للمؤاخاة في الإفتتاح بذكر السماء، فإنه لما ذكر سابقاً أنفطار السماء وتناثر النجوم وانشقاق السماء، وإذنها لربها وحق لها ذلك، جاء في سورة البروج بيان كنه هذه السماء، وأنها عظمة البنية بأبراجها الضخمة أو بروجها الكبيرة، فهي مع ذلك تأذن لربها وتطيع وتنشق لهول ذلك اليوم وتنفطر، فأولى بك أيها الإنسان، وقد ورد في الحديث ذكر السموات مرارا بها السور الأربع فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر أن يقرأ بالسموات في العشاء. يعني السور الأربع المفتحة بذكر السماء ^(١).

إن سورة البروج من قصار المفصل، وهي تعرض لحقائق العقيدة، ومحورها يدور حول حادثة «أصحاب الأخدود» وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان، وقد ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ومداريتها الفخمة التي تدور فيها تلك الأفلاك، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة، وبالرسل والخلائق على هلاك ودمار المجرمين الذين طرحوا المؤمنين في النار ليفتنوهم

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند.

عن دينهم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾

{البروج: ٧}.

ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ جَزَاءٌ إِلَّا جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ {البروج: ١٠}

وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين فتنوا عباده وأوليائه ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ إِنَّهُ هُوَ يُبَدِّئُ وَيُعِيدُ وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ {البروج: ١٥} وختمت السورة بذكر فرعون وثمود وما أصابهما من هلاك ودمار بسبب البغي والطغيان ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنُ وَثَمُودُ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ ورائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ {البروج: ٢٢} وهكذا ارتبط موضوع السورة ببدايتها ونهايتها، وظهر التناسب الواضح بين كل آية والتي بعدها، كما ترى التناسق بين سورة البروج وسورة الإنشقاق قبلها، وسورة الطارق بعدها.

الثانية: أقسام متتالية بين يدي القصة

تبدأ سورة البروج بأقسام متتالية ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ {البروج: ٤} فتربط بين السماء وبين ما فيها من بروج هائلة، واليوم الموعود وأحداثه الفخام، والحشود التي تشهده والأحداث المشهودة فيه... تربط بين هذا كله وبين الحادث ونقمة الله على أصحابه الطغاة البغاة.

وقبل الإشارة إلى حادث الأخدود بدأت السورة بهذا القسم ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ {البروج: ١} وهي إما أن تكون أجرام النجوم الهائلة وكأنها بروج السماء الفخمة أي قصورها المبنية كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ بَنِينَا بَأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ {الذاريات: ٤٧} وقال ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا﴾ {النازعات: ٢٧} وأما أن تكون هي المنازل التي تتقل فيها تلك الأجرام، والإشارة إليها يوحي لضخامتها وأصل مادة البروج من الظهور، وقد جاءت هذه الكلمة في نصوص عديدة مثل: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزِينَاتٍ لِّلنَّاطِرِينَ﴾ {الحجر: ١٦} وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ {الفرقان: ٦١}.

ثم جاء القسم الثاني ﴿وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ﴾ [البروج: ٢] وهو يوم القيامة بإجماع المفسرين، وقد كانوا يوعدون به في الدنيا فهو اليوم الموعود به كل من الفريقين، كما قال الله تعالى في حق المؤمنين: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] وفي حق الكفار: ﴿فَذَرَهُمْ يَخْضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يَلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ [الزخرف: ٨٣] وسيعترفون بذلك عند البعث حينما يقولون: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ٥٢] فاليوم الموعود هو يوم القيامة الموعود به لمجازاة كلا من الفريقين على عملهم، ويا له من يوم عظيم ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ٢] ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تُوَدِّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٧] إنه يوم الفصل في أحداث الدنيا وتصفية حساب الأرض وما كان فيها، يوم تتطلع إليه الخلائق وتترقبه لترى كيف تصير الأمور .

وكان القسم الثالث ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ [البروج: ٣] ولم يصرح هنا من الشاهد وما المشهود، والشاهد في القرآن يأتي بمعنى الحاضر كما في قوله تعالى ﴿عَالَمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [التوبة: ٩٤] والمشهود يأتي بمعنى المشاهد ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣] وقد اختلف أقوال المفسرين إلى ما يقرب من عشرين قولاً، فالشاهد هو الله أو سيدنا محمد ﷺ أو يوم الجمعة أو هو الإنسان، والمشهود هو يوم القيامة أو يوم عرفه أو يوم النحر. . . قال ابن جرير بعد أن ساق الأقوال في تفسير الشاهد والمشهود: والصواب عندي أنه صالح لكل ما يقال له شاهد ويقال به مشهود، وشبهه بذلك ما جاء في تفسير القرطبي وابن كثير .

وفي ذلك اليوم الذي تعرض فيه الأعمال وتعرض فيه الخلائق، فتصبح كلها مشهود، ويصبح الجميع شاهدين، الملائكة والأنبياء والأنسان والأرض . . . وكفى بالله شهيدا .

وهذه الأقسام الثلاثة أتت بمثابة توطئة وتمهيد لذكر حادث الأخدود، كما توحى بالمجال الواسع الشامل الذي يوضع فيه هذا الحادث، وتوزن فيه حقيقته ويصفي فيه حسابه، وهو أكبر من مجال الأرض، وأبعد من مدى الحياة الدنيا وأجلها المحدود .

الثالثة : إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة

تقام الشهادة على ما سيعرض في اليوم الموعود وإقامة الحجة على الخلق لا لإثبات الحق كما قال أبو حيان، وقد جاء في القرآن تعداد الشهود في هذا اليوم مما يتناسب مع العرض والحساب كما جاء في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠] وقال: ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ [ن: ٢١] وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقال: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [النحل: ٨٩] وقال عن نبيه محمد ﷺ: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَيَّ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]، وقال عن هذه الأمة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومنها شهادة الله على الجميع ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المجادلة: ٦]، ولا تعارض بين هذه النصوص، وقد جاء في السنة تعيين الشهادات فمنها الشهادة للمؤذن وشهادة المال على صاحبه فيم أنفقه، وشهادة الصيام والقرآن وشفاعتها لصاحبهما، وشهادة الأرض على الإنسان بما عمل عليها ﴿يَوْمَئِذٍ تَحْدِثُ أَخْبَارَهَا﴾ [الزلزلة: ٤].

قال الشيخ عطية سالم في تمة أضواء البيان: «في هذا العرض إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة، وهو إذا كان رب العزة سبحانه وتعالى، وهو على كل شيء شهيد، ويكل شيء عليم، وموكل حفظه يكتبون أعمال العباد، ومع ذلك لم يقض بين الخلائق بما يعلمه منهم ولا بما سجلته ملائكته، ويستنطق أعضاءهم، ويستشهد الرسل على الأمم، والرسول ﷺ على الرسل، أى بأنهم بلغوا أمهم رسالات الله إليهم، فلأن لا يقضى القاضى بعلمه من باب أولى والعلم عند الله تعالى .

وقد جاء عنه ﷺ قوله «إنكم تحتكمون اليّ وإنما أنا بشر أفضى بما لكم على نحو ما أسمع، فمن أقطعت له شيئاً من حق أخيه، فإنما أقطع له قطعه من نار». الحديث أى من كان من الممكن أن ينزل عليه الوحي، ولا سيما في تلك القضية بعينها، إذ قالوا في موارث درست معاملها ولا بينه بينهما، ولكن إذا نزل الوحي عليه ﷺ فيها، فمن بالوحي يأتى لمن يأتى بعده في القضاء؟، ولذا قال رسول الله ﷺ: «اليينه على المدعى، واليمين على من أنكر» ومعلوم أن البينة فعلية من البيان، فتشمل كل من يبين الحق من شهادة وقرينة كما في قصة يوسف عليه السلام من القرائن مع أخوته ومع امرأة العزيز. أ. هـ .

وقد ذكر العلماء أن قضاء القاضى وفتوى المفتى وحكم الحاكم لا تجعل الحرام حلالا ولا الحلال حراما، وأن الحدود تدرأ بالشبهات، فلا بد من التثبيت والحيطه، وقالوا: لو شهد ثلاثة فيهم أمير المؤمنين على واقعة زنا، ولم يأت الرابع لأقيم حد القذف على الثلاثة، ولو أقسم المدعى عليه ولم يأت المدعى بالبينه، برأت ساحته وللمدعى أن يقول كما قال المسيح عليه السلام: «أمنت بالله وكذبت عيني».

الرابعة: قتل أصحاب الأخدود وضوابط لعن من آذى المؤمنين

قال ابن عباس رضي الله عنهما كل شئ في القرآن قتل فهو لعن، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ [البروج: ٤]، أى لعن، وهذا جواب القسم فى قول الفراء- واللام فيه مضمرة كقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١] ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أى لقد أفلح.

قال أبو حيان: وجواب القسم فى قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١] قيل: محذوف، فقيل ﴿لَتُبْعَثَنَّ﴾ [التغابن: ٧]، ونحوه، وقيل مذكور، فقيل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج: ١٠] ونحوه وقيل: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤]، وهذا نختاره، وحذفت اللام أى لقتل وحسن حذفها، كما حسن فى قوله: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ [الشمس: ١]، ثم قال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩] أى لقد أفلح، ويكون الجواب دليلا على لعنة الله على من فعل ذلك، أوتيبها لكفار قريش الذين يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم.

وإذا كان: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٤] هى الجواب فهى جملة خبرية، وإذا كان الجواب غيرها فهى جملة إنشائية، دعاء عليهم، وقرئ: ﴿قُتِلَ﴾ [البروج: ٥] قتل بالتشديد، قرأها الحسن وابن مقسم وقرأها الجمهور بالتخفيف أ. هـ. و الأخدود الشق العظيم المستطيل فى الأرض كالخندق، وكان أصحابه قد شقوه وأوقدوا فيه النار حتى ملأوه نارا: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ [البروج: ٥] وقد استحق أصحاب الأخدود هذه النعمة وهذا الغضب فى الحالة التى كانوا عليها وهم يرتكبون ذلك الأثم، ويزاولون تلك الجريمة: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] وهو تعبير يصور موقفهم ومشهدهم وهم يوقدون النار، ويلقون بالمؤمنين والمؤمنات فيها وهم قعود على النار،

قريبون من عملية التعذيب الشبعة، يشاهدون أطوار التعذيب، ويتلذذون بهذا المشهد البشع الشنيع وقيل: كانوا بنجران في الفترة بين عيسى ومحمد ﷺ .

وعلى قول ابن عباس رضي الله عنهما بأن: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] أى لعن الذين خلدوا الأخاديد وقعدوا عليها يلقون فيها المؤمنين، يكون فى جواز لعن من أذى المؤمنين على جهة العموم والجملة، وقد ورد: ﴿فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٨٩]، ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ١٨] ووردت الأحاديث بلعن شارب الخمر والنامصة والمتنمصة والواشمة والمستوشمة، والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله، ولعن من غير منار الأرض، ومن أوى محدثا . . . فلا بأس بلعن من وردت النصوص بلعنه، ومعنى اللعنة أى الطرد من رحمة، وهذه خاتمة لا يعلمها إلا الله، وإلا فالشخص المعين قد يتوب إلى الله توبة نصوحا وقد يتلى بمصائب مكفرة أو تكون له حسنات ماحية أو قد تلحقه شفاعة شفيع، ولذلك قال جمهور العلماء: يجوز لعن شارب الخمر ونحوه مما وردت النصوص بلعنه وذلك على جهة العموم والجملة، أما الشخص المعين الذى شرب الخمر فلا يجوز إطلاق وصف اللعن عليه لأن الوعيد قد لا يتحقق لفوات شرط أو وجود مانع، ولحديث الرجل الذى كان أكثر ما يؤتى به لرسول الله ﷺ وهو مخمور، فقال البعض لعنه الله ما أكثر ما يؤتى به لرسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله»، أو «ما أعلمه إلا أنه يحب الله ورسوله» ونهى عن لعنه رغم شربه الخمر، ولا ينبغى للمسلم أن يكتر من اللعن فإن رسول الله ﷺ لم يبعث لعانا.

خامسا : شاهد الكفار إحراق المؤمنين بالنار متلذذين لقسوة قلوبهم

قال الله تعالى : ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ [البروج: ٤] { أى أن أولئك المؤمنين قتلوا بالإحراق بالنار على تفسير، وكانت نارا عظيمة لكثرة حطبها: ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ﴾ [البروج: ٥] فالوقود اسم للحطب أو غيره، قال الله تعالى : ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: ٢٤].

وقد ذكر بعض العلماء أن القاتلين كانوا جالسين فيها وكانوا يعرضون المؤمنين على الناس؛ فمن كان يترك دينه تركوه، ومن كان يصبر على دينه ألقوه فى النار قال تعالى : ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦] وكانهم قعدوا على طرف النار وشفيرها والمواضع التي يمكن الجلوس فيها يشاهدون ما يحدث للمؤمنين وهذا يدل على قسوة قلوبهم حيث حضروا فى تلك المواطن المنفرة والأفعال الموحشة ولربما طمعوا فى أن هؤلاء المؤمنين إذا نظروا إليهم هابوا حضورهم واحتشموا من مخالفتهم، وما حدث بالأمس للمؤمنين يتكرر اليوم على أيدي الصرب الظالمين، وهنا وهناك، مما يدل على قسوة قلوب الكافرين وتحجرها، ولا تنزع الرحمة إلا من شقى، وفى الحديث عن أبى هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : «عذبت امرأة فى هرة حبستها، حتى ماتت فدخلت فيها النار، و قيل لها: لا أنت أطعمتها ولا سقيتها بحين حبستها ولا أنت أرسلتها فأكلت من خشاش الأرض»^(١).

وورد عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش فنزل بئرا فشرب منها ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال : لقد بلغ بهذا مثل الذى بلغ منى فمأخفه ثم أمسكه بفيه ثم رقى فسقى الكلب فشكر الله فغفر له، قالوا : يارسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا؟ قال: فى كل كبد رطبة أجر»^(٢) فمن لا يرحم لا يرحم، وفى الحديث : «أنما يرحم الله من عباده الرحماء»^(٣) وورد : «أرحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء»^(٤) والإيمان من شأنه أن يورث رحمة، أما الكفر فمن شأنه أن يولد فى القلوب قسوة وفى النفوس غلظة، وتكفى نظرة سريعة على طريقة تعاملهم مع قضايا المسلمين فى البوسنة وكوسوفو

(١) (٣، ٢، ١) رواه البخاري .

(٢) رواه الطبراني والحاكم بسند صحيح .

وفلسطين والشيشان وارتيريا... لنذكر مدى تشابههم قديما وحديثا، وهنا وهناك على اختلاف ألوانهم وألستهم وأوطانهم: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] وحتى لا ننخدع بالشعارات البراقة التي يروجون لها كشعارات حقوق الإنسان، والإنسانية، والعدل... فهي أن طبقت يوما، فلا تطبق إلا مع من كان على شاكلتهم في الكفر.

السادسة: عذب الجبابرة بالنار جزاء وفاقا

الرواية المشهورة أن المقتولين هم المؤمنون، وروى أيضا أن المقتولين هم الجبابرة لأنهم لما ألقوا المؤمنون في النار عادت النار على الكفرة فأحرقتهم ونجى الله المؤمنين منها سالمين وإلى هذا القول ذهب الربيع بن أنس والواقدي وفسروا قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] أى لهم عذاب جهنم في الآخرة ولهم عذاب الحريق في الدنيا، وعلى هذا التفسير، قد يكون المراد بقوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤] أن أولئك الجبابرة القاتلين لما أرادوا قتل المؤمنين بالنار عادت عليهم النار فقتلتهم، وحيث أن يكون الضمير في هم عائد إلى أصحاب الأخدود بمعنى القاتلين، والضمير في عليها: ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ﴾ [البروج: ٦] عائد إلى النار فإن أولئك القاتلين كانوا قاعدين على النار، فلما ألقوا المؤمنون في النار ارتفعت النار إليهم فهلكوا بنفس مافعلوا بأيديهم لأجل إهلاك غيرهم، فكانت الآية دالة على أنهم في تلك الحالة كانوا ملعونين أيضا ويكون المعنى أنهم خسروا الدنيا والآخرة.

والقول بأن المقتولين هم الجبابرة أقل شهرة، وإن كان لا يبعد، فالجزء من جنس العمل وبأسه سبحانه لا يرد عن القوم المجرمين، وإنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون وهو جل وعلا قادر على كل شيء، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، وقد يعجل العقوبة للكافر في الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] فهؤلاء الجبابرة إن لم يلحقهم التحريق والعذاب في الدنيا، فلن يفلتوا من عذاب الآخرة، وجزاؤهم هنالك سيكون من جنس عملهم: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] فعذاب جنهم هو العذاب الحاصل بسبب كفرهم، وعذاب الحريق هو العذاب الزائد على عذاب الكفر بسبب أنهم أحرقوا المؤمنين وهذا من عدل الله في خلقه، ومن سنته في عباده ولذلك لما قال فرعون ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ

لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ [الزخرف: ٥١] أجراها سبحانه من فوق رأسه جزءا وفاقا، ومات يوم مات وهو يقول: ﴿أَمِنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] فقيل له: ﴿آلَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] ولما كانت فعلة قوم لوط تدل على انتكاس الفطرة: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ [الشعراء: ١٦٥] كان عذابهم مناسبا لفعالهم، فقد قلبت الملائكة القرية على من فيها وصار عاليها سافلها، وأمطروا حجارة من سجيل منضود: ﴿مُسُومَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] وقد صارت قريتهم سدوم عبارة عن بحيرة متنتة في مقابلة نتن فعلهم، فلا يستبعد أن يتم تحريق الجبابرة الكفرة القاتلين بالنار في الدنيا قبل الآخرة على نحو ما ذهب إليه بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ﴾ [البروج: ٤].

السابعة: أعدوا للبلاء تريبا فأفقد أمتكم بالله

العزیز الحمید الشہید الملک

تهمة وجهت للمؤمنين بالله في كل عصر ووقت وهنا وهناك، ولم يسلم منها الأنبياء ومن تابعهم بإحسان، دفعوا ثمن إيمانهم، فمنهم من جاد بنفسه ومنهم من سجن ومنهم من طرد، ومنهم من أودى وعذب طابور طويل من المعذبين في الأرض، لا جريرة لهم إلا إسلام الوجه لله تعالى فهذه تهمة نبي الله إبراهيم عليه السلام . عندما قال له: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ [مريم: ٤٣] فما كان من أبيه أزر إلا أن تهدد وتوعد وقال: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ عَلَّمْتُكَ لِيَأْتِيَنَّكَ آيَاتِي وَرَأَيْتَ أَنَّكَ تُكْفِرُ بِمَا كُنْتَ إِذْ كُنتَ إِتَّقِي اللَّهَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْتَ بِالْآيَاتِ الْكَاذِبُ﴾ [مريم: ٤٦] وكان قوم إبراهيم يعبدون الكواكب والأصنام فتأفف منهم وقال: ﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٦٧] ثم شرع يكسر هذه الأصنام التي عبدت من دون الله فأضرموا له النيران وقذفوه فيها فكانت بردا وسلاما عليه، وترك أرضه وهو يقول: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّهِدِينَ﴾ [الصفافات: ٩٩] ثم انتقل إلى محاوررة ومناظرة النمرود أى إلى فتنه وابتلاء آخر، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ

آتاهُ اللهُ الْمَلِكُ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾

لقد قتل نبي الله يحيى ونبي الله زكريا وحاولوا قتل نبي الله عيسى فرفعه الله إليه وقالوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ ﴿النمل: ٥٦﴾ وحدثت المواجهة بين نبي الله موسى وفرعون، الذي ادعى الربوبية والألوهية مع الله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ﴿طه: ٤٩-٥٢﴾ لقد أضل فرعون قومه وماهدى، واستخف قومه فأطاعوه، أنهم كانوا قوما فاسقين، وبلغ من استخفافه بعقولهم أن قال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ﴾ ﴿غافر: ٢٦﴾ وتجابوب معه الملائق قالوا: ﴿أَنْذِرْ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرْكُمُ الْأَهْلِيَّةَ قَالَ سَنُقْتِلُ آبَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٧﴾ فقال موسى لبي نبي إسرائيل: ﴿اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٨﴾ ثم أتبعهم فرعون بجنوده بغيا وعدوا، فلما رأت بنو إسرائيل أن البحر أمامهم وفرعون خلفهم ووراثهم قالوا ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ قال نبي الله موسى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿الشعراء: ٦٢﴾ ولما بُعث رسول الله ﷺ واجهه كفار قريش بكل صنوف الأذى، فقد حاصروه وخنقوه ووضعوا سلا الجذور على ظهره الشريف وحاولوا قتله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ ﴿الأنفال: ٣٠﴾ واضطروه للخروج من أحب بلاد الله إلى الله ومن أحب بلاد الله لنفسه الشريفة صلوات الله وسلامه عليه، وقال لولا أن قومك أخرجوني ما خرجت منك أبدا، كما أودى في شخص أصحابه الكرام ﷺ أجمعين حتى اضطروا للهجرة مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة: ﴿الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بغيرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ ﴿الحج: ٤٠﴾ وتهمتهم يومئذ هي تهمة كل من سبقهم بإحسان، هي تهمة صاحب يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الكهف وهي تهمة الرسل الذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَنَعُودَنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدَ﴾ ﴿إبراهيم: ١٣-١٤﴾ قال تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ ﴿الحجر: ١١﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

مَنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ اتَّوَصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿الذاريات: ٥٢﴾ وكان لسان حال المؤمنين في كل زمان ومكان يقول للطغاة والطواغيت: ﴿هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ ﴿المائدة: ٥٩﴾ وتأتى قصة أصحاب الأخدود لتؤكد أن الإيمان صورة تكرر وأن الجنة سلعة غالية فما يكاد العبد يضع قدمه على طريق الإيمان حتى تقوم الدنيا ولا تقعد، وحتى يواجه بكل صنوف الأذى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿البروج: ٩﴾ كانوا يقولون لهم: إما أن ترجعوا عن دينكم، وأما أن تلقوا في النار، ولم يحرقوهم على إيمانهم السابق بل على أصرارهم على الإيمان للمستقبل، نعموا منهم لثباتهم على الإيمان بالله العزيز الحميد، وفي ذلك إشعار بأنه سبحانه وتعالى قادر على نصره المؤمنين والانتقام من الكافرين، وبيان أن المؤمنين آمنوا رغبة منهم ورهبة، رغبة في الحميد ورهبة من العزيز، لقد آمنوا بالله الذى له ملك السموات والأرض، القاهر فوق عباده والمدير أمر ملكه، الذى لا يخرج عن سلطانه أحد، وقد جاء فى الآية ترغيب وترهيب للجبابرة الطغاة، حتى لا يئأس أولئك الكفار من فضله ورحمته، إذ أعطاهم المهلة وهذا من آثار صفة الحميد سبحانه، وذكرهم بأنه الشهيد على أفعالهم فلن تخفى عليه خافية، وكما كانوا قعودا على النار وشهودا على إحراق أولياء الله تعالى، فإنه سبحانه سيعاملهم بالمثل، إذ يحرقهم وهو عليهم شهيد، وهكذا ارتبط أول السورة: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ ﴿البروج: ٩﴾ ومن ذلك فعل أولئك الكفرة وفيه شدة تخويف أولئك وتحذيرهم وتهديد كل من كان على شاكلتهم من المجرمين كما أن فى ثناياها وعد عظيم للمطيعين.

إن الله تعالى هو العزيز الحميد الملك الشهيد: ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ ﴿الأعراف: ٨٠﴾ فثبت أن من كان موصوفا بهذه الصفات كان من المستحق للإيمان به وغيره لا يستحق ذلك البتة فكيف حكم أولئك الكفار الجهال بكون مثل هذا الإيمان ذنبا، فعلى كل مؤمن أن يوطن نفسه على معالى الأمور ويأخذ نفسه بالعزم ويعد للبلاء تريبا، ويعلم أن المعبر عنده سبحانه من الأفعال عواقبها فهو وإن كان قد أمهل لكنه ما أمهل، فإنه تعالى يوصل ثواب أولئك المؤمنين إليهم، وعقاب أولئك الكفرة إليهم، فهو العزيز الذى لا يغلب والقاهر الذى لا يدفع الحميد الذى يستحق الحمد والثناء على السنة عباده المؤمنين، وإن كان من بعض الأشياء

لا يحمدہ بلسانہ فنفسه شاهده على أن المحمود فى الحقيقة هو هو كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] فأعتصم بجنابه ووثق صلتك به: ﴿وَمَنْ يَعْتَصِمِ بِاللَّهِ فَقَدْ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٠١] وتذكر أصحاب الأخدود إن ساوموك على إسلامك أو لم يكتفوا بذلك فساموك سوء العذاب فالحياة بغير الله سراب، وإليه سبحانه وحده المرجع والمآب.

الثامنة: دعاهم سبحانه إلى التوبة

رغم أنهم أحرقوا أوليائه وفتنوهم

تعجبت الآيات من ظلم الملك وجنده أنهم يأتون بمثل هذه الفظاعة لا لجرم من شأنه أن ينقم من فاعله، فما نقموه على المؤمنين حقيق بأن يمدحوا به لأنهم آمنوا برب حقيق بأن يؤمن به لأجل صفاته التى تقتضى عبادته ونبذ ما عداه، وقد توعدت الذين اتخذوا الأخدود، ووعدت الذين عذبوا فى سبيل الله، وهذه المعانى تتعدى هؤلاء إلى ما حدث بمكة للمؤمنين بلال وعمار وصهيب وسمية على أيدى كفار قريش وهى قصة الفتنة التى يتعرض لها المؤمنون هنا وهناك والصد عن سبيل الله والتنفير من طاعة الله الذى يمارسه الطغاة فى كل عصر ووقت، وعلى الرغم من ذلك فليس للمعذبين فى الأرض أن يتألوا على الله ولا أن يقطعوا بخاتمة هؤلاء الذين عذبوهم وفتنوهم، فقد يتوبون إلى الله ويحسنون المسير إلى الله، ويكونون بعد ذلك عابدا صالحين، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] وأصل الفتنة الإبتلاء والإمتحان، وذلك لأن أولئك الكفار أمتحنوا أولئك المؤمنين وعرضوهم على النار وأحرقوهم .

قال ابن عباس ومقاتل: ﴿فَتِنُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾ حرقوهم بالنار، ورغم فعلتهم هذه إلا أنه سبحانه دعاهم للتوبة وفتح أمامهم أبواب الرجاء، فقال: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ وهذا دليل على أنهم لو تابوا لخرجوا عن هذا الوعيد، وذلك يدل على القطع بأن الله تعالى يقبل التوبة، ويدل أيضا على أن توبة القاتل عمدا مقبولة.

وقد عد من الذين فتنوا المؤمنين أبو جهل رأس الفتنة، وأميه بن خلف، وصفوان بن أمية والأسود بن عبد يغوث، والوليد بن المغيرة، وأم أئمار ورجل من بنى تيم، وعد من

المفتونين بلال بن رباح كان عبداً لأمية بن خلف فكان يعذبه، وأبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، وخباب بن الأرت كان عبداً لأم أئمار، وعمار بن ياسر، وأبوه ياسر، وأخوه عبد الله كانوا عبيداً لأبي حذيفة بن المغيرة فوكل بهم أبا جهل، وعمار بن فهيرة كان عبداً لرجل من تيم.

والمؤمنات المفتونات منهن : حمامة أم بلال أمة أمية بن خلف، وزنيرة، وأم عنيس كانت أمة للأسود بن عبد يغوث، والنهدية وابنتها كانت للوليد بن المغيرة، ولطيفة، ولبيبة بنت فهيرة كانت لعمر بن الخطاب قبل أن يسلم كان عمر يضربها، وسمية أم عمار بن ياسر كانت لعم أبي جهل، وفتن ورجع إلى الشرك الحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلى بن أمية بن خلف، والعاصي بن المنبه بن الحجاج. وذكر المؤمنات عقب المؤمنين للتبويه بشأنهن لثلاث يظن أن هذه الميزة خاصة بالرجال، ولزيادة تفضيح فعل الفاتنين بأنهم اعتدوا على النساء، والشأن أن لا يتعرض لهن بالغلظة.

وباب التوبة مفتوح ما لم يغرغر العبد وما لم تطلع الشمس من مغربها، والتوبة مقبولة من كل ذنب كفرًا كان فما دونه قال الله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ {الأنفال: ٣٨} وقال: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ {الزمر: ٥٣} وقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ لَهُمْ وَمَنْ يَصْرِوْا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ {آل عمران: ١٣٥} والنصوص في هذا المعنى كثيرة، ومن جملة ذلك حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، وكمل المائة بالراهب الذي أغلق أمامه أبواب التوبة، والحديث في صحيح مسلم.

فإن لم يتوبوا من كفرهم وجرمهم: ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ﴾ {البروج: ١٠} والحريق إذا كان مفهوماً من عذاب جهنم لكن الآية جاءت به ليكون مقابلاً للحريق في الأخدود مع البون الشاسع بين حريق الدنيا وحريق الآخرة، في شدته وفي مدته، والزج بهم في جهنم عذاب قبل أن يذوقوا حريقهم لما فيه من الخزي، وقد يراد بالحريق بعد ذكر جهنم، مضاعفة العذاب لهم كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَفْسِدُونَ﴾ {النحل: ٨٨}

ويجوز أن يراد بعذاب الحريق، حريق بغير جهنم وهو ما يضرهم عليهم من نار تعذيب قبل يوم الحساب كما جاء في الحديث «القبر حفرة من حفر جهنم أو روضة من رياض الجنة»^(١).

ويبقى التفريق بين المسلم والكافر: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٦] فمرتكب الكبيرة إن مات عليها ولم يتب منها وكان مسلماً، يقع تحت المشيئة، إن شاء الله غفر له بفضلها، وإن شاء عذبه بعدله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١٨٦] ومثل هذا إن دخل النار لا يدخلها دخول الكفار ولا يعذب فيها عذاب الكفار ولا يخلد فيها خلود الكفار.

التاسعة: النجاة والفوز الحقيقي للمؤمنين،

وإن انتهت حياتهم بتحريق

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] يحتمل أن يكون مراداً به أصحاب الأخدود، ويحتمل أن يكون عاماً في كل من أذى المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم ويردوهم عنه بأي أنواع الفتنة والتعذيب، وحمله على العموم أولى، فالآية تشتمل كفار قريش وغيرهم، ويرجع هذا العموم، العموم الآخر الذي يقابله في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١] فهذا عام بلا خلاف في كل من اتصف بهذه الصفات، بمعنى يشمل المؤمنين المذكورين في قصة أصحاب الأخدود كما يشمل المؤمنين في كل زمان ومكان، وهذا يوضح لك أن العبرة بالنهاية والخاتمة، وأن الأمر في الحقيقة والواقع على ما عند الله، فأنت قد لا ترى من الأمر إلا التعب والمشقة والأذى، لا ترى إلا نفوساً معذبة، والأمر ليس كذلك، فلو اطلعت على القلوب لوجدت أمراً عجباً، ولعلمت أن عافية المؤمن وراحته إنما هي في طاعة الله حتى وإن كلفته نفسه، فهذا بلال يعذب في ذات الله وتوضع عليه كتل الصخر في حر الظهيرة وهو يقول: أحد أحد، ويصبر عمار وأبوه ياسر وأمه سمية على الأذى محتسبين الأجر عند الله حتى يقتل ياسر وزوجته سمية، ويكفي حذافة وهو يعاين موت الأسير المسلم فيطعم فيه ملك الروم فيقول له حذافة: لوددت أن لي مائة نفس قتلت هذه القتلة في سبيل الله.

ولما أرادوا قتل خبيص بن عدي سألهم المهلة حتى يصلى لله ركعتين فلما فرغ قال :
والله لولا أن تظنوا أنى أطلت الصلاة مخافة القتل لأطلتها أكثر، ثم قال: اللهم اللهم
أنى لا أرى إلا وجه عدو ولا أرى وجه أحد يقرئ رسولك منى السلام فأقرأه منى
السلام، ثم ناوشوه بالسيوف والرماح فوقع وهو يقول:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً علي أن جنب كان في الله مصرعى
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك علي أوصال شلو ممزع

ولما كان يوم أحد قال خيشمة لابنه سعد: اجلس مع نساتك وأنا أكفيك الخروج - أى
لقتال الكفار - فقال له سعد : لو كان غير الجنة لأثرتك به، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه
وفاته يقول : اليوم ألقى الأجرة محمد وصحبه، أنها النفوس التي وجدت راحتها في
الصلاة والصيام وتلاوة القرآن . . . و: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ﴾ {الذاريات: ١٨} رهبان الليل فرسان النهار لهم شأن وللناس شأن، علموا أن
الحياة ممتدة زماناً لأبد الأبدين، ومكاناً إلى جنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا
خطر على قلب بشر، وكانوا على بصيرة من أمرهم وأمر الناس، وجدوا أن الحياة بغير
الله سراب، وأن الدنيا دار عمل وكسب، وأن طلب الراحة فيها للرجال غفلة، فركبوا
سفن الآخرة وطلبوا نعيماً لا ينفد وقرّة عين لا تنقطع، وآثروا ما يبقى على ما يفنى،
وجدوا أن النجاة غدا لمن باع قليلاً بكثير ونافدا بباقي، وأن الفوز لمن زحزح عن النار
وأدخل الجنة، ولمن جاءته ملائكة الرحمة قبل ذلك، ونودى بأحب أسمائه التي كان
ينادى بها في الدنيا، وألهم رشده عندما سئل في قبره من ربك وما دينك وماذا تقول في
الرجل الذي بعث فيكم؟ فأجاب ربي الله ودينى الإسلام، والرجل الذى بعث فينا هو
محمد صلوات الله عليه أمنت به وصدقت، فنادى مناد من السماء أن صدق عبدى فافرشوا له من
الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة يأتيه من ريحها وطيبها.

أن الفوز الحقيقى لمن أوتى كتابه يمينه غدا فيقول فرحاً: ﴿هَازُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ إِنِّي
ظَنَنْتُ أَنِّي مَلَأْتُ حِسَابِيَهٗ فَهُوَ فِي عَيْشَةٍ رَّاضِيَةٍ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ قَطُوفُهَا دَانِيَةٌ كُلُّوا وَأَشْرَبُوا
هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ {الحاقة: ١٩-٢٤} النجاة لمن ثقلت حسناته وغلبت
سيئاته، ومر على الصراط المضروب على متن جهنم بسلام، وقيل له: يا فلان بن فلان
سعدت سعادة لا شقاء بعدها أبداً .

أن الدنيا هي سجن المؤمن وجنة الكافر، وغمسة واحدة في الجنة تنسي الإنسان شقاء الدنيا بحيث لو قيل للعبد: هل رأيت بؤسا قط، لقال: لا والله يارب.

ما قيمة لذة يعقبها حسرة وندامة، هي أشبه بلذة ساعة وألم دهر، وما قيمة راحة ومتمتع يعقبها شقاء وتعاسة لا تنتهي: ﴿فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤] أن المؤمنين قوم أطلق الله فراستهم، وعابنوا ما خلقوا من أجله، فأحسنوا المسير إلى الله.

إن لله عباداً فطناً طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا أنها ليست لحى وطناً
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً

العاشرة: الفارق كبير بين بطش وبتش

تهديد في صورة الخبر مثل: ﴿إِنَّ لِرَبِّكَ لِبَلْمُرْسَادٍ﴾ وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخْذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] فهو سبحانه القادر على نصرة المؤمنين والانتقام من الكافرين، وليس أصحاب الأخدود ولا مشركو قريش بمعجزين في الأرض، ولا قدرة لهم على حرب الله، فهو الذي ﴿أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ﴾ [النجم: ٥٠-٥٤] وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرهَا مِّن دَابَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥] وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول لشيء كن فيكون ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَّمِجَ بِالْبَصْرِ﴾ [القمر: ٥٠]، وقال ﴿وَالْأَرْضَ جَمِيعًا قبضته يوم الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتِ مَطْوِيَّاتٍ بِيَمِينِهِ﴾ [الزمر: ٦٧] وقال ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةً﴾ [القمان: ٢٨] وقال: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نَّعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وقال: ﴿وَكُلُّ أُنثَىٰ دَاخِرِينَ﴾ [الملك: ٨٧] وقال: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ماشأن من طالع هذه الآيات البيّنات وغيرها وقرأ قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] إلا أن ينخلع قلبه وتنب نفسه إلى الله، كيف يجروا على الكفر، ويدعى الربوبية والألوهية مع الله، ويصد عن سبيل الله، وينفر من طاعة الله، من علم شدة بطشه سبحانه وأليم عقابه، إن النفس لتتزجر عن غيرها وتقلع عن معصيتها متى تحققت وتيقنت قول ربها: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ لقد حذر سبحانه خلقه وعباده من بطشه الشديد، وهذا من رحمته ورأفته، فأبى أكثر الناس إلا كفورا، غلب عليهم الشقاء، فلم يرفعوا بذلك رأسا، ولم يتنفع بذلك إلا المؤمنون، فأمنوا رغبه ورهبة، ورغبه في الحميد الغفور الودود، ورهبة من العزيز: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ وهذا كمال الإيمان - رغبة ورهبة وأحسن حالات المؤمن.

أن الفارق كبير بين بطش ويطش، فبطش الناس مهما تعاضم وأشدت، إنما هو في زمن محدود ورقعة من الأرض محدودة، وعلى قدر ضعف البشر وعجزهم، فكيف يقاس أو يقارن ببطش المنتقم الجبار الذى له ملك السموات والأرض، فلا تجعل فتنة الناس كعذاب الله، واثبت على طاعة ربك مهما لاقيت فلك في ركب الإيمان الذى تقدمك أسوة حسنة وقدوة طيبة

الحادية عشر: المبدئ المعيد

إن الله تعالى هو الأول الآخر، الظاهر الباطن، المحيى المميت، القابض الباسط، الخافض الرافع، المعز المذل، الضار النافع، المقدم المؤخر: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨] وقد وردت الأسماء المذكورة مزدوجة، بحيث أنها لا تفيد الكمال بمفردها ويجب اقترانها بمقابلها، فلا يجوز أن يثنى على الله بمجرد الإذلال والإضرار والمنع، والصواب أن يقال: المعز المذل، الضار النافع.

قال ابن تيمية: «الكمال ثابت لله، بل الثابت له هو أقصى ما يمكن من الأكملية بحيث لا يكون وجود كمال لا نقص فيه إلا وهو ثابت للرب - تبارك وتعالى - يستحقه بنفسه المقدسة».

وقال ابن القيم : «صفات الله كلها صفات كمال محض، فهو موصوف من الصفات بأكملها، وله من الكمال أكمله، وهكذا أسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها، فليس في الأسماء أحسن منها، ولا يقوم غيرها مقامها ولا يؤدي معناها» أ. هـ.

وقد ورد في سورة البروج، وصفه سبحانه بالمبدئ المعيد، هكذا على سبيل المقابلة قيل : يبدئ الخلق ويعيده، كالزراع والنبات والإنسان بالمولد والموت ثم بالبعث. وقيل : يبدأ الكفار بالعذاب ويعيده عليهم، أستدل لهذا بقوله : ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦] وفي الحديث : «مامن صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا إذا كان يوم القيامة، بطح لها بقاع قرقر، ثم يأتي بها أوفر ماتكون سمنا فتطوه بخفافها فتستن عليه كلما مر عليه آخرها أعيد عليه أولها حتى يقضى بين الخلائق فيرى مصيره إما إلى الجنة، وإما إلى النار.....». إلى آخر الحديث في صاحب البقر والغنم والذهب، ويكثر ورود هذه الصفة في القرآن بالمعنى الأول كقوله تعالى : ﴿إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٤٠] وقوله : ﴿قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ﴾ [يونس: ٣٤] وقوله : ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدْنَا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ورد على المشركين بقوله : ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [يونس: ٣٤] وقد ورد اسم المبدئ المعيد في حديث الترمذي وقال : هذا حديث غريب وقد روى من غير وجه عن أبي هريرة ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث أ. هـ.

الثانية عشر: المناسبة وأوجه الشبه

بين قصة أصحاب الأخدود وحديث الجنود

قال الشيخ عطية محمد سالم في تمة أضواء البيان:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ .

بعد عرض قصة أصحاب الأخدود تسلياً للمؤمنين وتثبيتاً لهم، وزجراً للمشركين وردعاً لهم، جاء بأخبار لبعض من سبق من الأمم، وفرعون وثمود بدل من الجنود، وهم جمع جند، وهم الكثرة وأصحاب القوة، وحديثه ما قص الله من خبره مع موسى وبنى إسرائيل.

وفي اختيار فرعون هنا بعد أصحاب الأخدود لما بينهما من المشاكلة والمشابهة، إذ فرعون طغى، وأدعى الربوبية، وكذلك أصحاب الأخدود الذى قال لجليسه: ألك رب غيرى؟ ولتعذيبه بنى إسرائيل بتقتيل الأولاد واستحياء النساء، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم، ولتقديم الآيات والبراهين على صدق الداعية، إذ موسى عليه السلام قدم لفرعون من آيات ربه الكبرى فكذب وعصى، والغلام قدم لهذا الملك الآيات الكبرى: إبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وعجز فرعون عن موسى وإدراكه، وعجز الملك عن قتل الغلام إذ نجاه الله من الإغراق والدهدهة من قمة الجبل، فكان لهذا أن يرعوى عن ذلك ويتفطن للحقيقة، ولكن سلطانه أعماه كما أعمى فرعون.

وكذلك أمن السحرة لما رأوا آية موسى وخروا لله سجداً.

وهكذا هنا آمن الناس برب الغلام، فوقع الملك فيما وقع فيه فرعون. إذ جمع فرعون السحرة ليشهد الناس عجز موسى وقدرته، فأنقلب الموقف عليه، وكان أول الناس إيماناً هم أعوان فرعون على موسى، وهكذا هنا كان أسرع الناس إيماناً الذى جمعهم الملك ليشهدوا قتله للغلام.

فظهر تناسب ذكر فرعون دون غيره من الأمم الطاغية السابقة، وإن كان فى الكل عظة وعبرة، ولكن هذا انتهى الإعجاز فى قصص القرآن وأسلوبه، والله تعالى أعلم.

وكذلك ثمود لما كان منهم من مظاهر القوة والطغيان، وقد جمعها الله أيضا معا في سورة الفجر: ﴿وَتَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ﴾ [الفجر: ٩-١٠] وهكذا جمعها هنا فرعون وثمود.

قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾.

أى مستمر فى كل الأمم، وتقدم فى سورة الإنشقاق قبلها ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ﴾ [الإنشقاق: ٢٢].

فقال الكرمانى، محمود بن حمزة بن نصر تاج القراء فى كتابه «أسرار التكرار فى القرآن»: «إن المغايرة لمراعاة رؤوس الآى والفواصل، ولكن الظاهر من السياق فى الموضوعين مراعاة السياق لا فواصل الآى، لأن فى سورة الإنشقاق الحديث مع المشركين ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكْذِبُونَ﴾ [الإنشقاق: ١٩-٢٢].

وفى سورة البروج هنا ذكر الأمم من فرعون وثمود وأصحاب الأخدود والمشركين فى مكة، ثم قال: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ فناسب هذا هنا، وناسب ذاك هناك والله تعالى أعلم.

الثالثة عشر: تواصل معاني الترغيب والترهيب

فى ثنايا السورة

فتح سبحانه أبواب الرجاء للعصاة والكافرين ولن أحرقوا أوليائه، ترغيبا لهم فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنَّا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠] وأنذرهم بطشه وأليم عذابه، إن هم استمروا على كفرهم وعصيانهم ولم يتوبوا إلى ربهم، ترهيبا لهم فقال: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢] وتواصلت معانى الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد فى ثنايا السورة فوصف نفسه سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْودُودُ﴾ [البروج: ١٤] والمغفرة تتصل بقوله من قبل: ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا﴾ [البروج: ١٠] فهو يقبل القليل من العمل ويغفر الكثير من الزلل، كما أنه يستر ذنوب عباده المؤمنين لا يفضحهم بها، فعل ذلك تفضلا من غير جزاء، فليس له ولد يغفر لهم من أجله، وهو سبحانه الودود أيضا أى المحب لأوليائه قال ابن عباس: كما

يود أحدكم أخاه بالبشرى والمحبة، وعنه أيضا: ﴿الْوَدُودُ﴾ [البروج: ١٤] أى المتودد إلى أوليائه بالمغفرة .

وقال مجاهد: الواد لأوليائه، كما أنه سبحانه المودود الذى يوده عباده الصالحون ويحبونه، فانظر رحمك الله كيف فتح باب المغفرة فى وجه العائد التائب ولو عظم الذنب وكبرت المعصية، وكيف تودد إلى أوليائه وهو غنى عنهم، فما قيمة الحياة التى ضحوا بها وهى ذاهبة؟ وما قيمة العذاب الذى احتملوه والألم الذى لاقوه فى مقابل هذا الود الذى آتسهم وعاملهم به، ألا هانت الحياة وهان الألم وهان العذاب وهان كل غال عزيز فى سبيل الله الغفور الودود.

قال: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦]، والعرش هو أول المخلوقات وقد قدر سبحانه مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء، وقد جاء فى آخر سورة المؤمنون: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦] والمجد هو النهاية فى الكرم والفضل، والله سبحانه المنعوت بذلك، ثم هو سبحانه الفعال لما يريد، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، ولا يكون فى ملكه إلا ما يريد، وما تشاءون إلا أن يشاء الله، يخلق ما يشاء ويختار، ويفعل ما يريده دائما أبدا، وقد حرم الظلم على نفسه، وجعله بين العباد محرما، وجعل خلقه يتقلبون بين فضل وعدل فى الدنيا والآخرة، له سبحانه الأسماء الحسنى والصفات العلى، فله الحمد بكل لسان وعلى كل حال، روى عن أبى السفر قال: دخل ناس من أصحاب النبى ﷺ على أبى بكر رضي الله عنه يعودونه فقالوا: ألا نأتيك بطيب؟ قال: قد رأيتى، قالوا: فما قال لك؟ قال: قال: إني فعال لما أريد.

وفى ختام السورة يأتى قوله تعالى: ﴿بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ﴾ [البروج: ١٩] فشان الكفار وحقيقة حالهم أنهم فى تكذيب يمسون به ويصبحون، رغم مشاهدتهم لدلائل القدرة، ورغم النعم التى يتمرغون فيها وهى لا تعد ولا تحصى، ورغم تواصل معانى الترغيب والترهيب، إلا أنهم يكذبون فهم لم يتسفعوا بوعظ ولا تذكير، وتشابه فى ذلك سابقهم مع لاحقهم، فقد كفروا برسول الله ﷺ، وكذبوا ببعثته وآذوه هو وأصحابه، ودأبهم فى ذلك كدأب من قبلهم، وإنما خص فرعون وثمود، لأن ثمود فى بلاد العرب، وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين وأمر فرعون كان مشهورا

عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك، فدل بهما على أمثالهما في الهلاك كما يقول القرطبي. وهؤلاء الكفار ليسوا بمعجزين، فإن الله قادر على أن ينزل بهم ما أنزل بفرعون، وهو سبحانه العالم بهم سواء وجدوا هنا أو هناك، في هذا الزمن أو في غيره: ﴿وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠].

وجاء في نهاية السورة: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ﴾ [البروج: ٢٢] أى متناه في الشرف والكرم والبركة، وهو بيان ما بالناس الحاجة إليه من أحكام الدين والدنيا، لا كما زعم المشركون، وهل أمجد وأرفع وأعرق من قول الله العظيم: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢٢] أى هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقص والتحريف والتبديل كما قال ابن كثير، وقال الحسن البصرى: إن هذا القرآن المجيد عند الله فى لوح محفوظ ينزل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه.

وكتب الحجاج إلى محمد بن الحنفية رضي الله عنه يتوعده، فكتب إليه ابن الحنفية: ((بلغنى أن لله تعالى فى كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة فى اللوح المحفوظ، يعز ويذل، ويتلى ويفرج، ويفعل ما يريد، فلعل نظرة منها تشغلك بنفسك فتشتغل بها ولا تتفرغ))، واللوحة المحفوظ من أمر الغيب الذى تفرد الله بمعرفة كفيته وكنهه، والذى نخلص به أن هذا القرآن مصون ثابت، قوله هو المرجع الأخير والأمر الفصل، ولقد قال القرآن قوله فى حادث الأخدود، وفى الحقيقة التى وراءه، وكلها معانى تبعث على الرغبة فى رحمته والرهبه من عذابه وإحسان المسير إليه سبحانه.

الرابعة عشر : حقيقة الانتصار في

قصة الغلام وأصحاب الأخدود

جاء في كتاب حقيقة الانتصار لناصر بن سليمان العمر: «وقد أعجبت بما قاله سيد قطب - رحمه الله - حول هذه القصة مبينا حقيقة الانتصار فيها، ولذا سأذكر بعض مآقاله، ثم أضيف ما أراه حولها مما له صلة بموضوعنا:

وكان مما قال-رحمه الله- : «في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية في نفوس الفئة الخيرة الكريمة الثابتة المستعلية لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان، في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة أسيفة أليمة، وفي حساب الأرض يحيك في صدرك شئ أمام هذه الخاتمة الأسيفة.

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئا آخر، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى.

إن الحياة وسائر ما يلبسها من لذائذ وآلام، ومن متاع وحرمان، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الريح والخسارة، والنصر ليس مقصورا على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة.

إن الناس جميعا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكن الناس لا يتصورون - جميعا- هذا الانتصار، ولا يرتفعون هذا الإرتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر، ولا ينطلقون هذا الإنطلاق إلى هذه الأفاق، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده، تشارك الناس في الموت، تنفرد - دون- كثير من الناس في المجد، المجد في الملأ الأعلى، وفي دنيا الناس -أيضا- إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال.

لقد كان في أستطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم كانوا يخسرون أنفسهم وكم كانت البشرية كلها تخسر، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة، وبشاعتها بلا حرية، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح، بعد سيطرتهم على الأجساد.

﴿ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ [البروج: ٨] حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله، في كل أرض، وفي كل جيل.

(إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة، وليست شيئاً آخر على الإطلاق وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة)^(١).

وبعد هذه الدروس التي استخلصها سيد قطب من هذه القصة، أفف عدة وقفات حولها:

١- ثبات الراهب والأعمى، وتخلي الأعمى عن جميع متع الحياة الدنيا في مقابل أن يظفر بعقيدته، إن الراهب قد انتصر في معركة بقائه أو بقاء عقيدته، فاختر أن تبقى العقيدة ولو خسر حياته. أما الأعمى فقد انتصر مرتين، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته.

إن الراهب والأعمى قد خلدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي، بعيداً عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم إنما فعلوا ذلك من أجل الدين، ولو صدقوا لعلموا أن انتصار الدين بأن يفعلوا ما فعله الراهب والأعمى.

٢- عجيب أمر هذا الغلام! لماذا دل الملك على مقتله، ولماذا - مادام أن الله قد منعه من الملك - لم يؤثر البقاء ليلغ رسالة ربه، ويدل الناس على الدين الحق، ويبقى على حياته سالماً.

هذا سؤال قد يتبادر إلى الأذهان: والفهوم التي لم تعرف الحقيقة الانتصار، إن الغلام قد أدرك - بتوفيق من الله - أن كلمة في لحظة حاسمة صادقة، تفعل مالا تفعله آلاف الكلمات في عشرات السنين.

* إن الحياة مواقف، يتميز فيها الصادق من غيره، وقد سنحت فرصة عظيمة لا يجوز تفويتها، ولا يليق تبرير ضياعها، وكما قيل: «إذا هبت رياحك فأغتمها»، وقد هبت رياح هذا الغلام، وهل رياحه إلا تبليغ رسالة ربه، ولو دفع حياته ثمناً رخيصاً في سبيل الله؟

(١) انظر معالم في الطريق فصل: هذا هو الطريق ص ١٧٣.

* إنه انتصار الفهم، وانتصار الإرادة، وانتصار العقيدة عندما تتحول في صدر صاحبها إلى قوة مؤثرة، وحياة صادقة، وليست على هامش حياته وسلوكه وتفكيره، إن هذا الغلام قد انتصر عدة مرات في معركة واحدة، وموقف واحد:

* انتصر بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته، وإخراج أمته ومجمعه من الظلمات إلى النور.

* وانتصر بقدرته على اتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب، متخطيا جميع العقبات، ومستعليا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا.

وأنتصر على هذا الملك الغيبي، الذي أعمى الله بصيرته، فأخرب ملكه بيده، فإنها لا تعمى الأبصار، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

إن الناس قد يتعجبون لأن الغلام قد دل الملك على مقتله، ولكنهم لا يدركون أن الملك قد قتل نفسه بيده لا بيد غيره، فأيهما أولى بالعجب والتعجب؟

إن الغلام أقدم وهو يعي حقيقة مايفعل: أما الملك فأعمته سكرة الملك وشهوة السلطان عن أن يدرك ما خطط له هذا الغلام، في هذه المعركة الفاصلة التي مات فيها فرد وحيث أمة.

* وانتصر الغلام عندما تحقق ما كان يتصوره ويتوقعه وقدم نفسه من أجله، فأمن الناس وقالوا: آمنا بالله رب الغلام.

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ، وسلامة التقدير، نجاح باهر وفوز ظاهر.

* وانتصر الغلام عندما فاز بالشهادة . في سبيل الله، فكل الناس يموتون ولكن القليل منهم من يستشهدون.

* وانتصر أخيرا عندما خلد الله ذكره قدوة لمن بعده، وذكرنا حسنا على لسان المؤمنين، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين.

٣- وتويجا لهذه الانتصارات المتلاحقة.

تأتى نهاية القصة، عندما آمن الناس برب الغلام، آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت، وهنا جن جنون الملك، وفقد صوابه، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف، فى محاولة يائسة، للإبقاء على هيئته وسلطانه وتعييد الناس له .

ثم يحفر أخايدده، ويوقد نيرانه، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين فى النار، وتأتى المفاجأة المذهلة، بدل أن يضعف من يضعف، ويهرب من يهرب، لا تسجل الرواية أن أحدا منهم تراجع أو جبن أو هرب، بل نجد الإقدام والشجاعة، والثبات وها هم يجدون فى اللحاق به، وكأنهم يتلذذون فى تقديم أرواحهم فداء لدينهم، تموت الأجسام وتحيا الأرواح عند خالقها:

﴿وَلَا تَحْسِنَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾

{آل عمران: ١٦٩}.

* والحالة الفريدة التى وردت فى الرواية، هى تلك المرأة التى خافت على رضيعها، ولكنها نسيت أنها قد أرضعته الإيمان والشجاعة والإقدام مع اللبن الذى كان يشربه، فطلب منها التقدم، فأقدمت .

* أى أمة تلك، وأى قوم أولئك، مع الزمن الطويل الذى عاشوه فى الظلام، والسنوات التى أستعبدهم فيها هذا الملك، ومع قصر المدة التى عرفوا فيها الإيمان، فقد عرفوا المنهج حق المعرفة، وكانهم عاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره، أو تربوا عليه كما تربى الغلام فى صباه .

* إنه الإيمان إذا خالط بشاشة القلوب، ولامس الأرواح يفعل العجب .

* لقد رأينا فى قصة الراهب والأعمى ثم الغلام انتصارا فرديا .

ولكننا فى قصة أولئك المؤمنين نرى انتصارا جماعيا قل أن يحدث له فى التاريخ مثيلا .

إنه صفاء العقيدة، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق، وفهم حقيقة الانتصار .

٤- وقبل أن تغادر القصة، يرد سؤال في الأذهان:

ماذا حل بهذا الملك وحاشيته وجنده؟

وهل ذهبت دماء هؤلاء المؤمنين وأرواحهم دون انتقام من الله لمن قتلهم؟

أنا لا نجد في القرآن ولا في السنة أى ذكر لهؤلاء الظلمة، وماذا كان مصيرهم في الدنيا، ولله في ذلك حكمة قد تخفى علينا.

نعم وردت آية في آخر قصتهم فيها دعوة لهم وتحذير ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾ [البروج: ١٠].

قال الحسن البصرى: «انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أوليائه، وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة»^(١).

إن هذه النهاية تحقق معنى من معانى الانتصار، من المتصر؟ الذى نصر عقيدته ودين ربه، وحرقت بضع دقائق، ثم انتقل إلى جنات النعيم، أو ذلك الذى تمتع بأيام فى الحياة الدنيا ثم ماله - إن لم يتب - إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق؟ هل هناك مقارنة بين الحريق الأول، والحريق الثانى، حريق الدنيا، وحريق الآخرة؟ إنها نقلة بعيدة، وبون شاسع، أما المؤمنون الذين حرقوا فى الدنيا، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البروج: ١١]، وتعلن السبيجة التى لا مرأى فيها، ولا جدال: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ﴾ [البروج: ١١]، أليس هذا هو الانتصار؟.

بعض الفوائد والمسائل المتعلقة بالأحاديث

الأولى : حكم تعلم السحر والعمل به

السحر يطلق في اللغة على كل شئ خفى سببه ولطف ودق، وفي الإصطلاح لا يمكن حده بحد جامع مانع، لكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، وقد قسم الفخر الرازى السحر إلى ثمانية أقسام وفي حديث ابن عباس رضي الله عنه - «من أقتبس شعبة من النجوم فقد أقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد»^(١) وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك ومن تعلق شيئا وكل إليه»^(٢) والسحر منه ما هو حقيقة ومنه ما هو تخيل، وذهب الجمهور إلى تخيل كفر من يتعلم السحر ويستعمله ومن ذهب لذلك مالك وأبو حنيفة وأصحاب أحمد وغيرهم، وعن الشافعى إنه إذا تعلم السحر قيل له: صف لنا سحرک، فإن وصف ما يستوجب الكفر مثل سحر أهل بابل من التقرب للكواكب، وأنها تفعل ما يطلب منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد بإحتماله فهو كافر، وإلا فلا أ. هـ.

قال الشنقيطى فى أضواء البيان: «فإن كان السحر مما يعظم فيه غير الله كالقواكب والجن وغير ذلك مما يؤدى إلى الكفر فهو كفر بلا نزاع، ومن هذا النوع سحر هاروت وماروت المذكور فى سورة البقرة فإنه كفر بلا نزاع، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه: ٦٩] وإن كان السحر لا يقتضى الكفر كالأستعانة بخواص بعض الأشياء من دهانات وغيرها فهو حرام حرمة شديدة ولكنه لا يبلغ بصاحبه الكفر أ. هـ.

فإن قتل بسحره إنسانا فإنه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد، وذهب الثلاثة إلى أن ساحر أهل الكتاب لا يقتل لقصة لبيد بن الأعصم، وذهب مالك وأبو حنيفة وأحمد فى المشهور عنهم أن الساحر إذا تاب لا تقبل توبته، وحكم الساحرة كحكم الرجل عند الجمهور.

(١) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٢) رواه النسائي.

قال النووي : «عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عدّه النبي ﷺ من السبع الموبقات ومنه ما يكون كفرا ومنه ما لا يكون كفرا، بل معصية كبيرة، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر فهو كفر وإلا فلا، وأما تعلمه وتعليمه فحرام أ.هـ.

وقد وردت آثار عن ثلاثة من الصحابة فى قتل الساحر وهم عمر ابنته أم المؤمنين حفصة وجندب رضي الله عنه جميعا، ولم يعلم لهم مخالف من الصحابة، وكان الساحر الذى قتله جندب يخيل إليهم أنه أبان رأس الرجل، والواقع بخلاف ذلك أى كان سحره من نحو الشعوذة والأخذ بالعيون، ومن المعلوم أن هذا لم يبلغ بسحره الكفر ولا يجوز تعلم السحر من غير عمل به علي قول جمهور العلماء وذلك لأنه يضر ولا ينفع قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ثم استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين وآية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقية به فلا مانع من ذلك وإن كان بسحر أو ألبفاظ عجمية، أو بما لا يفهم معناه، أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع، وغالب ما يؤثر فيه السحر النساء والصبيان والجهال، ولا خلاف بين العلماء فى أن الساحر قد يتسبب بسحره فى التفريق بين الرجل وامرأته وإصابة الإنسان بمرض، وهناك طرف آخر لا يبلغه الساحر إرتفاق العلماء ومنه أحياء الموتى وقلق البحر وقلب العصا... وأمثال ذلك من عظيم آيات الرسل عليهم الصلاة والسلام. وهناك قدر مختلف فيه بين العلماء مثل هل يصح أن يطير الساحر فى الهواء، وأن يستدق جسمه حتى يدخل من كوة ضيقة، ويجرى على خيط مستدق والسحر الذى أصيب به النبي ﷺ كان من نوع الأعراض البشرية كالأمرض المؤثرة فى الأجسام، ولم يؤثر البتة فيما يتعلق بالتبليغ، إذا النبي ﷺ معصوم بالإجماع من كل يؤثر خلا فى التبليغ والتشريع، وأما بالنسبة إلى الأعراض البشرية كأنواع الأمراض والآلام ونحو ذلك فالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يعتريهم من ذلك ما يعتري البشر لأنهم بشر كما قال تعالى عنهم: ﴿إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَيْنَا مِن شِئَاءِ مَنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١] وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان: ٨] فهذا قول المشركين الظالمين، فعلوا ذلك لينفروا الناس عنه رضي الله عنه، وقال مجاهد: "مسحورا" أى مخدوعا، ولعلمهم قصدوا بمسحورا أنه اختل عقله بالسحر أو الخديعة أو كونه بشرا، وقد ترك النبي ﷺ قتل ابن الأعصم الساحر اتقاء إثارة الفتنة كما ترك قتل المنافقين لئلا يقول الناس: إن محمدا يقتل أصحابه فيكون فى ذلك تفجير عن دين الإسلام.

الثانية: الطغاة يعتمدون على السحر والتنجيم

ورد في الحديث الذي رواه أحمد ومسلم: أن النبي ﷺ قال: «كان فيمن قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاما لأعلمه السحر، فدفعت إليه غلاما كان يعلمه السحر».

ويتضح من ذلك أن هذا الملك الطاغية كان يعتمد على الساحر، ويقربه ويدينه منه، كما كان منه ومن الساحر الحرص على استمرارية هذه الصنعة وهذه الحرفة المقيتة، وما تهاون الساحر وما فرط في أسرار مهته إلا عندما كبر سنه وحضر أجله وقارب الموت، فدفعت له الملك غلاما صغيرا، حتى تواصل الأجيال، ولا ينقطع عن الطاغية مدد الغي والضلال.

فانظر رحمك الله كيف تحكم الشعوب البائسة، وكيف يكون الحال عندما يتباعد الناس عن منهج ربهم!!!! وماذا بعد الحق إلا الضلال، فلا بد وأن يسقط الإنسان في هوة الإنحراف إذ كفر بخالق الأرض والسماوات، وما أكثر صور الإنحراف، ويعظم البلاء والكرب إذا كانوا حكاما وملوكا، فالناس غالبا على دين ملوكهم، وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا﴾ {الأنعام: ١٢٩} فهم على قدرنا ونحن على قدرهم، وهذا في حد ذاته فتنة، وقد سمعنا عن بعض هؤلاء أنه كان لا يدخل الحرب إلا بعد الذهاب للعرافين والمنجمين: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ {البقرة: ١١٨} ولا تدرى أين الدراسات والإستراتيجيات والتكنولوجيا..... وأين قبل ذلك العمل بطاعة الله وتوثيق الصلة به سبحانه والتوكل عليه والإنابة إليه، والأخذ بأسباب تدبير الملك وتحقيق النصر.

إن الطغاة والطواغيت يتشابهون في كل عصر ووقت: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ {الإسراء: ٧٢} ﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ {الملك: ٢٢}.

﴿لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ {الحج: ٤٦} لقد تركوا شرع الله وفيه الهدى والنور والضيء والخير العاجل والآجل... تركوا ذلك كله وتابعوا وساوس شياطين الإنس والجن بسبب انطماس بصائرهم.

وإذا كان هذا هو شأن المبطلين وحرصهم، فعلى أهل الحق أن يحرصوا على استمرار دعوتهم بحيث لا تموت بموت أحد ولا تمرض بمرضه، ولا تسافر بسفره، ولا تتوقف بتوقفه .

وقد قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوم وفاة رسول الله ﷺ : سمن كان يعبد محمداً فإن محمد قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾

{آل عمران: ١٤٤}.

كم من دعوة ماتت بموت حاملها، قصر الأمر على شخصه ولم يتعاهد الآخرين، ولم يحسن تربيتهم، ولم يغرس فيهم تحمل المسئولية وعلو الهمة، فإذا كان أهل الباطل يتعاونون ويتآزرون ويتكاتفون ليطفئوا نور الله بأفواههم، فكيف لا يأخذ المؤمنون بالأسباب الشرعية ويتعاهدون صغارهم وكبارهم، رجالهم ونسائهم بالعلم النافع والعمل الصالح بحيث تتواصل الأجيال ولا يحدث معنا ما حدث مع القبائل اليهودية التي قيل أنها تاهت ولم يعثر لها التاريخ على أثر وواقع الأمر وحقيقته أنها ما زالت تتكاثر وتتناسل ولكنها افتقدت الخصائص اليهودية ولذلك قيل تاهت .

الثالثة: اجتماع الكفر والإيمان والخير والشر في نفس العبد

ورد في الحديث: «دفع إليه غلاما كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر والملك راهب، فأتى الغلام الراهب فسمع من كلامه فأعجبه» فالسحر ضلال وكفر وشر، والراهب يومئذ كان على خير وصلاح وإيمان، وكان الغلام يذهب ويختلف بين الاثنين، يتعلم من هذا ومن ذاك، وقد وردت نصوص الشريعة تدل على أنه قد يجتمع في العبد كفر وإيمان، ونفاق وإيمان... قال تعالى: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ {آل عمران: ١٦٧} وقال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ {الحجرات: ١٤}.

وقد كان هؤلاء الأعراب معهم أصل الإيمان الذي يمنهم من الدخول في عداد المؤمنين ولم يكن معهم الإيمان الكامل الذي يستحقون به هذا الوصف: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله﴾

{النور: ٦٢}.

والإيمان يتضمن الإسلام ويزيد عليه، والإحسان يتضمن الإيمان ويزيد عليه، وهذا إذا اجتمع وصف الإيمان مع الإسلام في نص، أما إذا افترقا بحيث أتت كلمة الإسلام أو كلمة الإيمان بمفردها في نص من نصوص الكتاب والسنة فإن مضمون الكلمة الثانية يدخل في معناها، والإسلام هو الأركان العملية من صلاة وصيام وزكاة وحج، والإيمان هو الأركان القلبية كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسوله واليوم الآخر.

وقد بين النبي ﷺ أن الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة أعلاها قول لا إله إلا الله وأدناها أمأطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان، وشعب الإيمان تسمى إيمانا، وشعب الكفر تسمى كفرا، والطاعات كلها من شعب الإيمان كما في قوله تعالى: ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾ أى صلاتكم التى كتتم تصلونها إلى بيت المقدس قبل أن تحول القبلة، فسمى الصلاة إيمانا، والمعاصى كلها من شعب الكفر وتسمى كفرا كما في قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتله كفر» وقوله: «من أتى امرأة فى دبرها فقد كفر» وقوله: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» فهذا كله صور الكفر الأصغر التى لا تنقل عن الملة إلا أن يستحله الإنسان كأنه يبيحه مع معرفته بتحريم الشرع له اتهاما للدين بالرجعية والتخلف وما شابه ذلك، وبالتالي فقد يتلبس العبد بمعصية أو ذنب أو خصلة من خصال المنافقين كالكذب ونحوه مع إيمانه، فلا يكفر بذلك، ويكون قد اجتمع فيه كفر وإيمان أو نفاق وإيمان..

وقد اتفق أهل السنة على أن شرع الله فيه كفر دون كفر وفسق دون فسق ونفاق دون نفاق وشرك دون شرك وظلم دون ظلم، ومن جملة ما استدل به البخارى وغيره على ذلك حديث: «ورأيت أكثر أهل النار النساء»، وقوله ﷺ: «إنهن يكفرن» فقيل أيكفرن بالله قال: «يكفرن العشير ويكفرن الإحسان»، فكفران العشير ليس هو الكفر بالله ولذلك بوب به الإمام البخارى بقوله باب كفران العشير وكفر دون كفر وكذلك الفسوق المذكور فى قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر» ليس كالفسوق

الذى وصف به إبليس إنه ﴿كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ وقد سب أحد الصحابة أخاه وقال له: يا ابن السوداء، فقال له النبي ﷺ: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، ولم يكفره أو يخرجه من الملة، أما فسق إبليس فهو الفسق الأكبر الناقل عن الملة، وقد اقتتل المسلمون ولم يكفروا بذلك على أن قوله ﷺ: «وقتاله كفر» ليس هو ككفر فرعون وأبى جهل، وقس على ذلك.

وقد فسر العلماء قول النبي ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» الحديث على أنه لا يكفر بالزنا والسرقة وشرب الخمر إلا أن يستحل ذلك، فإن فعل هذه المحرمات سقط من مرتبة الإيمان إلى مرتبة الإسلام، أو لا يستحق وصف الإيمان الكامل المطلق، وإن بقى معه أصل الإيمان الذى يمنعه من الوقوع فى هوة الكفر خلافا للخوراج ومن شابههم من أهل البدع ممن يكفرون بالمعصية والكبيرة.

الرابعة: أن في المعارض لمدوحة عن الكذب

ورد فى الحديث: «أن الغلام كان إذا أتى الساحر ضربه، وقال ما حبسك؟ وإذا أهله ضربه وقالوا ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب فقال: إذا أراد الساحر ضربك فقل: حبسنى أهلى، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسنى الساحر. فدل الراهب الغلام على طريقة الخلاص من ضرب الساحر وأهله له».

وهذه صورة من صور التعريض التى تتحقق بها المصلحة وتندفع بها المضرة والمفسدة، فالمعارض مندوحة عن الكذب إذا خشى العبد على نفسه الوقوع فى الكذب، فأما إذا لم تكن حاجة وضرورة فلا يجوز التعريض، وقد ذكر ابن القيم بعض ما روى عن السلف من المعارض، ومن ذلك:

كان حماد رحمه الله إذا جاء من لا يريد الإجتماع به وضع يده على ضرسه ثم قال: ضرسى ضرسى.

وكان إبراهيم إذا طلبه من يكره أن يخرج إليه وهو فى الدار قال للجارية: قولى له أطلبه فى المسجد ولا تقولى: ليس هنا. كيلا يكون كذبا، وهذا التعريض فى موضع الحاجة، أما فى غير موضع الحاجة فلا، وقد ورد فى حديث أم كلثوم بنت عقبة:

«ما سمعت رسول الله ﷺ يرخص في شيء من الكذب إلا في ثلاثة: الرجل يقول القول يريد به الإصلاح، والرجل يقول القول في الحرب، والرجل يحدث امرأته، والمرأة تحدث زوجها»^(١) ومعنى يحدث الرجل امرأته، أى أن يظهر لها حبا حتى وإن كان لا يحبها حتى تدوم المعاشرة، وقد يحدث الله بعد ذلك أمرا، فليس معناه أن يكون حديث الرجل امرأته عبارة عن أكاذيب .

وقد ذكر الغزالي أن الكذب فيه المباح إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحا وواجب إن كان المقصود واجبا، فإذا اختفى فسلم من ظالم مثلا وسأل عنه وجب الكذب بإخفائه، وكذلك إذا كان عنده أو عند غيره وديعة وسأل عنها ظالم يريد أخذها وجب عليه الكذب بإخفائها .

وينبغي أن يحترز من الكذب ما أمكن لأنه إذا فتح هذا الباب يخشى أن يجر إلى ما يستغنى عنه، وإلى ما لا يقتصر على حد الضرورة، وما يزال العبد يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا، فأقلع عن الكذب فإنه فجور والفجور يهدى إلى النار، ولا داعى للتعريض دون حاجة أو ضرورة وعود نفسك الصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة، ولا يزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا .

الخامسة : الميل إلى الخير دليل سلامة الفطرة

ورد في الحديث: «أن الغلام بينما هو ذات يوم إذا أتى على دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر»، فقدم أمر الراهب وسأل عنه، ولم يسأل عن أمر الساحر، وذلك لأنه كان أميل بقلبه إلى أمر الراهب لسلامة فطرته، إذ كان الراهب على حق بعكس الساحر، فالطيور على أشكالها تقع، والأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف، والحق أبلج وعليه نور والباطل لجلج وعليه ظلمة ينفر منها أصحاب الفطر القويمة والعقول المستقيمة، لقد أحب الغلام الراهب وأختلف إليه رغم تعرضه للأذى

ولم يكن عنده يومئذ من الضوابط والموازن الشرعية ما يميز به بين الإيمان والكفر، والحق والباطل، والخير والشر اللهم إلا هذه الفطرة السوية التي تواجدت عنده .

والإسلام هو دين الفطرة، وما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، أى أنهما يحرفانه عن دين الفطرة، وفى الحديث: «أنى خلقت عبادى حنفاء وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطانا» فقد تنطمس هذه الفطرة بفعل شياطين الإنس والجن، وحيثذ يذهب نور العبد ويختلط عليه الحق والباطل، أما هذا الغلام فكان إلى الخير أميل، وأحب طريقة الراهب ولذلك لازمه، والمرء على دين خليله، ويحشر المرء مع من أحب ومن تشبه بقوم فهو منهم، وهذا التوافق وهذا التشابه لا يقتصر على عالم الإنس فحسب بل يتعداه إلى غيره فالحيات مع الحيات والعقارب مع العقارب واليدين يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا (٢٧) يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا (٢٨) لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا ﴿الفرقان: ٢٧-٢٩﴾ وقد نزلت بشأن عقبة بن أبى معيط وكان كافرا، ولكنه كان يحسن معاملة رسول الله ﷺ فلما أتى صاحبه من الشام دفعه وحثه على إيذاء رسول الله ﷺ ففعل عقبة، فكان أشقى القوم، ونزلت فيه هذه الآيات، ومن رحمة الله بخلقه أنه أودع فى العباد عقولا وركب فيهم فطرا، وأنزل لهم الكتب وأرسل لهم الرسل ليحيى من حيى عن بينة، ويهلك من هلك أيضا عن بينة قال تعالى: ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ النساء: ١٦٥ ﴿فإقامة الحججة إنما تكون ببعثة الرسل، وتم على يد عالم أو ذى سلطان مطاع بحيث تتفى الشبهات وتندأ المعاذير كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره، وعلى ضوء ذلك نفهم قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون﴾ الأعراف: ١٧٢ ﴿فأشهدهم سبحانه على أنفسهم أنه ربهم وملكهم لا رب لهم غيره ولا معبود بحق سواه، وما من مخلوق إلا وهو يقر بأن الله هو الخالق الرازق المحيى المميت، أقر بذلك المشركون واليهود والنصارى وأهل النار، والإنس والجن قال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ ﴿الْقَمَان: ٢٥﴾ وقال إبليس: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿ص: ٨٢﴾ وقال سبحانه وتعالى عن أهل النار: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾ ﴿الْأَنْعَام: ٣٠﴾ ولما سئل الأعرابي عن وجود الله قال: البعرة تدل على البعير، وأثر السير على المسير، وأرض ذات فجاج وبحار ذات أمواج وسماء ذات أبراج أفلا يدل ذلك على اللطيف الخبير.

بل كان فرعون في قرارة نفسه معترفاً بذلك وإن تظاهر بالجحود، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ ﴿النمل: ١٤﴾ والإقرار بأن الله هو الخالق الرازق المحيي المميت هو الذي يطلق عليه العلماء اسم توحيد الربوبية، أما صرف العبادة لله والتحاكم بشرعه والتزول على أمره فهو الذي يطلق عليها اسم توحيد الألوهية، وتوحيد الربوبية بالنسبة لتوحيد الألوهية كالمقدمة بالنسبة للتبعية، وقد يطلق العلماء اسم التوحيد العلمي الخبيري الإعتقادي على توحيد الربوبية والأسماء والصفات، ويطلقون على عبادة الله وحده لا شريك وتجرید محبته بالأخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به ربا وإلها ووليا اسم التوحيد الطلبی القصدی الإرادی، وإقرار الخلائق بالأول مدعاة إلى اعترافهم بالثاني، فإذا جهل الإنسان قضية من قضايا التوحيد فلا يجوز المسارعة بتكفيره، فقد يكون عنده تأويل يمنع تكفيره أو عرضت له شبهات يعذر الله بها أو نشأ ببادية بعيدة، فمثل هذا يعذر بجهله كما ذكر الإمام النووي وابن تيمية.

السادسة: الكرامات وخوارق العادات تحدث للغلام

وجد الغلام دابة عظيمة فظيعة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا... فأخذ حجرا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتى يجوز الناس ورمها فقتلها، ومضى الناس.....

وهذا الفعل كرامة ظاهرة للغلام على حداثة سنه، فهذا الحجر ليس من شأنه أن يقتل الدابة العظيمة الفظيعة التي حبست الناس وروعتهم وقطعت طريقهم، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد كان الغلام يرى الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم بإذن الله، ومن إكرام الله له إجابة دعائه فقد كان يقول في كل مرة: اللهم أكفينيهم بما شئت فينجيه الله من أعدائه، وقد وجدوه زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه على النحو الذي مات عليه، ويده على صدغه، كلما أزاحوا يده، انبثق الدم من جرحه، وكان ذلك بعد موته بمئات السنين، فهو من جملة خوارق العادات.

ويكفي ثباته على طاعة الله واستقامته على دين الله في العسر واليسر والمنشط والمكره فهذه أعظم كرامة، ويذكر أن عبد القادر الجيلاني لما قيل له أرنا من نفسك كرامة، فصعد على المنبر ثم قال: منذ كم وأنا فيكم؟ فقالوا: منذ عشرين سنة. فقال: هل جريتم على معصية، هل رأيتم على مخالفة الكتاب الله؟ فقالوا له: لا، فقال: فإن الإستقامة هي أعظم كرامة.

والكرامات وخرق العادات حدثت للأنبياء والصالحين من عباد الله، وضابط الكرامة الإستقامة، وبهذا تفرق بين الكرامة الرحمانية والبخارقة الشيطانية، والكرامة تحدث للرجال والنساء والكبار والصغار، ولا تقتصر على هذه الأمة بل تتعداها إلى الصالحين من الأمم السابقة، وإليك بعض المسائل المتعلقة بالكرامات تميما للفائدة.

قاعدة في المعجزات والكرامة

في مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ج(١١) ص ٣١١ ما نصه: ((وإن كان اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل وغيره ويسمونها الآيات لكن كثيرا من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما فيجعل المعجزة للنبي والكرامة للولي وجماعهما الأمر الخارق للعادة. فنقول: صفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم والقدرة والغنى وإن شئت أن تقول: العلم والقدرة، والقدرة إما على الفعل وهو التأثير وإما على الترك وهو الغنى، والأول أجود، وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده فإنه الذي أحاط بكل شيء علما وهو على كل شيء قدير، وهو غنى عن العالمين، وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠] كذلك قال نوح عليه السلام فهذا أول أولى العزم وأول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض وهذا خاتم الرسل وخاتم أولى العزم كلاهما يتبرأ من ذلك...

إلى أن قال: «وقد جمع لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق: أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية فمثل إخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين وأممهم ومخاطباته لهم وأحواله معهم وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه بالتواتر أو بغيره من غير تعلم له منهم، وكذلك إخباره عن أمور الربوبية والملائكة والجنة والنار بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم له منهم ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة ونحو ذلك من النقل والتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب، وهو من حكمة إيقائهم بالجزية وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه فأخبره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من (باب العلم الخارق) وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلية مثل مملكة أمته وزوال مملكة فارس والروم وقتال الترك وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها مذكور بعضها في كتب (دلائل النبوة) و(سيرة الرسول) و(فضائله) و(كتب التفسير) و(الحديث) و(المغازي) مثل دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي، وسيرة ابن إسحاق، وكتب الأحاديث المسندة كمسند الإمام أحمد والمدونة كصحيح البخاري وغير ذلك مما هو مذكور أيضا في كتب (أهل الكلام والجدل) كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار وللمواردى والرد على النصارى للقرطبي ومصنفات كثيرة جدا، وكذلك ما أخبر عنه غيره مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين وهي في وقتنا هذا أثنان وعشرون نبوة بأيدي اليهود والنصارى كالتوراة والإنجيل والزبور وكتاب شعيا وحبقوق ودانيال وأرميا، وكذلك أخبار غير الأنبياء من الأخبار والرهبان، وكذلك أخبار الجن والهواتف المطلقة وأخبار الكهنة كسطيح وشق وغيرهما، وكذلك المنامات وتعبيرهما كمنام كسرى وتعبير الموبدان وكذا أخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى وما عبر هو من أعلامهم .

وأما القدرة والتأثير فإما أن يكون في العالم العلوى أو ما دونه إما بسيط أو مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما نبات وإما معدن، والحيوان إما ناطق وإما بهيم، فالعلوى كانشقاق القمر ورد الشمس ليوشع بن نون وكذلك ردها لما فاتت عليا الصلاة والنبى ﷺ نائم في حجره- إن صح الحديث- فمن الناس من صححه كالطحاوى والقاضى عياض، ومنهم من جعله موقوفا كأبى الفرج بن الجوزى وهذا أصح، كذلك معراجه إلى السماوات . وأما الجو فاستسقاؤه واستصحاؤه غير مرة كحديث الأعرابى الذى فى الصحيحين وغيرهما، وكذلك كثرة الرمى بالنجوم عند

ظهوره، وكذلك إسراؤه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وأما الأرض والماء (فكاهتراز الجبل تحته، وتكثير الماء من عين تبوك وعين الحديدية، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة ومزادة المرأة).

وأما المركبات فتكثيره الطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر وحديث أبي طلحة وفي أسفاره وجراب أبي هريرة ونخل جابر بن عبد الله وحديث جابر وابن الزبير فيالنتقلاع النخل له وعوده إلى مكانه وسقياه لغير واحد من الأرض كعين أبي قتادة، وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر أنواع معجزاته بخصوصه وإنما الغرض التمثيل.

وكذلك من باب القدرة عصا موسى ﷺ وقلق البحر والقمل والضفادع والدم، وناقاة صالح، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لعيسى، كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، وفي الجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها وإنما الغرض التمثيل بها.

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل قول عمر في قصة سارية، وإخبار أبي بكر بأن بيطن زوجته أنثى، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلا وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام، والقدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب، وقصة أهل الكهف، وقصة مريم، وقصة خالد بن الوليد، وسفينة مولى رسول الله ﷺ وأبي مسلم الخولاني وأشياء يطول شرحها، فإن تعداد هذا مثل المطر وإنما الغرض التمثيلي بالشئ الذي سمعه أكثر الناس.

وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره وإهلاكه لمن يشتمه أ. هـ ومعجزات الأنبياء كثيرة وقد كانت من جنس ما برع فيه قومهم مثل عصا موسى، وقد اشتهر قومه بالسحر، وكان عيسى يحيى الموتى بإذن الله ويرى الأكمه والأبرص بإذن الله وكان قومه قد اشتهروا بالطب.

ومعجزات النبي ﷺ كثيرة، ومن أعظمها القرآن فقد تحداهم رب العزة جل وعلا أن يأتوا بسورة من مثله وهم أرباب الفصاحة والبلاغة فما استطاعوا: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين﴾ [البقرة: ٢٣-٢٤]، ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا

الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴿٨٨﴾ [الإسراء: ٨٨] وقد ثبت العجز للجميع عبر العصور وكر الدهور عن مواجهة التحدى، وبعجزهم ثبت الإعجاز لكتاب الله. وقد جمع القرآن صوراً كثيرة من صور الإعجاز مثل الأعجاز التشريعى والإعجاز البلاغى والإعجاز العلمى.

ثم الخوراق التى تحدث للعباد وتجرى على أيديهم منها كرامات رحمانية ومنها خوراق شيطانية، وضابط الكرامة هو الإستقامة وكما قال الشافعى والليث بن سعد: إذا رأيت الرجل يطير فى الهواء أو يمشى على الماء لا تصدقه حتى تعرض عمله على السنة، فإذا كان ممن يستقيم على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فلا يبعد أن تحدث له كرامة رحمانية كما حدثت لكثير من الصحابة .

وقد ثبت فى الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «قد كان فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى أحد منهم فعمر منهم» وفى لفظ فى الصحيح: «إن فى الأمة محدثين وإن منهم عمر» وحديث: «أتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله» أخرجه الترمذى وحسنه .

ثم عمر رضي الله عنه مع كونه من المحدثين بالنص كان يشاور الصحابة ويشاورونه، ويراجعهم ويراجعون، ويحتج عليهم بالكتاب والسنة، ويرجعون جميعاً إليهما، وكان إذا عرضت عليه المسألة يقول: أقول فيها فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسى ومن الشيطان والله منه برئ .

وكان أبو سليمان الدارانى يقول: (إنها لتقع فى قلبى النكته من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة)، وقال أبو عثمان النيسابورى: (من أمر على نفسه الشريعة قولاً وفعلاً نطق بالحكمة، ومن أمر على نفسه الهوى قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤]).

خوارق غير الأولياء

جاء في كتاب «ولاية الله والطريق إليها» ص ٢٣٧ مانصه:

«وإذا عرفت أنه لا بد للولي من أن يكون مقتديا في أقواله وأفعاله بالكتاب والسنة وأن ذلك هو المعيار الذى يعرف به الحق من الباطل فمن ظهر منه شئ مما يخالف هذا المعيار فهو رد عليه ولا يجوز لأحد أن يعتقد فيه أنه ولى الله فإن أمثال هذه الأمور تكون من أفعال الشياطين كما نشاهده فى الذين لهم تابع من الجن فإنه قد يظهر على يده ما يظن من لم يستحضر هذا المعيار أنه كرامة وهو فى الحقيقة مخاريق شيطانية وتليسات إبليسية.

ولهذا تراه يظهر من أهل البدع بل من أهل الكفر ومن يترك فرائض الله سبحانه وتتلوث بمعاصيه لأن الشيطان أميل إليهم للإشتراك بينه وبينهم فى مخالفة ما شرعه الله سبحانه لعباده . وقد يظهر شئ مما يظن أنه كرامة من أهل الرياضة وترك الإستكثار من الطعام والشراب على ترتيب معلوم وقانون معروف حتى يتهى حاله إلى أن لا يأكل إلا فى أيام ذوات العدد ويتناول بعد مضى أيام شيئا سيرا فيكون له بسبب ذلك بعض صفاء من الكدورات البشرية فيدرك ما لا يدركه غيره وليس هذا من الكرامات فى شئ ولو كان من الكرامات الربانية والتفضلات الرحمانية لم يظهر على أيدي أعداء الله كما يقع كثيرا من المرتاضين من كفرة الهند الذين يسمونهم الآن الجوكية وقد يظهر شئ مما يظن أنه كرامة على لسان بعض المجانين، وسبب ذلك كما ذكره الحكماء أنه قد ذهب عنه ما يصنعه الفكر من التفصيل والتدبير اللذين يستمران للعقلاء فيكون لعقله إدراك لا يكون للعقلاء فيأتى فى بعض الأحيان بمكاشفات صحيحة وهو مع ذلك متلوث بالنجاسة مرتبك فى القازورات قاعد فى المزابل وما يشابهها فيظن من لا حقيقة عنده أنه من أولياء الله وذلك ظن باطل بخيل وتخيل مختل، وهو فى الحقيقة مجنون قد رفع الله عنه قلم التكليف ولم يكن وليا لله ولا عدوا أ. هـ.

السابعة : السبق سبق الفضل

والاعتراف بالفضل لأهله

أخبر الغلام الراهب بقتله الدابة العظيمة التي حبست طريق الناس، فقال له الراهب: أى بنى أنت أفضل منى، وهذا يدل على أن التلميذ قد يفوق أستاذه، وأنه لا حجر على سعة رحمة الله، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، كما أن فيه اعتراف العالم بالفضل لمن هو أفضل منه، والراهب وإن كان يكبر الغلام فى السن، وقد سبقه فى إسلام الوجه لله تعالى، إلا أنه لم يحسد الغلام، بل اعترف له بالفضل وتواضع له وقدمه على نفسه، وهو الذى دل الغلام على طريق الخير، والدال على خير كفاعله، ونحن فى أشد الحاجة لأن نتعرف على مجال السبق والمنافسة وطرح الشبهات التى تعترض طريق المجتهدين للتخلى عن الرذائل والتحلّى بالفضائل، فإليك هذه المسائل، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

السبق والمنافسة

المنافسة فى اللغة مشتقة من النفاسة والذى يدل على مشروعيتها قوله تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ {المطففين: ٢٦} وقال تعالى: ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ {الحديد: ٢١} وإنما المسابقة عند خوف الفوت وهو كالعبدین يتسابقان إلى خدمة مولاهما إذ يجزَع كل واحد أن يسبقه صاحبه فيحظى عند مولاه بمنزلة لا يحظى هو بها. والمنافسة قد تكون واجبة أو مندوبة أو مباحة وقد يستعمل لفظ الحسد بدل المنافسة والمنافسة بدل الحسد .

قال الفضل بن العباس لما أراد هو والمطلب بن ربيعة أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه أن يؤمرهما على الصدقة فقال لهما على ﷺ: لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمركما عليها فقال له: ما هذا منك إلا نفاسة، والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك (رواه مسلم) أى هذا منك حسد وما حسدناك على تزويجه إياك وفى الحديث: «لا حسد إلا فى اثنتين، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله علما فهو يعمل به ويعلمه الناس» متفق عليه.

وفى حديث أبى كبشة الأثمارى قال: «مثل هذه الأمة مثل أربعة رجل آتاه الله مالا وعلما فهو يعمل بعلمه فى ماله ورجل آتاه الله علما ولم يؤته مالا فيقول رب لو أن لى مالا مثل مال فلان أعمل فيه بمثل عمله فهما فى الأجر سواء ورجل آتاه الله مالا ولم يؤته علما فهو ينفقه فى معاصى الله ورجل لم يؤته علما ولم يؤته مالا فيقول لو أن لى مثل مال فلان لكنت انفقه فى مثل ماأنفقه فيه من المعاصى فهما فى الوزر سواء» رواه ابن ماجه والترمذى وقال حسن صحيح - فذمه النبى ﷺ من جهة تمنيه للمعصية لا من جهة حبه أن يكون له من النعمة مثل ماله، ثم إن كانت تلك النعمة نعمة دينية واجبة كالإيمان والصلاة والزكاة فهذه المنافسة واجبة وإن كانت من الفضائل كإنفاق المال فى المكارم والصدقات فالمنافسة فيها مندوب إليها، وإن كانت نعمة يتنعم بها على وجه مباح فالمنافسة فيها مباحة.

والحسد المشروع كما فى الحديث: «لا حسد إلا فى اثنتين»، يطلق عليه اسم الغبطة إذ ليس فيه تمنى زوال النعمة ولا كراهتها ويرجع إلى إرادة المساواة واللحق به فى النعمة كمن يحب الدار الحسنة أو المرأة الجميلة أو ولاية نافذة أو سعة نالها غيره، والسبق يحدث فى معنى يتعلق بالصفات أو الزمان أو المكان فقد يحدث فى علم أو سن أو مكانة أو رياضة ويقول النبى ﷺ: «لا سبق إلا فى خف أو حافر أو نصل» والمراد من السبق فى الحديث هنا ما يوضع رهنا ويأخذه الفائز فى سباق أو رماية، وهذا الرهن يضعه أحد المتسابقين أو تضعه الحكومة أو جمعية خيرية أو بعض الأفراد المحسنين وذلك ليخلو من كل شبهة ويتمحض للتشجيع الخالص الذى لا يراد به إلا الترغيب فى الإعداد للجهاد .

وفى الإختيارات الفقهية من فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية: (ويجوز اللعب بما قد يكون فيه مصلحة بلا مغرة وظاهر كلام أبى العباس لا يجوز اللعب المعروف بالطاب والمنقلة، وكل ما أفضى كثيره إلى حرمه إذا لم يكن فيه مصلحة راجحة لأنه يكون سببا للشر والفساد، وما ألهى وشغل عن ما أمر الله به فهو منهى عنه، وإن لم يحرم جنسه كالبيع والتجارة وسائر ما يتلهى به البطالون من أنواع اللهو وسائر ضروب اللعب مما لا يستعان به على حق شرعى فكله حرام .

وروى الإمام أحمد والبخارى ومسلم أن عائشة رضي الله عنها وجوار كن معها يلعبن بالبنات - وهن اللعب والنبي صلوات الله عليه يراهن - فيرخص فيه للصغار ما لا يرخص فيه للكبار.

والصراع والسبق بالأقدام ونحوهما طاعة إذا قصد به نصر الإسلام وأخذ السبق عليه أخذ بالحق، فالمغالبة الجائزة تحل بالعوض إذا كانت مما ينتفع به في الدين كما في مراهنه أبي بكر رضي الله عنه وهو أحد الوجهين في المذهب قلت وظاهر ذلك : جواز الرهان في العلم وفاقا للحنفية لقيام الدين بالجهاد والعلم والله أعلم أ. هـ.

سبق الصفات

﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]

قال أبو منصور البغدادي التميمي : أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون إلى تمام العشرة ثم البديريون ثم أصحاب أحد ثم أهل بيعة الرضوان بالحديسية، وقال القرطبي في تفسيره : (لا خلاف أن أول السابقين من المهاجرين أبو بكر الصديق، قال ابن العربي : السبق يكون بثلاثة أشياء الصفة وهو الإيمان والزمان والمكان وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات والدليل عليه قوله صلوات الله عليه في الصحيح : «نحن الآخرون الأولون بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدنا فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له فاليهود غدا والنصارى بعد غد» فأخبر النبي صلوات الله عليه أن من سبقنا من الأمم بالزمان سبقناهم بالإيمان والإمتثال لأمر الله تعالى والإنقياد إليه والإستسلام لأمره والرضا بتكليفه والإحتمال لوظائفه لا نعترض عليه ولا نختار معه ولا نبدل بالرأى شريعته كما فعل أهل الكتاب وذلك بتوفيق الله لما قضاه وبتيسيره لما يرضاه، وماكنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

ثم نقل عن ابن خويز مناد قال : (تضمنت هذه الآية تفضيل السابقين إلى كل منقبة من مناقب الشريعة في علم أو دين أو شجاعة أو غير ذلك في العطاء في المال والرتبة في الإكرام وفي هذه المسألة خلاف بين أبي بكر وعمر رضى الله عنهما واختلف العلماء في تفضيل السابقين بالعطاء على غيرهم فروى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه كان لا يفضل بين الناس في العطاء بعضهم على بعض بحسب السابقة وكان عمر

يقول له أتجعل ذا السابقة كمن لا سابقة له؟ فقال أبو بكر: إنما عملوا لله وأجرهم عليه وكان عمر يفضل في خلافته ثم قال عند وفاته لئن عشت إلى غد لألحق أسفل الناس بأعلاهم فمات من ليته والخلاف إلى يومنا هذا على هذا الخلاف) أ. هـ.

شبهة ورد

«لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه»

وهذا الحديث الذى رواه البخارى ومسلم عن أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ يرد على شبهة قوية تتعلق بالأخوة الإيمانية وتحقيقها، ونحتاج فى ذات الوقت إلى الجمع بينه وبين ما ذكرناه عن السبق والمنافسة ففى هذا الحديث بين النبى ﷺ أن من جملة خصال الإيمان الواجبة أن يحب المرء لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه من المحامد الدينية والدنيوية ويكره له ما يكره لنفسه.

قال عبد الله بن رواحة وأبو الدرداء: الإيمان كالقميص يلبسه الإنسان تارة ويخلعه تارة أخرى.

وفى صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ قال: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتدركه منيته وهو مؤمن بالله واليوم الآخر ويأتى إلى الناس الذى يحب أن يؤتى إليه» وفيه أيضا عن أبى ذر رضى الله عنه قال رسول الله ﷺ: «يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا وأنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تتأمرن على اثنين ولا تولين مال يتيم» وإنما نهاه عن ذلك لما رأى من ضعفه وهو ﷺ يحب هذا لكل ضعيف وإنما كان يتولى أمور الناس لأن الله قواه على ذلك وأمره بدعاء الخلق كلهم إلى طاعته وأن يتولى سياسة دينهم ودنياهم.

وكان محمد بن واسع يبيع حمارا له فقال له رجل: أترضاه لى؟ قال: لو رضيته لم أبعه، وهذه إشارة منه إلى أنه لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه، وفى حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم مثل الجسد إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر» خرجاه فى الصحيحين «قال ابن رجب»: وهذا يدل على أن المؤمن يسوئه ما يسوء أخاه المؤمن ويحزنه ما يحزنه، وحديث أنس الذى نتكلم الآن فيه يدل على أن المؤمن يسره ما يسر أخاه المؤمن ويريد لأخيه المؤمن ما يريد

لنفسه من الخير وهذا كله إنما يأتي من كمال سلامة الصدر من الغش والغل والحسد فإن الحسد يقتضى أن يكره الحاسد أن يفوقه أحد في خير أو يساويه فيه لأنه يحب أن يمتاز على الناس بفضائله وينفرد بها عنهم، والإيمان يقتضى خلاف ذلك وهو أن يشركه المؤمنون كلهم فيما أعطاه الله من الخير من غير أن ينقص عليه منه شئ، وقد مدح الله تعالى في كتابه من لا يريد العلو في الأرض ولا الفساد فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص: ٨٣] قال عكرمة وغيره من المفسرين في هذه الآية: العلو في الأرض التكبر وطلب الشرف والمنزلة عند ذي سلطانها، والفساد، والعمل بالمعاصي، ثم قال وقد ورد ما يدل على أنه لا يأتى من كره أن يفوقه من الناس أحد في الجمال فخرج الإمام أحمد رحمه الله والحاكم في صحيحه من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (أتيت النبي صلوات الله عليه وعنده مالك بن مرارة الرهاوى فأدركته وهو يقول: يا رسول الله قد قسم لى من الجمال ما ترى فما أحب أحدا من الناس فضلتى بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغى؟ فقال: لا ليس ذلك بالبغى ولكن البغى من بطر أو قال: سفه الحق وغمط الناس) قال: ومن هنا قال بعض السلف التواضع أن تقبل الحق من كل ما جاء به وإن كان صغيرا فمن قبل الحق ممن جاء به سواء كان صغيرا أو كبيرا وسواء كان يحبه أو لا يحبه فهو متواضع ومن أبى قبول الحق تعاطفا عليه فهو متكبر وغمط الناس هو احتقارهم وازدراؤهم وذلك يحصل من النظر إلى النفس بعين الكمال وإلى غيره بعين النقص قال بعض الصالحين من السلف: أهل المحبة لله نظروا بنور الله وعطفوا على أهل معاصي الله، مقتوا أعمالهم وعطفوا عليهم ليزيلوهم بالمواعظ عن أفعالهم وأشفقوا على أبدانهم من النار.

وأما قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢] فقد فسر ذلك بالحسد وهو تمنى الرجل نفس ما أعطى أخوه من أهل ومال وأن يتقل ذلك إليه وفسر بتمنى ما هو متمتع شرعا أو قدرا كتمنى النساء أن يكن رجالا أو يكون لهن مثل ما للرجال من الفضائل الدينية كالجهاد، والدينية كالميراث والعقل والشهادة ونحو ذلك، وقيل: إن الآية تشمل ذلك كله، ومع هذا كله فينبغى للمؤمن أن يحزن لفوات الفضائل الدينية ولهذا أمر أن ينظر في الدين إلى من هو فوقه وأن ينافس في طلب ذلك جهده وطاقته كما قال تعالى: ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦] ولا يكره أن أحدا يشاركه في ذلك بل يحب للناس كلهم المنافسة فيه ويحثهم على ذلك وهو من تمام أداء النصيحة للإخوان أ. هـ.

الثامنة: هل كان الراهب يرحم بالغيب

عندما قال للغلام إنك ستبتلى

لما علم الراهب بما كان من الغلام مع الدابة، قال له: «أى بنى أنت أفضل منى، وإنك ستبتلى»، ولم يكن الراهب فى ذلك راجما بالغيب ولا مطلعاً عليه، فلا يعلم الغيب إلا الله، ولكنها المعرفة بسنن الله فى خلقه، والعلم بما حدث للأنبياء والصالحين من قبل، والبصيرة بطبيعة هذه الدار، وأنها دار بالبلاء محفوفة وبالفتنة موصوفة، إذا حلت أو حلت، وإذا كست أو كست، إقبالها إدبار وإقدامها إحجام، والأصل أن تلقاك بكل ما تكره، فإذا لاقتك بما تحب فهو استثناء، قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٧] وقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا﴾ [الأنعام: ٥٣] وقال: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١] وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣] وقال: ﴿فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: ٨٥] وقال: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وعن عياض بن عمار عن رسول الله ﷺ قال: «يقول الله تعالى: إنى مبتليك ومبتلى بك»^(١) ولقد أذى رسول الله ﷺ، خنقه عقبة بن أبى معيط بطرف رداءه، وألقى على ظهره سلا الجذور، وهو ساجد أمام الكعبة، وحوصر ثلاث سنوات فى شعب أبى طالب وكسرت ربايعته وجرح وجهه الشريف وأغمى عليه يوم أحد، وقيل عنه: ساحر وكاهن ومجنون كما أذى ﷺ فى شخص أصحابه الكرام - رضوان الله عليهم جميعاً - مما اضطرهم إلى الهجرة مرتين إلى الحبشة ومرة إلى المدينة، ومن تتبع أحوال الأنبياء - عليهم السلام - كنوح وإبراهيم ويوسف وموسى وعيسى . . . لوجد أن الإبتلاء سمة ملازمة لهم، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ نَتَّوَدُّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾ [إبراهيم: ١٣] وقال: ﴿يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ

يَسْتَهْزِءُونَ ﴿يس: ٣٠﴾ وقال: ﴿كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ
مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذاريات: ٥٢] وكان لأتباع الأنبياء كصاحب
يس ومؤمن آل فرعون وأصحاب الكهف. . حظهم ونصيبهم من هذا البلاء، روى
سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: «قلت: يا رسول الله أى الناس أشد بلاء؟ قال:
«الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلبا
اشتد بلاؤه، وإن كان فى دينه رقة، أُبتلى على حسب دينه، فما يبرح البلاء بالعبد
حتى يتركه يمشى على الأرض وما عليه من خطيئة» لقد رأى الراهب من الغلام
أمرا عجبا، وعلم فضيلته، وكان على معرفة بالكتاب الأول، وقد قرأ السنن قراءة
واعية، فلا جرم أن قال للغلام: إنك ستبتلى.

التاسعة: بعض المعاني المتعلقة بإخفاء المعتقد والاستسار بالدعوة

أوصى الراهب الغلام بقوله: (إنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تدل على)، أى لا
تخبر عنى حرصا من الراهب على استمرارية دعوته، وشبيه بذلك قول الفتية
أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا
إِذَا أَبَدُوا﴾ [الكهف: ٢٠] وكانوا قد وصوا صاحبهم بقولهم: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ
هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ
أَحَدًا﴾ [الكهف: ١٩].

وأىضا ماكان من مؤمن آل فرعون: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ
أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨] وهو الذى قال لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ
الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠] ومن ذلك
قول رسول الله صلوات الله عليه: «احصوا لى كل من تلفظ بالإسلام».

يقول حذيفة رضى الله عنه قلنا: يا رسول الله أتخاف علينا ونحن ما بين
السمائة إلى السبعمائة قال حذيفة: فابتلينا حتى ما جعل الرجل منا ما يصلى إلا
سرا، فأخفاء المعتقد قد تكون سياسة يميلها النظر الشرعى، وهى تختلف عن
التقية والكذب التى أعمدتها طائفة الشيعة كأصل لها فى تعاملها مع المخالفين كما
أنها تفترق أيضا عن صور الإستكراه التى يضطر فيها المسلم إلى إظهار الكفر مع
طمأنينة قلبه بالإيمان، ولمزيد من التوضيح والبيان نذكر لك المسائل الآتية:-

إفشاء السر

لا جدال في أن إفشاء السر شر وأذى يلحق بالأفراد والهيئات والأمم والجماعات، والأسرار التي تستدعى الكتمان كثيرة منها ما هو حربى أو سياسى أو صناعى أو تجارى، وقد يستهين الإنسان بسره ويأتمن عليه النساء أو الأطفال أو من ليس بأمين، بل ويأخذ على تكتمه العهود والمواثيق ثم سرعان ما يجده على كل لسان بعكس ما لو جهر بهذا الخبر فقد لا يؤبه له فى كثير من الأحيان . وكان عمر رضي الله عنه يقول: «من كتم سره كان الخيار بيده» وقال على رضي الله عنه: «سرك أسيرك فإذا تكلمت به سرت أسيره» وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ما أستودعت رجلا سرا فأفشاه فلمته لأنى كنت أضيق صدرا منه حين استودعته منه حتى أفشاه» وقيل: «إذا أنا أفشيت سرى إلى صديق فأذاعه فهو فى حل، قيل: وكيف ذلك؟ قال: لأننى كنت أحق بصيانتته منه وكيف يلام مستودع سرا إذا ضاق صدر مستودعه»، وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول: «القلوب أوعية والشفاه أفعالها والألسن مفاتيحها فليحفظ كل إنسان مفتاح سره» وقال الوليد بن عتبة لأبيه: إن أمير المؤمنين أسر إلى حديثا فلا أحدثك به. قال: يابنى إن من كتم سرا كان الخيار له فلا تكون مملوكا بعد أن كنت مالكا، وقال معاوية: (الحازم من كتم سره عن صديق مخافة أن تتبدل صداقته عداوة فيذيع سره) وقال المهلب بن أبى صفرة: (من ضاق قلبه اتسع لسانه وما كتمته عن عدوك فلا تطلع عليه صديقك) وكتب رجل لابنه يقول: يا بنى من استودعك سره فقد ملكك أمره فاجعل صدرك قبره يستوجب حمده وشكره. وهذا الذى ذكرناه لا ينفى وجود بعض من يصون السر كما لا ينفى وجود حالات تستدعى الإسرار ومنها:

* إتيان شعائر الكفار على سبيل التقية: أن يسر الشخص بالإسلام خوفا من الكفار ويأتى شعائر الكفار الخاصة بهم من عبادات وطقوس تقية وهذه الصورة لا يحل أن يفعلها المسلم إلا فى حالة واحدة وهى حالة الإكراه المعتبر شرعا.

قال الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦] قال ابن كثير فى تفسيره هذه الآية: «اتفق العلماء على أنه يجوز أن يوالى المكره على

الكفر إبقاء لمهجته». وقال ابن بطال: «أجمعوا على أن من أكره على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجرا عند الله ممن اختار الرخصة».

*** إخفاء المعتقد مع عدم مخالفته الشرع:** أن يسر المسلم بإسلامه ولكنه لا يأتي شيئا من أمور الشرك وعبادات المشركين وطقوسهم، ويشرع ذلك إذا خاف أو كان هناك مصلحة شرعية في كتم إسلامه كحالة مؤمن آل فرعون قال ابن العربي: «إذا نوى الإيمان بقلبه فلا يكون مؤمنا حتى يتلفظ بلسانه ولا تمنعه التقية والخوف من أن يتلفظ بلسانه فيما بينه وبين الله تعالى إنما تمنعه التقية من أن يسمعه غيره وليس من شرط الإيمان أن يسمعه الغير». وروى البخارى قول النبي ﷺ: «فكذلك كنت أنت تخفى إيمانك بمكة من قبل».

*** صور ودواعي السرية والعلنية:** أن يسر المسلم بالدعوة إلى الله تعالى إذا خاف على نفسه أو خاف على أتباعه من المسلمين وهم قلة والدليل على ذلك فعل الرسول ﷺ في بداية الدعوة بمكة وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «ما زال النبي ﷺ مستخفيا حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحج: ٩٤] فخرج هو وأصحابه، والجهر بالدعوة هو الأصل وذلك حتى يسمعها القاصى والدانى، والقريب والبعيد لكن إذا غلب ظن الداعى إلى الله أن دعوته تجتث من أساسها بسبب الجهر بها أو خاف أن يناله أذى محقق لا يقدر على تحمله فعليه أن يسر بها حيثئذ يقول البوطى: «ومن أجل هذا أجمع جمهور الفقهاء على أن المسلمين إذا كانوا من قلة العدد أو ضعف العدة بحيث يغلب على الظن أنهم سيقتلون من غير أى نكاية فى اعدائهم إذا ما أجمعوا قتالهم فينبغى أن تقدم هنا مصلحة حفظ النفس لأن المصلحة المقابلة وهى مصلحة حفظ الدين موهومة أو منفية الوقوع».

وقال العز بن عبد السلام: «فإذا لم تحصل النكاية وجب الإنهزام لما فى الثبوت من فوات النفس مع شفاء صدور الكفار وإرغام أهل الإسلام وقد صار الثبوت هنا مفسدة محضة ليس فى طيها مصلحة» قلت - أى البوطى - وتقديم مصلحة النفس هنا من حيث الظاهر فقط أما من حيث حقيقة الأمر ومرماه البعيد فإنها فى الواقع مصلحة دين إذ المصلحة الدينية تقتضى فى مثل هذه الحال أن تبقى أرواح المسلمين سليمة لكى يتقدموا ويجاهدوا فى الميادين المفتوحة الأخرى وإلا فإن إهلاكهم يعتبر إضرارا بالدين نفسه وفسحا للمجال أمام الكافرين ليقترحوا ما كان مسدودا أمامهم .

وإخلاصة: أنه يجب المسالمة أو الإسرار بالدعوة إذا كان الجهر أو القتال يضر بها ولا يجوز الإسرار في الدعوة إذ أمكن الجهر بها وكان ذلك مفيداً. هـ.

ومن صور السرية والتكتم ما حدث من رسول الله ﷺ يوم الهجرة ونلمس من ذلك أن النبي ﷺ كان يجهر أحياناً ويسر أحياناً حسبما تقتضيه المصلحة الشرعية وليست المرحلة السرية منسوخة بعد الأمر من الله بالصدع والإنذار بل حكمها باق كلما أحتاج المسلمون إلى ذلك وسيبقى الأصل هو الجهر بالإسلام والدعوة إليه وإنما تجب السرية لضرورة من الضرورات .

ونحن اليوم بحاجة إلى دعوة علنية سلمية نعصم بها دماء المسلمين وأعراضهم، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين بسبب سرية أشبه شئ بها الآن النعام التي تدفن رأسها في الرمال وجسدها مكشوف وبذلك يسهل صيدها وذبحها.

العاشرة: كرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء

وإعتراف الجميع بفضل الله

كان الغلام يبرئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس أعمى فسمع به فاتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً، وإنما يشفي الله عزوجل» وكما كان المسيح عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، ويحيى الموتى بإذن الله، فكَذَلِكَ كان هذا الغلام، يسند الفعل كله لله «ما أنا أشفي أحداً وإنما يشفي الله عزوجل» ففي هذا أدب مع الله، وإعتراف بالفضل له سبحانه، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠] فهو سبحانه الشافي المعافي على الحقيقة، وإنما يتبجح الجاهلون والمعادنون عندما ينسبون الفضل لأنفسهم، كما في قول قارون: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] وكرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء فما نالوها إلا ببركة استقامتهم ومتابعتهم، ولذلك فكرامات الأولياء داخلة ضمن معجزات الأنبياء، وفيها وجه شبه من إكرام الله لهم، كما حدث لهذا الغلام فقد كان يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان مجاب الدعوة، وهذا وقع للأنبياء وكثير من الأولياء كسعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد والعلاء بن الحضرمي ومحمد بن واسع . . .

وقد بقى الغلام على هذا النحو الذى مات عليه إلى زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورغم مضى مئات السنين، وهذا شبيه بما حدث للأنبياء، فإن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، وحياة الأنبياء فى قبورهم أتم من حياة الشهداء، وهى حياة برزخية لا يعلم كيفيتها ولا كنهها إلا الله، وكما أنجى الله نبيه إبراهيم عليه السلام فكانت النار بردا وسلاما عليه، فكذلك فعل بأبى مسلم الخولانى، الذى قذفه الأسود العنسى صاحب اليمن فى النار، فكانت النار بردا وسلاما عليه، وقد لقيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال: الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أرانى من أمة محمد من صنع به مثل صنيعه بإبراهيم عليه السلام. وليس من هؤلاء جميعا من نسب الفضل لنفسه، بل كلهم يعترف بنعمة وفضل الله عليه، وكلهم يقيم واجب العبودية ويتوكل عليه ويحسن المسير إليه سبحانه فى تواضع كريم، ولسان حاله ينطق: ﴿لولا أن من الله علينا لخسف بنا﴾ [الشعراء: ٨٢] فالخير كله بيديه سبحانه والشر ليس إليه: ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ [النحل: ٥٣].

الحادية عشرة: مشابهة الغلام فى دعوته للأعمى بنبي الله يوسف فى دعوته لصاحبيه

قال الغلام للأعمى: ما أنا أشقى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فأمن فدعا الله شفاه. شأن الغلام كشأن أصحاب الدعوات لا يخلقون الفرص وأيضا لا يضيعونها، يريدون إيلاخ الحق للخلق وتعبيد الناس لله رب العالمين، يدلون العباد على سعادتهم فى العاجل والآجل، ولا يدخرون وسعا فى صبغ الدنيا بدين الله فمن أتاهم يطلب مصلحة أو حاجة أجابوه إليها وزادوه ما هو أنفع له، وقدموا له ما هو أحوج إليه، فالأعمى أتى يلتمس الشفاء عند الغلام، فأخذ الغلام بيديه لما يحب ربنا ويرضى ويبصره بالإيمان الذى هو حياة القلوب والأرواح، وحتى تكتمل للأعمى معانى البصر والبصيرة .

وهذا شبيه بما فعله نبي الله يوسف عليه السلام مع صاحبه السجن فقد أتيا، يقول أحدهما: ﴿إني أراني أعصر خمرا﴾ [يوسف: ٣٦] ويقول الآخر: ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزا تأكل الطير منه نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ [يوسف: ٤١] لم يسارع نبي الله يوسف، بتفسير وتعبير هذه الرؤى،

ولكنه وجدها فرصة لدعوتهما للإيمان بالله الواحد القهار فقال: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمَ وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٣٩].

أنها الدعوة للإيمان حتى يتعرف العبد من خلال ذلك على من خلقه ولماذا خلقه وإلى أين المصير، يتعرف على مصدر الأمر قبل التكليف، ولذلك ركز القرآن المكي بل والمدني على قضية التوحيد والعقيدة والإيمان بالله: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعَمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ وَالَّذِي يَمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إن العبد إذا ترسخت معاني الإيمان عنده وسمع لله حكما قال: ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥] وكان طوع إشارة ورهين أمر، وهذا شأن الأنبياء والمرسلين ومن تابعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما من اهتزت معاني العقيدة عنده فلا يستبعد أن يكون شأنه كأهل الكتاب الذين قالوا: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣] ولذلك فلا بد من التركيز على قضايا الإيمان ليس مع الكفار فحسب، بل مع المسلمين كذلك، وخصوصا في أوقات الغربة، وعند شيوع التفلت من شرع الله، والجهل بمعاني التوحيد، نصنع ذلك لا لتكفيرنا لمن ورث الإسلام، ولكن حتى يصبح الإيمان قولاً وعملاً ويحيى من حيى عن بيته ويهلك من هلك عن بيته، إذ ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل.

الثانية عشرة: الكلمة أوقع في النفوس

إذا كان أجر الدعوة على الله

لقد رفض الغلام الهدايا الكثيرة التي جاء بها الأعمى، وقال له: ما أنا أشقى أحدا، إنما يشفى الله عزوجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، وهذا يدل على تجرده واستنانه بسنن الأنبياء والمرسلين فقد أمروا أن يقولوا لأقوامهم: ﴿قُلْ لَأَسْأَلَنَّكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣] ولما عرضوا على رسول الله ﷺ الملك والمال... رجاء أن يترك دعوته، رفض ذلك كله، وكان لسان حاله ينطق: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته

حتى يظهره الله أو أهلك دونه» وقال لهم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ {سبا: ٤٧} وعلم ذلك أتباع الأنبياء من أحوالهم ولذلك قال صاحب يس: ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ {يس: ٢١} ولا ريب أن الكلمة تكون أوقع في النفوس إذا كان أجر الدعاة على الله، وتكون رغبتهم ورهبتهم فيما عنده سبحانه، ولا ينافي ذلك أخذ الجرايات على تولى الخلافة والقضاء، وسائر الأعمال الدينية التي تعم منفعتها وتحتاج إلى تفرغ بحيث لو تركها وانشغل بعمل وكسب لضاعت وتعطلت المصالح كما فعل الصحابة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه كما لا ينافي ذلك أيضا، أخذ الأجر على الرقية بتلاوة القرآن، كما في رقية اللديغ بفتح الكتاب، وأخذ الجعل على ذلك، وقول النبي صلوات الله عليه لهم: «وأضربوا لى معكم بسهم» فإن ذلك جائز بإذن الله، وينبغي على الكل أن يجاهد نفسه، وأن يخلص عمله لله تعالى .

أما حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه علم رجلا من أهل الصفة القرآن فأهدى له قوسا، فقال له النبي صلوات الله عليه: «إن سرك أن تطوق بها طوقا من نار فأقبلها» (١) فقد أجاب من أجاز أخذ الأجرة على تعليم القرآن عنه بجوابين: أحدهما أن في إسناده مقالا. والثاني: أنه كان تبرع بتعليمه فلم يستحق شيئا ثم أهدى إليه على سبيل العوض فلم يجز له الأخذ، وقد جاء عن عبد الرحمن بن شبيب رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلوات الله عليه: «أقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به ولا تمجفوا عنه ولا تغلوا فيه» وعن جابر رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه: «أقرؤوا القرآن من قبل أن يأتي قوم يقيمونه إقامة القدح يتعجلونه ولا يتأجلونه» معناه يتعجلون أجره إما بمال وإما سمعة ونحوها. فينبغي الحذر من اتخاذ القرآن معيشة يكتسب بها، وأن لا يقصد العبد به التوصل إلى غرض من أغراض الدنيا من مال أو رياسة أو وجهة أو ارتفاع على أقرانه أو ثناء عند الناس أو صرف وجوه الناس إليه أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ {الشوري: ٢٠} وقال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ﴾ {الإسراء: ١٨}.

(١) حديث مشهور رواه أبو داود وغيره.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علما ينتغى به وجه الله تعالى لا يتعلمه إلا ليصيب به غرضاً من الدنيا لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»^(١) فعلى العبد أن يقصد بعمله رضا الله تعالى، وأن يعلم أنه سيعطى على قدر نيته، وإن من يستغنى يغنه الله ومن يتعفف يعفه الله.

الثالثة عشرة: التوسل المشروع وغير المشروع

قال الأعمى للغلام متوسلاً به: اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزوجل، فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، ففي هذا بيان التوسل المشروع وغير المشروع، وقد وردت نصوص الشريعة تفيد أن التوسل المشروع على صور منها التوسل بالإيمان والعمل الصالح كما في حديث الثلاثة الذين دخلوا الغار وأطبقت عليهم الصخرة فدعوا الله بصالح أعمالهم فانفجرت الصخرة وخرجوا جميعاً يمشون، ومنها التوسل بدعاء الصالحين كما في قول النبي صلى الله عليه وسلم لعمر: لا تنسانا ياأخى من دعائك، والإستسقاء بدعاء العباس زمن عمر ودعاء يزيد بن الأسود الجرشى زمن معاوية، ومنها التوسل بأسماء الله وصفاته مثل: يا حي يا قيوم أما التوسل إلى الله بدعاء الأموات والإستغاثة بهم، فهو توسل بدعي غير مشروع، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلِكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلَيْسَ جِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٤] وقال: ﴿قُلْ أَدْعُوا مَنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ ائْتِنَا قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١] ولو كان دعاء الموتى والتوسل بهم يجوز لما تركوا النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته وتوسلوا بدعاء العباس زمن عمر، وكذلك عندما توسلوا بدعاء يزيد بن الأسود زمن معاوية، فتركهم الفضل للمفضول يدل على أنهم علموا عدم جواز التوسل بالأموات، كذلك لايجوز التوسل بالحي فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولذلك لما قال الأعمى للغلام اشفني، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عزوجل فإن آمنت به دعوت الله فشفاك، فالشفاء بيد الله والله هو الشافي المعافي، وقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فهُوَ

يَشْفِينِ ﴿الشعراء: ٨٠﴾ أما الأحاديث التي فيها: توسلو بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم، فلا تصح ولا تقوم بها حجة كما أوضح ذلك الشيخ الألباني وغيره.

الرابعة عشرة: الطغاة في كل عصر

يزعمون أنهم أولياء النعم

أبصر الرجل بعد العمى ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال له الملك: يافلان من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي، فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله، قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله.

فهذا الطاغية كان يدعى الربوبية والألوهية مع الله، وقد بلغت به الغباوة والبجاجة إلى حد الزعم أنه الذي شفى جلسيه وهو لم يفعل له شيئاً بل هو قاصر وعاجز إلى درجة عدم العلم بما حدث لجلسيه الأعمى، وهذا كله من جراء ظلام الشرك الذي استحکم على قلبه وعقله، وهذا شأن الطغاة والطواغيت في كل عصر ووقت، يزعمون دائماً أنهم أرباب وأولياء النعم، هذا شأن النمرود الذي حاور نبي الله إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] وهذا شأن فرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: ٢٤] وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨] وقال: ﴿أَلَيْسَ لِي مَلِكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١]، وقال في محاورته لنبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى﴾ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢] إن المنعم هو الله ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] ومن الخطأ وسوء الاعتقاد نسبة ذلك للنفس كما في قول قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتَهُ عَلَيَّ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨] قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] فكان هذا هو جزاؤه ولما قال فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي﴾ [الزخرف: ٥١] أجراها الله سبحانه من فوق رأسه جزاءً وفاقا، ومات يوم مات وهو يقول: ﴿آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ

به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين ﴿يونس: ٩٠﴾ فقيل: ﴿الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين فاليوم ننجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية﴾ ﴿يونس: ٩١﴾.

الخامسة عشرة: البطش سلاح الجبابة

فلا حجة ولا إقناع عندهم

ما كاد الملك الطاغية يسمع قول الأعمى: ربي وربك الله، فلم يزل يعذبه حتى دله على الغلام.

فاللجوء إلى العنف والبطش هو أسلوب الطغاة والجبابة في كل زمان ومكان، فلا حجة لديهم ولا إقناع عندهم، وكيف يكون عندهم حجة أو إقناع، والباطل لجلج وعليه ظلمة وهو مخالف للعقل والفطرة والكتب المنزلة والرسول المرسل، وقد قال الله تعالى عن إبليس: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ ﴿الحجر: ٤٢﴾ أى لا حجة له فى إغواء العباد، ومن طالع قصة فرعون علم أن البطش والعنف هو سلاح الضعيف العاجز السفيه، فقد شرع يقتل الصبيان ويستحى الإناث لرؤيا تفيد أن أهلاكه سيكون على يد غلام من بنى اسرائيل، وسواء كانت الرؤيا حقة أو باطلة فلا يحل له صنيعه هذا، إذ لو كانت حقه فسيهلك حتما وبالتالي فلا داعى لقتل الصبيان، وإن كانت باطلة فلا داعى لقتل الصبيان وإتلاف الأنفس البريئة، ويدل على سفهه أيضا أنه لما قال له الملائكة من قومه: ﴿أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذُرُكَ وَآلِهَتِكَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٧﴾ قال: ﴿سَنُقْتِلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ ﴿الأعراف: ١٢٧﴾ لقد واجه نبي الله موسى بجيش من السحرة رغبتهم فى الملك والمال وهو الذى يدعى الربوبية والألوهية مع الله، ثم لما آمنوا وأسلموا لله رب العالمين، تهددهم وتوعدهم فرعون وقال: ﴿فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلاَفٍ وَأَلْصِقَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ ﴿طه: ٧١﴾ فهذا هو منطق الطغيان، بل لم يقتصر على ذلك حتى تنادى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ﴾ ﴿الشعراء: ٥٤-٥٦﴾ ثم لما خرج نبي الله موسى ومن آمن معه: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا﴾ ﴿يونس: ٩٠﴾ وانظر فى قول الكفار لشعيب عليه السلام، وهو خطيب الأنبياء: ﴿مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ ﴿هود: ٩١﴾ فأين حجتهم فى مواجهته،

وقال تعالى عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فهل يكون جزاء العفاف والطهر الطرد والإبعاد؟! وقد شهد ببراءة نبي الله يوسف - عليه السلام - كل شئ الشاهد والملك والمرأة والنسوة وعلى الرغم من ذلك أدخلوه السجن ليدفع البرئ ثمن تهتك امرأة العزيز: ﴿ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [يوسف: ٣٥] قتل صاحب يس، وقتل الغلام والراهب والأعمى كما خدت الأخاديد وأضرمت فيها النيران وقذف فيها كل من آمن بالله، حتى المرأة وصغيرها!!! فأين الحجة والبرهان والبصيرة في تصرفات الطغاة والطواغيت!؟

لقد شن الجنرالات في تركيا حربا لا هوادة فيها لدخول النائبة قاعة البرلمان بحجابها، واعتبروا ذلك مخالفة للدستور العلماني، بل وصل الأمر إلى إسقاط الجنسية عنها، ووقع الرئيس التركي بذلك على المرسوم الصادر من مجلس الوزراء، فما هي الجريمة التي اقترفتها هذه النائبة؟! وهل كفرت أو زنت أو سرت؟! أبدا إنها لم تصنع شيئا من ذلك، ولو أنها فعلت كل ذلك لفتحوا لها الأبواب على مصاريعها واعتبروه حرية شخصية، إنه منطق البطش والطغيان وفقدان البصيرة يحكيه لك قول ربنا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [إبراهيم: ١٣].

السادسة عشرة: الاستكراه يلغي الاختيار

ويرفع الإثم والذنب

ورد في الحديث أن الملك الطاغية لما سمع مقالة الأعمى لم يزل يعذبه حتى دله على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بنى بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدوية، فقال: ما أشقى أحدا إنما يشفى الله عزوجل، قال: أنا؟، قال: لا، قال: أولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله فأخذه أيضا بالعذاب حتى دل على الراهب فأتى بالراهب فقيل: ارجع عن دينك فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه، وقال للأعمى: ارجع عن دينك، فأبى فوضع المنشار في مفرقه أيضا، وقال للغلام: ارجع عن دينك فأبى.....

وهذه صورة استكراه واضحة، والخوف هنا قد تمهدت أسبابه، إذ الملك الطاغية كان يدعى الربوبية والألوهية مع الله، وعنده المقدرة على الإنتقام ممن خالفه، وإنفاذ تهديده ووعيده، وقد رأى الغلام ما حدث للأعمى وتحت وطأة التعذيب دل على الراهب، وكان قد أوصاه الراهب بقوله: وإنك ستبتلى فإن ابتليت فلا تخبر عني، ومما يستلفت النظر أن الأعمى والراهب والغلام ومن خدت لهم الأخاديد رغم تعرضهم لظروف الاستكراه إلا أنهم ثبتوا جميعا على إيمانهم حتى الموت، فهل لم يكن لهم رخصة في إظهار الكفر مع طمأنينة قلوبهم بالإيمان؟ يجيب الشيخ الشنقيطي - رحمه الله - في أضواء البيان أثناء تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ﴾ [الكهف: ٢٠] ويوضح أن أصحاب الكهف رغم تعرضهم للاستكراه إلا أنهم لم يترخصوا ولم يظهروا الكفر وقالوا: ﴿وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ﴾ [الكهف: ٢٠] وكان الاستكراه لم يكن عذرا لهم، ويحتمل أن يكون رفع الإثم والذنب في الاستكراه خاصا بهذه الأمة ويدل ذلك على قول النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكروهوا عليه»^(٣)، فالحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

وقد ذكر العلماء أن من حلف لا يدخل دار زيد مثلا فقهره من هو أقوى منه، وكبله بالحديد، وحمله قهرا حتى أدخله فيها فهذا النوع من الإكراه صاحبه غير مكلف بالإجماع إذ لا قدرة له على خلاف ما أكره عليه، وهو فى هذه الحالة ينفذ إرادة غيره . فإن قيل له: اقتل فلانا وإلا قتلناك أنت، فلا يجوز له قتل غيره وإن أدى ذلك إلى قتله هو، إذ نفسه ليست أفضل من نفس أخيه، وأما فى غير حق الغير فالظاهر أن الإكراه عذر يسقط التكليف بدليل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]، فمن استكراه على النطق بالكلمة الخبيثة فلا إثم عليه، وكذلك من وقع فى مخمصة وخاف الهلكة على نفسه ولم يجد مباحا فاضطر لأكل الميتة، أو حدثت له غصة ولم تندفع إلا بشرب الخمر، ولم يجد مباحا لدفعها، فلا إثم عليه، إذا الضرورات تبيح المحظورات، وهى تقدر بقدرها، وربنا يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه، وما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل المرسلين مبشرين ومنذرين، ويبقى أن يقال: إن إظهار شعائر الدين والثبات على الإيمان والأخذ بالعزيمة أولى وأفضل من بقاء

طواير طويلة تعطى الطغاة ما يريدونهم ولو بالسنتهم، ولذلك كان ثبات الراهب والأعمى والغلام والمؤمنين مضرب المثل وقصة تحكى عبر العصور وكر الدهور.

السابعة عشرة: الصبر على ذلك

لمن قويت نفسه أولى وليس بمنسوخ

نشروا و شقوا الأعمى والراهب نصفين، وهذه منتهى القسوة والغلظة من جهة، ومنتهى الصبر وعدم الرجوع عن الدين من جهة أخرى، والظاهر أن ذلك ليس بمنسوخ عندنا فالصبر على البلاء لمن قويت نفسه أولى، قال القرطبي فى تفسيره: «قال علماؤنا: أعلم الله عزوجل المؤمنين من هذه الأمة فى هذه الآية: ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ [البروج: ٧] ما كان يلقاه من وحد قبلهم من الشدائد، يؤنسهم بذلك، وذكر لهم النبى ﷺ قصة هذا الغلام ليصبروا على ما يلقون من الأذى والآلام والمشقات التى كانوا عليها ليتأسوا بمثل هذا الغلام فى صبره وتصلبه فى الحق وتمسكه به، وبذله نفسه فى حق إظهار دعوته، ودخول الناس فى الدين مع صغر سنه وعظم صبره، وكذلك الراهب صبر على التمسك بالحق حتى نشر بالمنشار، وكذلك كثير من الناس لما آمنوا بالله تعالى ورسخ الإيمان فى قلوبهم، صبروا على الطرح فى النار ولم يرجعوا فى دينهم، ونقل قول ابن العربي: وهذا منسوخ عندنا وعقب عليه. بقوله: ليس بمنسوخ عندنا، وإن الصبر على ذلك لمن قويت نفسه وصلب دينه أولى قال الله تعالى مخبرا عن لقمان: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وروى أبو سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال: «إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر» خرجه الترمذى وقال: حديث حسن غريب .

وروى ابن سنجر محمد بن سنجر عن أميمة مولاة النبى ﷺ قالت: كنت أوضئ النبى ﷺ فأتاه رجل فقال: أوصنى، فقال: «لا تشرك الله شيئا وإن قطعت أو حرقت بالنار....» الحديث، قال علماؤنا: ولقد امتحن كثير من أصحاب النبى ﷺ بالقتل والصلب والتعذيب الشديد فصبروا ولم يلتفتوا إلى شئ من ذلك، ويكفيك قصة عاصم وخبيب وأصحابهما، وما لقوا من الحروب والمحن

والقتل والأسر والحرق وغير ذلك . وقد مضى فى النحل أن هذا إجماع ممن قوى فى ذلك فتأمله هناك ا. هـ .

وقد سبق أن بينا أن المكره على الكفر بالإهلاك العظيم، الأولى به أن يصبر على ما خوف منه، وأن إظهار كلمة الكفر كالرخصة فى ذلك، روى الحسن أن مسيلمة أخذ رجلين من أصحاب النبي ﷺ فقال لأحدهما: تشهد أنى رسول الله؟ فقال: نعم فتركه، وقال للآخر مثله، فقال: لا بل أنت كذاب، فقتله، فقال النبي ﷺ: «أما الذى ترك فأخذ بالرخصة فلا تبعة عليه، وأما الذى قتل فأخذ بالأفضل فهيناً له» .

الثامنة عشرة : مسائل هامة يحتاجها الأمر الناهي

هل يجوز عند ضعف المسلمين مهادة الكفار بمال؟

قال أبو حنيفة: «لا ينبغي موادة أهل الشرك إذا كان بالمسلمين عليهم قوة وإن لم يكن بالمسلمين قوة عليهم فلا بأس بالموادة» وقال الشيبانى: - بعد ذكره لكلام أبى حنيفة هذا - «وإذا خاف المسلمون المشركين فطلبوا موادعتهم فأبى المشركون أن يوادعوهم حتى يعطيهم المسلمون على ذلك ما لا بأس بذلك عند تحقق الضرورة» وقال ابن حجر - عند الكلام على مهادة الكفار بمال يدفعه المسلمون لهم فى حال الضرورة -: «وأما أصل المسألة فاختلف فيه فقال الوليد بن مسلم: سألت الأوزاعى عن موادة إمام المسلمين أهل الحرب على مال يؤديه إليهم فقال: لا يصلح ذلك إلا عن ضرورة كسغل المسلمين عن حربهم قال: ولا بأس أن يصلحهم على غير شئ يؤدونه إليهم كما وقع فى الحديبية» .

وقال الشافعى: «إذا ضعف المسلمون عن قتال المشركين جازت لهم مهادنتهم على غير شئ يعطونهم لأن القتل للمسلمين شهادة، وإن الإسلام أعز من أن يعطى المشركين على أن يكفوا عنهم إلا فى حالة مخافة اصطلام المسلمين لكثرة العدو لأن ذلك من معانى الضرورات، وكذلك إذا أسر رجل مسلم فلم يطلق إلا بفدية جاز» .

وقال ابن قدامة: «لا تجوز المهادنة مطلقا من غير تقدير مدة لأنه يفضى إلى ترك الجهاد بالكلية، وتجوز مهادنتهم على غير مال لأن النبي ﷺ هادنتهم يوم الحديبية على غير مال، ويجوز ذلك على مال يأخذه منهم فإنها إذا جازت على غير مال فعلى مال أولى، وأما إن صالحهم على مال نبذله لهم فقد أطلق أحمد القول بالمنع منه وهو مذهب الشافعي لأن فيه صغارا للمسلمين وهذا محمول على غير حالة الضرورة، فأما إذا دعت إليه ضرورة وهو أن يخاف على المسلمين الهلاك أو الأسر فيجوز لأنه يجوز للأسير فداء نفسه بالمال فكذا ههنا، ولأن بذله المال إن كان فيه صغار فإنه يجوز تحمله لدفع صغار أعظم منه وهو القتل والأسر وسبى الذرية الذي يفضى سبيهم إلى كفرهم».

وهذا الكلام من الأئمة الأعلام رد بليغ على التهور والاندفاع المفضى إلى الشر والفساد، ورحم الله امراة عرف قدر نفسه فلم يهنها، وجعل لنفسه خطاما وزماما فقادها بخطامها إلى طاعة الله وزمها بزمامها عن معصية الله، فإن الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه. وما علينا إلا أن نتعرف على مواطن الأقدام والإحجام، ولنعلم أن الأقدام في مواطن الإحجام مذموم كعكسه ولما رجع خالد بن الوليد وجيشه يوم مؤتة إلى المدينة وقيل لهم: فررتم. قال النبي ﷺ: «بل هم الكرار وليسوا الفرار».

حد الاستطاعة

نصوص الكتاب والسنة كثيرة في بيان أنه لا تكليف إلا بمستطاع ومقدور للعباد، وأن الواجبات كالصيام والحج والجهاد تسقط بالعذر والعجز وعدم الاستطاعة. قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] فله الحمد والمنة والفضل والنعمة، فقد سهل ورفق ووضع عنا الإصر والأغلال التي وضعها على من كان قبلنا، وقد اتفق العلماء على أن التكليف بما لا يطاق ليس واقعا في الشرع قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ويقول سبحانه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، ويقول النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وهكذا فانت ترى كيف يسقط الإنكار باليد واللسان عند عدم الإستطاعة وروى أبو داود عن ابن عباس قال: نزلت ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ {الأنفال: ٦٥} فشق ذلك على المؤمنين حين فرض الله عليهم ألا يفر واحد من عشرة ثم إنه جاء التخفيف فقال: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ {الأنفال: ٦٦} قال: «فلما خفف الله تعالى عنهم من العدد نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم». وقال ابن العربي: «قال قوم إن هذا كان يوم بدر ونسخ وهذا خطأ من قائله». قال القرطبي: «قلت: وحديث ابن عباس يدل على أن ذلك فرض ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للآئتين، فخفف عنهم وكتب عليهم ألا يفر مائة من مائتين فهو على هذا القول تخفيف لا نسخ. وهذا حسن» ا.هـ. وأخرج البخارى وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقى فى الشعب عن ابن عباس قال: «لما نزلت: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ﴾ {الأنفال: ٦٦} فكتب عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، وأن لا يفر عشرون من مائتين، ثم نزلت: ﴿الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ {الأنفال: ٦٦} الآية فكتب أن لا يفر مائة من مائتين قال سفيان: وقال ابن شبرمة: وأرى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر مثل هذا، إن كانا رجلين أمرهما وإن كانوا ثلاثة فهو فى سعة من تركهم. قال فى المهذب: «إن زاد عددهم على مثلى عدد المسلمين، جاز الفرار. لكن إن غلب على ظنهم أنهم لا يهلكون، فالأفضل الثبات. وإن ظنوا الهلاك فوجهان:

الأول: يلزم الإنصراف لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾

{البقرة: ١٩٥}.

الثانى: فيستحب ولا يجب، لأنهم إن قتلوا فازوا بالشهادة.

وإن لم يزد عدد الكفار على مثلى عدد المسلمين، فإن لم يظنوا الهلاك لم يجز الفرار، وإن ظنوا فوجهان يجوز لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ ولا يجوز، وصححوه، لظاهر الآية.

وقال الحاكم : «إن ذلك يرجع إلى ظن المقاتل واجتهاده، فإن ظن المقاومة لم يحل الفرار، وإن ظن الهلاك جاز الفرار إلى فئة وإن بعدت، إذ لم يقصد الإقلاع عن الجهاد» وذهب ابن الماجشون ورواه عن مالك: «أن الضعف إنما يعتبر في القوة لا في العدد، وأنه يجوز أن يفر الواحد عن واحد إذا كان أعتق جوادا منه، وأجود سلاحا وأشد قوة وهذا هو الأظهر» ١.هـ.

وقال ابن جزى الغرناطى المالكى: «لا يجوز الانصراف من صف القتال أو متحيز إلى فئة والتحرف للقتال هو أن يظهر الفرار وهو يريد الرجوع مكيدة فى الحرب والتحيز إلى الجماعة الحاضرة جائز واختلف فى التحيز إلى جماعة غائبة من المسلمين أو مدينة ولا يجوز الإنهزام إلا إذا زاد الكفار على ضعف المسلمين والمعتبر العدد فى ذلك على المشهور، وقيل: القوة وقيل: إذا بلغ عدد المسلمين اثنى عشر ألفا لم يحل الإنهزام ولو زاد الكفار على الضعف. وإن علم المسلمون أنهم مقتولون فالإنصراف أولى وإن علموا مع ذلك أنهم لا تأثير لهم فى نكايه العدو وجب الفرار وقال أبو المعالى: «لا خلاف فى ذلك».

والجهاد بمفهومه الصحيح وعلى ضوء الواقع الذى يمر به المسلمون، لن يقوم على أكتاف أفراد قلائل، بل إن جهاد المائة والمائتين ضرره - كما نرى - أكثر من نفعه، ولا تعارض بين ما ذكرنا ونقلنا وبين قوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩] فالنصوص قد خرجت من مشكاة واحدة ولا يظن بنصوص الوحي وجود تعارض: ﴿وَلَوْ كَانِ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢] وقوله تعالى: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٩] تحريض على القتال واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه. قال القرطبي: «هكذا يجب علينا نحن أن نفعل؟ لكن الأعمال القبيحة والنيات الفاسدة منعت من ذلك حتى ينكسر العدد الكبير قدام اليسير من العدو كما شاهدناه غير مرة وذلك بما كسبت أيدينا! وفى البخارى: وقال أبو الدرداء: «إنما تقاتلون بأعمالكم» وفيه مسند أن النبى ﷺ قال: «هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم» فالأعمال فاسدة والضعفاء مهملون والصبر قليل والاعتماد ضعيف والتقوى زائلة! قال الله تعالى: ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ

فَتَوَكَّلُوا ﴿المائدة: ٢٣﴾ وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ﴿النحل: ١٢٨﴾ وقال: ﴿وَلْيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ﴾ ﴿الحج: ٤٠﴾ وقال: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿الأنفال: ٤٥﴾.

فهذه أسباب النصر وشروطه وهي معدومة عندنا غير موجودة فينا، فإننا لله وإنا إليه راجعون على ما أصابنا وحل بنا! بل لم يبق من الإسلام إلا ذكره، ولا من الدين إلا رسمه لظهور الفساد وكثرة الطغيان وقلة الرشاد حتى استولى العدو شرقا وغربا برا وبحرا وعمت الفتن وعظمت المحن ولا عاصم إلا من رحم ! ا.هـ.

وإذا كان هذا هو الحال على زمن الإمام القرطبي فكيف بزماننا نحن !! .

فإلى الله المشتكى من غربة الإسلام وسط أهله وبنيه، ولا يخفى عليك أننا عندما نتحدث عن حكم دفع مال للكفار إذا خيف استئصال شأفة المسلمين، وكذلك حديثنا عن عدم الاستطاعة إنما هو تقرير للواقع وحكمه وليس فرحا بما قد يصل إليه الحال . كما أنه ليس مبررا نعلق عليه تكاسلنا وتخاذلنا في الأخذ بالأسباب والعمل بالطاعات المستطاعة والمقدورة بالنسبة لنا والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المصلحة

الواقع أن الشريعة الإسلامية ما شرعت إلا لتحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، أى فى الدنيا والآخرة، ودرء المفسد والأضرار عنهم فى العاجل والآجل أيضا حتى قال البعض: « إن الشريعة كلها مصالح، إما درء مفسد أو جلب مصالح» يقول ابن القيم عن الشريعة: «مبناها وأساسها الحكم ومصالح العباد فى المعاش والمعاد، وهى عدل كلها ورحمة كلها ومصالح كلها وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور وعن الرحمة إلى ضدها وعن المصلحة إلى المفسدة وعن الحكمة إلى العبث فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل، فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه».

وقال الشاطبي في الموافقات: «فالشريعة عدل الله بين عباده ورحمته بين خلقه». وقال الشاطبي في الموافقات: «والمعتمد أنا استقرينا من الشريعة أنها وضعت لمصالح العباد استقراء لا ينازع فيه أحد، فإن الله تعالى يقول في بعثة الرسل وهو الأصل: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥] ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] وقال في أصل الخلقة: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧] ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] وأما التعاليل لتفاصيل الأحكام في الكتاب والسنة فأكثر من أن تحصى، كقوله بعد آية الوضوء: ﴿مَا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقال في الصوم: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وفي الصلاة: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ١٨٣] وفي القبلة: ﴿فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠] وفي الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنفُسِهِمْ ظُلْمًا﴾ [الحج: ٣٩] وفي القصاص: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ١٧٩] وفي التقرير على التوحيد: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

والمقصود بالتنبية، وإذا الإستقراء على هذا وكان في مثل هذه القضية مفيدا فنحن نقطع بأن الأمر مستمر في جميع تفاصيل الشريعة ١.١ هـ.

وأما تشريع هذا الدين لما فيه مصالح العباد وما يدراً عنه الشر والفساد فإنه يرتبط برحمة الله ولا ينفك عنها قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ومن رحمة الله تشريع الرخص عند وجود المشقات في تطبيق الأحكام إذا كانت هذه المشقات فوق طاقة البشر المعتادة مثل إباحة النطق بكلمة الكفر عند الإكراه عليها بالتهديد بالقتل ونحوه وإباحة المحرم عند الضرورة مثل أكل الميتة ولحم الخنزير عند التعرض للهلاك جوعاً، وإباحة الفطر في رمضان للمريض والمسافر ولا شك إن دفع المشقة ضرب من ضروب رعاية المصلحة ودرء المفسدة عن الناس، وقد عرف بالاستقراء والتأمل أن مصالح العباد تتعلق بأمور

ضرورية أو حاجة أو تحسينية فالأولى هي التي لا قيام لحياة الناس بدونها وإذا فاتت حل الفساد وعمت الفوضى واختل نظام الحياة، وهذه الضروريات هي حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال.

أما الحاجيات فهي التي يحتاجها الناس لتحقيق اليسر ولذلك شرع الدين مثلا العبادات وشرع لحفظه الجهاد وعقوبة المرتد وزجر من يفسد على الناس عقيدتهم والسعة في عيشتهم وإذا فاتتهم لم يختل نظام الحياة ولكن يصيب الناس ضيق وحرَج ولذلك لها الرخص عند المشقة وشرعت الدية في القتل الخطأ على عاقلة القاتل .

وأما التحسينات فهي التي ترجع إلى محاسن العادات ومكارم الأخلاق وإذا فاتت خرجت حياة الناس عن النهج القويم السليم الذي تقضى به الفطر السليمة والعادات الكريمة، ولذلك شرعت الطهارة للبدن والثوب وستر العورة، والنهي عن قتل الأطفال و النساء في الحروب وأخذ الزينة عند كل مسجد، والنهي عن بيع الإنسان على بيع أخيه .

ونختم هذا الكلام بما ذكره العز بن عبد السلام في كتاب «قواعد الأحكام في مصالح الأنام» وقد أتجه به إلى أن تشريع الأحكام إنما هو لمصالح البشر حيث قال رحمه الله: «ومن أراد أن يعرف المناسبات والمصالح والمفاسد راجحها ومرجوحها فليعرض ذلك على عقله بتقدير أن الشرع لم يرد به ثم يبنى عليه الأحكام فلا يكاد يخرج حكم منها عن ذلك إلا ما تعبد الله به عباده ولم يفهمهم على مصلحته أو مفسدته إلى أن قال: وإنما يجلب سبحانه مصالح الحسن ويدراً مفاسد القبيح طولاً منه على عباده وتفضلاً . ١. هـ.

ضوابط المصلحة في إنكار المنكر

استخلص العلماء القواعد التي تحقق المصلحة وتدفع المضرة والمفسدة من عشرات النصوص مثل: «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة» «تحصيل أعظم المصلحتين بدفع أذناهما عند المعارضة وعدم إمكان الجمع». «التزام أخف المفسدتين بتفويت أعظمهما في حالة عدم الإستطاعة على دفع كليهما» «الضرر يزال» «الضرورات تبيح المحظورات» ولو تأملنا لوجدنا نصوص الشريعة قد أتت على نحو يحقق للعباد الصالح ويستدفع عنهم المضار والمفاسد .

فالمصلحة تقتضى منا أن نلتزم بنصوص الكتاب والسنة إذ ترك هذه النصوص هو المفسدة بعينها وما يجب التنبيه والحذر منه، هذه التساهلات والتنازلات التي يفعلها البعض في طريق الدعوة باسم مصلحة الدعوة ومن مثل هذا يحذر الأستاذ سيد قطب رحمه الله فيقول: «... وإذا كان الله قد عصم أنبياءه ورسله فلم يمكن للشيطان أن ينفذ من خلال رغباتهم الفطرية إلى دعوتهم. فغير المعصومين في حاجة إلى الحذر الشديد من هذه الناحية، والتحرج البالغ، خيفة أن يدخل عليهم الشيطان من ثغرة الرغبة في نصرة الدعوة، والحرص على ما يسمونه «مصلحة الدعوة» فلا بد من الدقة واليقظة والحذر، وإلا ضاعت الدعوة الإسلامية بين أبنائها، وتشوهت صورتها بين الناس جموداً أو انحرافاً، وما ضاع هذا الدين إلا بين الغالى فيه والمقصر... وينبغي أن تعلم أن المصالح المرسله هي التي لم يرد في الشرع دليل على اعتبارها أو إلغائها وبالتالي فلا يجوز تقديم الآراء أو الاجتهادات على نصوص الشريعة، ونخشى أن ينحرف أصحاب المصالح المتوهمة والمزعومة بالدعوة شيئاً فشيئاً حتى يخرجون بها عن الجادة .

وما يجدر التنبيه عليه أهمية إنزال النصوص منازلها الصحيحة أو عدم العمل ببعض وإغفال وإهدار البعض الآخر من النصوص المتعلقة بنفس القضية والمسألة، فهذا من شأنه أن يحدث المضرة والمفسدة في حالة الإخلال به، ومن أوضح الأمثلة على ذلك ما يحدث في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فلا يجوز للإنسان أن ينكر منكر بمنكر أعظم أو أن يثبت المنكر ويستجلب منكراً آخر بإنكاره، ولا يجوز له أن يتلف نفسه في غير مصلحة شرعية أو أن يستلحق المضرة والأذى الشديد

بالآخرين من الأهل والأصدقاء والإخوان إذا أنكر المنكر، ولا يشفع له في ذلك كله حسن نيته أو اكتفاؤه بمعرفة أن هذا منكر ثم ينكره بأسلوب لا يجيزه الشرع، وإليكم بعض النقول التي توضح ما نقول:

يقول الغزالي في إنكار المنكر: «أن يعلم أن المنكر يزول بقوله وفعله ولا يقدر له على مكروهه فيجب عند الإنكار وهذه هي القدرة المطلقة» (الإحياء ج ٢ ص ٢٨٠).

ويقول العلامة أبو بكر الجصاص: «وهي على منازل أولها تغييره باليد إذا أمكن فإن لم يمكن وكان في نفيه خائفا على نفسه إذا أنكر بيده فعله إنكاره بلسانه فإن تعذر لما وصفناه فعله إنكاره بقلبه» (أحكام القرآن ج ٢ ص ٣٥).

وقال القاضي عياض: «إن غلب على ظنه أن تغييره بيده يسبب منكرا أشد من قتله أو قتل غيره بسببه كف يده واقتصر على القول باللسان والوعظ والتخويف فإن خاف أن يسبب قوله ذلك غير بقلبه وكان في سعة» (شرح صحيح مسلم).

ويقول المناوي: «فإن لم يستطع الإنكار بيده بأن ظن حقوق ضرر به فبلسانه أى بالقول كاستغاثة أو توبيخ أو إغلاظ بشرطه فإن لم يستطع ذلك لوجود مانع كخوف فتنة أو خوف على نفس أو عضو أو بقلبه» وعلى الإنسان أن يقوم بمهمته حتى وإن تعرض للوم أو غيبة فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة من قلبه أو قلب أمثاله قال تعالى: ﴿يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ {المائدة: ٥٤} وفى حديث عبادة بن الصامت الذى رواه البخارى: «وعلى أن نقول الحق أينما كنا ولا نخاف فى الله لومه لائم» والدعوة إلى الله لا تخلو أبدا من مثل هذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ﴾

{المطففين: ٢٩-٣٢}.

قال القرطبي: «أجمع المسلمون فيما ذكر ابن عبد البر أن المنكر واجب تغييره على كل من قدر عليه وأنه إذا لم يلحقه بتغييره إلا اللوم الذى لا يتعدى إلى الأذى فإن ذلك لا ينبغى أن يمنعه من تغييره» الجامع لأحكام القرآن ج ٤ ص ٤٨.

ويقول الغزالي: «فلو تركت الحسبة بلوم لائم أو اغتياب فاسق أو شتمه أو تعنيفه أو سقوط المنزلة عن قلبه أو قلب أمثاله لم يكن للحسبة وجوب أصلا إذ لا تنفك الحسبة عنه» إحياء علوم الدين ٢-٢٨٤.

وإسقاط الوجوب لهذا السبب أى حصول المكروه للأمر النهائى لا يسقط لاستحباب ذلك لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] ولقول النبي ﷺ للرجل الذى سأله: أى الجهاد أفضل. قال: «كلمة حق عند سلطان جائر» رواه النسائى بإسناد صحيح. لكن إذا علم الأمر النهائى أن لا أثر مطلقا لحسبة مع حصول الأذى الجسيم كقتله أو انتهاك عرضه فيسقط الجواز عندئذ ويحرم الإنكار، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ .

خوف الضرر على الغير

إذا خاف الأمر النهائى الضرر على غيره - من أقاربه وأصدقائه والمختصين به أن يلحقهم الأذى لقيامه بهذه الفريضة دون أن يلحقه نفسه فيقول الغزالي: «فإذا كان يتعدى الأذى من حسبته إلى أقاربه وجيرانه فليتركها فإن إيذاء المسلمين محذور كما أن السكوت على المنكر محذور نعم إن كان لا ينالهم أذى فى مال أو نفس ولكن ينالهم الأذى بالشتيم والسب فهذا فيه نظر ويختلف الأمر فيه بدرجات المنكرات فى تفاحشها ودرجات الكلام المحذور فى نكايته فى القلب وقدحه فى العرض» (إحياء علوم الدين ٤ - ٣٥٠).

ويقول عبد الكريم زيدان فى «أصول الدعوة» ص ١٩١ تحت عنوان متى يحرم الاحتساب: «ويحرم الاحتساب إذا ألحق المحتسب (أى الأمر النهائى) من جرائه أذى جسيما بغيره من أصحابه أو أقربائه أو رفقاته أو عموم المسلمين حتى لو قدرنا زوال المنكر لأنه يفضى إلى منكر آخر هو إلحاق الأذى بالآخرين وهذا لا يجوز لأن للمسلم أن يتسامح فى حق نفسه ويتحمل الأذى ولكن ليس من حقه أن يتسامح فى إيذاء غيره عن طريق احتسابه وكذلك يحرم الإحتساب إذا أدى إلى وقوع منكر أكبر من المحتسب عليه مع لحوق الأذى بالآخرين وكذلك يحرم الاحتساب إذا لم يكن من ورائه إلا إلحاق الأذى الجسيم بنفسه كقتله أو هتك عرضه دون أن يكون لإحتسابه أى مصلحة أو أى أثر فى إزالة المنكر ورفعته» .

الأخذ بالعزيمة مستحب وخصوصا في مواطن إظهار الدين، والأخذ بالرخصة جائز وقد يكون مستحبا، وليس للإنسان أن يفرض على الآخرين الأخذ بالعزيمة وقد جعل الله لهم سعة في الرخصة، فمن عرض غيره للأذى فهو يلزمه بما لا يلزمه شرعا، ومن هنا كان له أن يسامح في حق نفسه لا في حق غيره.

الحكم بالعجز على الظن الغالب

يجب على الإنسان أن ينكر المنكر إذا رآه أو علم به وكانت عنده الإستطاعة على تغييره ولم يقم أحد بإنكاره. ولكن هل يكفي الظن الغالب في إسقاط الوجوب والحكم على الإنسان بالعجز وعدم الاستطاعة أو لا بد من اليقين.

يقول الغزالي: «إن غلب على الظن أنه يصاب لم يجب وإن غلب أنه لا يصاب وجب، ومجرد التجويز لا يسقط الوجوب فإن ذلك ممكن في كل حبة» ويقول: «أعنى بالعلم الظن الذي يجوز بمثله ترك استعمال الماء والعدول إلى التيمم فإذا انتهى إلى هذا الحد لم يبعد أن يرخص في ترك الحبة».

وعن معنى عدم القدرة: حصول مفسدة أكبر من مفسدة المنكر القائم حتى ولو قدر زوال المنكر الأول لأن الله لا يحب الفساد ولا يصلح عمل المفسدين.

وقد حرم العلماء سب الأصنام عند من يُعلم من حاله أن يسب الله عدوا بغير علم فيكون الإنسان قد تسبب بذلك في شتم الله. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨] وكان مع ابن تيمية يهتمون أحيانا بالإنكار على التتار في شربهم الخمر فكان ابن تيمية ينكر ذلك على أصحابه لأن الخمر تصد عن ذكر الله وعن الصلاة أما التتار فالخمر تصدهم عن قتل المسلمين وانتهاك حرمتهم.

الإصلاح بالوعظ أولاً

أجمع العلماء أن استخدام القوة لا يجوز ما دام الإصلاح بالوعظ والنصح مأمولاً. يقول ابن العربي: «إن الله سبحانه أمر بالصلح قبل القتال وعين القتال عند البغي» (أحكام القرآن ٢-٢٢٤).

ويقول القرطبي: «فالمنكر إذا أمكنت إزالته باللسان للنهائي فليفعل وإن لم يمكنه إلا بالعقوبة أو القتل فليفعل فإن زال بدون القتل لم يجز القتل» (الجامع لأحكام القرآن ٤-٤٩). ويقول الجصاص: «أمر الله بالدعاء إلى الحق قبل القتال ثم إن أبت الرجوع قوتلت» (أحكام القرآن ٣-٤٩٣).

فالإصلاح بالوعظ أولاً، فإن لم يفلح جهده فعليه أن يصلح بالقوة ولا يجوز النوع الثاني ما لم يثبت من عدم تأثير الأول قال تعالى: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله» {الحجرات: ٩} أى فإذا أبت إحداهما الخضوع للحق قوتلت لحماية المظلوم. فأمر الله تعالى بالسعى للإصلاح أولاً ثم القتال.

هل يحق للعامة الإصلاح بالقوة؟

هل جوزت الشريعة استخدام القوة لكل من يقدر عليه أم هو قاصر على الحكام وأولى الأمر فحسب. يقول القرطبي: «قال العلماء: الأمر بالمعروف باليد على الأمراء وباللسان على العلماء وبالقلب على الضعفاء» يعنى عوام الناس» (الجامع لأحكام القرآن).

لكن ما ذكره الإمام القرطبي ليس على إطلاقه فقد ذكر النووي فى شرحه لصحيح مسلم: «جواز إنكار المنكر باليد على من ارتكب مكروها» واستدل بقصة إنكار المنكر باليد على من ارتكب مكروها» واستدل بقصة إنكار ابن عباس رضى الله عنهما على من كفت شعره داخل العمامة فسدله له ابن عباس وكان الرجل فى الصلاة.

وقد ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (رواه مسلم)، والأمر بالمعروف يشمل الواجب والمستحب وأعله الإيمان بالله تعالى.

والنهي عن المنكر يشمل المكروه والحرام وأعله الكفر بالله تعالى. فالتغيير باليد وفق الضوابط الشرعية وإذا استلزم الأمر ذلك درجة عالية من درجات الإيمان، والجهاد في سبيل الله هو ذورة سنام الأمر وهو أيضا داخل ضمن دائرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول ابن القيم: «لا ضمنا في كسر أوانى الخمر وشق زقاقه» (الطرق الحكيمة في السياسة الشرعية ٢٥٦). ويقول القاضي عياض: «حق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان أو فعلا فيكسر آلات الباطل ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله وينزع المغصوب ويرده إلى أصحابه بنفسه أو بأمره إذا أمكنه» (شرح صحيح مسلم ١-٥١) ويقول الكاساني في بدائع الصنائع ٧-١٧٦: «لا يجب الضمان بإتلاف الخمر والتحذير على المسلم سواء كان المتلف مسلما أو ذميا لسقوط تقويم الخمر والتحذير في حق المسلم ولو أتلف مسلم أو ذمى خمرا وختزيرا لذمى يضمن عندنا خلافا للشافعى».

ويقول عبد القادر عودة في التشريع الجنائي ٨٦: «إذا شوهد الجانى وهو يرتكب الجناية كان لأى شخص أن يمنعه بالقوة عن ارتكاب الجريمة وأن يستعمل القوة اللازمة لمنعه سواء كانت الجريمة اعتداء على حقوق الأفراد كالسرقة أو اعتداء على حقوق الجماعة كشرب الخمر والزنا وهذا ما يسمى بحق الدفاع الشرعى العام».

وفى التفريق بين الدفاع الشرعى الخاص والعام قال: «فمثلا إذا هجم رجل على امرأة يريد اغتصابها فإنه يدفع عنها باعتباره صائلا، فهنا دفاع شرعى خاص. وأما إذا اتاها برضاها ففعلهما يدفع باعتباره منكرا، فهنا دفاع شرعى عام، ومن يحاول قتل غيره يدفع باعتباره صائلا ويكون الدافع فى حالة دفاع شرعى خاص، أما من يحاول الإنتحار فيدفع فعله بإعتباره منكرا ويكون الدافع فى حالة نهى عن المنكر أو تغييره وبالجمله فإن إزالة كل عمل لا تقره الشريعة وأمكن دفعه تغيير منكر سواء كان دفاعا أم لا» ١. هـ.

وإنكار المنكر لا يحتاج إلى استئذان كما هو واضح من هذه الأقوال التى نقلناها.

شروط استخدام العامة للقوة

(١) أن يكون المنكر موجودا حالا، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: «المعصية لها ثلاثة أحوال، إحداها: أن تكون منصرمة فالعقوبة على ما تصرم منها حد أو تعزير وهو إلى الولاية لا إلى الأحاد، الثانية: أن تكون المعصية راهنة وصاحبها مباشر لها كلبسه الحرير وإسماكه العود والخمر فإبطال هذه المعصية واجب بكل ما يمكن ما لم تؤد إلى معصية أفحش منها أو مثلها وذلك يثبت للأحاد وللرعية. الثالثة: أن يكون المنكر متوقعا كالذى يستعد بكنس المجلس وتزيينه وجمع الرياحين لشرب الخمر وبعد لم يحضر الخمر فهذا مشكوك فيه إذ ربما يعوق منه عائق، فلا يثبت للأحاد سلطنة على العازم على الشرب إلا بطريق الوعظ والنصح فأما التعنيف والضرب فلا يجوز للأحاد ولا للسلطان إلا إذا كانت تلك المعصية علمت منه بالعادة المستمرة وقد أقدم على السبب المؤدى إليها ولم يبق لحصول المعصية إلا ما ليس فيه إلا الانتظار» (الإحياء ٢-٢٨٤).

(٢) أن يقتصر على الضرورة. يقول الغزالي: «أن يقتصر فى طريق التغيير على القدر المحتاج إليه. فإن غضب أحد أرضا وقدر على جره بيده لإخراجه لم يجز للمغضوب منه أن يأخذ بلحيته فى الإخراج ولا برجله» وتجاوز القدر المحتاج إليه فى استخدام القوة جنائية يؤخذ عليها الرجل شرعيا مثل أن يكسر الرجل آتية الخمر لإراققتها حيث كانت الإراقة متيسرة بلا كسر فيلزمه الضمان. نعم إن لم يجد إليه سبيلا إلا أن يكسرها فله ذلك وكذلك من دخل عليه سارق وعلم أنه لو صاح عليه يخرج ويطرح متاعه فقتله مع ذلك يوجب القصاص ولكن إذا علم أنه لن يخرج فقتله فلا شئ عليه.

(٣) أن لا يفضى إلى فتنة ومفسدة:

قال ابن القيم رحمه الله: إنكار المنكر أربع درجات:

الأولى: أن يزول ويخلفه ضده.

الثانية: أن يقل وإن لم يزل بجملته.

الثالثة: أن يخلفه ما هو مثله.

الرابعة: أن يخلفه ما هو شر منه.

فالدرجتان الأوليان مشروعتان والثالثة موضع اجتهاد والرابعة محرمة، ومن هذه القاعدة أخذ جمهور العلماء المنع من الخروج على أئمة الجور لحصول الفتنة وسفك دماء المسلمين مع كون الغالب في مثل ذلك عدم حصول الظفرة ويتضاعف خوف الفتنة في حالة استخدام القوة ضد الجماعة المرتكبة للمنكر.

يقول ابن العربي المالكى: «فإن لم يقدر إلا بمقاتلة وسلاح فليتركه وذلك إنما هو إلى السلطان لأن شهر السلاح بين الناس قد يكون مخرجا إلى الفتنة وآيلا إلى فساد أكثر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» (أحكام القرآن ١-١٢٢).

قال النووي في شرح مسلم: «قال إمام الحرمين رحمه الله : ويسوغ لأحد الرعية أن يصد مرتكب الكبيرة إن لم يندفع عنها بقوله ما لم ينته الأمر إلى نصب قتال وشهر سلاح فإن انتهى الأمر إلى ذلك ربط الأمر بالسلطان، قال وإذا جار والى الوقت وظهر ظلمه وغشمه ولم ينزجر حين زجر عن سوء صنيعه بالقول فلأهل الحل والعقد التواطؤ على خلعه ولو بشهر الأسلحة ونصب الحروب» هذا كلام إمام الحرمين .

وهذا الذى ذكره من خلعه غريب ومع هذا فهو محمول على ما إذا لم يخف منه إثارة مفسدة أعظم منه . وقال ابن حزم بعد أن رجح وجوب الإنكار على الأمراء ولو بالقتال: «وإن كانوا فى عدد لا يرجون لقتلهم وضعفهم الظفر كانوا فى سعة من ترك التغيير باليد» ١.هـ.

وقد ذهب جماهير أهل السنة إلى ترك الخروج على الأئمة وهو فى الصحيح ومنها حديث عبادة مرفوعا وفيه: «وأن لا تنازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان» وكذلك ما ترتب من الفتنة وسفك الدماء وانتهاك الحرمات فى خروج من خرج على خلفاء بنى أمية مع عدم الظفر فى هذه الوقائع غالبا. وإذا كان جواز شهر السلاح للأفراد أنفسهم للأمر بالمعروف موضعا للخلاف فكيف يجوز للجماعات ذلك وخصوصا مع تيقن حصول المفسدة والفتنة.

ويبقى أن نقول أن جواز استخدام الجماعة للقوة يشترط فيه:

١- إن لم يمكنها رفع الأمر للحكومة.

٢- ولم تخف حدوث فتنة واضطراب أحوال.

٣- وخافت حدوث منكر أكبر منه.

كأن تهجم طائفة من قطاع الطريق على قرية فيجب على أهلها جميعاً أن يقاوموهم ويخرجوهم عنها، بل يجوز لهم أن يقتلوهم إذا دعت الضرورة.

التاسعة عشرة: إجابة الغلام ونصرته

عندما قال: اللهم اكفينيهم بما شئت

أنعم الله على الغلام بنعم كثيرة، ومنها إكرامه بإجابة دعائه، ونصرته له، فما من مرة قال فيها: اللهم اكفينيهم بما شئت، إلا وكفاه سبحانه ووقاه شر أعدائه، فقد ورد في الحديث: «أن الملك لما قال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغت ذروته، فإن رجع عن دينه وإلا فدهدوه، فذهبوا به فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفينيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل فدهدوهوا أجمعين، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به نفرأ إلى البحر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فأغرقوه، فقال الغلام: اللهم اكفينيهم بما شئت فغرقوا هم وجاء الغلام حتى دخل على الملك».

من توكل على الله كفاه قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] وهذا شبيه بالكلمة التي قالها إبراهيم عليه السلام عندما قذفوه في النار، قيل: إن جبريل جاءه فقال: ألك حاجة، فقال إبراهيم -عليه السلام- أما لك فلا وأما إلى الله فحسبي الله ونعم الوكيل، فكانت النار برداً وسلاماً عليه، وهى الكلمة التي قالها النبي ﷺ والمسلمون يوم حمراء الأسد، صبيحة يوم أحد، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَتَبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣-١٧٤].

إن القلوب إذا تعلقت بالله صنع بها سبحانه الأعاجيب، وخرق لها النواميس، فمن الذى دعاه ولم يجبه، ومن الذى سأله ولم يعطه ﴿أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢] .

قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦] وقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠] .

وفى الحديث: «إن الله حى كريم يستحي إذا رفع الرجل يديه أن يردهما صفراً خائبين»^(١) وقال: «لا تعجزوا فى الدعاء فإنه لن يهلك مع الدعاء أحد»^(٢) ولأبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له فى الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها»^(٣) لقد عجل الله إجابة دعاء الغلام على حدائة سنه، وهذا كثير فى حياة الأنبياء والصالحين، ومما يعين على إجابة الدعاء الاستقامة، وأن يعظم العبد الرغبة فى ربه عز وجل، وأن يجزم بالدعاء ويوقن بالإجابة ويصدق رجاءه فيه، ويلح على الله بالطلب، ولا يعجل ولا يقول: دعوت ولم يستجيب لى، وأن يترصد لدعائه الأوقات الشريفة، ويطيب مطعمه ومشربه وملبسه، ويفتح الدعاء بحمد الله والثناء عليه بأسمائه وصفاته ثم يصلى على النبى ﷺ وأن يدعو مستقبلاً القبلة ويرفع يديه، ولا يدعو بإثم ولا قطيعة رحم، وأفضل الدعاء بالوارد المأثور ثم بمعناه.

(١) رواه أبو داود وابن حبان والترمذي وقال: حسن غريب والحاكم وصححه ووافقه الذهبي .

(٢) رواه ابن حبان والحاكم وقال الذهبي: صحيح .

(٣) رواه الترمذي والحاكم وقال الذهبي: صحيح .

العشرون: التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة

قال الغلام للملك: إنك لست بقاتلى حتى تفعل ما أمرك به، قال: ما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهماً من كنانتي، ثم قل: بسم الله رب الغلام، فإنك إن فعلت ذلك قتلتي ففعل، ووضع السهم في قوسه ورماه به في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم ومات، فقال الناس: آما برب الغلام، فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر، فقد والله وقع بك، قد آمن الناس كلهم.

«لقد كان الغلام صاحب دعوة، يريد إيصال الحق للخلق، حتى وإن كلفه ذلك نفسه فلا بأس ببذلها رخيصة في سبيل الله، فالنفس إلى موت والمال إلى فوت» ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد حثك سبحانه على بيع نفسك له، ووعدك على ذلك الجنة، على الرغم من أنه مالك النفوس جميعاً فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعِدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بَبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] ومن طالع سير الأنبياء والمرسلين لوجد أعظم صور التضحية بالنفس في سبيل نشر الدعوة، وعلى طريقتهم سار الأفاضل كصاحب يس الذي شاهد مصرع المرسلين ولم يمنعه ذلك من أن يأتي على النحو الذي ذكره سبحانه ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مِنْ لَا يُسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مَهْتَدُونَ وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ إِنْ إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِنْ أَمِنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ﴾ [يس: ٢٠-٢٥]. فأخذه وقتلوه، فنصحهم ميتا كما نصحهم حيا، وقال: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ (٢٦) بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ [يس: ٢٧]

وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن أبا ذر لما دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم، قال له النبي صلى الله عليه وسلم: «ارجع إلى قومك حتى يأتيك أمري»، فقال: والذي نفسى بيده لأصرخن بها بين ظهرانيمهم فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وثار القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكب عليه فقال: ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار وأن طريق تجارتكم إلى الشام؟ (يعنى عليهم)، فأنقذه منهم، ثم عاد من الغد لمثلها وثاروا إليه فضربوه فأكب عليه العباس فأنقذه^(١) ومن ذلك ما فعله ابن مسعود رضي الله عنه لما أسلم، وخرج يقرأ على المشركين آيات الله فاجتمعوا عليه يضربونه ويؤذونه حتى كاد يهلك، وقال أنس بن مالك: ركب البراء فرساً يوم اليمامة ثم قال: «أيها الناس إنها والله الجنة وما لى إلى المدينة سبيل فمصع فرسه مصعات ثم كبس (شد وهجم) وكبس الناس معه، فهزم الله المشركين فكانت فى مدينتهم ثلثة.

وعن محمد بن سيرين أن المسلمين اتتهوا إلى حائط قد أغلق بابه فيه رجال من المشركين، فجلس البراء بن مالك على ترس وقال: ارفعونى برماحكم فألقونى إليهم، ففعلوا، فأدركوه وقتل منهم عشرة، واستوى البراء يوماً جالساً وقال لأخيه: أترانى أموت على فراشى وقد قتلت مائة من المشركين مبارزة سوى من شاركت فى قتله. وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كم من ضعيف متضعف ذى طمرين لو أقسم على الله لأبره منهم البراء بن مالك»^(٢) وإن البراء للقى زحفاً من المشركين وقد أوجع المشركون فى المسلمين فقالوا له: يا براء إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنك لو أقسمت على الله لأبرك فأقسم على الله فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم فمنحوا أكتافهم ثم التقوا على قنطرة السوسن فأوجعوا فى المسلمين فقالوا: أقسم يا براء على ربك. فقال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك صلى الله عليه وسلم، فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيداً.

لقد بلغ من غباوة الملك أن استجاب للغلام وجمع الناس فى صعيد، فظهر الحق على أعين الملأ وقال الناس: أمنا بالله رب الغلام، وشبيهه بهذا ما قاله نبي الله موسى -عليه السلام- لفرعون: «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ

ضُحَى ﴿طه: ٥٩﴾ فجمع فرعون الناس وجاء السحرة فى يوم العيد، وظهرت حجة نبي الله موسى واضحة فطلق السحرة فقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. فتهددهم فرعون وتوعدهم بتقطيع الأيدي والأرجل من خلاف والتصليب فى جذوع النخل، فقالوا له: ﴿فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿طه: ٧٢﴾ إن الحياة لا تصلح عوضاً عن معنى من معانى الآخرة، فاحرص على الموت توهب لك الحياة.

الحادية والعشرون: الأرض تمتنع عن أكل

جسد الغلام لأنها مأمورة

الأرض مأمورة والكون من حولنا مأمور قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ﴿الأحزاب: ٧٢﴾ وقال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ ﴿يس: ٤٠﴾.

وفى صحيح مسلم حديث الرجل الذى سمع صوتاً فى سحابة يقول: «اسق حديقة فلان» لرجل صالح كان يعمل فيها بطاعة الله، ولما بركت القصواء -ناقة رسول الله ﷺ - عام الحديبية وقالوا: «خلأت القصواء» قال النبي ﷺ: «ما خلأت القصواء، وما هو لها بخلق إنما حبسها حابس الفيل عن مكة»، وقد صحت الأخبار، أن الساعة لن تقوم حتى تكثر الزلازل، وطلوع الشمس من مغربها فى آخر الزمان، وخروج دابة على الناس ضحى تكلمهم، ويكلم الرجل عذبة سوطه، وانحسار الفرات عن جبل من ذهب... وكل ذلك يحدث بأمره سبحانه ووفق إذنه جل وعلا، وقد ورد أن الله حرم على الأرض أن تاكل أجساد الأنبياء، وقد أبقى جسد الغلام حتى زمن عمر ﷺ وهذا من إكرام الله لأوليائه .

الثانية والعشرون: إثبات دلالة القدرة على البعث

وجود الغلام على حالته التي مات عليها، وذلك بعد مئات السنين دليل من أدلة القدرة على البعث، وهي كثيرة فمنها إخبار العليم الخبير بوقوع القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ [طه: ١٥] ومنها الاستدلال على النشأة الأخرى بالنشأة الأولى قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَأَنْدَامًا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكْ شَيْئًا﴾ [مريم: ٦٦] ومنها أن القادر على خلق الأعظم قادر على خلق ما دونه قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١] ومنها قدرته تبارك وتعالى على تحويل الخلق من حال إلى حال قال تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ مِمَّتُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨] ومنها إحياء الأرض بالنبات قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم: ٥٠] وقد اقتضت حكمته سبحانه بعث العباد للجزاء والحساب.

لقد ورد في الخبر أنهم كلما أراحوا اليد انبثق الدم من جرحه فإذا تركوه عادت اليد إلى مكانها، وهذه صورة من صور الحياة، وقد شاهد بعض البشر في فترات مختلفة من التاريخ عودة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية، بل شاهدوا الحياة تدب في بعض الجماد، وقد حدثنا الله تبارك وتعالى عن شيء من هذه المعجزات الباهرة قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٣] وقال: ﴿فَقَلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضَهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣] وقال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَىٰ الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩] وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولِمُ تُوْمِنَ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ

فَخَذُ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصَرُّهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَيَّ كُلَّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿البقرة: ٢٦٠﴾ وقال تعالى عن نبيه موسى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧] وقال عن نبيه عيسى: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] وقال عن أصحاب الكهف: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥].

الثالثة والعشرون: لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

قيل الآية في شهداء أحد أو شهداء بئر معونة، ولعل الأشبه بالصحة أنها عامة في جميع الشهداء .

قال القرطبي في تفسيره: وفي مصنف أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوى إلى قتاديل من ذهب معلقة في ظل العرش فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لثلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب فقال الله سبحانه أنا أبلغهم عنكم قال: فأنزل الله ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ [آل عمران: ١٦٩] إلى آخر الآيات .

وروى بقى بن مخلد عن جابر قال: لقيني رسول الله ﷺ فقال: «يا جابر مالي أراك منكساً مهتماً؟ قلت: يا رسول الله، استشهد أبي وترك عيالا وعليه دين، فقال: «ألا أبشرك بما لقي الله عز وجل به أباك؟» قلت: بلى يا رسول الله . قال: «إن الله أحيأ أباك وكلمه كفاحاً^(١) وما كلم أحداً قط إلا من وراء حجاب فقال له: يا عبدى تمن أعطك . قال: يا رب فردنى إلى الدنيا فأقتل فيك ثانية. فقال

(١) كفاحاً (بكر الكاف) أي مواجهة ليس بينهما حجاب ولا رسول .

الرب تبارك وتعالى: إنه قد سبق مني أنهم (إليها)^(١) لا يرجعون قال يا رب: فأبلغ من ورائي فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩] الآية . أخرجه ابن ماجة في سننه، والترمذي في جامعه وقال: هذا حديث حسن غريب .

وروى وكيع عن سالم بن الأفظس عن سعيد ابن جبير ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحياء﴾ [آل عمران: ١٦٩] لما أصيب حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير ورأوا ما رزقوا من الخير قالوا: ليت إخواننا يعلمون ما أصابنا من الخير كي يزدادوا في الجهاد رغبة، فقال الله تعالى أنا أبلغهم عنكم فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧١] وقال أبو الضحى: نزلت هذه الآية في أهل أحد خاصة. والحديث الأول يقتضى صحة هذا القول. وقال بعضهم: نزلت في شهداء بدر وكانوا أربعة عشر رجلاً، ثمانية من الأنصار، وستة من المهاجرين. وقيل: نزلت في شهداء بئر معونة، وقصتهم مشهورة ذكرها محمد بن إسحاق وغيره^(٢) وقال آخرون: إن أولياء الشهداء كانوا إذا أصابتهم نعمة وسرور تحسروا وقالوا: نحن في النعمة والسرور، وآباؤنا وأبناؤنا وإخواننا في القبور. فأنزل الله تعالى هذه الآية تنفيساً عنهم وإخباراً عن حال قتلاهم .

قلت (أى القرطبي): وبالجمله وإن كان يحتمل أن يكون النزول بسبب المجموع فقد أخبر الله تعالى فيها عن الشهداء أنهم أحياء فى الجنة يرزقون، ولا محالة أنهم ماتوا وأن أجسادهم فى التراب، وأرواحهم حية كأرواح سائر المؤمنين، وفضلوا بالرزق فى الجنة من وقت القتل حتى كان حياة الدنيا دائمة لهم .

وقد اختلف العلماء فى هذا المعنى . فالذى عليه المعظم ما ذكرناه وأن حياة الشهداء محققة . ثم منهم من يقول: ترد إليهم الأرواح فى قبورهم فينعمون، كما يحيى الكفار فى قبورهم فيعذبون . وقال مجاهد: يرزقون من ثمر الجنة، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وصار قوم إلى أن هذا مجاز^(٣) والمعنى أنهم فى حكم

(١) زيادة عن سنن الترمذي وابن ماجه .

(٢) راجع سيرة ابن هشام ص٦٤٨ طبع أوروبا .

(٣) وهذا خطأ من قائله، والصحيح هو القول بمنع وقوع المجاز فى المنزل للتعب والإعجاز .

الله مستحقون للتعم في الجنة، وهو كما يقال: ما مات فلان، أى ذكره حتى، كما قيل:

موت ألتقي حياة لا فناء لها قد مات قوم وهم في الناس أحياء
فالمعنى أنهم يرزقون الثناء الجميل وقال آخرون: أرواحهم في أجواف طير خضر
وأنهم يرزقون في الجنة ويأكلون ويتنعمون .

قال القرطبي: وهذا هو الصحيح من الأقوال، لأن ما صح به النقل فهو
الواقع، وحديث ابن عباس نص يرفع الخلاف وكذلك حديث ابن مسعود أخرجه
مسلم. أ.هـ.

وحياة الأنبياء في قبورهم أتم من حياة الشهداء، وهى حياة برزخية لا تقاس على
حياتنا الدنيوية، وهكذا تمتد الحياة زماناً ومكاناً بالنسبة للمؤمنين، زماناً لأبد
الأبدين، ومكاناً لجنة فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

الرابعة والعشرون: عظيم ثواب القتل في سبيل الله

قال القرطبي: هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ
عند ربهم يُرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من
خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠] تدل على عظيم
ثواب القتل في سبيل الله والشهادة فيه حتى أنه يكفر الذنوب، كما قال ﷺ:
«القتل في سبيل الله يكفر كل شئ إلا الدين كذلك قال لى جبريل عليه السلام
أنفأ». قال علماؤنا: وذكر الدين تنبيه على ما فى معناه من الحقوق المتعلقة بالذمة،
كالغصب وأخذ المال بالباطل وقتل العمد وجراحه وغير ذلك من التبعات، فإن كل
هذا أولى ألا يغفر بالجهد من الدين فإنه أشد، والقصاص فى هذا كله بالحسنات
والسئيات حسبما وردت به السنة الثابتة.

روى عبد الله بن أنيس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يحشر الله العباد
أو قال الناس، (شك همام)^(١)، وأوماً بيده إلى الشام عراة غرلاً^(٢) بهما». قلنا: ما

(١) هو همام بن يحيى، أحد رجال سند هذا الحديث.

(٢) الفرل (بضم فسكون): جمع الاغرل، وهو الاقلف.

بهم؟ قال: «ليس معهم شيء فيناديهم بصوت يسمعه من قرب ومن بعد: أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه بمظلمة حتى اللطمة»، قال قلنا: كيف وإنا نأتى الله حفاة عراة غرلاً؟. قال: «بالحسنة والسيئات» أخرجه الحارث بن أبي أسامة.

وفى صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أتدرون ما المفلس». قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إن المفلس من أمتى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» وقال صلى الله عليه وسلم: «والذى نفسى بيده لو أن رجلاً قتل فى سبيل الله ثم أحمى ثم قتل ثم قتل وعليه دين ما دخل الجنة حتى يقضى عنه».

وروى أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نفس المؤمن معلقة ما كان عليه دين» وقال أحمد بن زهير: سئل يحيى بن معين عن هذا الحديث فقال: هو صحيح. فإن قيل: فهذا يدل على أن بعض الشهداء لا يدخلون الجنة من حين القتل، ولا تكون أرواحهم فى جوف طير كما ذكرتم، ولا يكونون فى قبورهم، فأين يكونون؟ قلنا: قد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أرواح الشهداء على نهر بساب الجنة يقال له: بارق يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشياً» فلعلهم هؤلاء. والله أعلم. ولهذا قال الإمام أبو محمد بن عطية: وهؤلاء طبقات وأحوال مختلفة يجمعها أنهم «يرزقون».

روى الترمذى عن المقداد بن معد يكرب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «للشهيد عند الله ست خصال (كذا فى الترمذى وابن ماجه «ست») يغفر له فى أول دفعة ويرى مقعده من الجنة ويجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر ويوضع على رأسه تاج الوقار الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين ويشفع فى سبعين من أقاربه». قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب.

الخامسة والعشرون: نطق الصبر الرضيع بالحق آية الصبي بينة

نطق عيسى -عليه السلام- في المهد وقال: ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مري: ٣٢] وكانت أمه مريم قد أتت به قومها تحمله بعد وضعه، فقيل لها: ﴿ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٧] فكان نطقه -عليه السلام- آية دالة على عظيم قدرة الله في خلقه وتأييداً لأمه وبياناً لدعوته، ولم يكن عيسى -عليه السلام- هو الوحيد الذي نطق في المهد، فقد نطق ابن ماشطة امرأة فرعون، والشاهد المذكور في قصة يوسف -عليه السلام- وبابوس صاحب جريح الذي قال: إن راعي الغنم هو الذي زنى بأمه وبرأ جريح من التهمة . . . وكذلك نطق هذا الغلام المذكور في قصة أصحاب الأخدود، فقد ورد في الحديث أن الطاغية لما آمن الناس كلهم، أمر بأفواه السكك فخذت فيها الأخاديد وأضمرت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه وإلا فأقحموه فيها فكانوا يتعادون ويتدافعون فجاءت امرأة بابن لها ترضعه فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماه فإنك على الحق وهذه آية بينة، فيها تثبت لهذه المرأة المؤمنة، وتسلية للقلوب في مواجهتها للفتنة والمحنة، وقد سمعنا منذ أيام بقصة الغلام التنزاني الذي تناقلته وسائل الإعلام عن وكالة الأنباء الفرنسية، هذا الغلام يخطب الخطب البليغة وهو في الرابعة من عمره، وقد نطق وعمره ستة أشهر، ويحفظ القرآن كله في هذا العمر الصغير، وهذا إن ثبت وحدث، فلا يبعد على عظيم قدرة الله في خلقه فقد تنحرق النواميس، ولتكون آية للمؤمنين في وقت غربة .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣] .

السادسة والعشرون: وما تغني الآيات

والنذر عن قوم لا يؤمنون

القصص القرآني كله حق وصدق ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: ١٠٥] وقد قص سبحانه علينا القصص موعظة وذكرى لأولي الألباب قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾ [آل عمران: ٦٢] وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةً لأُولِي الألباب﴾ [يوسف: ١١١] وقال: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نَتَّبِعُ بِهِ فَرَأَدُكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠] وهذا القصص ينتفع به الكبير والصغير والرجل والمرأة والعالم والجاهل، وقد أمر رسول الله ﷺ أن يبلغ وحى ربه وأن يقص على الخلق آيات ربه ﴿فَأَقْصَصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦] وكان من جملة ذلك قصة أصحاب الأخدود، وذلك لما فيها من عظات وعبر، حيث حدثوا بها تخويفاً من عواقب أفعالهم بضعفة المؤمنين، وقد بين سبحانه حال أصحاب الأخدود في تأذى المؤمنين بالكفار ودأبهم في ذلك كدأب من قبلهم، وإنما خص فرعون وئمود، لأن ئمود في بلاد العرب وقصتهم عندهم مشهورة وإن كانوا من المتقدمين، وأمر فرعون كان مشهوراً عند أهل الكتاب وغيرهم، وكان من المتأخرين في الهلاك فدل بهما على أمثالهما في الهلاك ورغم رؤية قريش لهذه الآيات والنذر ورغم سماعهم لهذه القصص ومرورهم بآثار هؤلاء الهلكى إلا أنهم استمروا على كفرهم وتكذيبهم وإيذائهم للمؤمنين ﴿وَمَا تَغْنِي الآياتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] ﴿وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةَ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَّا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] وقال: ﴿لَّهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقال: ﴿فَإِنَّهَا لَّا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وقال: ﴿أَقْمِنِ يَمْشِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الملك: ٢٢] وهذه الآيات البيّنات تحكى لك بوضوح كيف يطالع البعض دلائل القدرة في صفحات الكتاب المقروء والكون المشهود، ثم يستمر على غيه وضلاله وتكذيبه وعناده، وشأن الصرب في فعلهم بمسلمى البوسنة وكوسوفو، والروس بمسلمى الشيشان، والأتراك في إلغاء جنسية المرأة المسلمة المحجبة... يتشابه كثيراً مع إيذاء قريش

لرسول الله ﷺ وصحابته الكرام ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ
 الْحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨] إن هؤلاء الكفار هنا وهناك، قديماً وحديثاً، لم يتفعلوا بدرس
 ولا بوعظ وتذكير، ورغم وضوح الحق وظهور الآيات، فقد تشابهت قلوبهم في
 العمى والغلظة والقسوة والصد عن سبيل الله، يفعلون ذلك، وهم في قبضته
 سبحانه وهو القادر على إهلاكهم ومعاجلتهم بالعذاب على تكذيبهم ﴿وَاللَّهُ مِنْ
 وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ﴾ [البروج: ٢٠] ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ
 مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: ١٢٧].



الخاتمة

المذابح الجماعية وحروب الإبادة تتم على قدم وساق للمسلمين في كوسوفو على أيدي الصرب الغاشمين، ويواجه الأطفال والنساء ظروفًا صعبة فقد قضاوا عيد الأضحى يعانون البرد الشديد والمجاعات وانتشار الأوبئة، أثناء فرارهم وترحيلهم، حتى وصفت واشنطن ودول أوروبا هذه الحرب وتلك المذابح التي تجري للمسلمين بأنها لم تحدث منذ عهد طويلة.

وما أشبه ما يحدث اليوم هنا وهناك بما حدث بالأمس للغلام وأصحاب الأخدود على أيدي الطغاة والطواغيت ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨] والأمر إذا بعث على الحزن والأسى من جهة إلا أنه يبعث على الإيمان واليقين، عندما نشاهد الآيات البيّنات تحكى لنا الواقع ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [إبراهيم: ١٣] ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَّتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦] فلا يسلم من هذا البلاء وهذه الفتنة حتى الأطفال والعجائز، وكلنا يقين أن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوه عليه، وغلبته له، وأذاه له في بعض الأحيان: أمر لازم، لا بد منه، وهو كالحرق الشديد، والأمراض والهجوم والغوم، فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتى الأطفال والبهائم، لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين، فلو تجرد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضرر واللذة عن الألم، لكان ذلك عالما غير هذا، ونشأة أخرى غير هذه النشأة كما يقول ابن القيم، وكانت تفوت الحكمة التي مزج لأجلها بين الخير والشر، والألم واللذة، والنافع والضار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا، وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار، كما قال الله تعالى: ﴿لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٧] وابتلاء المؤمنين بغلبة عدوهم لهم، وقهرهم، وكسرهم لهم أحيانا لا يخلو من حكمة عظيمة لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١] وقال: ﴿أَحْسَبَ النَّاسُ أَن يَتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [٢] وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ١] وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرْنَا مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضُكُمْ

بِعْضِ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ {أحمد: ٤} أى هو القادر سبحانه على أهلاكهم بغير قتال، قال ابن عباس: لأهلكهم بجند من الملائكة، وقد أمركم بالحرب ليلو ويختبر بعضكم ببعض فيعلم المجاهدين والصابرين. قال قتادة: ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أحد ورسول الله ﷺ فى الشعب، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل، وقد نادى المشركين: اعل هبل. ونادى المسلمين: الله أعلى وأجل، وقال المشركون: يوم بيوم بدر والحرب سجال، وقال النبى ﷺ: «قولوا لا سواء. قتلاتنا أحياء عند ربهم يرزقون وقتلاتكم فى النار يعذبون» فقال المشركون: إنا لنا العزى ولا عزى لكم. فقال المسلمون: الله مولانا ولا مولى لكم.

إن ما يصيب المؤمنين من الشرور والمحن والأذى دون ما يصيب الكفار والواقع شاهد بذلك وكذلك ما يصيب الأبرار فى هذه الدنيا دون ما يصيب الفجار والفاسق والظلمة بكثير. قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْمُونُ فَإِنَّهُمْ يَأْمُونُ كَمَا تَأْمُونُ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤] فأشركوا فى الألم، وامتاز المؤمنون برجاء الأجر والزلفى من الله تعالى.

قد تنتهى مأساة المسلمين فى كوسوفو بإبادتهم، كما مات الغلام والراهب والأعمى وأصحاب الأخدود، ولكنهم سيظلون قصة تحكى لكل من جاء بعدهم، كيف يكون الثبات على الحق والاعتزاز بالإسلام والبذل فى سبيله، حتى وإن كانوا حدثاء العهد بمعرفة الإسلام كما كان الأمر بالنسبة لأصحاب الأخدود، إنها قصة الصراع بين الحق والباطل، والإيمان والكفر توضح طبيعة الطريق والصعاب التى يلاقيها السائرون فى طريق الله سواء كانوا كبارا أو صغارا، رجالا أو نساء، لقد خلد سبحانه ذكرى أصحاب الأخدود وصاروا مثلاً يضرب للأجيال، فكان المسلمون من أهل كوسوفو وغيرها على الدرب يسرون، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة، وهؤلاء ومن كان على شاكلتهم يتحقق فيهم وعد الله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧] فهم المنصورون وإن حرقوا وأبيدوا لثباتهم على الإسلام وعدم إذعانهم لقوى الكفر والباطل، فالله لا يضيع أجر المحسنين، وقد جعل العاقبة للمتقين، وهو سبحانه لا يصلح عمل المفسدين وبين أن النصر عقبى الصابرين.

عزأونا أن الموت نهاية كل حي، وأن من لم يمت بالسيف مات بغيره، فالنفس إلى موت والمال إلى فوت ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقال سبحانه: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشِيدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨] وقال: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤] والإنسان يعاني سكرات النزاع أشد من معاناته من تقطيع السكاكين بينما يخفف ذلك عن الشهيد، والله أعلم بمن يموت في سبيله، فلا يجد من ألم الموت إلا كما يجد أحدكم من القرصة، وكفى ببارقة السيف على رقبتة فتنة، هنيئا لكل من مات في سبيل الله لإعلاء راية لا إله إلا الله، وهنيئا للشهداء هذا الفضل وهذا الأجر، فللشهيد عند الله ست خصال، يغفر له في أول دفعة من دمه ويجار من عذاب القبر، ويأمن الفرع الأكبر ويحلى حلية الإيمان، ويزوج من الحور العين ويشفع في سبعين انسانا من أقاربه، وأرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح من الجنة حيث شاءت ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرِزُقُونَ فَرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ [آل عمران: ١٧٠] إن الموت في طاعة الله خير من الحياة في معصيته.

عزأونا أن المشهد الأخير لن يقع على ظهر هذه الأرض في الحياة الدنيا، فالمرجع والمآب إلى الله، وغدا عند ربك تجتمع الخصوم، يجتمع الظالم والمظلوم، والحاكم والمحكوم، ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٩] ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧] أنه يوم عظيم لا تدليس فيه ولا كذب، يرجع فيه الناس حفاة عراة ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ويحشرون علي أرض عفراء كقرصة النقي لا معلم فيها لأحد، لا جبال فيها ولا وهاد، حيث يقتص سبحانه للشاة الجماء من الشاة القرناء ثم يقول لها: كوني ترابا فيوميئذ يتمني الكافر أن لو كان ترابا، يوم يقول فيه عزوجل: ﴿وَيَوْمَ يَعْصِي الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٨] ﴿يَوْمَ تَرُوءُنَهَا تَهْدِلُ كُلُّ مَرُوضَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ

وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿الحج: ٢﴾ إِنْ لِلظَّالِمِ قَاتِلًا لَا يَمُوتُ، ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ {الإسراء: ٣٣}، فإذا كان الصراع والتدافع لا يبقى ولا يذر مع الكبار والصغار، ومع الأنبياء وأتباعهم، فسيبقى ما يقرره القرآن هو القول الفصل والمرجع الأخير ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾.

إن الألم الذي يصيب أهل كوسوفو وغيرهم من المسلمين شبيهه بألم المخاض الذي يعقبه الولادة والفرح ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ {الطلاق: ٧} ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَىٰ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مِنْ نَشَاءٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ {يوسف: ١١٠} وأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرا، فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله ﴿إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ {يوسف: ٨٧} ولا تزال طائفة من الأمة ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم أو أخذهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك.

لا نستبعد أن يظهر فينا أمثال هارون الرشيد في مخاطبته لنقفور ملك الروم وهو يقول له: أما بعد: فمن هارون الرشيد الى نقفور كلب الروم فإن الأمر ما ترى لا ما تسمع، وكأمثال صلاح الدين الأيوبي وهو يقول لوزيره ابن شداد: أما أسر لك حديثا، إنى أتمنى إن فتح الله على بيت المقدس أن أركب البحر، أقاتل في سبيل الله كل من كفر بالله حتى يظهرنى الله أو أموت، لا نستبعد عودة الروح إلى الكبار والصغار والرجال والنساء، وأن يتجدد فينا ما حكاه ابن الجوزى، أن أبا قدامة الشامى قام خطيبا فى الناس عندما داهم الروم الشام فرغبهم فى الآخرة وزهدهم فى الدنيا وذكرهم بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ {التوبة: ٣٨} وارتجت جنبات المسجد بكلمات أبى قدامة، فلما نزل اعترضته امرأة فنادت عليه، فلم يجبهها خوفا على نفسه من الفتنة، فكررت القول ثلاثا، فلم يلتفت فقالت له: ماهذا بخلق الصالحين؟! فانتبه، فقالت له: يا ابا قدامة سمعتك تذكر الناس بالجهاد فى سبيل الله ولا أملك غير هاتين الضفيرتين، خذهما، اصنع منهما لجاما تشد به فرسك، تجاهد به فى سبيل الله، فبكى أبو قدامة لحرص المرأة على البذل فى سبيل الله، وما كاد ينصرف حتى اعترضه غلام يناشده بالله أن يحمله معه لقتال الروم، وتحت إلحاحه وافق أبو قدامة واشترط على الغلام إن قتل فى سبيل الله أن يشفع

له عند الله، فوافق الغلام ثم ناشده بالله أن يدفع له ثلاثة أسهم يرمى بها الروم فاستكف أبو قدامة ثانية والأسهم سلعة غالية، والغلام قد لا يحسن استخدامه ولكن تحت إلحاحه ومناشدته دفعها له وكرر الشرط ثانية، فأخذ الغلام سهماً ورمى به وهو يقول بسم الله سلام عليك أبا قدامة فقتل به رومياً، ثم أخذ الثاني ورمى به رومياً فقتله، ثم رمى بالثالث فأصاب به رومياً ولكن اختلف فيه سهم، فوقع وقبل أن يصل إلى الأرض لحقه أبو قدامة يذكره بالشرط، ثم دفع الغلام جراباً كان معه وقال لأبي قدامة: أعطه لأمي. فقال: ومن أمك؟ قال: صاحبة الضفيرتين. وحاولوا دفن الغلام فلم تقبله الأرض فتركوه حتى نزل الطير يأكل لحمه ويترك عظمه، فأخذوا العظام فدفنوها.

ثم ذهب أبو قدامة إلى منزل الصغير، فخرجت أخته تسأل أبو قدامة أمهتنا جئت أم معزياً، قال: بل مهتاً، فحمدت الله، وكانت قد فقدت أباه وأخاه الأكبر قبل ذلك ثم خرجت الأم تسأل: أمهتنا جئت أم معزياً، فقال أبو قدامة بل مهتاً، فحمدت الله ثم أخرج لها أبو قدامة الجراب، وحكى لها ما حدث عند دفن الغلام، فأخرجت الأم من الجراب حبلاً، كان الغلام إذا قام الليل وفتر تعلق بالحبل يدعو ربه أن يبعثه حين يبعثه من حواصل الطير، فاستجاب الله دعاء الصغير، فلم تقبله الأرض حين قتل حتى نزلت الطير فأكلت لحمه وتركت عظمه فدفنوه. وهي ذرية بعضها من بعض، وما حدث من إكرام الله لأولياته حتى وإن كانوا صغاراً، فالغلام الذي ذكره ابن الجوزي كان مجاب الدعوة، كما كان الغلام المذكور في قصة أصحاب الأخدود مجاب الدعوة وكلاهما حريصاً على بذل نفسه في سبيل الله:

إن لله عباداً فطناً طلقوا الدنيا وخافوا الفتناً
نظروا فيها فلما علموا إنهما ليست لحي وطناً
جعلوها لجة واتخذوا صالح الأعمال فيها سفناً

لا نستبعد ظهور من يجدد لهذه الأمة شبابها ويستعيد لها مجدها ويحسن التأسى بالسلف الصالح، إن الإسلام قادم بإذن الله. وستفتح رومية (روما) كما فتحت القسطنطينية، وإن غدا لناظره قريب،

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الفتح: ٢٨].

اللهم قاتل الكفرة الذين يصدون عن سبيلك ويكذبون رسلك ويقاتلون أوليائك ولا يؤمنون بوعدك، اللهم خالف بين كلمتهم وألق في قلوبهم الرعب .

اللهم دبر لنا فإننا لا نحسن التدبير، اللهم من أرادنا وأراد الإسلام والمسلمين بسوء فأشغله بنفسه، ورد كيده إلى نحره وأجعل تدبيره تدميره يا سميع الدعاء . اللهم أنج المسلمين المستضعفين في كل مكان، وأنزل بأعدائهم رجزك وعذابك الذي لا يرد عن القوم المجرمين .

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

كتبه

سعيد عبد العظيم

الفهرس

الصفحة

الموضوع

٣	قصة أهـل الكهـل
٣	مقدمة
٥	مناسبة القصة
٦	قصة أصحاب الكهف والرقيم
٧	علاقة القصة ببداية السورة ونهايتها
٩	أسئلة كثيرة طويت إجابتها
١٠	هل القصة بطولة يهودية أم نصرانية
١١	الفرار بالدين سنة ماضية
١٢	هجرة وهجرة
١٣	الخروج من الواقع السيئ
١٤	بين غار وغار
١٤	بين إفراط وتفريط
١٥	أنتم مثل أصحاب الكهف
١٧	فتية ولكن
١٨	فوائد طبية تتعلق بالقصة
١٩	الفارق كبير بين فتية آمنوا وشباب فُنع
٢٠	القصص الحق
٢١	فتية على الدرب
٢٢	لا حجة لأحد علي الكفر
٢٤	ما خاب من أوقع حاجته على الله

- ٢٦ كلب أحب قوماً فسار له شأن
- ٢٨ ذكر مسائل تتعلق باقتناء الكلاب
- ٣٠ القصة برهان على البعث
- ٣١ مسائل تتعلق بالوكالة
- ٣٤ هل الاستكراه لم يكن عذراً
- ٣٦ حرم الله على الأرض أن تأكل أجسام بعض الخلق
- ٣٧ كرامة ظاهرة لأصحاب الكهف
- ٤٠ هل بنوا مسجداً على قبر أصحاب الكهف
- ٤٢ شبهات مماثلة والرد عليها
- ٤٣ تحريم بناء المساجد علي القبور
- ٤٦ ما الحكم لو انتفى الافتتان بالقبور؟
- ٤٧ الدفن في التابوت
- ٤٨ التركيز على الأهداف والغايات
- ٤٩ الوقوف مع المعانى الغيبية بحسن الأدب
- ٥٠ واذكر ربك إذا نسيت
- ٥٢ لماذا قيل ثلاثمائة سنين
- ٥٣ قل الله أعلم
- ٥٥ الخاتمة
- ٥٧ قصة صاحب الجنتين
- ٥٩ المقدمة
- ٦٣ قصة صاحب الجنتين فى القرآن
- ٦٤ القصة كما وردت فى كتب التفسير
- ٦٧ قصة صاحب الجنتين مثل مضروب لحال الكافرين والمؤمنين

- ٧٠ القصة صورة للتواصل العجيب بين الدنيا والآخرة.....
- ٧٢ زيارة أهل الجنة بعضهم بعضاً وتذاكرهم ما كان بينهم في الدنيا.....
- ٧٥ المؤمن في الجنة يطلع على الكافر فيزداد شكراً.....
- ٧٦ المؤمن لا يتذكر في الجنة أشد عليه من الموت في الدنيا.....
- ٧٩ كل قرين يقتضى إلا من رحم الله.....
- ٨١ انحراف صاحب الجنتين وغيره يساوى لذة ساعة وألم دهر.....
- ٨٣ وجه الشبه كبير بين المادية الغربية المعاصرة وصاحب الجنتين فكيف نتابعهم؟!.....
- ٨٥ ليس في القصة تبرير للصراع الطبقي أو تأييد للمذهب الاشتراكي.....
- ٨٦ الإنكار علي صاحب الجنتين لم يكن لغناه ولكن لكفره.....
- ٨٨ غضب الأرض لتوزيعها أو لبناء مسجد عليها وحكم ذلك.....
- ٨٩ ما شاء الله لا قوة إلا بالله كنز فاحرص عليه.....
- ٩١ فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها، وفضل الفقر.....
- ٩٦ فضل الجوع وخشونة العيش.....
- ١٠٤ القناعة والعفاف والاقتصاد.....
- ١٠٧ الحث على الأكل من عمل يده.....
- ١٠٨ الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير.....
- ١١١ النهي عن البخل والشح.....
- ١١٢ الإيثار والمواساة.....
- ١١٣ التنافس في أمور الآخرة.....
- ١١٣ فضل الغني الشاكر.....
- ١١٤ ذكر الموت وقصر الأمل.....
- ١١٦ وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون.....
- ١١٨ القواعد الذهبية حتي لا تكون فتنة:.....

- أولاً: العقيدة..... ١١٨
- ثانياً: التقوي والعمل الصالح..... ١٢١
- ثالثاً: الدعاء والتسبيح والصلاة..... ١٢١
- رابعاً: تقرير أسوأ الاحتمالات والنظر إلى ما هو أسوأ حالاً..... ١٢٢
- خامساً: الواقعية والبعد عن الخيالية..... ١٢٢
- سادساً: تقديم حسن الظن..... ١٢٣
- سابعاً: كن كالشجر يقذف بالحجر فيلقي الثمر..... ١٢٣
- ثامناً: الأمل..... ١٢٣
- الحكمة في فتنة وابتلاء البعض البعض الآخر..... ١٢٤
- انتصار المؤمن علي صاحب الجنتين..... ١٢٤
- لمثل هذا النعيم وهذا الفوز لاغيره فليعمل العاملون..... ١٢٦
- الخاتمة..... ١٢٩
- قصة موسي والخضر..... ١٣٣
- مقدمة..... ١٣٥
- مناسبة القصة..... ١٣٧
- يا عليم علمني..... ١٣٨
- أولاً: دلائل ذلك من كتاب الله..... ١٣٩
- بعض الأحاديث الدالة علي فضل العلم وأهله..... ١٤٢
- آثار هامة..... ١٤٦
- الرحلة في طلب العلم..... ١٤٩
- الحال التي تنال بها العلم..... ١٥٠
- الصبر علي النصب واستدامة الطلب..... ١٥٢
- التواضع في طلب العلم..... ١٥٣

- ١٥٤ لا تهمل لا أدري.
- ١٥٦ العلم واجب علي كل مسلم ومسلمة.
- ١٥٧ العلم يطلب للعمل.
- ١٥٨ آداب العالم والمتعلم.
- ١٦١ هيبة المتعلم للعالم.
- ١٦٢ هل يكون المتعلم مع المعلم كالميت بين يدي المغسل؟
- ١٦٣ تعلم الفاضل من المفضول.
- ١٦٤ العالم والفقيه والمفتى بحق.
- ١٦٥ زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم.
- ١٦٦ لا تقل عبدي وأمتي وقل فتاى وفتاتى.
- ١٦٧ الشيطان ينسى العبد مصالحه.
- ١٦٩ أخذ الزاد فى السفر لا ينافى التوكل.
- ١٧٠ هل كان الخضر نبياً أو ولياً؟
- ١٧١ العلم اللدنى.
- ١٧٣ كلام القرطبى فيمن زعم الاستغناء عن الشريعة.
- ١٧٤ الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن.
- ١٧٦ لو كان موسى حياً.
- ١٧٧ الصوفية فى الميزان.
- ١٨٠ شطحات صوفية.
- ١٨١ المشاهد التى حدثت بين موسى والخضر.
- ١٨٣ مصانعة السلطان بمال اليتيم.
- ١٨٣ المسلمون عند شروطهم.
- ١٨٤ فوائد هامة تتعلق بجدار اليتيمين.

- ١٨٦ منع جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز.
- ١٨٧ أنواع التأويل.
- ١٨٩ مساكين رغم امتلاكهم السفينة.
- ١٩٠ الرضا بالقضاء.
- ١٩١ حفظ الأبناء بصالح الآباء.
- ١٩٢ هل الخضر حي إلى الآن؟
- ١٩٤ الخاتمة.
- ١٩٧ قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج
- ١٩٩ مقدمة.
- ٢٠١ مناسبة القصة.
- ٢٠٢ مسائل سئل عنها رسول الله ﷺ فأجاب عنها بما يطابق الحق.
- ٢٠٤ عتاب الوحي.
- ٢٠٥ الوقوف مع القرآن بحسن الأدب.
- ٢٠٦ هل ذو القرنين هو الإسكندر الذي بنى الإسكندرية؟
- ٢٠٨ حكم الآثار والمخلفات الحضارية.
- ٢٠٩ من هو ذو القرنين؟
- ٢١٠ سبب تسميته ذي القرنين؟
- ٢١١ تقديم المصادر الشرعية لاثبات الحوادث التاريخية.
- ٢١٢ حكم الأخذ من كتب أهل الكتاب.
- ٢١٣ ضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين.
- ٢١٤ التمكين فضل من الله.
- ٢١٥ متابعة الأسباب.
- ٢١٧ الشمس لا تدخل في الأرض.

- ٢١٨ انفصال الكنيسة عن العلم المادى التجريبي
- ٢١٩ لا يستوى المحسن والمسيئ في الجزاء
- ٢٢٠ مسائل تربوية تتعلق بالأطفال
- ٢٢١ الآيات تحجب في الخير
- ٢٢٢ ما الذى فعله ذو القرنين عند بلوغه مطلع الشمس؟
- ٢٢٣ بناء السد عمل إيمانى
- ٢٢٥ فرض على الملك أن يقوم بحماية الخلق
- ٢٢٦ اتخاذ السجون وحبس أهل الفساد فيها
- ٢٢٧ هل قولهم إن يأجوج ومأجوج مفسدون غيبة محرمة؟
- ٢٢٨ يأجوج ومأجوج أصلهم وصفتهم
- ٢٣١ يأجوج ومأجوج من علامات الساعة الكبرى
- ٢٣٢ العلامات الكبرى كخرزات في النظام
- ٢٣٢ الأدلة علي خروج يأجوج ومأجوج
- ٢٣٤ السد موجود فأين مكانه؟
- ٢٣٥ خطأ من قال: يأجوج ومأجوج هم التتار أو روسيا
- ٢٣٦ كيف لم يطلع عليهم الناس رغم التطور
- ٢٣٧ علم الساعة وميعاد ذلك السد
- ٢٣٩ اشراط حدثت تدل على قرب وقوع الساعة
- ٢٤٨ خطأ من توهم أنه لم يبق علي الساعة إلا الأمارات الكبرى
- ٢٥١ الأشراط تتابع ونحن في غفلة
- ٢٥٢ المدنية تتلاشى قرب قيام الساعة
- ٢٥٤ قول الذى عليهم ارجعوا فستخرقونه غداً إن شاء الله
- ٢٥٦ الخاتمة

٢٥٩	قصة صاحب يس
٢٦١	مقدمة.....
٢٦٣	القصة كما ذكرت في القرآن.....
٢٦٥	التناسب بين الايات.....
٢٦٦	البعث والجزاء.....
٢٦٧	هل القصة والقرآن بضاعة للموتي؟.....
٢٦٩	تميز الغث والسمين فيما ورد بشأن سورة يس.....
٢٧٠	القصة في القرآن.....
٢٧١	القصص القرآني كله حق.....
٢٧٢	أهداف القصص القرآني.....
٢٧٤	قواعد هامة في عرض الحوادث التاريخية.....
٢٧٩	صفات الداعية المؤمن عند صاحب يس.....
٢٨٨	تجفيف منابع سياسة قديمة.....
٢٨٩	انتصر صاحب يس رغم مصرعه.....
٢٩١	استدراج الله العباد.....
٢٩٢	الشرع لا يفرق بين المتماثلين.....
٢٩٣	علو الهممة.....
٢٩٥	أسباب الهلاك.....
٢٩٨	الحق لا يعرف بكثرة.....
٣٠٠	وما كنا بمعذبين حتي نبعث رسولاً.....
٣٠١	لماذا كان إهلاكهم بعد مصرع صاحب يس؟.....
٣٠٣	الدنيا والآخرة حسبة واحدة.....
٣٠٤	بل الكل ممتحن.....
٣٠٧	رجل والرجال قليل.....
٣٠٨	إيمان عمره لحظات.....
٣١٠	غدأ عند الله تجتمع الخصوم.....
٣١٣	ما أهون الخلق علي الله.....
٣١٥	حكمة الابتلاء.....
٣١٧	آفة النسيان.....
٣١٩	الضار النافع.....
٣٢١	الخاتمة.....

٣٢٥	قصة مؤمن آل فرعون
٣٢٧	مقدمة.....
٣٢٩	وقفات بين يدي القصة.....
٣٣٦	لا حرج علي سعة رحمة الله.....
٣٣٨	يكفيه أنه رجل مؤمن.....
٣٣٩	كتمان الإيمان.....
٣٤٠	أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟.....
٣٤١	الواجب إبقاء موسى حياً.....
٣٤٢	لماذا لم يقل يصبكم كل الذي يعدكم.....
٣٤٤	التخوف من قتل موسى.....
٣٤٥	لا منافسة علي الملك.....
٣٤٦	عزة بالإثم.....
٣٤٨	تخويفهم بيوم الأحزاب.....
٣٥٠	قوم نوح.....
٣٥١	قوم عاد.....
٣٥٢	قوم ثمود.....
٣٥٤	الهلكي من بعدهم.....
٣٥٥	يوم التناد.....
٣٥٦	الهدى هدى الله.....
٣٥٨	لم ينتفعوا ببينات يوسف.....
٣٥٩	مقت المجادلين.....
٣٦٠	تعليق علي مسائل الرازي.....
٣٦٢	الطبع علي قلوب المتكبرين.....
٣٦٣	ظاهرة التحقق وباطنه العتو والتمرد.....
٣٦٤	نعوذ بالله من الخذلان.....
٣٦٥	أين الله؟.....
٣٦٦	التثبت في نقل الحوادث التاريخية.....

٣٦٧الحكمة في خلق الأفلاك والنجوم.
٣٦٩دعوته فرعون.
٣٦٩الدنيا دار من لا دار له.
٣٧١الآخرة دار القرار.
٣٧٢قاعدة في الحساب في الآخرة.
٣٧٤التعجب بلغ منتهاه.
٣٧٦وأفوض أمري إلى الله.
٣٧٧من حفظ الله حفظ نفسه.
٣٧٨تدبير الكافر تدميره.
٣٨١الخاتمة.
٣٨٣	قصة أصحاب الأخدود
٣٨٥مقدمة.
٣٩٣قصة الغلام وأصحاب الأخدود في القرآن.
٣٩٣القصة كما جاءت في السنة.
٣٩٧القصة كما جاءت في كتب التفسير.
٤٠٢فوائد هامة تتعلق بسورة البروج وترتبط بالقصة.
٤٠٢الأولى: التناسق والتناسب والإرتباط المتعلق بالسورة.
٤٠٣الثانية: أقسام متتالية بين يدي القصة.
٤٠٥الثالثة: إشعار يتعلق بالقضاء وكمال العدالة.
٤٠٦الرابعة: قتل أصحاب الأخدود وضوابط لعن من آذى المؤمنين.
٤٠٨الخامسة: شاهد الكفار إحراق المؤمنين بالنار متلذذين لقسوة قلوبهم.
٤٠٩السادسة: عذاب الجبابرة جزاء وفاقاً.
٤١٠السابعة: أعدوا للبلاء تريباً فقد آمنتم بـ العزيز الحميد الشهيد الملك.
٤١٣الثامنة: دعاهم سبحانه إلى التوبة رغم أنهم أحرقوا أوليائه وفتنهم.
٤١٥التاسعة: النجاة والفوز الحقيقي للمؤمنين، وإن انتهت حياتهم بتحريق.
٤١٧العاشرة: الفرق كبير بين بطش وبتش.
٤١٨الحادية عشر: المبدئ المعيد.

- ٤٢٠ الثانية عشر: المناسبة وأوجه الشبه بين قصة أصحاب الأخدود وحديث الجنود
- ٤٢١ الثالثة عشر: تواصل معانى الترغيب والترهيب فى ثنايا السورة.....
- ٤٢٤ الرابعة عشر: حقيقة الانتصار فى قصة الغلام وأصحاب الأخدود.....
- ٤٢٩ بعض الفوائد والمسائل المتعلقة بالأحاديث.....
- ٤٢٩ الأولى: حكم تعلم السحر والعمل به.....
- ٤٣١ الثانية: الطغاة يعتمدون على السحر والتنجيم.....
- ٤٣٢ الثالثة: إجتماع الكفر والإيمان والخير والشر فى نفس العبد.....
- ٤٣٤ الرابعة: أن فى المعارىض لمندوحة عن الكذب.....
- ٤٣٥ الخامسة: الميل إلى الخير دليل سلامة الفطرة.....
- ٤٣٧ السادسة: الكرامات وخوارق العادات تحدث للغلام.....
- ٤٣٨ قاعدة فى المعجزات والكرامات.....
- ٤٤٢ خوارق غير الأولياء.....
- ٤٤٣ السابعة: السبق سبق الفضل والاعتراف بالفضل لأهله.....
- ٤٤٣ السبق والمنافسة.....
- ٤٤٥ سبق الصفات.....
- ٤٤٦ شبهة ورد.....
- ٤٤٨ الثامنة: هل كان الراهب يرمم بالغيب عندما قال للغلام: إنك ستبتلى.....
- ٤٤٩ التاسعة: بعض المعانى المتعلقة بإخفاء المعتقد والإستسرار بالدعوة.....
- ٤٥٠ إفشاء السر.....
- ٤٥٢ العاشرة: كرامات الأولياء امتداد لمعجزات الأنبياء واعتراف الجميع بفضل الله
- ٤٥٣ الحادية عشرة: مشابهة الغلام فى دعوته للأعمى بنى الله يوسف فى دعوته لصاحبيه
- ٤٥٤ الثانية عشرة: الكلمة أوقع فى النفوس إذا كان أجر الدعاة على الله.....
- ٤٥٦ الثالثة عشرة: التوسل المشروع وغير المشروع.....
- ٤٥٧ الرابعة عشرة: الطغاة فى كل عصر يزعمون أنهم أولياء النعم.....
- ٤٥٨ الخامسة عشرة: البطش سلاح الجبابرة فلا حجة عندهم ولا إقناع.....
- ٤٥٩ السادسة عشرة: الإستكراه يلغى الأختيار ويرفع الإثم والذنب.....
- ٤٦١ السابعة عشرة: الصبر على ذلك لمن قويت نفسه أولى وليس بمنسوخ.....

٤٦٢ الثامنة عشر: مسائل هامة يحتاجها الأمر الناهى
٤٦٣ حد الإستطاعة
٤٦٦ المصلحة
٤٦٩ ضوابط المصلحة فى إنكار المنكر
٤٧١ خوف الضرر على الغير
٤٧٢ الحكم بالعجز على الظن الغالب
٤٧٣ الإصلاح بالوعظ أولا
٤٧٣ هل يحق للامة الإصلاح بالقوة؟
٤٧٥ شروط إستخدام العامة للقوة
٤٧٧ التاسعة عشرة: إجابة الغلام ونصرته عندما قال: اللهم اكفينيهم بما شئت
٤٧٩ العشرون: التضحية بالنفس فى سبيل نشر الدعوة
٤٨١ الحادية والعشرون: الأرض تمتنع عن أكل جسد الغلام لأنها مأمورة
٤٨٢ الثانية والعشرون: إثبات دلالة القدرة على البعث
٤٨٣ الثالثة والعشرون: لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا
٤٨٥ الرابعة والعشرون: عظيم ثواب القتل فى سبيل الله
٤٨٧ الخامسة والعشرون: نطق الرضيع بالحق آية بينة
٤٨٨ السادسة والعشرون: وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون
٤٩٠ الخاتمة
٤٩٧ الفهرس

قصص القرآن عظات وعبر

تشمل

قصة أهل الكهف

قصة أصحاب الأخدود

قصة صاحب الجنتين

قصة ذي النون عليه السلام

قصة سليمان عليه السلام

قصة نوح عليه السلام

قصة صاحب يس

قصة قوم لوط

قصة ذي القرنين ويأجوج ومأجوج

قصة يوسف عليه السلام

قصة مؤمن آل فرعون

قصة أصحاب الأيكة

دكتور

سعيد عبد العظيم

دار الحقيقة